المُعجِب

في تلخيصِ أخبارِ المغرِب

لأبي محمّد، عبد الواحد بن عليّ المرّاكشيّ

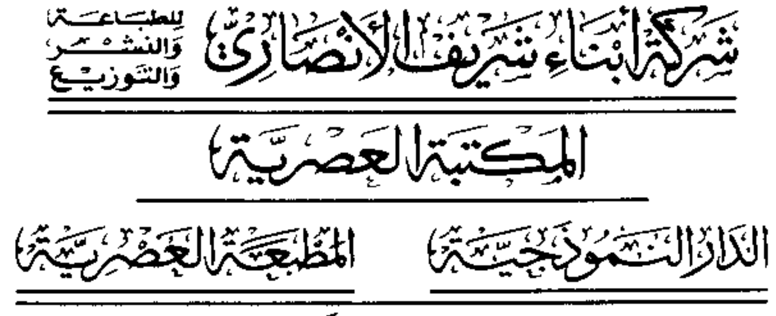
شرحه واعتنى به
الدكتور صلاح الدّين الهوّاري



الطبعة الأولى

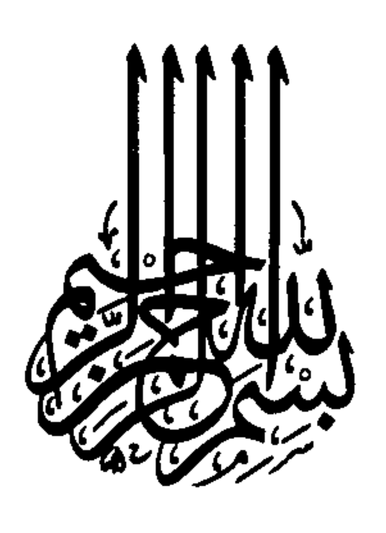
١٤٢٦ هـ - 2006 م

موقعنا على الإنترنت:
www.almaktaba-alassrya.com



بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٠٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

ISBN 9953-34-443-4





بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ازدهرت حركة التصنيف في بلاد المغرب[١] في أيام الحكم الإسلامي. واتَّجه المصنفون في كتاباتهم اتجاهاتٍ متنوعة، فمنهم من كتب في التراجم والسِّير، ومنهم من اختصَّ بالتواريخ والأحداث السياسية وأخبار الممالك والإمارات والملوك. ومنهم من صنَّف في علوم الأدب والشعر والفلسفة، وغير ذلك.

و «المعجب في تلخيص أخبار المغرب» واحد من تلك المصنفات النفيسة، التي عُنيت بأخبار البلاد المغربية وَسِيَرِ ملوكها وأُمرائها ودويلاتها، ألَّفه أبو مُحمَّد، عبد الواحد بن علي المرَّاكُشي، استجابةً لطلب أحد الأعيان الرؤساء، الذي سأله إمْلَاءَ أوراقٍ تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدوده وأقطاره، وشيءٍ من سِيَرِ ملوكه، وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن، من لدن ابتداء دولتهم، إلى حدود سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٥م، مع نبذة من سِيَرِ الذين لقيهم أو روى عنهم من الشعراء، وأهل الفضل والرواية والأدب[٢].

وقبل شروعه بتأليف الكتاب، اعتذر المرَّاكُشي لرئيسه عن أمورٍ ثلاثة:

ـ **أولها**: ضعف عبارته، وغلبة العيّ على طباعه.

ـ **وثانيها**: عدم امتلاكه لكتابٍ في هذا الِشأن يعتمد عليه، ويجعله مستنداً أو مرجعاً، على عادة المصنفين الذين سبقوه أو عاصروه.

ـ **وثالثها**: قلة محفوظاته وتَشتُّتها بسبب ازدحام همومه، وكثرة غمومه[٣].

ويشتمل هذا الكتاب على فصولٍ كثيرةٍ، بدأها المؤلف بالحديث عن جزيرة الأندلس وحدودها ومدنها وقراها. ثم انتقل إلى أحداث فَتْحها، وسِيَرِ ملوكها، ومن كان فيها من الفضلاء حتى نهاية حكم الأمويين. ثم توسَّع بذكر أخبار الأندلس بعد زوال الحكم الأموي، وأخبار من حكمها من مُتغلِّبين، ومُرابطين، ومُوحِّدين.

ويمكننا تحديد منهج المؤلف في كتابه هذا بالنقاط الآتية:

---

(١) المراد بهذا الاسم ـ وفقاً لمفهوم المسلمين القُدامى ـ بلاد المغرب العربي والأندلس.

(٢) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي: ٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤.

ـ تصديره الكتاب بمقدمة تشتمل على دوافع تأليفه، وموضوعاته، وتتضمن اعتذاراً صريحاً عن قِصَر باعه في ما طُلِب إليه تصنيفه.

ـ تقسيمه الكتاب إلى فصولٍ تفاوتت في أحجامها، فبينما كان بعضها يقصر فلا يتجاوز الصفحتين أو الثلاث صفحات، اتّسع بعضها الآخر ليتجاوز الخمسين صفحة.

ـ تحديده لسمات منهجه في جمع الأخبار، وسماع الروايات، وتدوين المشاهدات؛ فبعد اعترافه بالعجز عن كمال التأليف في مقدمة الكتاب، يقول في ختام حديثه عن دولة المصامدة: «هذا تلخيص التعريف بأخبار المصامدة، .... وإنما أوردنا من ذلك ما تدعو إليه الحاجة، وتُجشّم الضرورة من عُنِي بالأخبار إلى معرفته..... ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلا ما حققته نقلاً من كتاب، أو سماعاً من ثقةٍ عدلٍ، أو مشاهدةً بنفسي؛ هذا بعد أن تحرَّيتُ الصدق، وتوخيتُ الإنصاف في ذلك كُلِّه»(١).

ـ ذِكْرُه المصادر التي استقى منها مواد كتابه، وفي طليعتها كتاب(٢) ابن أبي نصر فَتُّوح الحُمَيْدِي(٣)، مؤلف كتاب «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس»، ثم ما وسعه حفظه من أخبار وأشعار وروايات، وما شاهده وعاينه بنفسه من وقائع وأحداث.

ـ تضمينه الكتاب مجموعة ضخمة من الأشعار، إذ كان لا يكتفي بالبيت الواحد أو البيتين، وإنما كان يُورد القصائد الطوال، التي تتجاوز القصيدة الواحدة منها الخمسين بيتاً. وكان يُعلِّل ذلك بنفاسة القصيدة، وجودة معانيها وحسن تمثيلها للمواقف والأحداث(٤).

ـ اعتذاره عن عدم إيراد بعض القصائد كاملة، وَردُّه ذلك إلى ضعف الذاكرة، وقلّة الحفظ، في مثل قوله بعد أبيات للشاعر الرمادي(٥) في مدح أبي عليّ القالي(٦): «هذا ما بَقِيَ من حِفْظِي منها»(٧).

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٣٢ ـ ٣٣٣.

(٢) يقول المراكشي: «وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلق بها، حسبما أورده أبو عبد الله محمد بن أبي نصر الحميدي، عليه عوّلت في أكثر ذلك، ومن كتابه نقلت». (المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٦٩).

(٣) هو أبو عبد الله، محمد بن أبي نصر فتوح الحميدي، الأزدي، الميورقي: مؤرخ، محدث، من أهل ميورقة. توفي سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. (بغية الملتمس، الضبي: ١١٣).

(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٧٦، حيث أورد المراكشي قصيدةً لعبد المجيد بن عبدون في مدح بني المظفر وأيامهم، بلغت خمسة وسبعين بيتاً.

(٥) هو أبو عمر، يوسف بن هارون الرمادي الشاعر، المُتوفّى سنة ٤٠٣هـ/ ١٠١٢م.

(٦) هو أبو علي، إسماعيل بن القاسم القالي، الأديب الشاعر، اللغوي، المُتوفّى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م.

(٧) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٢٥.

ـ حرصه بعد الحديث عن كبار الملوك أو الأمراء على ذكر وزرائهم، وحجّابهم، وكُتّابهم، وقضاتهم، وأبنائهم، وشعرائهم، كالذي نجده في ختام ترجمته للأمير عبد المؤمن بن علي بن علوي الكومي(١)، وختام ترجمته للأمير أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن(٢).

ـ تضمينه الكتاب بعض العبارات أو الجمل المعترضة التي كانت تجري على ألسنة الناس آنذاك، مثل: «لعنه اللّه» بعد أسماء ملوك الأعاجم المناوئين للمسلمين في الأندلس، و «رحمه اللّه» بعد أسماء أمراء المسلمين وقادتهم، و «أعادها اللّه إلى المسلمين» بعد اسم كلّ مدينة غلب عليها الفرنجة أو احتلوها، و «أسأل اللّه إبقاءه إلى أن تقوم الساعة» بعد أسماء المساجد المشهورة.

ـ إكثاره من إيراد عبارة: «كما تقدم»، أو «كما ذكرنا»، أو «فلان المتقدم الذكر» في صفحات كتابه. وسبب ذلك أنه كان يورد الخبر مجملاً في مكان من الكتاب، ثم يعود إلى ذكره مفصلاً في مكانٍ آخر منه.

ـ بالرغم من ميل المؤلف إلى التلخيص والإيجاز، فإنَّ الاستطراد والتطويل كانا يلاحقانه في غير موضع من الكتاب. مثال ذلك أنه أورد روايةً على لسان أبي مُحمَّد علي بن حزم(٣)، ثم استطرد فترجم له، وأورد مقتطفات من أشعاره، واعتذر عن ذلك بقوله: «وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل، وإن كانت قاطعةً للنسق، مزيحةً عن بعض الغرض، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم، وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء»(٤).

وكذلك فعل المرّاكُشي عندما قال في نهاية حديثه عن أستاذه أبي جعفر الحميري: «وقد امتدّ بنا عنان القول إلى ما لا حاجة لنا بأكثره؛ رغبةً في تنشيط الطالب، وإيثاراً للأحماض»(٥).

ـ إظهاره لتواضع علمي لا نجده عند الكثير من المصنفين الذين يملأون الأسماع ضجيجاً وادعاءً، بدا ذلك في قوله: «مع أن أصغر خدم مولانا لم تجر عادته بالتصنيف، ولا حدَّث قَطّ نفسه به، وإنما بعثته عليه الهمة الفخرية»(٦).

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ١٩٨ ـ ٢٠٠.
(٢) المصدر نفسه: ٢٦١ ـ ٢٦٤.
(٣) هو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، المُتوفَّى سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م.
(٤) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٤٥ ـ ٤٩.
(٥) المصدر نفسه: ٣٠٤.
(٦) المصدر نفسه: ٣٤٦.

ـ اعترافه بفضل سابقيه، من دون إغفاله لجهده الخاص، حين قال: «وهذا آخر أخبار الحسنيين وما يتعلّق بها، حسبما أورده أبو عبد اللّٰه محمد بن أبي نصر الحميدي، عليه عوَّلت في أكثر ذلك، ومن كتابه نقلت، خلا مواضع تبيَّنتُ غَلطَه فيها، أصلحتها جهد ما أقدر»[١].

ونظراً لأهمية هذا الكتاب في إغناء المكتبة العربية بما اشتمل عليه من صورٍ حيّة لحياة ملوك المغرب، وممالكهم، ومعاركهم، وإنجازاتهم العمرانية، واهتماماتهم الدينية والفكرية والأدبية والاجتماعية، وحرصاً مِنّا على بعث التراث العربي الأندلسي، وإظهار مكنوناته النفيسة، نُخْرِجُ اليوم هذا الكتاب، ونُقَدِّمُه للقرّاء بحلَّةٍ جديدةٍ، وإضافاتٍ مُهمَّةٍ في الضبط والشرح والتوثيق والفهرسة، جَهِدْنَا أن تكون على مستوى طموحاتهم وحاجاتهم وأذواقهم.

ويقوم عملنا في هذا الكتاب وفقاً للخطة الآتية:

ـ تصدير الكتاب بمقدمة تشتمل على حياة المؤلف أبي مُحمّد عبد الواحد بن علي التميمي المَرَّاكُشي، وآثاره، ومنهجه في تأليف الكتاب.

ـ ضبط أسماء الأعلام والأماكن والبلدان وغيرها.

ـ ضبط الشواهد الشعرية، وشرحها، وتعيين بحورها.

ـ التعريف بالأعلام غير المترجم لهم في الكتاب ما أمكن، مع الإحالة إلى أهم المصادر التي ترجمت لهم.

ـ تزويد الأعلام المترجم لهم بعدد من الكتب التي ترجمت لهم ما أمكن.

ـ التأكد من سلامة النص من خلال تصحيح بعض الأخطاء الإملائية والمطبعية، أو إضافة ما سقط في بعض مواضع الكتاب من كلمات أو حروف.

ـ تزويد الكتاب بمجموعة من الفهارس الفنية التي تُساعد القارىء، وتمكنه من الرجوع إلى مواد الكتاب بسهولة ويُسْرٍ.

واللّٰه سبحانه وتعالى نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن يلهمنا السداد في الفكر والقول والعمل، إنه سميع مجيب، وبالإجابة جدير.

صلاح الدين الهوّاري
١ ربيع الثاني ١٤٢٦هـ
١٠ أيار ٢٠٠٥م

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٦٩.

ترجمة المؤلف

حياته وتنقلاته:

هو أبو مُحمَّد، عبد الواحد بن عليّ التَّميميّ، المَرَّاكُشِيّ، المالِكيّ[1]: مُؤرِّخٌ، بحّاثة، وُلد بمَرَّاكُش في ربيع الآخر سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م، في أول أيام أبي يُوسُف، يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن بن عَلِيّ المُوَحِّدِيّ[2]، المنصور، صاحب بلاد المغرب. ثم انتقل إلى مدينة فاس، وهو ابن تسعة أعوام، فقرأ فيها القرآن وجوَّده ورواه عن جماعة من الأفاضل المُبرِّزين في علوم القرآن والحديث والنحو واللغة.

وحين تمَّ للمراكشي ما رغب فيه من تحصيلٍ بفاس، عاد إلى مَرَّاكُش، وظلَّ يتَردَّدُ بعد ذلك بين المدينتين، ينهل ما يُتاح له من علوم ومعارف وفنون.

ثم رغب في السفر إلى الأندلس، فعبر إليها في أوائل سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٧م، وأدرك جماعةً من علمائها وفضلائها، لكنه لم يُحصِّل منهم كما يقول «إلّا معرفة أسمائهم ومواليدهم ووفياتهم وعلومهم»[3].

ومن الذين لقيهم المَرَّاكُشي، وتوثقت صِلاته بهم من أدباء عصره: أبو بَكْر بن زُهْر[4]، وأديب آخر هو أحد أنجال ابن الطفيل الفيلسوف الأندلسي المشهور.

وعندما نزل إشْبِيليَّة، قَدَّمَهُ صديقٌ له يُدعى محمد بن الفضل إلى واليها إبراهيم بن أبي يعقوب يوسف، أخي الخليفة المُوحِّدي الناصر، فحظي عنده، وأصبح من أَصحابه وجُلَّاسه[5].

وعن رأفة هذا الأمير به، وتقريبه إياه، يقول المرَّاكُشي: «كان لي ـ رحمه اللَّه ـ مُحِبًّا، وبي حَفِيًّا؛ وَصَلتْ إليّ منه أموالٌ وخِلَعٌ جمَّة غير مَرَّةٍ». وعن بدء علاقته به

---

(١) معجم المؤلفين، عمر كحالة: ٦/ ٢١٠، الأعلام، خير الدين الزركلي: ٤/ ١٧٦.

(٢) توفي سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م. وستأتي ترجمته وافيةً في هذا الكتاب.

(٣) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المراكشي: ٣٦٠.

(٤) هو أبو بكر، محمد بن عبد الملك بن زهر الإيادي: من نوابغ الطب والأدب في الأندلس. وُلد بإشبيلية، وتوفي سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ٢٥٠).

(٥) تاريخ الفكر الأندلسي، آنخل بلانثيا: ٢٤٨.

وما تلاها من محبةٍ وتلازم، يقول: «لم أعرفه أيام وزارته، وإنما كانت معرفتي إياه حين ولّوه إشبيلية سنة ٦٠٥هـ، .....ثم علت حالي عنده بعد ذلك، إلى أن يقول لي في أكثر الأوقات: والله إني لأشتاقك إذا غبت عنّي أشدّ الشوق وأصدقه»[١].

ومن الذين أخلصوا له الودّ من أهل القضاء: أبو عمران، موسى بن عيسى بن عمران القاضي، وفيه يقول: «وأبو عمران هذا صديق لي، لم أرَ صديقاً لم تُغيُّره الولاية غيره. ولم يزل يعاملني بما كان يعاملني به قبل ذلك، لم ينقصني شيئاً من برّه. ما لقيته قطُّ في مركبه إلا سلّم عليّ مبتدئاً، وجدّد لي بِرًّا»[٢].

وطمحت نفس المَرَّاكُشي إلى مصر، فسافر إليها سنة ٦١٣هـ/ ١٢٢٧م، والتقى بعض علمائها. ثم انتقل إلى مكّة المكرّمة، فأدّى فريضة الحجّ سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م. ثم تجوّل بعد ذلك في بعض بلدان المشرق[٣].

وكانت وفاته سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٥٠م.

آثاره:

لم يذكر الذين ترجموا لأبي مُحمَّد غير كتاب واحد هو: «المعجب في تلخيص أخبار المغرب»، الذي ألّفه استجابة لطلب واحدٍ من أعيان عصره.

وقد فَرَغَ المرَّاكُشي من تأليف هذا الكتاب سنة ٦٢٠هـ/ ١٢٢٤م. ونشره دوزي سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٤٧م، وأعاد طبعه سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م، وترجمه فانيان إلى الفرنسية، ثم نشر الترجمة في الجزائر سنة ١٣١٠هـ/ ١٨٩٣م.

---

(١) المعجب في تلخيص أخبار المغرب: ٣٠٨ ـ ٣٠٩.

(٢) المصدر نفسه: ٣١٣.

(٣) معجم المؤلفين، كحالة: ٦/ ٢١٠؛ الأعلام، الزركلي: ٤/ ١٧٦.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المؤلف

الحمد للّه مُفني الأمم، وباعث الرِّمم[١]، وواهب الحِكَم، [ذي] البقاء والقِدَم[٢]، الذي لا مطمع في إدراكه لثواقب الأذهان[٣] ونوافذ الهمم. أحمده على ما علَّم وألهم، وسوّغ وأنعم. وصلّى اللّه على كاشفِ الظُّلم، ورافع التُّهم، ومُوضحِ الطريقِ الأَمَم[٤]، المخصوصِ بجوامع الكَلِم[٥]، والمُبتعثِ إلى جميع العرب والعجم، وعلى آله وصحبه أهل الفضل والكرم، وسلَّم عليه وعليهم وشرَّفَ وَعظَّم.

وبعد ـ أيها السيد الذي تَوالت عليَّ نِعمُه، وأخذ بِضَبْعي[٦] من حَضِيضَي الفقر والخمول اعتناؤه وكَرمُه، وقضى إحسانُه إليّ ومحبتُه التي جُبِلت[٧] عليها بأن ألتزم من برّه وطاعته ما أنا مُلتزِمُه ـ فإنك سألتني ـ بوّأك اللّه أعلى الرتب، كما عَمّر بك أندية الأدب، ومنحك من سعادتي الدنيا والآخرة أوفر القِسَم[٨]، كما جمع لك فَضيلتي التدبير والقلم ـ إملاءَ أوراقٍ تشتمل على بعض أخبار المغرب وهيئته وحدود أقطاره، وشيء من سِيَر ملوكه، وخصوصاً ملوك المصامدة بني عبد المؤمن، من لَدُن ابتداءِ دولتهم إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وأن ينضافَ إلى ذلك نبذة من ذكر من لقيتُه، أو لقيتُ من لَقِيَهُ، أو رَوَيْتُ عنه، بوجهٍ ما من وجوه الرواية، من الشعراء والعلماء وأنواع أهل الفضل؛ فلم أر بُدّاً من إسعافك والمسارعة إلى ما فيه رضاك؛ إذ هي الغاية التي أجري إليها، والبغية التي أثابر أبداً عليها؛ ولوجوب طاعتك عليَّ من وجوهٍ يكثر تَعدادُها؛ فاستخرت اللّه عزَّ وجلَّ فيما ندبتني[٩] إليه، واستعنته واعتمدت في كل ذلك عليه؛ فهو الموئل والملجأ،

---

(١) الرِّمَمُ: جمع الرِّمَّة: العظام البالية.

(٢) القِدَمُ: الوجود من غير ابتداء.

(٣) ذهنٌ ثاقبٌ: مُتَّقِدٌ، يقال: ثقبت النار ثقوباً: اتَّقدت و ـ الكوكب: أضاء.

(٤) الطريق الأَمَم: الواضحُ، البيِّن، القريب، الوَسَط.

(٥) الكلام الجامع: الذي قلَّت ألفاظه وكثرت معانيه.

(٦) الضَّبْعُ: ما بين الإبط إلى نصف العَضُد من أعلاها، وهما ضَبْعَان.

(٧) جُبِلَ فلان: خُلِقَ، يُقال: جَبَل اللّه الخَلْقَ جَبْلاً: خَلَقَهُم، ويقال: جَبَلَهُ على الشيء: طبعه.

(٨) القِسَمُ: جمع القِسْمَة: النَّصيب.

(٩) نَدَب فلاناً إلى الشيء: دعاه وَوجَّهَهُ.

وهو حَسْبُنا ونِعْمَ الوكيل.

هذا مع أني أعتذر إلى مولانا ـ فَسَحَ اللَّه في مُدَّتِه ـ من تقصيرٍ إنْ وقع، بثلاثة أوجه من الأعذار:

فأولها ضعف عبارة المملوك وغَلَبَةُ العِيِّ[١] على طباعه، فمهما وقع في هذا الإملاء من فتور لفظٍ، أو إخلالٍ بسردٍ، فهو خليق بذلك.

والوجه الثاني أنه لم يصحبني من كتب هذا الشأن شيء أعتمد عليه وأجعله مستنداً كما جرت عادة المصنفين. وأما دولة المصامدة خصوصاً فلم يقع إليَّ لأحدٍ فيها تأليفٌ أصلاً، خلا أني سمعت أن بعض أصحابنا جمع أخبارها واعتنى بِسِيَرِها، وهذا المجموع لا أعرفه إلا سماعاً.

والوجه الثالث أن محفوظاتي في هذا الوقت على غاية الاختلال والتشتُّت؛ أوجبتْ ذلك همومٌ تزدحم على الخاطر، وغمومٌ[٢] تستغرق الفكر، فرغبة المملوك الأصغر إجراء مولانا إياه على جميل عادته وحميد خلقه من التسامح والتغاضي، لا زال مجده العالي يرفع الهمم، ويعقد الذمم، ويوصل النعم، ويعمر ربوع الفضل والكرم.

(١) العِيُّ: العجز عن التعبير اللفظي بما يفيد المعنى المقصود، أو عدم الاهتداء لوجه المراد.
(٢) الغُمُوم: جمع الغَمّ: الكَرْبُ أو الحزن.

فصل

في ذكر جزيرة الأندلس وحدودها

فأول ما يقع الابتداء به ذكر جزيرة الأندلس[١] وتحديدها والتعريف بمدنها ونبذ من أخبارها وسِيَرِ ملوكها، من لَدُن فتحها إلى وقتنا هذا وهو سنة ٦٢١؛ إذ هي كانت مُعتَمَدَ المغرب الأقصى، والمعتبرة منه، والمنظورَ إليها فيه. وهي كانت كرسيَّ المملكة، ومقرّ التدبير، وأمّ قُرَى تلك البلاد؛ لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى أن تغلب عليها يُوسُف بن تَاشُفِين اللَّمتوني[٢]، فصارت إذ ذاك تبعاً لِمرَّاكُش[٣] من بلاد العُدْوَة[٤]، ثم تغلَّب عليها المصامدة بعده، فاستمرَّ الأمر على ذلك إلى وقتنا هذا، فأقول وبالله التوفيق:

أما حدود جزيرة الأندلس فإن حَدَّها الجنوبي منتهى الخليج الرومي الخارج من بحر مانطس، وهو البحر الرومي[٥] مما يقابل طَنْجَة[٦]، في موضع يُعرف بالزُّقاق ـ سعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً ـ وهذا الخليج هو ملتقى البحرين، أعني بحر مانطس وبحر أُقيانس[٧].

---

(١) الجزيرة: الأرض التي يُحْدِقُ بها الماء، أي يُحيط بها من جميع جهاتها، وليست الأندلس كذلك، لأنها تَتَّصل بالبَرِّ من جهة الشرق. وقد سُمِّيت جزيرة على المجاز، من باب تغليب الكلّ على الجزء.

(٢) هو أبو يعقوب، يوسف بن تاشفين بن إبراهيم المصالي الصنهاجي اللمتوني الحميري: سلطان المغرب الأقصى، وملك الملثمين، وأول من لُقِّب بأمير المسلمين في المغرب. بنى مدينة مراكش سنة ٤٦٥هـ. ثم شمل سلطانه المغربين الأقصى والأوسط وجزيرة الأندلس بأكملها. توفي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٦م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ٢٢٢).

(٣) مراكش: مدينة عظيمة بالمغرب، بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر. وبينها وبين جبل درن ثلاثة فراسخ. (معجم البلدان، الحموي: ٥/ ٩٤).

(٤) العدوة لغةً: شاطىء الوادي، أو المكان المتباعد، والمراد بها هنا: الشاطىء الإفريقي، أو بلاد المغرب الأقصى.

(٥) البحر الرومي: هو البحر الأبيض المتوسط.

(٦) طنجة: مدينة على ساحل بحر المغرب، مقابل الجزيرة الخضراء، وبينها وبين سبتة مسيرة يوم واحد. (معجم البلدان، الحموي: ٤/ ٤٣).

(٧) أُقيانس: الأوقيانوس، أو المحيط الأطلسي.

وحَدّاها الشمالي والمغربي البحر الأعظم، وهو بحر أُقيانس المعروف عندنا ببحر الظُّلمة، وَحدُّها المشرقي الجبل الذي فيه هيكل الزهرة الواصل ما بين البحرين: بحر الروم وهو مانطس، والبحر الأعظم. ومسافة ما بين البحرين في هذا الجبل قريب من ثلاث مراحل، وهو الحدُّ الأصغر من حدود الأندلس. وحدّاها الأكبران الجنوبي والشمالي مسافةُ كلّ واحدٍ منهما نحو من ثلاثين مرحلة. وهذا الجبل الذي ذكرنا فيه هيكلَ الزهرة الذي هو الحد المشرقي من الأندلس، هو الحاجز ما بين بلاد الأندلس وبين بلاد إفرنسة من الأرض الكبيرة[١]، أرض الروم التي هي بلاد إفرنجة العظمى.

والأندلس آخر المعمور في المغرب[٢]، لأنها كما ذكرنا منتهية إلى بحر أقيانس الذي لا عمارة وراءه.

ومسافة ما بين طُلَيْطُلة التي هي قريبة من وسط الأندلس، ومدينة رومية قاعدة الأرض الكبيرة، قريب من أربعين مرحلة، ووسط الأندلس كما ذكرنا مدينة طُلَيْطُلَة العتيقة، التي كانت قاعدة القوطا من قبائل الإفرنج، ثم ملكها المسلمون زمان الفتح على ما سيأتي بيانه، وعرضها تسعٌ وثلاثون درجة وخمسون دقيقة، وطولها ثمانٍ وعشرون درجة بالتقريب، فصارت بذلك قريباً من وسط الإقليم الخامس.

وأقلُّ بلاد الأندلس عرضاً المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، على البحر الجنوبي منها، وعرضها ستٌّ وثلاثون درجة؛ وأكثر مدنها عرضاً بعض المدائن التي على ساحلها الشمالي، وعرض ذلك الموضع ثلاثٌ وأربعون درجة.

فتبين بما ذكرنا أن معظم الأندلس في الإقليم الخامس أميلُ إلى الشمال؛ فلذلك اشتد بردها وطالت مدة الشتاء فيها وعظمت جسوم أهل ذلك الميل وابيضت ألوانهم وكانت أذهانهم إلى الغِلَظ ما هي، فَنَبتْ[٣] عن كثيرٍ من الحكمة.

وطائفة من الأندلس في الإقليم الرابع، كإشبيليَّةَ، ومَالقَة، وقُرْطُبَةَ وغَرْنَاطَة، والمَرِيَّة ومُرْسِيَة، فهذه البلاد التي ذكرنا في الإقليم الرابع أعدلُ هواءً وأطيبُ أرضاً وأعذب مياهاً من البلاد التي في الإقليم الخامس، وأهلها أحسن ألواناً وأجمل صوراً وأفصح لغةً من أولئك؛ إذ كان للميول والسُّموت في اللغات تأثير بَيِّنٌ لمن استقرأ ذلك وفهم علته.

وجملة مدن الأندلس التي هي أمهات قراها ومراكز أعمالها ومواضعُ مخاطبات

---

(١) الأرض الكبيرة: هي عند قدماء العرب: بلاد الفرنجة التي تلي الأندلس من جهة الشرق.

(٢) هذا مبلغُ ظَنِّ العرب آنذاك، قبل اكتشاف القارة الأمريكية.

(٣) نبا الشيء نُبُوّاً ونَبْوَةً: لم يَسْتوِ في مكانه المناسب له، ونبا السيف عن الضريبة: لم يُصبها، ونبا البصر عن الشيء: أعرض عنه ونفر.

أُولِي الأمر منها: أُولاها في الحد الشمالي: مدينة شِلْب، ثم مدينة إشبيليَّة، ثم قُرطُبَة، ثم جَيَّان، ثم أَغِرناطة[1]، ثم المَرِيَّة، ثم مُرْسِيَة، ثم بَلَنْسِيَة، ثم مَالقَة، وهي على البحر الرومي.

فالذي على البحر الأعظم من هذه المدائن: شِلْب، وإشبيليَّة، وبينهما قريب من خمس مراحل.

والذي على البحر الرومي: المدينةُ المعروفة بالجزيرة الخضراء، وهي من أعمال إشبيليَّة؛ ثم مَالقَة، وهي مستقلة، ثم المَرِيَّة، ثم دانية؛ هذه كلها على البحر الرومي.

ثم سائر ما ذكرنا من المدن ليست على ساحل.

ولما استقر أمر المسلمين بالأندلس في غُرة المائة الثانية، تخيروا مدينة قُرْطُبَة فجعلوها كُرْسيَّ المملكة ومقرّ الإمارة، فلم تزل على ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية بالأندلس، فتغلب على كل جهة من الجزيرة متغلِّبٌ على ما سيأتي بيانه.

وهذه المدن التي ذكرتُ هي التي يملكها المسلمون اليوم، وقد كانوا يملكون قبلها مدناً كثيرة لم أذكرها في هذا الموضع؛ إلا أن ذكرها سيرد فيما يأتي من تفصيل أخبار الأندلس، تعرف ذلك بقولي: «أعادها اللّه للمسلمين».

فهذه جملة من أخبار الأندلس وحدودها وبلادها الكائنة بأيدي المسلمين.

---

(١) أغرناطة: أي غَرْنَاطَة، وهي آخر مدينة أندلسية انتزعها الإسبان من العرب.

ذكر فتح جزيرة الأندلس ولمع من تفصيل أخبارها وسِيَرِ ملوكها ومن كان فيها من الفضلاء منها ومن غيرها

ثم نعود إلى افتتاحها فنقول والله الموفق:

افتتح المسلمون جزيرة الأندلس في شهر رمضان سنة ٩٢ من الهجرة، وكان فتحها على يدي طارق[١]، قيل ابن زياد، وقيل ابن عمرو، وكان والياً على طَنْجة، مدينةٍ من المدن المتصلة بِبرِّ القَيْرَوان[٢] في أقصى المغرب، بينها وبين الأندلس الخليج المذكور المعروف بالزُّقاق، وبالمجاز. رَتّبه مُوسَى بن نُصَيْر[٣] أمير القَيْرَوان. وقيل: إن مَرْوَان بن مُوسَى بن نُصَيْر خلّف طارقاً هناك على العساكر، وانصرف إلى أبيه لأمرٍ عَرَض له، فركب طارق البحر إلى الأندلس من جهة مجاز الجزيرة الخضراء، منتهزاً لفرصة أمكنته؛ وذلك أن الذي كان يملك ساحل الجزيرة الخضراء وأعمالها من الروم خَطَب إلى الملك الأعظم ابنته، فأغضب ذلك الملك، ونال منه وتوعَّده، فلما بلغه ذلك جمع جموعاً عظيمة وخرج يقصد بلد الملك، فبلغ طارقاً خلوُّ تلك الجهة، فهذه الفرصة التي انتهزها. . .

وقيل: إن العِلْجَ[٤] كتب إليه بالعبور لسبب أنا ذاكره، وهو أن لُذْرِيقَ مَلِك الجزيرة ـ لعنه الله ـ كان له رسمٌ: يُوجِّه إليه أعيان قواده و[أمراء دولته] بناتهم، فيربيهن عنده في قصوره ويؤدبهن بالآداب الملوكية حسبما كانوا يرونه. . . .؛ فإذا بلغت الجارية منهن وحسُن أَدَبُها، زوّجها في قصره لمن يرى أنه كفءُ أبيها. فوجّه

---

(١) هو طارق بن زياد الليثي بالولاء: أصله من البربر. قائدٌ فاتحٌ مشهورٌ. توفي سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٢١٧).

(٢) القيروان: مدينة عظيمة بالمغرب، بناها عقبة بن نافع سنة ٤٥هـ، وجعلها حصناً لجيشه. (معجم البلدان، الحموي: ٤/ ٤٢٠).

(٣) هو أبو عبد الرحمن، موسى بن نصير بن عبد الرحمن بن زيد اللخمي بالولاء: قائد فاتح، أصله من وادي القرى بالحجاز. توفي سنة ٩٧هـ/ ٧١٥م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٣١٧).

(٤) العِلْجُ: الكافر، أو الرجل القويّ الضخم من كُفّار العجم، وقيل: كلّ صلبٍ شديدٍ: عِلْج، والجمع: عُلُوج.

إليه صاحبُ الجزيرة الخضراء وأعمالها بابنته على الرسم المذكور، فكانت عنده إلى أن بلغت مبلغ النساء، فرآها يوماً فأعجبته، فدعاها فأبت عليه، وقالت: لا واللّه حتى تُحضِرَ الملوكَ والقواد وأعيانَ البطارقة وتتزوَّجني، هذا بعد مشورة أبي! فَغَلَبَتْهُ نفسه واغتصبها على نفسها، فكتبت إلى أبيها تُعلمه بذلك؛ فهذا كان السببَ الذي بعثه على مكاتبة طارق والمسلمين، فكان الفتح، فاللّه أعلم أيُّ ذلك كان.

فأول موضع نزله فيما يقال منها: المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء اليوم، نزلها قبيل الفجر، فَصلَّى بها الصبح بموضع منها وعقد الرايات لأصحابه، فَبُنِي بعد ذلك هناك مسجدٌ، عُرِفَ بمسجد الرايات، وهو باقٍ إلى وقتنا هذا، أسأل اللّه إبقاءه إلى أن تقوم الساعة. . .

ثم دخل طارق هذا الأندلس وأمعن فيها واستظهر[1] على العدو بها، وكتب إلى مُوسَى بن نُصَيْر مُولِّيه بخبر الفتح وَغلبَتِهِ على ما غلَب عليه من بلاد الأندلس وما حصل له من الغنائم، فحسده مُوسَى على الانفراد بذلك، وكتب إلى الوليد بن عبد الملك بن مَرْوَان[2] يُعلمه بالفتح وينسبه إلى نفسه، وكتب إلى طارق يتوعده، إذ دخلها بغير إذنه، ويأمره ألا يتجاوز مكانه الذي ينتهي إليه الكتاب فيه حتى يلحقَ به، وخرج متوجهاً إلى الأندلس، واستخلف على القَيْرَوان ابنه عبد اللّه، وذلك في رجب من سنة ٩٣. وخرج معه حَبيب بن أبي عَبْدَة الفِهْرِيّ[3] ووجوه العرب والموالي وعرفاء البربر في عسكر ضخم، ووصل من جهة المجاز إلى الأندلس وقد استولى طارق على قُرْطُبَة دار المملكة، وقتل لذريق الملك ـ لعنه اللّه ـ بالأندلس، فتلقاه طارق وترضَّاه، ورام أن يستلَّ ما في نفسه من الحسد له، وقال له: إنما أنا مولاك ومِن قِبلك، وهذا الفتح لك وبسببك؛ وحمل طارقٌ إليه ما كان غَنم من الأموال؛ فلذلك نُسب الفتح إلى مُوسَى بن نُصَيْر، لأن طارقاً من قِبله، ولأنه أتم من الفتح ما كان بقي على مُوسَى.

وأَقام مُوسَى بالأندلس مجاهداً وجامعاً للأموال ومرتباً للأمور بقية سنة ٩٣ وسنة ٩٤ وأشهراً من سنة خمس، وقبض على طارق، ثم استخلَف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن مُوسَى[4]، وترك معه من العساكر ووجوه القبائل من يقوم بحماية البلاد

(١) استظهر على عَدُوِّه: غلبه.

(٢) هو أبو العباس، الوليد بن عبد الملك بن مروان: من خلفاء الدولة الأموية في الشام. ولي الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٨٦هـ. وتوفي سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ١٢١).

(٣) في رواية: «حبيب بن أبي عبيدة».

(٤) هو عبد العزيز بن موسى بن نصير اللخمي بالولاء: أمير شجاع فاتح. توفي سنة ٩٧هـ/ ٦١٦م. (بغية الملتمس، الضبي: ٣٧٣).

وسدِّ الثغور وجهاد العدو، ورجع إلى القَيْرَوان، ثم سار منها بما حَصَل له من الغنائم وأعدَّه من الهدايا إلى الوليد بن عبد الملك ـ وكان مما وَجده بمدينة طُلَيْطُلَة حين فَتَحها مائدةَ سُلَيْمَان بنِ داود عليهما السلام، فيقال: إنها طوق ذهب وطوق فضة، مكللة باللؤلؤ والياقوت ـ ومعه ـ فيما يقال ـ طارق، فمات الوليد وقد وصل موسى إلى طبرية في سنة ٩٦، فحمل ما كان معه إلى سُلَيْمَان بن عَبْد الملك[١]؛ ويقال: إنه وصل وأدرك الوليد حيًا، فاللَّه أعلم.

وأقام عبد العزيز بن مُوسَى بن نُصَيْر أميراً على الأندلس إلى أن ثار عليه من الجند جماعة، فيهم حبيب بن أبي عبدة الفِهْرِيّ، وزياد بن النابغة التميمي، فقتله بعضهم، وخرجوا برأسه إلى سُليمان بن عبد الملك ـ وذلك في صدر سنة ٩٨ ـ بعد أن أمّروا على الأندلس أيوب ابن أخت مُوسَى بن نُصَيْر. ويقال إنهم كتبوا إلى سُليمان بما أنكروا من أمره، فأمرهم بما فعلوه، فاللَّه أعلم.

ثم اختلف الأمر هنالك، ومكث أهل الأندلس بعد ذلك زماناً لا يجمعهم والٍ، ثم ولِيَ عليها السَّمْحُ بن مالك الخَوْلاني[٢] قبل المائة، واجتمع عليه الناس، ثم ولي عليها الغَمْرُ بن عَبْد الرَّحْمَن بن عبد اللَّه، ثم وليها عَنْبَسَة بن سُحَيْم الكَلْبِيّ[٣]، وعُزِل الغَمْرُ بن عَبْد الرَّحْمَن، ثم وليها عبد الرَّحْمَن بن عبد اللَّه العكيّ نحواً من العشر ومائة، وكان رجلاً صالحاً، ثم وليها عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ[٤]، ثم عُقْبَة بن الحجَّاج[٥]، فهلك عقبةُ بالأندلس، ورُدَّ عبد الملك بن قَطَن، ثم جاء بَلْجُ بن بِشْر[٦] فادَّعى ولايتها من قبل هِشَام بن عبد الملك[٧]، وشهد له بعض من

---

(١) هو أبو أيوب، سليمان بن عبد الملك بن مروان: خليفة أموي، ولد في دمشق، وبويع بالخلافة يوم وفاة أخيه الوليد، وتوفي سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ١٣٠).

(٢) أمير من بني خولان، من قضاعة. استعمله عمر بن عبد العزيز على الأندلس، واستشهد غازياً بأرض الفرنجة سنة ١٠٢هـ/ ٧٢١م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٢٢٠).

(٣) أمير فاتح شجاع. ولي الأندلس في عهد هشام بن عبد الملك سنة ١٠٣هـ، فأوغل في غزو الفرنجة. توفي سنة ١٠٧هـ/ ٧٢٥م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٣٠١).

(٤) هو عبد الملك بن قطن بن نهشل بن عبد اللَّه الفهري: أمير قائد شجاع. ولي الأندلس سنة ١١٤هـ/ ٧٣٣م، وتوفي سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م. (بغية الملتمس، الضبي: ٣٦٩).

(٥) هو عقبة بن الحجاج السلولي: أمير شجاع فاتح. ولي الأندلس من قِبَل عبد اللَّه بن الحبحاب أمير إفريقية، وتوفي سنة ١٢٣هـ/ ٧٤١م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٣٠١).

(٦) هو بلج بن بشر بن عياض القشيري: قائد دمشقي حازم شجاع. استبدَّ بالأندلس بعد قتل أميرها، وتوفي سنة ١٢٤هـ/ ٧٤٢م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ١٧٠).

(٧) هو هشام بن عبد الملك بن مروان: من خلفاء الدولة الأموية في الشام. ولي الخلافة بعد وفاة=

كان معه، ووقعت فتن من أجل ذلك، وافترق أهل الأندلس فيها على أربعة أمراء، حتى أُرسل إليهم والياً أبو الخطار حُسَام بن ضِرَار الكلبي[١]، فحسم مواد الفتن، وجمعهم على الطاعة بعد الفرقة. وفي تقديم بعض هؤلاء الأمراء على بعض اختلاف، إلا أن هؤلاء المذكورين كانوا أمراءها وولاة الحروب فيها أيام بني أمية قبل ذهاب دولتهم في المشرق.

= أخيه يزيد، وعُرِف بحسن السياسة والتدبير. توفي سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م. (الأعلام، الزركلي: ٨/٨٦).

(١) هو أبو الخطار، حُسَام بن ضرار بن سلامان بن خيثم بن ربيعة الكلبي الربعي: أمير شجاع حازم. ولاه حنظلة بن سفيان أمير إفريقية إمارة الأندلس سنة ١٢٥هـ/٧٤٣م، فأقام بقرطبة، وتوفي سنة ١٣٠هـ/٧٤٨م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ١٨٨).

ذكر من دخل الأندلس من التابعين

وأنا ذاكر هاهنا من دخل الأندلس من التابعين للجهاد والرباط:

فمنهم مُحمَّد بن أوس بن ثابِت الأنصاريّ، يروي عن أبي هُرَيْرَة[١].

ومنهم حَنَش بن عَبْد اللَّه الصَّنعانيّ[٢]، يروي عن عليّ بن أبي طالب، وفضالة بن عُبَيْد[٣].

ومنهم عَبْد الرَّحْمَن بن عَبْد اللَّه الغَافِقِيّ[٤]، يروي عن عَبْد اللَّه بن عُمَر بن الخطَّاب[٥].

ومنهم يَزيد بن قَاسِط، وقيل: ابن قَسِيط، السَّكْسكيّ المصريّ، يروي عن عَبْد اللَّه بن عَمْرُو بن العَاص.

ومنهم مُوسَى بن نُصَيْر الذي يُنسب الفتح إليه، يروي عن تَميم الداريّ[٦].

---

(١) هو عبد الرحمن بن صخر الدوسي المُلقَّب بأبي هريرة: صحابي، كان أكثر الصحابة حفظاً للحديث النبوي، أسلم سنة ٧هـ/ ٦٢٩م، وتوفي سنة ٥٩هـ/ ٦٧٩م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٣٠٨).

(٢) هو حنش بن عبد اللَّه بن عمرو بن حنظلة الصنعاني: تابعيّ، قائد شجاع. بنى جامع سرقسطة بالأندلس. وتوفي سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ١٨٩).

(٣) هو أبو محمد، فضالة بن عبيد بن نافذ بن قيس الأنصاري الأوسي: صحابي، من الذين بايعوا النبي ﷺ تحت الشجرة. توفي سنة ٥٣هـ/ ٦٧٣م. (الأعلام الزركلي: ٥/ ١٤٦).

(٤) هو أبو سعيد، عبد الرحمن بن عبد اللَّه بن بشر بن الصارم الغافقي: من كبار القادة الغزاة الشجعان. أصله من غافق باليمن. توفي سنة ١١٤هـ/ ٧٣٢م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٢٥٣).

(٥) هو أبو عبد الرحمن، عبد اللَّه بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي: صحابي من أشراف قريش. نشأ في الإسلام، وشهد فتح مكة. توفي سنة ٧٣هـ/ ٦٩٢م. (الأعلام، الزركلي:/ ١٠٨).

(٦) هو أبو رقية، تميم بن أوس بن خارجة الداري: صحابي، نسبته إلى الدار بن هانيء اللخمي. توفي سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م. (الأعلام، الزركلي: ٢/ ٨٧).

فصل

[في فضل المغرب]

وقد جاء في فضل المغرب غير حديث، فمن ذلك ما حدثني الفقيه الإمام المتقن المتفنن أبو عبد اللَّه مُحَمَّد بن أبي الفَضْل الشَّيْباني سماعاً عليه بِمكَّة في شهر رمضان من سنة ٦٢٠ قال: حدثني المؤيد بن عبد اللَّه الطوسيّ قراءةً عليه بنيسابور قال: حدثنا الإمام كمال الدين مُحمَّد بن أحمد بن صَاعِد القراوي قراءةً عليه قال: حدثنا ابن عبد الغافر الفارسيّ: حدثنا مُحمَّد بن عِيسَى بن عَمْرَويْه الجلودي: حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن سُفْيَان: حدثنا أبو الحسين مُسْلِم بن الحجَّاج القشيري النيسابوري[١] قال: حدثنا يَحْيَى بن يَحْيَى عن هِشَام بن بِشْر الواسطي عن دَاود بن أبي هند بن أبي عثمان النهديّ عن سَعْد بن أبي وقَّاص[٢] أن رسول اللَّه ﷺ قال:

«لا يَزالُ أهلُ المَغْربِ ظَاهِرين على الحَقّ لا يَضُرُّهم مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ».

ومن فضل الأندلس أنه لم يُذكر قطُّ أحدٌ على منابرها من السلف إلّا بِخَيْر.

وما زالت الولاة بالأندلس تليها من قِبل بني أمية أو من قِبل من يقيمونه بالقَيْرَوان أو بمصر، فلما اضطرب أمرهم في سنة ١٢٦هـ بقتل الوليد بن يزيد بن عبد الملك[٣]، اشتغلوا عن مراعاة أقاصي البلاد، ووقع الاضطراب بإفريقية والاختلاف بالأندلس أيضاً بين القبائل، ثم اتفقوا بالأندلس على تقديم قرشي يجمع

(١) هو أبو الحسين، مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري: حافظ، من أئمة المحدثين. ولد بنيسابور، وتوفي فيها سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م. من آثاره: «الجامع الصحيح» في الحديث. (الأعلام، الزركلي: ٧/ ٢٢١).

(٢) هو أبو إسحاق، سعد بن أبي وقاص القرشي الزهري: صحابي، أمير، وأحد الستة الذين اختارهم عمر للشورى، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. توفي سنة ٥٥هـ/ ٦٧٥م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٨٧).

(٣) هو أبو العباس، الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان: من خلفاء الدولة الأموية في الشام. توفي سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ١٢٢).

الكلمة إلى أن تستقر الأمور بالشام لمن يخاطَب، ففعلوا، وقدموا يُوسُف بن عبد الرَّحْمَن الفِهْرِيّ[1]، فسكنت به الأمور، واتفقت عليه القلوب؛ واتصلت إمارته إلى سنة ١٣٨ بعد ذهاب دولة بني أمية بِستٍّ سنين.

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبدة بن عقبة بن نافع الفهري القرشي: قائد شجاع داهية. ولد في القيروان، وتوفي سنة ١٤٢هـ/ ٧٥٩م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ٢٣٦).

ذكر خَبَر دُخُول عَبْدِ الرَّحْمَن بن مُعَاوِية(*) الأندلس

وفي هذه السنة دخل عَبْد الرَّحْمَن بن مُعَاوية بن هِشَام بن عَبْدِ المَلِك بن مَرْوَان الأندلس، الملقب بالداخل؛ فقامت معه اليمانية، وحارب يُوسُفَ بن عَبْد الرَّحْمَن بن أبي عَبْدَة بن عُقْبَة بن نَافِع الفِهْرِيّ الوالي على الأندلس المذكور آنفاً، فهزمه؛ واستولى عَبْدُ الرَّحْمَن على قُرْطُبَة دار الملك، وكان دخوله إياها يوم الأضحى من السنة المذكورة، فاتصلت ولايته إلى أن مات سنة ١٧٢.

وكان مولده بالشام سنة ١١٣، أمه أم ولدٍ اسمُها «راح»، ويكنى أبا المُطرِّف. دخل الأندلس في ذي القعدة، واستولى على قُرْطُبَة دار مُلكها في التاريخ المذكور؛ وذلك أنه هرب من الشام لما انتشرت دولة بني العباس، فلم يزل مُسْتَتِراً ينتقل في بلاد المغرب حتى دخل الأندلس، ودخل حين دخلها طريداً وحيداً لا أهل له ولا مال، فلم يزل يُصرِّف حِيَله ويسمو بِهمته والقدَرُ مع ذلك يوافقه، إلى أن احتوى على مُلكها، ومَلَكَ بعض بلاد العُدوة. وكان أبو جَعْفَر المَنْصُور[1] إذا ذُكر عنده قال: «ذاك صقر قريش».

وكان عبد الرَّحْمَن بن مُعَاوية من أهل العلم، وعلى سيرةٍ جميلةٍ من العدل؛ ومن قضاته مُعاوية بن صَالح الحَضْرَمِيّ الحِمْصيّ[2]، وله أدب وشعر، ومما أَنشد، وقاله يتشوق إلى معاهده بالشام، قوله: [من الخفيف]

أيها الرَّاكِبُ المُيَمِّمُ أَرْضِي ... أَقْرِ مِنْ بَعْضِيَ السَّلامَ لِبَعْضِي[3]

(*) ترجمته في الكامل لابن الأثير: ٥/ ١٨٢؛ الأعلام للزركلي: ٣/ ٣٣٨.

(١) هو أبو جعفر، عبد الله بن محمد بن علي بن العباس، الملقب بالمنصور: ثاني خلفاء الدولة العباسية في العراق، وأول من عُني بالعلوم من الخلفاء. توفي سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٥م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ١١٧).

(٢) هو معاوية بن صالح بن حُدير الحضرمي الحمصي: قاض، من أعلام رجال الحديث. أصله من حضرموت، ونشأ بحمص، وولي قضاء الجماعة بالأندلس. توفي سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٣١٨؛ تاريخ قضاة الأندلس، النباهي: ٤٣).

(٣) المُيَمِّمُ: اسم فاعل من يَمَّمَ المكان، إذا قصده. ومنه: يَمَّمهُ بالرمح: توخّاه وتعمَّده من دون سواه.

إنّ جِسْمِي كما عَلِمْتَ بِأَرْضٍ وَفُؤادِي وَمالِكِيهِ بِأَرْضِ
قُدِّرَ البَيْنُ بَيْنَنا فافْتَرَقْنا وَطَوى البَيْنُ عن جُفونيَ غَمْضِي[(١)]
قَدْ قَضى اللَّه بالفِراقِ عَلَيْنا فَعَسَى باجْتِماعنا سَوْفَ يَقْضِي!

وله شعر كثير أبرعُ من هذا أورده المؤرخون في كتبهم. وكانت مدة ولايته منذ استولى على قُرْطُبَة دارِ الملك إلى أن تُوفّي، اثنتين وثلاثين سنة.

ولاية الأمير هِشَام بن عَبْد الرَّحْمَن(*)

ثم ولي بعد عَبْد الرَّحْمَن ابنُه هِشَام، يُكْنَى: أبا الوليد، وسِنُّه حينئذ [خمس و] ثلاثون سنة، واتصلت ولايته سبعة أعوام إلى أن مات في صفر سنة ١٨٠. وكان حسن السيرة، مُتَحرِّياً للعدل، يعود المَرْضَى، ويشهدُ الجنائز، ويتصدق بالصدقات الكثيرة، وربما كان يخرج في الليالي المظلمة الشديدةِ المطر ومعه صُرَر الدراهم يتحرى بها المساتير وذوي البيوتات من الضعفاء؛ لم يزل هذا مشهوراً من أمره إلى أن مات في التاريخ المذكور. أمه أم ولد اسمُها «حوراء».

ولاية الحَكَم بن هِشَام الملقب بالرَّبَضيّ(**)

ثم ولي بعده ابنه الحكم وله اثنتان وعشرون سنة، يُكْنَى: أبا العاص، أمه أم ولد اسمها «زُخرف»، وكان طاغياً مسرفاً، وله آثار سوءٍ قبيحة، وهو الذي أوقع بأهل الرَّبَض الوقعة المشهورة، فقتلهم وهدم ديارهم ومساجدهم. وكان الرَّبَضُ محلةً متصلةً بقصره، فاتهمهم في بعض أمره، ففعل بهم ذلك، فَسُمّي الحكم الرَّبَضيَّ لذلك.

وفي أيامه أحدث الفقهاءُ إنشاد أشعار الزهد والحضّ على قيام الليل في الصوامع، أعني صوامع المساجد، وأمروا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به، مثل أن يقولوا: «يا أيها المسرف المتمادي في طغيانه، المصرُّ على كِبره، المتهاونُ بأمرِ رَبِّه، أَفِق من سكرتك، وتنبَّه من غفلتك...» وما نحا هذا النحو؛ فكان هذا من

(١) البَيْنُ: الفُرقة والبُعد. الغمض: النوم، يقال: ما اكتحلت عينه غمضاً.

(*) ترجمته في بغية الملتمس: ١٣، الأعلام: ٨/٨٦، وفيه: أنه ولد بقرطبة، وبُويع له بعد أبيه سنة ١٧٢هـ، وبنى عِدّة مساجد، وتمّم بناء جامع قرطبة. وكان أهل الأندلس يشبهونه بعمر بن عبد العزيز بعدله وحسن سيرته.

(**) ترجمته في بغية الملتمس: ١٤؛ الأعلام: ٢/٢٦٨، وفيه: أنه كان من أفحل ملوك بني أمية في الأندلس، وأول من جعل للملك فيها أبهة، وأول من جنّد الأجناد، وجمع الأسلحة والعدد، وارتبط الخيول على بابه، وأنه ولد ونشأ وتوفي بقرطبة.

جملة ما هاجه وأوغر صدره[١] عليهم. وكان أشدّ الناس عليه في أمر هذه الفتنة الفقهاء، هم الذين كانوا يُحرِّضون العامة ويُشجِّعونهم، إلى أن كان من أمرهم ما كان.

وحكى أبو مَرْوَان بن حَيَّان[٢] صاحب أخبار الأندلس، أنه لما تُسُوِّر عليه القصرُ وأحس بالشَّرِّ، قال لأخصِّ غلمانه: اذهب إلى فلانة، إحدى كرائمه، وقل لها تعطيك قارورة الغالية[٣]. فأبطأ الغلام وتلكأ، فأعاد ذلك عليه، فقال: يا مولاي، هذا وقت الغالية؟ فقال له: ويلك يا ابن الفاعلة! بم يُعرَف رأسي إذا قطع من رؤوس العامة إن لم يكن مُضمَّخاً بالغالية؟ ثم إنه ظهر بعد هذا عليهم، وذلك أنهم كانوا يقاتلون القصرَ وعامةُ الحشم والجندِ يشغلونهم، إلى أن دهمتهم الخيلُ من ورائهم، فانهزموا وقُتلوا قتلاً قبيحاً، وأمر بديارهم ومساجدهم فَهُدِمت وحُرِّقت، وأمر بنفي من بقي منهم عن البلاد، فخرجوا حتى نزلوا جزيرة إقريطش من جزائر البحر الرومي المقابلة لبرِّ بَرْقَة أول المغرب، فلم يزالوا هنالك سنين إلى أن تفرقوا، فرجع بعضهم إلى الأندلس، واختار بعضهم سُكْنَى صِقِلِّية، وانتقل بعضهم إلى الإسكندرية.

ومن أعجب ما حكى أبو مَرْوَان بن حَيَّان المؤرخ بما يتصل بخبر هذه الوقعة، قال: كان من أشد الناس على الحكم هذا تحريضاً، رجلٌ من الفقهاء اسمه طالوت[٤] كان جليل القدر في الفقهاء، رحل إلى المدينة وسمع من مالك بن أنس[٥] وتفقه على أصحابه، وكان قويًا في دينه؛ فلما أوقع الحكم بأهل الرَّبَض ـ كما ذكرنا ـ وأمر بتغريب من بقي منهم، كان ممن أمر بتغريبه طالوت الفقيه، فعسر عليه الانتقال ومفارقة الوطن، ورأى الاختفاء إلى أن تتغير الأحوال، فاستخفى في دار رجل يهودي سنةً كاملةً، واليهودي في كل ذلك يكرمه أبلغ الكرامة، ويعظِّمه أشد التعظيم؛ فلما مضت السنة طال على الفقيه الاختفاء، فاستدعى اليهوديَّ وشكره على إحسانه إليه، وقال له: قد عزمتُ غداً على الخروج وَقَصْدِ دارِ فلان الكاتب، لأنه قرأ عليّ ولي عليه حقُّ التعليم، وقد بلغني أن له جاهاً عند هذا الرجل، فعسى هو يشفع لي عنده

---

(١) أوغر صدر فلان: أحماه من الغيظ وسَعَّره.

(٢) هو أبو مروان، حيّان بن خلف بن حسين بن حيّان الأموي بالولاء: مُؤرِّخ، بحّاثة، من أهل قرطبة. توفي سنة ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م. من آثاره: «المُقتبس في تاريخ الأندلس». (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢/ ٢١٨).

(٣) الغالية: أخلاط من الطيب كالمسك والعنبر ونحوهما.

(٤) هو طالوت بن عبد الجبّار المعافري.

(٥) هو أبو عبد الله، مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري: إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تُنسب المالكية. توفي سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٥م. ((الأعلام، الزركلي: ٥/ ٢٥٧).

فَيُؤمِّنني ويَدَعني في بلدي! فقال له اليهودي: يا مولاي، لا تفعل، فما آمَنُهم عليك! وجعل يحلف له بكل يمين يعتقده، أنه لو أقام عنده بقية عمره ما أَمَلَّهُ ذلك ولا ثَقُلَ عليه؛ فأبى إلَّا الخروج، فخلَّى بينه وبين ذلك؛ فخرج حتى أتى دارَ ذلك الكاتب بِغَلَس[١]، فاستأذن عليه فأذن له، فلما دخل عليه رَحَّب به وأدنى مجلسه، وسأله أين كان في هذه المدة؟ فقصّ عليه قصتَه مع اليهودي، ثم قال له: اشفع لي عند هذا الرجل حتى يُؤمِّنني في نفسي وَيَمُنَّ عليَّ بتركي في بلدي! فوعده بذلك، وركب من فوره ودخل على الحَكَم، فقال [له كل ما سمع من طالوت، ووشى به إليه؛ فأحضره الحكم إليه فعنَّفه ووبَّخه، فقال له طالوت: كيف يحلّ لي أن أخرج عليك، وقد سمعتُ مالك بن أنس يقول: «سلطان جائرٌ مدةً خيرٌ من فتنة ساعة»؟ قال الحكم: اللّه تعالى! لقد سمعتَ هذا من مالك؟ قال طالوت: اللهم إني قد سمعته. قال: فانصرف إلى منزلك وأنت آمن. ثم سأله أين استتر، فقال: عند يهودي مدة عام، ثم إني قصدتُ هذا الوزير فغدر بي! فغضب الحَكَم على أبي البسَّام وعزله عن وزارته، وكتب عهداً ألَّا يخدمه أبداً؛ فَرؤي أبو البسام الكاتب بعد ذلك في فاقة وذلٍّ، فقيل: اسْتُجِيبَتْ فيه دعوة الفقيه طالوت رحمه اللّه تعالى].

[ولاية الحَكم المُسْتَنْصر][*]

[من الوافر][٢]

....

---

(١) الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.

(*) يتضح من سياق الكلام أن هذه الترجمة للحكم المستنصر، وقد سقط القسم الأول منها، كما سقطت تراجم عدد من الأمراء الذين سبقوه، وهم: عبد الرحمن بن الحكم (ت ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م)، ومحمد بن عبد الرحمن (ت ٢٧٣هـ/ ٨٨٧م)، والمنذر بن محمد (ت ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م)، وعبد اللّه بن محمد (ت ٣٠٠هـ/ ٩١٣م)، وعبد الرحمن الناصر (ت ٣٥٠هـ/ ٩٦٢م)، ثم الحكم بن عبد الرحمن المستنصر باللّه (ت ٣٦٦هـ/ ٩٧٧م).
وهذا مطلع ترجمة الحكم المستنصر، نقلاً عن «بغية الملتمس» لابن عميرة الضبي: «ثم ولي بعده ابنه الحكم بن عبد الرحمن، ويُلقَّب بالمستنصر باللّه، وله إذ وليَ سبع وأربعون سنة. يكنى أبا العاص، أمُّه أمُّ ولد اسمها «مرجان». وكان حسن السيرة، جامعاً للعلوم، مُحبًّا لها، مُكرماً لأهلها. وجمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحدٌ من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها في الأقطار، واشترائه لها بأغلى الأثمان، وَنَفَق ذلك عليه، فَحُمِل إليه. وكان قد رام قطع الخمر من الأندلس، وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، فقيل له: إنهم يعملونها من التين وغيره، فتوقَّف عن ذلك».

(٢) هذه القصيدة لأبي عمر يوسف بن هارون الرمادي الكندي، وقد نظمها عندما أمر الحكم=

....

فَقالَ وَقَدْ مَضَى لَيْلٌ وثانٍ ولَمْ يَسْمَعْهُ غنَّى: لَيْتَ شِعْري ....

.... أجارِي المُؤنِسي لَيْلاً غِناءً لِخَيْرٍ قَطْعُ ذلك أمْ لِشَرِّ؟

فَقالوا إنّه في سِجْنِ عيسَى أَتَوْهُ به بِلَيْلٍ وَهْوَ يَسْرِي[1]

فَنَادَى بالطَّوِيلَةِ «وَهْيَ مِمَّا يَكُونُ بِرأسِهِ لِجليلِ أَمْرِ»[2]

ويَمَّمَ جَارَه عِيسَى بنَ مُوسَى فَلاقاهُ بإكْرَامٍ وَبِرٍّ[3]

وقال: أحاجَةٌ عَرَضَتْ فإنّي لَقاضِيها ومُتْبِعُها بِشُكْرِ!

فَقال: سَجَنْتَ لي جاراً يُسَمَّى بعَمْرٍو! قال: يُطْلَقُ كلُّ عَمْرٍو ....

.... بِسجْني حَيْثُ وافَقَه اسْمُ جارِ الْـ ـفقيهِ وَلَوْ سَجَنْتُهُمُو بِوِتْرِ![4]

فأطلقَهُم له عِيسَى جميعاً لِجارٍ لا يبيتُ بِغَيْرِ سُكْرِ!

فإنْ أحببتَ قُلْ لِجوارِ جارٍ وإنْ أحببتَ قُلْ لِطِلابِ أَجْرِ

فإن أبا حنيفةَ لم يَؤُبْ مِنْ تَطَلُّبِه تَخَلُّصَه بِوِزْرِ[5]

وتلخيص هذه الحكاية التي نظمها أبو عُمَر في شعره، أن أبا حنيفة[6] رحمه اللَّه كان يجاوره رجلٌ كيَّال، فكان كلَّ ليلة يأخذ سمكة ورغيفاً وشيئاً من النبيذ، فإذا صلَّى العشاءَ الآخرة أكل ثم شرب، حتى إذا انتشى رفع عقيرته[7] واندفع ينشد هذا البيت:

[من الوافر]

أَضاعُوني وأيَّ فَتًى أضاعوا لِيَوْمِ كَرِيهةٍ وَسَدادِ ثَغْرِ

= المستنصر بإراقة الخمور في الأندلس، ومطلعها (بغية الملتمس: ١٨):

بِخَطْبِ الشَّارِبينَ يَضِيقُ صَدْرِي وَتُرْمِضُني بَلِيَّتُهُمْ لَعَمْرِي

وَهَلْ هُمْ غَيْرُ عُشَّاقٍ أُصِيبُوا بِفَقْدِ حَبائبٍ وَمُنُوا بِهَجْرِ

(١) في بغية الملتمس: «أتاه به المُحارسُ وهو يَسْري». وعيسى: هو عيسى بن موسى صاحب الشرطة في بغداد لعهد الرشيد العباسي.

(٢) الطويلة: لباس للرأس، كان الإمام أبو حنيفة النعمان ـ وهو المقصود هنا ـ يلبسه عندما كان ينهض لأمرٍ جَلَلٍ.

(٣) يَمَّمَهُ: قصده.

(٤) في البغية: «لِوِتْرِ».

(٥) الوزر: الحمل الثقيل، أو الذنب.

(٦) هو أبو حنيفة، النعمان بن ثابت التيمي بالولاء: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السُّنَّة. وُلِدَ في الكوفة، وتوفي سنة ١٥٠هـ/٧٦٧م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٣/٣٢٣).

(٧) العقيرة: الصَّوْت.

فلا يزال يُعيده حتى يغلبه النوم، وكان أبو حنيفة ـ على ما اشتهر عنه ـ يُحيي الليلَ كلَّه صلاةً، فلما كان في بعض الليالي فَقَدَ صَوْتَ ذلك الرجل، فقال لِبَعْضِ مَن عِنده: ما فعَل جارُنا هذا الذي كان يُغنّي كلَّ ليلة؟ أهو مريض أم غائب؟ فقالوا له: إنه مسجون! فقال: ومَنْ سَجَنه؟ فقالوا: خرج في الليل لبعض حاجته فلقيه أصحابُ عِيسَى بن مُوسَى صاحبِ الشُّرطة فأتوا به فأمر بسجنه؛ فلما أصبح أبو حنيفة لبس ثيابه وركب دابته وقصد عِيسَى بن مُوسَى في بيته، فلما أُعلم عِيسَى بمكان أبي حنيفة خرج يتلقاه مسرعاً، وبالغ في تكريمه وبرّه، وسأله عن حاجته، فقال: لي في سجنك جارٌ اسمه عمرو؛ فقال عِيسَى: يُطلقُ كلُّ من كان اسمه عمرٌو بسجني من أجل جار الفقيه! فأطلقه وخلقاً كثيراً معه؛ فأتى الرجلُ أبا حنيفة يتشكر له، فلما وقعت عينه عليه قال له: أَضَعْنَاكَ؟ قال الرجل: لا واللَّه، بل حفظتَ الجِوار حفظك اللَّه!

والبيت الذي نظمه أبو عُمَر وكان يُغني به الرجل جارُ أبو حنيفة، هو للعَرْجِي[١]، رجلٍ من ولد عثمان بن عفان[٢]، سجنه المغيرةُ خالُ هشام بن عبد الملك[٣] وعامله على مكة، فلم يزل بسجنه إلى أن مات وخرجت جنازته من السجن.

ولأبي عُمَر هذا شعر كثير الجيد، وهو من الطبقة الثالثة من طبقات شعراء الأندلس؛ فمما على حفظي له أول قصيدة يمدح بها أبا عليّ القالي[٤] المتقدم الذكر[٥]، وهي: [من الكامل]

مَنْ حَاكِمٌ بيني وبَيْنَ عَذُولي الشَّجْوُ شَجْوِي والعَويلُ عَويلي[٦]

---

(١) هو أبو عمر، عبد اللَّه بن عمرو بن عثمان بن عفان الأموي القرشي، المعروف بالعرجي: شاعر غزل مطبوع، ينحو في شعره ومغامراته منحى عمر بن أبي ربيعة، وأكثر شعره في الغزل. توفي نحو ١٢٠هـ/ نحو ٧٣٨م. (الأغاني، الأصفهاني: ١/ ٣٦٢).

(٢) هو عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية، المعروف بذي النورين: ثالث الخلفاء الراشدين، وأحد العشرة المبشرين بالجنة. ولد ونشأ بمكة، وتوفي سنة ٣٦هـ/ ٦٥٦م. (شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي: ١/ ٤٠).

(٣) هو هشام بن عبد الملك بن مروان: خليفة أموي، وُلد في دمشق، وبويع بالخلافة بعد وفاة أخيه يزيد، وتوفي سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٣م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ٨٦).

(٤) هو أبو علي، إسماعيل بن القاسم بن عيذون بن هارون القالي: لغوي، شاعر، أديب. دخل قرطبة في أيام عبد الرحمن الناصر واستوطنها. توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م. (بغية الملتمس، الضبي: ٢١٦).

(٥) من المحتمل أن يكون المؤلف قد ذكر القالي عند الحديث عن ولاية عبد الرحمن الناصر، الذي كان أميراً على الأندلس وقت وصول القالي إليها.

(٦) العذول: الكثير العذل، وقد عذله عَذْلاً وتعذالاً: لامه. الشجو: الحزن. العويل: حرارة الحزن والحب من غير نداء ولا بكاء، أو هو رفع الصوت بالبكاء والصياح.

أَقصِرْ فما دِينُ الهوى كُفرٌ ولا أَعْتَدُّ لَومَكَ لي مِنَ التَّنزيلِ[١]
عَجَباً لقومٍ لم تَكُنْ أذهانُهم لِهَوًى ولا أجسادُهم لِنُحُولِ
دَقَّتْ معاني الحبِّ عَنْ أفهامِهِمْ فَتَأوَّلوه أَقْبَحَ التأويلِ[٢]
في أيِّ جَارحةٍ أصونُ مُعَذِّبي سَلِمَتْ مِنَ التعذيبِ والتنكيلِ[٣]
إنْ قلتُ في عيني فَثمَّ مَدَامعي أو قلتُ في قَلْبي فَثمَّ غَليلي[٤]
[لَكِنْ جعلتُ له المَسَامِعَ مَوْضِعاً وَحَجبْتُها عَنْ عَذْلِ كُلِّ عَذُولِ]

هذا ما بقي في حفظي منها. وكان أبو عُمر هذا من مقدَّمي شعراء الحكم المستنصر، وكان مختصاً بأبي الحسن المُصْحَفيّ[٥]، منضوياً إليه؛ وهو الذي حمله على هَجْو مُحمَّد بن أبي عامر[٦]، فلما أفضى الأمر إلى مُحمَّد قبض على المصحفيّ واسْتَصْفَى أمواله ووضعه في المُطْبِق، فلم يزل به حتى مات جوعاً وهُزالاً. وأما ما كان من أبي عُمَر الشاعر فإنه أوسعه عقوبةً ونكالاً، وأمر بتغريبه[٧]، فَشُفِعَ له عنده في أن يتركه ببلده، فأذن في ذلك، غير أنه خَرج الأمر من جهته ألَّا يكلمه أحد من العامة ولا من الخاصة؛ أمر مناديه أن ينادي [بذلك] في جميع جهات قُرْطُبَة. فأقام أبو عُمَر هذا كالميت إلى أن مات موتة الوفاة في آخر أيام أبي عامر.

وكان *الحكم المستنصر مواصلاً لغزو الروم ومَن خالَفَه من المحاربين، فاتصلت ولايته إلى أن مات في صفر سنة ٣٦٦، فكانت مدة ولايته منذ بُويع له إلى أن مات ستّ عشرة سنة وأشهراً؛ وانقرض عقبه بعد موت ابنه هِشَام المُؤيَّد، لم يعش له ولد غيره.

---

(١) أَقْصِرْ: فعل أمر من أقصر عن الشيء: كفَّ ونزع عنه. أَعْتَدُّ: أَظنُّ. التنزيل: ما نُزِّل على الأنبياء والرسل من كلام اللّه سبحانه وتعالى.
(٢) تأوَّل الكلام وأوَّله: فَسَّره وردَّه إلى الغاية المرجوة منه.
(٣) أصون: أحفظ. التنكيل: من نَكَّلَ به: عاقبه بما يردعه ويروع غيره عن إتيان مثل صنيعه.
(٤) الغليل: شدّة العطش وحرارته، أو الغيظ.
(٥) هو أبو الحسن جعفر بن عثمان المصحفي: حاجب الحكم المستنصر. غلبه المنصور بن أبي عامر على مكانته بعد وفاة الحكم، ثم نكبه، كما تقدّم أعلاه.
(٦) هو أبو عامر، محمد بن عبد اللّه بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني، المعروف بالمنصور بن أبي عامر: أمير الأندلس في دولة المؤيد الأموي، وأحد الشجعان الدهاة. توفي سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م. (بغية الملتمس: الضبي: ١٠٥).
(٧) التغريب: النفي عن البلاد.

ولاية هِشَام المُؤيَّد ابن الحَكَم المستنصر(*)
[وتغلب المنصور بن أبي عامر]

ثم ولي بعده ابنه هِشَام بن الحَكَم، يُكْنَى أبا الوليد، أمه أم ولد اسمها «صبح»، وسنُّه إذ وَلي عشرة أعوام وأشهر، فلم يزل متغيِّباً لا يظهر ولا ينفُذ له أمر. وكان الذي تغلَّب على أمره أولاً وتولَّى حجابته وتنفيذ أموره وتدبير مملكته، أبو عامر مُحمَّد بن عبد اللَّه بن أبي عامر مُحمَّد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن عَامِر المعافري القَحْطَانيّ.

وكان أصل ابن أبي عامر هذا من المدينة المعروفة بـ «الجزيرة الخضراء»، من قرية من أعمالها تسمى «طُرّش»، على نهر يسمى «وادي آرُوا»، إلا أنه كان شريف البيت قديم التعيُّن، ورد شابًا إلى قُرْطُبَة، فطلب العلم والأدب وسمع الحديث وتميَّز في ذلك؛ وكانت له همة يحدِّث بها نفسه بإدراك معالي الأمور، وتزيَّدَ في ذلك حتى كان يحدِّث من يختص به بما يقع له من ذلك؛ وله في ذلك أخبار عجيبة، قد أورد منها الشيخ الفقيه المحدِّث الضابط المتقن أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن أبي نَصْر الحُمَيْدِي(١) طرفاً في كتابه المترجم بـ «الأماني الصادقة»، فمن جملتها قال الحميدي:

حدثني أبو مُحمَّد علي بن أحمد بن حَزْم(٢) قال: أخبرني أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن إسحاق التميمي قال:

كان مُحمَّد بن أبي عامر نازلاً عندي في حجرة فوق بيتي، فدخلت عليه في بعض الليالي في آخر الليل، فوجدته قاعداً على الحال التي تركته عليها أولَ الليل حين فَصَلْتُ عنه، فقلت له: ما أراك نمت الليلة! قال: لا، قلت: فما أسهرك؟ قال: فكرة عجيبة! قلت: في ماذا كنت تفكر؟ قال: فكرت: إذا أفضى إليَّ الأمر ومات مُحمَّد بن بشير القاضي، بمن أَستبدِلُه، ومن الذي يقوم مقامه؟ فجُلْتُ الأندلس كلها بخاطري فلم أجد إلا رجلاً واحداً... قُلْتُ: لعله مُحمَّد بن السَّليم(٣)؛ قال: هو واللَّه هو؛ لَشَدَّ ما اتفق خاطري وخاطرك!

(*) ترجمته في بغية الملتمس: ٢١؛ جذوة المقتبس: ١٧؛ الأعلام: ٨/ ٨٥.

(١) هو أبو عبد اللَّه، محمد بن فتوح بن عبد اللَّه بن فتوح بن حميد الأزدي الميورقي الحميدي: مؤرخ، محدث، من أهل الأندلس. توفي سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. من آثاره: «جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس». (الصلة، ابن بشكوال: ٤٣٨).

(٢) هو أبو محمد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم: فقيه، أديب، شاعر، مؤرخ، إخباريّ، من أهل الأندلس. توفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م. (الصلة، ابن بشكوال: ٣٣٣).

(٣) هو أبو بكر، محمد بن إسحاق بن السليم: قاضي الجماعة بقرطبة. كان من العدول المرضيين، والفقهاء المشهورين. توفي سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٨م. (بغية الملتمس، الضبي: ٥٩).

قال الحميدي: وأخبرني الفقيه أبو مُحمَّد علي بن أحمد قال: كان ابن أبي عامر يوماً جالساً مع ثلاثة من أصحابه من طلبة العلم، فقال لهم: لِيَخْتَرْ كلُّ واحدٍ منكم خطة أُولِّيه إياها إذا أَفضى إليَّ الأمر! فقال أحدهم: تُوليني قضاء كورة رَيَّة، وهي مَالقَة وأعمالُها؛ فإنه يعجبني هذا التينُ الذي يجيء منها!

وقال الآخر: توليني حِسبة السوق؛ فإني أُحب هذا الإسفنج!

وقال الثالث: إذا أفضى إليك الأمر فأْمر أن يُطاف بي قُرْطُبَة كلها على حمار ووجهي إلى الذَّنَب وأنا مطليٌّ بالعسل ليجتمع عليَّ الذباب والنحل!

وافترقوا على هذا؛ فلمّا أفضى الأمر إليه كما تمنى بلّغ كلَّ واحد منهم أمنيته على نحو ما طلب!

ولم تزل حاله تعلو منذ ورد قُرْطُبَة إلى أن تعلق بوكالة السيدة «صُبح» أم هِشَام المؤيد ابن الحكم والنظرِ في أموالها وضِياعها، فزاد أمره في الترقي معها إلى أن مات الحكم المستنصر؛ وكان هِشَام صغيراً كما ذكرنا، وخِيفَ الاضطراب، فضمن لصبح سكونَ الحال وزوال الخوف واستقرارَ المُلك لابنها. وكان قويَّ النفس، وساعدته المقادير، وأمدّته المرأة بالأموال؛ فاستمال العساكر إليه، وجرت أحوال علت قدمه فيها، حتى صار صاحبَ التدبير والمتغلبَ على الأمور؛ وحجب هِشَاماً المُؤيَّد، وتَلقَّب هو بالمنصور، فأقام الهيبة، فدانت له أقطار الأندلس كلها وأمنت به، ولم يضطرب عليه شيء منها أيام حياته، لعظم هيبته وفرط سياسته.

واستوزر جماعة منهم الوزير أبو الحسن جَعْفَر بن عُثْمَان الملقب بالمُصْحَفيّ، ومنهم الوزير الكاتب أبو مَرْوَان عبد الملك بن إدريس الجزيري[1]، ومنهم الوزير أبو بَكْر مُحمَّد بن الحسن الزبيدي[2] الذي اختصر كتاب العَيْن[3] ـ وقد تقدم ذكره ـ وكان قد ولاه شرطته، وكان الزبيدي هذا من بطانة الحكم المستنصر ووجوه أصحابه.

واستوزر أبا العلاء صَاعِد بن الحسن الرَّبَعِيّ[4] اللغوي البغدادي، وله معه أخبار مستطرفة، ولعلي سأُورد طرفاً منها فيما بعد إن شاء اللّه تعالى.

---

(١) هو أبو مروان، عبد الملك بن إدريس الجزيري: وزير، كاتب، أديب، شاعر. توفي قبل سنة ٤٠٠هـ. (بغية الملتمس، الضبي: ٣٧٥).

(٢) هو أبو بكر، محمد بن الحسن الزبيدي: من أئمة اللغة العربية، شاعر، أديب. توفي سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م. (بغية الملتمس، الضبي: ٦٦).

(٣) كتاب العين: هو كتاب عظيم الأثر في اللغة. وضعه الخليل بن أحمد الفراهيدي المُتوفَّى سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م.

(٤) هو أبو العلاء، صاعد بن الحسن بن عيسى الرَّبعي البغدادي: عالم بالأدب واللغة والشعر والموسيقى والغناء. توفي سنة ٤١٧هـ/ ١٠٣٦م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ٢٦٣).

وكان مُحِبًّا للعلوم مؤثراً للأدب مفرطاً في إكرام من يُنسب إلى شيء من ذلك [ويفد] عليه متوسلاً به، بحسب حظه منه وطلبه له ومشاركته فيه. ورد عليه الأندلس في أيام إمارته أبو العلاء صَاعِد بن الحسن الرَّبعيّ المذكور آنفاً، فعظمت منزلته عنده ونال منه أموالاً جمةً. وكان وروده عليه سنة ٣٨٠؛ أظن أصله من بلاد الموصل، دخل بغداد فقرأ بها، وكان عالماً باللغة والآداب والأَخبار، سريع الجواب، حسن الشعر، طيب المعاشرة، فكه المجالسة مُمْتعاً؛ فأكرمه المنصور وأفرط في الإحسان إليه والإفضال عليه؛ وكان مع ذلك مُحسناً لظريف السؤال، حاذقاً في استخراج الأموال، طَبًّا[١] بلطائف الشكر.

أخبرني بعض مشايخ الأندلس بإسناد له، أن أبا العلاء دخل على المنصور أبي عامر يوماً في مجلس أنسه، وقد كان تقدَّم له أن اتخذ قميصاً من رِقاع الخرائط التي كانت تصل إليه فيها الأموال منه، فلبسه تحت ثيابه؛ فلما خلا المجلس ووجد فرصةً لما أراد، تجرّد وبقي في القميص المُتَّخَذ من الخرائط، فقال له: ما هذا يا أبا العلاء؟ فقال: هذه الخرائط التي وصلتْ إليَّ فيها صِلات مولانا أَتخذها شعاراً! وبكى، وأَتبع ذلك من الشكر فصلاً كان رواه، فأعجب ذلك المنصور، وقال له: لك عندي مزيد! وكان كما قال.

وألَّف له أبو العلاء هذا كتباً، فمنها كتاب سماه «كتاب الفصوص»، على نحو «كتاب النوادر» لأبي علي القالي. واتفق لهذا الكتاب من عجائب الاتفاق أن أبا العلاء دفعه حين كمل لغلام له يحمله بين يديه وعبر النهر، نهر قُرْطُبَة؛ فخانت الغلام رجله فسقط في النهر هو والكتاب؛ فقال في ذلك بعض الشعراء ـ وهو أبو عبد اللّه مُحمَّد بن يَحْيَى المعروف بابن العَرِيف ـ بيتاً مطبوعاً بحضرة المنصور، وهو: [من السريع]

قَدْ غاص في البَحْرِ كِتابُ الفُصُوصْ ... وَهـكَـذا كُـلُّ ثَـقـيـلٍ يَـغُـوصْ![٢]

فضحك المنصور والحاضرون، فلم يَرُعْ ذلك صَاعِداً ولا هالَه[٣]، وقال مرتجلاً مجيباً لابن العريف: [من السريع]

عَـادَ إلـى مَـعْـدِنـه إنَّـمـا ... تُوجَدُ في قَعْرِ البِحَارِ الفُصُوص![٤]

---

(١) الطَّبُّ: الحاذق، الماهر، الخبير.

(٢) الفُصُوص: جمع الفَصّ: ما يُركَّب في الخاتم من الحجارة الكريمة وغيرها.

(٣) هال الأمر فلاناً: أفزعه.

(٤) المَعْدِنُ: مكان كلّ شيءٍ فيه أصله ومركزه.

وكتاب آخر على نحو كتاب الخزرجي أبي السَّريّ سَهْل بن أبي غالب، سمَّاه «كتاب الهجفجف بن غيدقان بن يثربي مع الخنوت بنت مخرمة بن أنيف»، وكتاب آخر في معناه سمَّاه «كتاب الجوّاس بن قَعْطَل المَذْحِجي مع ابنة عمه عفراء»، وهو كتاب مليح جدًا، انخرم أيام الفتن بالأندلس، فنقصت منه أوراق لم توجد بعد. وكان المنصور كثير الشغف بهذا الكتاب، أعني الجوّاس، حتى رتَّب له من يخرجه أمامه كل ليلة. ويقال: إن أبا العلاء لم يحضر بعد موت المنصور مجلس أُنس لأحدٍ ممَّن ولي الأمور بعده من ولده، وادَّعى وجعاً لحقه في ساقه لم يزل يتوكأ منه على عصاً ويعتذر به في التخلف عن الحضور والخدمة إلى أن ذهبت دولتهم؛ وفي ذلك يقول في قصيدته المشهورة في المظفَّر أبي مَرْوَان عبد الملك بن المنصور أبي عامر مُحمَّد بن أبي عامر، وهو الذي ولي بعد أبيه، وأولها: [من الوافر]

إليك حَدَوْتُ ناجيةَ الرِّكابِ ... مُحمَّلةً أمانيَ كالهِضَابِ[١]
وَبِغْتُ مُلُوكَ أهلِ الشَّرْقِ طُرًّا ... بِوَاحِدِها وَسيِّدِها اللُّبابِ[٢]

وفيها يقول:

إلى اللَّه الشَّكِيَّةُ مِنْ شَكاةٍ ... رَمَتْ سَاقِي فَجَلَّ بها مُصَابي[٣]
وَأَقْصَتْني عَنِ الملكِ المُرجَّى ... وَكُنْتُ أَرِمُّ حَالي بِاقترابي[٤]

ومما استُحسن له قوله:

حَسَبْتُ المُنْعِمينَ على البَرَايا ... فألفيتُ اسْمَه صَدْرَ الحِسَابِ[٥]
وَمَا قَدَّمْتُهُ إلّا كَأنّي ... أُقدِّمُ تالياً أُمَّ الكِتَابِ[٦]

قال أبو عبد اللَّه الحُميدي: أخبرني أبو مُحمَّد عليّ ابن الوزير أبي عُمَر أحمد بن سَعِيد بن حَزْم، أنه سمع أبا العلاء ينشد هذه القصيدة بين يدي المظفَّر في عيد الفطر سنة ٣٩٦ ـ قال أبو مُحمَّد: وهو أول يوم وصلت فيه إلى حضرة المظفر ـ ولمّا رآني أبو العلاء أَستحسنُها وأُصغي إليها كتبها لي بخَطه وأنفذها إليّ. انتهى كلام الحُميدي.

---

(١) حَدَا الناقة: ساقها. الناجية: الناقة السريعة.
(٢) طُرًّا: أي جميعاً، وهو منصوب على المصدر، أو الحال. اللُّباب: خالص كلّ شيء، يقال: فلان لُباب قومه. ومنه: حَسَبٌ لُباب: مَحْضٌ، وعَيْشٌ لُباب: رَخِيّ.
(٣) الشَّكِيَّةُ: ما يُشتكى منه. الشَّكَاةُ: الشكوى: التَّوجُّع من ألمٍ ونحوه.
(٤) أَقصتني: أبعدتني. رَمَّ الشيءَ رَمًّا: أصلحه.
(٥) البرايا: الخلائق.
(٦) أمّ الكتاب: أي سورة الفاتحة (من القرآن الكريم).

وكان أبو العلاء كثيراً ما تُستغرب له الألفاظ، ويُسأل عنها فيجيب بأسرع جواب، على نحو ما يُحكى عن أبي عُمر الزاهد المُطرّز غلام ثَعْلَب[١]، ولولا أن أبا العلاء كان كثير المَزْح لَحُمِل على التصديق في كلّ ما يأتي به من ذلك، وقد ظهر صدقه في بعض ما قال؛ فَمِمَّا يُحكى عنه من هذا المعنى أنه دخل على المنصور يوماً وفي يد المنصور كتاب ورد عليه من عامل له في بعض البلاد اسمه ميدمان بن يزيد، يذكر فيه القلب والتزبيل[٢]، وهذه عندهم أسماء لمعاناة الأرض قبل الزرع، فقال له: أبا العلاء! قال: لبيك مولانا! قال: هل رأيت فيما وقع إليك من الكتب «كتاب القوالب والزوابل» لميدمان بن يزيد؟ قال: إي واللّه يا مولانا؛ رأيته ببغداد في نسخة لأبي بكر بن دُرَيْد[٣] بخط كأكرع النمل في جوانبها علامات الوُضَّاع هكذا هكذا. . . فقال له: أما تستحي أبا العلاء؟ هذا كتاب عَاملي ببلد كذا وكذا واسمه كذا يذكر فيه كذا (الذي تقدم ذكره)، وإنما صنعت لك هذه الترجمة مُولَّدة من هذه الألفاظ التي في هذا الكتاب، ونَسبْتُه إلى عاملي لأختبرك! فجعل يحلف له أنه ما كذب وأنه أمرٌ وافَق.

وقال له المنصور مرّةً أخرى وقد قُدّم طبقٌ فيه تمر: يا أبا العلاء، ما التَّمَرْكُلُ في كلام العرب؟ قال: يقال: تَمَرْكَلَ الرجل تَمرْكُلاً إذا التف في كسائه!

وله من هذا كثير، ولكنه مع هذا كان عالماً.

قال أبو عبد اللّه الحُميدي: حدثني أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد قال: حدثني الوزير أبو عَبْدة حَسَّان بن مَالِك بن أبي عَبْدَة[٤]، عن أبي عبد اللّه العاصمي النحوي قال:

لما قدم صَاعِد بن الحسن اللغوي على المنصور أبي عامر مُحمَّد بن أبي عامر، جَمَعنا معه، فسألناه عن مسائل من النحو غامضةٍ فقصَّر فيها، فلما رآه ابن أبي عامر

(١) هو محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم، أبو عمر الزاهد المطرّز الباوَرْدي، المعروف بغلام ثعلب: إمام في اللغة، مُصنِّف، كان يعمل بتطريز الثياب، وأكثر من مصاحبته لثعلب النحوي، فعُرِف بـ «غلام ثعلب». توفي سنة ٣٤٥هـ/ ٩٥٧م. (شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٩٧).

(٢) زَبَلَ الأرض: سَمَّدها بالزِّبْل، وهو السرجين وما أشبهه.

(٣) هو أبو بكر، محمد بن الحسن بن دُرَيْد الأزدي القحطاني: من أئمة اللغة والأدب. ولد في البصرة. وتوفي سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٢/ ١٩٥).

(٤) من أئمة اللغة والأدب، ومن أهل بيت جلالةٍ ووزارة. روى عن القاضي أبي العباس أحمد بن ذكوان، وحدّث عنه أبو محمد علي بن حزم. توفي قبل سنة ٤٢٠هـ. (بغية الملتمس، الضبي: ٢٧٠).

كذلك قال: دعوه، هو من طبقتي في النحو، أنا أُناظره. قال: ثم سألَنا صاعد فقال: ما معنى قول امرىء القيس[١]: [من الطويل]

كَأَنَّ دِمَاءَ الهَادِيَاتِ بِنَحْرِهِ عُصارةُ حِنَّاءٍ بِشَيْبٍ مُرَجَّلِ...؟[٢]

فقلنا: هذا واضح، وإنما وصف فرساً أشهب عُقِرَتْ عليه الوحش فتطاير دمها على صدره فجاء هكذا. فقال صاعد: سبحان اللّه! أنسيتم قوله قبل هذا[٣]:

كُمَيْتٌ يَزِلُّ اللِّبْدُ عن حالِ مَتْنِهِ كما زَلَّتِ الصَّفواءُ بالمُتَنَزّلِ[٤]...؟

قال: فَبُهتنا[٥] كأنَّا لم نقرأ هذا البيت قطّ، واضطُرِرنا إلى سؤاله عنه، فقال: إنما عَنَى أحد وجهين: إما أنه تَغَشّى صدره بالعَرَق، وعرقُ الخيل أبيض، فجاء مع الدم كالشيب؛ وإما شيءٌ كانت العرب تصنعه، وهو أنها كانت تَسِمُ[٦] باللبن الحارّ في صدور الخيل فيتمعَّط ذلك الشَّعر وينبت مكانه شعرٌ أبيض؛ فأيَّمَا عَنَى من أحد هذين الوجهين فالوصف مستقيم.

قال أبو عبد اللّه: وحدثنا أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد قال: حدثني أبو الخيار مَسْعُود بن سُلَيْمان بن مُفلت[٧] الفقيه، أن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب في مجلس المنصور أبي عامر عن قول الشَّمَّاخ بن ضِرار[٨]: [من البسيط]

دَار الفَتَاة التي كُنَّا نَقُولُ لَهَا يا ظبيةً عُطُلاً حُسَّانةَ الجِيدِ[٩]

---

(١) هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث الكندي: أمير الشعراء في الجاهلية. توفي نحو سنة ٨٠ق.هـ/ نحو ٥٤٥م. (الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ١/ ٥٠).

(٢) ديوان امرىء القيس: ٣٥. الهاديات: المتقدمات الأوائل، وسمِّي المتقدم هادياً لأن هادي القوم يتقدمهم. عصارة الشيء: ما خرج منه عند عصره. المُرجَّل: المُسرَّح.

(٣) ديوان امرىء القيس: ٣٢.

(٤) الكميت من الخيل: ما كان لونه بين الأسود والأحمر، وهو تصغير أكمت، والجمع: كُمْتٌ. اللِّبْدُ: كل شعر أو صوف مُتلبِّد، وقيل: ما يُوضع تحت السَّرْج. الصفواء والصفوان والصفا: الحجر الصلب. المُتنزِّل: المطر، وقيل: الطائر، وقيل: الإنسان.

(٥) بُهِتْنا: يقال: بُهِت الرجل: دُهِشَ مأخوذاً بالحُجَّة.

(٦) وَسَمَ الشيءَ: كواه فأثَّر فيه بعلامة.

(٧) هو فقيهٌ، عالمٌ، زاهدٌ، يميل إلى الاختيار، والقول بالظاهر. (بغية الملتمس، الضبي: ٤٦٧).

(٨) هو معقل بن ضرار بن حرملة بن سنان المازني الذبياني الغطفاني: شاعر مخضرم، أدرك الجاهلية والإسلام، وتوفي سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م. (طبقات فحول الشعراء، ابن سلام الجمحي: ١/ ١٣٢).

(٩) العُطُلُ: المرأة ليس عليها حَلْيٌ. الحُسَّانة: الشديدة الحُسن.

تُدْنِي الحمامةُ مِنها وَهْيَ لاهيةٌ مِنْ يَانعِ المُردِ قِنْوانَ العناقيدِ[١]

فقالوا: هي الحمامة، تنزل على غصن الأراكة أو الكَرْمة فتنفضُه فتتمكن الظبية منه فترعاه. فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال: إن الحمامة في هذا البيت هي المرآة، وهي اسم من أسمائها؛ فأراد أن هذه الجارية المشبَّهة بالظبية إذا نظرت في المرآة أدنت المرآةُ منها في المنظر شعرَها الذي هو كَقِنوان العناقيد من يانع الكَرْم أو المُرْد، فرأته.

ومن عجائب الدنيا التي لا يكاد يتفق مثلها، أن صاعد بن الحسن اللغوي هذا أهدى إلى المنصور أبي عامر أيَّلاً[٢] وكتب معه بهذه الأبيات: [من الكامل]

يا حِرْزَ كلِّ مُخَوَّفٍ، وأمانَ كـ ـلِّ مُشَرَّدٍ، ومُعِزَّ كلِّ مُذلَّلِ[٣]
جَذواكَ إنْ تَخْصُصْ بهِ فلأهلِه وَتَعُمُّ بالإحسانِ كُلَّ مُؤمِّلِ[٤]
كالغيثِ طبَّق فاستوى في وَبْلِه شُعثُ البلادِ مع المُرادِ المُقبلِ[٥]
اللَّهُ عَونك ما أبرَّك بالهُدَى وأشدَّ وَقْعَكَ بالضلالِ المُشْعِلِ
ما إن رأت عيني، وعِلمُك شاهدٌ، شَرْوَى عَلائك في مُعِمٍّ مُخْوِلِ[٦]
أَنْدَى بمُقْرَبَةٍ كَسِرْحانِ الغَضَا رَكْضاً، وأَوْغَلَ في مُثَار القَسْطَلِ[٧]
مَوْلايَ، مُؤنِسَ غُربتي، مُتَخطِّفي مِنْ ظُفْرِ أيامي، مُمَنِّعَ مَعْقِلي[٨]
عَبْدٌ نَشَلْتَ بِضَبْعِهِ وَغَرسْتَهُ في نعمةٍ أَهدَى إليكَ بِأيَّلِ[٩]
سَمَّيْتُهُ «غَرسِيَّةً» وبَعثتُه في حَبْلِهِ لِيُتاحَ فيه تَفاؤلي

(١) اليانع: الذي أدرك من الثمار وطاب أو حان قطافه. القنوان: جمع القِنْو: العذق بما فيه من الرطب.
(٢) الأَيَّلُ: الوَعِلُ: تيس الجبل.
(٣) الحِرزُ: المكان المنيع يُلجأُ إليه.
(٤) الجَذْوَى: العطية. تَعُمُّ: تَشْمَل.
(٥) طَبَّق الغيثُ وجه الأرض: غَشَّاه وَعمَّه. الوَبْلُ: المطر الشديد. الشُّعْثُ: يقال: شعث الشعر شعوثةً: تَغبَّر وتلبَّد، وشعث الأمر: انتشر وتفرّق.
(٦) شَرْوَى الشيء: مثله، ويقال: هو لا يملك شَرْوَى نقير: مُعْدِمٌ. مُعِمٌّ: ذو أعمام. مُخْوِلٌ: ذو أخوال.
(٧) المُقْرَبَةُ: الفرس أو الناقة القريبة المُعدَّة للركوب. أوغل في البلاد وغيرها: ذهب وبالغ وأبعد. القَسْطَلُ: الغبار.
(٨) تَخَطَّفَهُ: جذبه وأخذه بسرعة. المَعْقِلُ: الحِصْنُ أو الملجأ.
(٩) نَشَلَ الشيءَ وانتشله: أسرع نَزْعَهُ. الضَّبْعُ: ما بين الإبط إلى نصف العَضُد من أعلاها.

فَلَئِنْ قبلتَ فَتِلْكَ أَسْنَى نعمةٍ ... أَسْدَى بها ذو منحةٍ وتطوُّلِ[١]
صَحِبَتْكَ غاديةُ السُّرورِ وجَلّلتْ ... أرجاءَ رَبْعِكَ بالسَّحابِ المُخْضِلِ

فقضى اللّه في سابق علمه أن غَرْسِيَةَ بن شانجُه من ملوك الروم ـ وكان أمنع من النجم ـ أُسِرَ في ذلك اليومِ بعينه الذي بعث فيه صاعد بالأيِّل وسمّاه غرسية متفائلاً بأسره. وهكذا فليكن الجَدُّ للصاحب والمصحوب. وكان أَسْرُ غرسية هذا في ربيع الآخر سنة ٣٨٥.

خرج أبو العلاء صاعد هذا من الأندلس أيام الفتن، وقصد صِقِلِّية فمات بها في قريب من سنة ٤١٠ ـ فيما بلغني ـ عن سنٍّ عالية.

ولم يزل المنصور أبو عامر مُحمَّد بن أبي عامر طول أيام مملكته مواصلاً لغزو الروم، مفرطاً في ذلك لا يشغله عنه شيء. وكان له مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ما كان مقيماً بِقُرْطُبَة. وبلغ من إفراط حبه للغزو أنه ربما خرج للمُصَلَّى يوم العيد فحدثت له نية في ذلك فلا يرجع إلى قصره، بل يخرج بعد انصرافه من المُصَلَّى كما هو من فوره إلى الجهاد، فتتبعه عساكره وتلحق به أولاً فأولاً، فلا يصل إلى أوائل بلاد الروم إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر. غزا في أيام مملكته نيفاً وخمسين غزوةً ذكرها أبو مَرْوَان بن حَيَّان كلها في كتابه الذي سماه بـ «المآثر العامرية»، واستقصاها كلها بأوقاتها وذكر آثاره فيها. وفتح فتوحاً كثيرةً، ووصل إلى معاقل قد كانت امتنعت على من كان قبله، وملأ الأندلس غنائم وسَبْياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم. وفي أيامه تغالى الناس بالأندلس في ما يجهّزون به بناتهم من الثياب والحلي والدور، وذلك لرخص أثمان بنات الروم، فكان الناس يُرغِّبون في بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا، ولولا ذلك لم يتزوج أحد حرّة. بلغني أنه نُودِي على ابنة عظيم من عظماء الروم بِقُرْطُبَة ـ وكانت ذات جمالٍ رائع ـ فلم تساوِ أكثر من عشرين ديناراً عامرية. وكان في أكثر زمانه لا يُخِلُّ بأن يغزو غزوتين في السنة. وكان كلما انصرف من قتال العدو إلى سُرَادقه يأمر بأن يُنفض غبارُ ثيابه التي حضر فيها معمعة[٢] القتال، وأن يُجمع ويُتَحفَّظَ به، فلما حضرته المنية أمر بما اجتمع من ذلك أن يُنثر على كفنه إذا وُضع في قبره.

وكانت وفاته بأقصى ثغور المسلمين، بموضع يعرف بمدينة «سالم»، مبطوناً؛ فصَحَّت له الشهادة، وتاريخ وفاته سنة ٣٩٣. فكانت مدة إمارته نحواً من سبع وعشرين

---

(١) أَسدى إليه معروفاً وغيره: أَعْطَى وأَوْلَى. المِنْحَةُ: العَطِيَّةُ. تَطَوَّل عليه: تفضَّل.
(٢) المَعْمَعَةُ: صوت الشجعان في الحَرْب.

سنة، وكان معافريَّ النسب، وأمه تميمية اسمها فريهة بنت يحيى بن زكريا التميمي، كان يعرف بابن بَرْطَل؛ ولذلك قال فيه أبو عُمَر أحمد بن مُحمَّد بن دَرّاج الشاعر المعروف بالقسطلي[١] من قصيدة له: [من الطويل]

تَلاقَتْ عَلَيْهِ مِنْ تَميمٍ ويَعْرُبٍ ... شُموسٌ تَلألأُ في العُلا وبُدُورُ
مِنَ الحِمْيَرِيِّينَ الذينَ أكُفُّهم ... سَحائبُ تَهْمِي بالنَّدَى وَبُحورُ[٢]

وأبو عُمَر هذا من فحول شعراء الأندلس والمجيدين منهم، ذكره أبو منصور الثعالبي[٣] في «كتاب اليتيمة» وقال فيه: القسطلي عندهم كأبي الطيّب[٤] بصقع الشام. هذا قول أبي منصور أو معناه. وكنت أنا في أيام شبيبتي مولعاً بشعره كثير الدراسة له، فلم يبق اليوم على خاطري منه شيء أصلاً، خلا بيتين هما مِمَّا ارتجل في بعض مجالسه، وهما: [من الكامل]

أَجِدِ الكلامَ إذا نَطَقْتَ فَإنَّما ... عَقْلُ الفَتَى في لَفْظِهِ المسموعِ[٥]
كالمرءِ يَخْتَبِرُ الإناءَ بِصَوْتِهِ ... فَيَرَى الصَّحيحَ به مِنَ المَصْدُوعِ[٦]

[وزارة المظفر بن أبي عامر](*)

ثم تقلد الوزارة والحجابة بعد ابن أبي عامر هذا، ابنُه أبو مَرْوَان عبد الملك بن أبي عامر، وتَلقب بـ«المظفَّر»، فجرى في الغزو والسياسة عن هِشَام المُؤيَّد على سَنَن[٧] أبيه، وكانت أيامه أعياداً في الخصب والأمان، دامت سبع سنين، إلى أن مات[٨] وثارت الفتن بعده.

---

(١) هو أبو عمر، أحمد بن محمد بن العاصي بن درّاج القسطلي الأندلسي: شاعر، كاتب، من أهل «قسطلة درّاج». توفي سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م. (شذرات الذهب، ابن العماد الحنبلي: ٣/ ٢٧١).
(٢) هَمَت السحابة: صَبّت ماءَها.
(٣) هو أبو منصور، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري: من أئمة اللغة والأدب في العصر العباسي. توفي سنة ٤٢٩هـ/ ١٠٣٨م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ٢١٣).
(٤) أبو الطيّب: هو أحمد بن الحُسين الجعفي الكندي، المعروف بالمُتنبي، المُتوفَّى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.
(٥) أجَادَ الرجل: أتى بالجيّد من قَوْل أو عمل.
(٦) المصدوع: المَشْقُوق.
(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٣٧٣.
(٧) السَّنَنُ: الطريقة والمثال، ومن الطريق: نهجه وجهته.
(٨) في بغية الملتمس: توفي في صفر سنة ٣٩٩هـ/ ١٠٠٩م.

[وزارة الناصر بن أبي عامر](*)

ثم تقلد ما كان يتقلده من بعده، أخوه عبد الرَّحْمَن، وتلقب بـ«الناصر»، فخلط وَتسَمَّى وليَّ العهد. ولم يزل مُضطربَ الأمور مدة أربعة أشهر، إلى أن قام عليه مُحمَّد بن هِشَام بن عبد الجبَّار بن عبد الرَّحْمَن الناصر، لثماني عشرة ليلةً خلت من جمادى الآخرة سنة ٣٩٩، فخلع هشاماً المُؤيَّد، وأسلمت الجيوشُ عبد الرَّحْمَن بن مُحمَّد بن أبي عامر، فَقُتل وصُلِب.

وكان مُحمَّد بن هِشَام بن عبد الجبَّار ـ المتقدم ذكره ـ لما قام تَلَقَّب بـ«المهدي»، وبقي الأمر كذلك إلى أن قُتل مُحمَّد بن هِشَام بن عبد الجبَّار، ورُدَّ هِشَام المُؤيَّد إلى الأمر؛ وذلك يوم الأحد السابع من ذي الحجة سنة ٤٠٠؛ وبقي كذلك وجيوشُ البربر تحاصره مع سُلَيْمان بن الحكم بن سُلَيْمان، واتصل ذلك إلى خمسٍ خلون من شوال سنة ٤٠٣؛ فدخل البربر مع سُلَيْمان قُرْطُبَة، وأَخلوها من أهلها، حاشا المدينة وبعض الرَّبَض الشرقي، وقُتل هِشَام المؤيد بن الحكم المستنصر؛ وكان ـ كما ذكرنا ـ في طول دولته مُتَغلَّباً عليه لا ينفُذ له أمر؛ وَغَلَب عليه في هذا الحصار، أعني حصار البربر، واحدٌ من العبيد بعد مُحمَّد بن أبي عامر المنصور وولديه عبد الملك الظافر وعبد الرَّحْمَن الناصر.

[تفصيل ما سبق إجماله]
ولاية مُحمَّد بن هِشَام بن عبد الجَبَّار المهدي(**)

ثم قام مُحمَّد بن هِشَام بن عبد الجبَّار بن عبد الرَّحْمَن الناصر، على هِشَام بن الحكم في جمادى الآخرة ـ كما تقدم ـ فخلعه وَتسَمَّى بالمهدي، وكان يُكْنَى أبا الوليد، أمه أمُّ ولدٍ اسمُها «مُزْنة»، وكان له ولد اسمه عبيد اللَّه. وكان مولد المهدي في سنة ٣٦٦، وقُتل وله من العمر أربع وثلاثون سنة. ولم يزل والياً إلى أن قام عليه ـ يوم الخميس لخمسٍ خلون من شوال سنة ٣٩٩ ـ هشامُ بن سُلَيْمان بن عبد الرَّحْمَن الناصر مع البربر، فحاربه بقيةَ يومه والليلةَ الآتية وصبيحةَ اليوم الثاني؛ فقام عامةُ أهل قُرْطُبَة مع مُحمَّد المهدي؛ فانهزم البربر وأُسِر هِشَام بن سُلَيْمان، فأُتي به إلى المهدي فَضَرَب عنقه.

(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٣٥٦.

(**) ترجمته في: بغية الملتمس: ٢٢؛ جذوة المقتبس: ١٨؛ الأعلام: ٧/ ١٣١.

[بدء الفتنة]

واجتمع البربر عند ذلك فقدَّموا على أنفسهم سُلَيْمان بن الحكم بن سُلَيْمان بن عبد الرَّحْمَن الناصر، وهو ابن أخي هِشَام القائم المذكور. فنهض بالبربر إلى الثغر، واستجاش النصارى وأتى بهم إلى باب قُرْطُبَة، فبرز إليه جماعةُ أهلِ قُرْطُبَة، فلم تكن إلا ساعة حتى قُتِلَ من أهل قُرْطُبَة نيفٌ وعشرون ألف رجل، في جبل هنالك يعرف بجبل «قنطش»، وهي الوقعة المشهورة، ذهب فيها من الخيار والفقهاء وأئمة المساجد والمؤذنين خلقٌ كثير. واستتر مُحمَّد بن هِشَام المهدي أياماً، ثم لحق بِطُلَيْطُلَة؛ وكانت الثغور كلها من طَرَطُوشة إلى الأشبونة باقيةً على طاعته ودعوته، واستجاش بالإفرنج وأتى بهم إلى قُرْطُبَة؛ فبرز إليه سُلَيْمان بن الحكم مع البربر، إلى موضع بقرب قُرْطُبَة على نحو بضعة عشر ميلاً يدعى «دار البقر». فانهزم سُلَيْمان والبربر، واستولى المهدي على قُرْطُبَة؛ ثم خرج بعد أيام إلى قتال جمهور البربر، وكانوا قد عاثوا بالجزيرة، فالتقوا بموضع يعرف بوادي أره؛ فكانت الهزيمة على مُحمَّد بن هِشَام المهدي؛ وانصرف إلى قُرْطُبَة، فوثب عليه العبيد مع وَاضِح الصَّقْلبي، فقتلوه وردُّوا هِشَاماً المؤيد كما تقدم من قبل.

فكانت مدة ولاية المهدي منذ قام إلى أن قُتل سبعة عشر شهراً[١]، من جملتها الأشهر الستة التي كان فيها سُلَيْمانُ بِقُرْطُبَة، وكان هو بالثغر؛ وانقرض عقبه فلا عقب له.

ولاية سُلَيْمان بن الحَكَم بن سُلَيْمان بن عبد الرَّحْمَن الناصر[*] المتلقب بالمستعين بالله

قام سُلَيْمان بن الحَكَم يوم الجمعة لستٍّ خلون من شوال سنة ٣٩٩، وتلقب بـ«المستعين بالله»، ثم دخل قُرْطُبَة كما تقدم في ربيع الآخر سنة ٤٠٠، فتلقب حينئذ بـ«الظافر» بحول الله، مضافاً إلى «المستعين بالله». ثم خرج عنها في شوال من السنة بعينها، فلم يزل يجول بعساكر البربر معه في بلاد الأندلس، يفسد وينهب ويُقفر المدائن والقُرى بالسيف والغارة، لا يُبقِي البربرُ معه على صغيرٍ ولا كبيرٍ ولا امرأةٍ، إلى أن دخل قُرْطُبَة في صدر شوال سنة ٤٠٣.

---

(١) في بغية الملتمس: «ستة عشر شهراً».

(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٢٤؛ الأعلام: ٣/ ١٢٣.

[أولية بني حمّود]

وكان من جملة جنده رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب، يسميان القاسم وعلياً ابني حَمُّود بن مَيْمُون بن أحمد بن علي بن عُبيد اللّه بن عُمَر بن إدريس [بن إدريس] بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، رضي اللّه عنهم؛ فجعلهما قائدَين على المغاربة، ثم وَلّى أحدهما سَبْتَةَ وطَنْجَة، وهو عليٌّ الأصغر منهما؛ وَوَلّى القاسم الجزيرة الخضراء، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزُّقاق، وسعة البحر هنالك اثنا عشر ميلاً، وقد ذكر فيما قبل.

وافترق العبيد إذ دخل البربر مع سُلَيْمان قُرْطُبَة، فملكوا مدناً عظيمةً وتحصنوا فيها، فراسلهم علي بن حَمُّود المذكور ـ وقد حدث له طمعٌ في ولاية الأندلس ـ فكتب إليهم يذكر لهم أن هِشَام بن الحكم إذ كان محاصراً بِقُرْطُبَة كتب إليه يولّيه عهده، فاستجابوا له وبايعوه، فزحف من سَبْتَة إلى مَالَقَة، وفيها عامر بن فَتُّوح الفائقي، مولى فائق مولى الحكم المستنصر؛ فاستجاب له وأدخله مَالقَةَ، فتملكها عليّ بن حَمُّود وأخرج عنها عامر بن فَتُّوح، ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قُرْطُبَة، فخرج إليه مُحمَّد بن سُلَيْمان في عساكر البربر، فانهزم مُحمَّد بن سُلَيْمان، ودخل قُرْطُبةَ عليُّ بن حَمُّود، وقَتل سُلَيْمان بن الحكم صبراً؛ ضرب عُنقَه بيده يوم الأحد لتسعٍ بقين من المحرم سنة ٤٠٧، وقتل أباه الحكم بن سُلَيْمان بن الناصر أيضاً في ذلك اليوم، وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة!

وكانت مدة ولاية سُلَيْمان ـ منذ دخل قُرْطُبَة إلى أن قُتِل ـ ثلاثةَ أعوام وثلاثةَ أشهر وأياماً، وكان قد ملكها قبل ذلك ستة أشهر على ما تقدم؛ وكانت مدته ـ منذ قام مع البربر إلى أن قُتل ـ سبعةَ أعوام وثلاثة أشهر وأياماً.

وانقطعت دولة بني أمية في هذا الوقت وذِكْرُهم على المنابر في جميع أقطار الأندلس، إلى أن عادت بعد ذلك في الوقت الذي نذكره إن شاء اللّه تعالى.

وكانت أم سُلَيْمان هذا أمَّ ولدٍ اسمها «ظبية»، ومولده سنة ٣٥٤، ترك من الولد وليَّ عهده مُحمَّداً، لم يعقب، والوليد، ومسلمة.

وكان سُلَيْمان أديباً شاعراً؛ قال الحُميدي: أنشدني أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد قال: أنشدني فتى من ولد إسماعيل بن إسحاق المنادي(١) الشاعر كان

---

(١) هو شاعر قديم مشهور، ذكره أبو محمد علي بن أحمد، ومن شعره:

وَمَا الأخُ بالصِّنْوِ الشَّقيقِ وإنَّما ... أَخُوكَ الذي يُعْطِيكَ حَبَّةَ قَلْبِهِ

(بغية الملتمس، الضبي: ٢٢٩).

يكتب لأبي جَعْفَر أحمد بن سَعِيد بن الدبّ، قال: أنشدني أبو جَعْفَر قال: أنشدني أمير المؤمنين سُلَيْمان الظافر لنفسه، قال أبو مُحمَّد: وأنشدنيها قاسم بن مُحمَّد المرواني قال: أنشدَنيها وليد بن مُحمَّد الكاتب لِسُلَيْمان الظافر أمير المؤمنين: [من الكامل]

عَجَباً يهابُ اللَّيْثُ حَدَّ سِناني ... وأهابُ لَحْظَ فَواترِ الأجفانِ(١)

وَأُقارِعُ الأَهْوالَ لا مُتَهَيِّباً ... منها سِوَى الإِعْراضِ والهِجْرانِ(٢)

وتمَلَّكَتْ نَفْسي ثلاثٌ كالدُّمَى ... زُهْرُ الوُجوهِ نواعمُ الأبدانِ(٣)

كَكَواكبِ الظلماءِ لُحْنَ لِناظرٍ ... مِنْ فَوْقِ أغصانٍ على كُثْبانِ(٤)

هذي الهلالُ وتلكَ بنتُ المشتري ... حُسْناً، وهذي أختُ غُصْنِ البانِ(٥)

حاكَمْتُ فِيهنَّ السُّلوَّ إلى الضَّنَى ... فَقَضَى بِسُلطانٍ على سُلطاني(٦)

فَأَبَحْنَ من قلبي الحِمَى وثَنَيْنَني ... في عِزِّ مُلْكي كالأسيرِ العاني(٧)

لا تَعْذِلوا مَلِكاً تذلَّل لِلهوى ... ذُلُّ الهَوى عِزٌّ ومِلْكٌ ثانِ

ما ضَرَّ أنّي عَبْدُهُنّ صَبابةً ... وَبنو الزَّمانِ وهُنَّ مِنْ عُبْداني(٨)

إنْ لَمْ أُطِعْ فِيهنَّ سُلْطانَ الهَوَى ... كَلَفاً بهن فَلَسْتُ مِنْ مَرْوَانِ(٩)

وإذا الكريمُ أَحَبَّ أَمَّنَ إلْفَهُ ... خَطْبَ القِلَى وَحَوادثَ السُّلوانِ(١٠)

وإذا تَجارَى في الهَوى أهلُ الهَوى ... عاشَ الهَوى في غِبْطَةٍ وَأَمانِ(١١)

وإنما قصد المتسعينُ بهذه الأبيات معارضةَ الأبيات التي عَمِلها العباسُ بن

---

(١) يهاب: يخاف. الليث: الأسد. اللحظ: النظر. القاتر: الناعس، المنكسر.

(٢) قارع الأهوال: جالدها، ضاربها. الإعراض: الصَّدُّ.

(٣) الزهر: البيض، المُشرقات، المُتلألئات.

(٤) لاح الشيءُ لوحاً: ظهر. الكثبان: جمع الكثيب: الرمل المُستطيل المحدودب.

(٥) المُشتري: هو أكبر الكواكب السماوية السَّيَّارة. البان: ضرب من الشجر سَبْط القوام، لَيِّنٌ، ورقه كورق الصفصاف، تُشَبَّه بِهِ الحِسَان في الطول واللِّين.

(٦) الضَّنَى: المَرَضُ، أو الهُزال الشديد.

(٧) أباح الشيء واستباحه: عَدَّه مُباحاً، أو أحلَّه وأظهره. العاني: الذليل.

(٨) العُبدان: جمع العبد: الرقيق.

(٩) الكَلَفُ: الوَلَعُ، أو شِدَّة التَّعلُّق بالشيء.

(١٠) القِلَى: البُغْضُ. السُّلوان: النسيان مع طيب نَفْسٍ.

(١١) جارى فلان فلاناً مُجاراةً وجِرَاءً: جرى معه: وَافَقَهُ.

الأحنف[١] على لسان هارون الرشيد[٢]، فَنُسبت إليه، وهي: [من الكامل]

مَلَكَ الثلاثُ الآنساتُ عِنانـي ... وحَلَلْنَ من قَلْبِي بكُلِّ مَكانِ

مالي تُطاوِعُني البريةُ كُلُّها ... وأُطيعُهنَّ وَهُنَّ في عِصْياني

ما ذاكَ إلّا أنَّ سُلْطانَ الهَوَى ... وَبِه قَوِينَ أعزُّ مِنْ سُلْطاني

وأبو مُحمَّد الذي يُحدِّث عنه الحُميديّ: هو أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد بن سَعِيد بن حَزْم بن غالب بن صلح بن خَلَف بن مَعْدَان بن سُفْيَان بن يَزيد الفارسيّ[٣]، مولى يزيد بن أبي سُفيان بن حَرْب بن أمية بن عَبْد شَمْس بن عَبْد مُناف القُرشي[٤]. قُرِىء عليّ نَسبُه هذا بخطه على ظهر كتاب من تصانيفه. وأصْل آبائه الأدنين من قرية من إقليم «لَبْلَة» من غرب الأندلس. سكن هو وأبوه قُرْطُبَة، وكان أبوه من وزراء المنصور مُحمَّد بن أبي عامر، ووزراء ابنه المظفَّرِ بعده. وكان هو المدبِّرَ لدولتيهما، وكان ابنه أبو مُحمَّد الفقيه وزيراً لعبد الرَّحْمَن بن هِشَام بن عبد الجبَّار بن الناصر الملقب بالمستظهر بالله، أخي المهدي المذكور آنفاً. ثم إنه نبذ الوزارة واطَّرحها اختياراً، وأقبل على قراءة العلوم وتقييد الآثار والسُّنن، فنال من ذلك ما لم ينل أحدٌ قبله بالأندلس. وكان على مذهب الإمام أبي عبد الله الشافعي[٥] رحمه الله، أقام على ذلك زماناً، ثم انتقل إلى القول بالظاهر، وأفرط في ذلك حتى أربى على أبي سُلَيْمان داود الظاهري[٦] وغيرِه من أهل الظاهر. له مصنَّفاتٌ كثيرةٌ جليلة

---

(١) هو أبو الفضل، العباس بن الأحنف بن الأسود بن قُدامة: شاعر مجيد مطبوع، من بني حنيفة. عُرِف برقة غزله، وحسن موافقته لطباع النساء. توفي سنة ١٩٢هـ/٨٠٨م. (طبقات الشعراء، ابن المعتز العباسي: ٢٥٤).

(٢) هو هارون بن محمد بن المنصور العباسي: خامس الخلفاء العباسيين وأشهرهم. توفي سنة ١٩٣هـ/٨٠٩م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٤/٥).

(٣) ترجمته في: الصلة: ٣٣٣؛ شذرات الذهب: ٣/٢٩٩؛ الأعلام: ٤/٢٥٤؛ معجم المؤلفين: ٧/١٦؛ وفيات الأعيان: ٣/٣٢٥؛ جذوة المقتبس: ٣٩٠؛ بغية الملتمس: ٤١٥؛ معجم الأدباء: ٤/٤٧٩؛ البداية والنهاية: ١٢/٩٨؛ كشف الظنون: ٢١، ١١٨، ٤٦٦؛ النجوم الزاهرة: ٥/٧٥؛ إيضاح المكنون: ١/٣١٩، ٣٥٦.

(٤) هو يزيد بن صخر بن حرب الأموي، أبو خالد: أمير، صحابي، من أشهر رجالات بني أمية شجاعةً وحزماً. توفي سنة ١٨هـ/٦٣٩م. (الأعلام، الزركلي: ٨/١٨٤)

(٥) هو أبو عبد الله، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع الهاشمي القرشي المطلبي: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السُّنَّة، وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزَّة بفلسطين، وتوفي سنة ٢٠٤هـ/٨٢٠م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٢/٥٦).

(٦) هو أبو سليمان، داود بن علي بن خلف الأصبهاني، الملقب بالظاهري: أحد الأئمة المجتهدين=

القدر شريفة المقصد في أصول الفقه وفروعه، على مَهْيَعِه[1] الذي يسلكه، ومذهبه الذي يتقلده، وهو مذهب داود بن عليّ بن خَلَف الأصبهاني الظاهريّ ومَن قال بقوله من أهل الظاهر ونُفَاةِ القياس والتعليل. بلغني عن غير واحدٍ من علماء الأندلس أن مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنِّحَل والمِلل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين له ـ نحوٌ من أربعمائة مجلد، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة. وهذا شيء ما علمناه لأحد ممن كان في مدة الإسلام قبله إلّا لأبي جَعْفَر مُحمَّد بن جَرير الطبري[2]، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً، فقد ذكر أبو مُحمَّد عبد اللّه بن مُحمَّد بن جَعْفَر الفرغاني في كتابه المعروف بالصّلة، وهو الذي وصل به تاريخ أبي جَعْفَر الطَّبري الكبير: أن قوماً من تلاميذ أبي جَعْفَر لَخَّصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن تُوفّي في سنة ٣١٠ وهو ابن ستٍّ وثمانين سنة، ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته، فصار لكل يوم أربع عشرة ورقة. وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلا بكريم عناية الباري تعالى وحسن تأييده له.

ولأبي مُحمَّد بن حَزْم بعد هذا نصيب وافر من علم النحو واللغة، وقسم صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة؛ فمن شعره: [من الطويل]

هَلِ الدَّهرُ إلا ما عَرَفْنَا وأَدْرَكْنا ... فَجَائعُهُ تَبْقَى وَلذَّاته تَفْنَى[3]
إذا أمكنتْ فيه مَسَرَّةُ ساعةٍ ... تولَّتْ كَمرِّ الطَّرْفِ واسْتَخْلَفتْ حُزْنَا
إلى تَبِعاتٍ في المَعادِ وَمَوْقفٍ ... نَوَدُّ لَديْهِ أَنَّنا لم نَكُنْ كُنَّا[4]
حَصَلْنا على هَمٍّ وإثمٍ وَحَسْرةٍ ... وفَاتَ الذي كُنَّا نَقَرُّ بِهِ عَيْنَا[5]
حَنينٌ لما وَلَّى، وشُغْلٌ بما أتى ... وَغَمٌّ لما يُرْجَى، فَعَيْشُك لا يَهْنَا
كأَنَّ الذي كُنَّا نُسَرُّ بِكَوْنِهِ ... إذا حَقَّقتْهُ النَّفْسُ، لَفْظٌ بلا مَعْنَى

= في الإسلام، تُنسب إليه الطائفة الظاهرية، وسُمّيت بذلك لأخذها بظاهر الكتاب والسُّنَّة، وإعراضها عن التأويل والقياس. توفي أبو سليمان سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٤م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢/ ٢٥٥).

(١) المَهْيَعُ من الطُّرق: البيِّن الواضح.

(٢) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري: إمامٌ، مُفسِّرٌ، ولد في طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي فيها سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٣م. من آثاره: «أخبار الرسل والملوك» المعروف بتاريخ الطبري. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٢/ ١٦٢).

(٣) الفجائع: جمع الفجيعة: المصيبة تُوجع الإنسان بفقد ما يعزُّ عليه من مالٍ أو حميم.

(٤) المعاد: يوم القيامة.

(٥) نَقَرُّ به عَيْناً: نُسَرُّ به ونرتاح.

وله من قصيدة طويلة: [من الطويل]

أنا الشمسُ في جوِّ العُلوم مُنيرةٌ ... وَلكِنَّ عَيْبِي أنَّ مَطْلَعِي الغَرْبُ
وَلو أنني مِنْ جَانبِ الشَّرْقِ طَالعٌ ... لَجدَّ على ما ضاعَ مِنْ ذكريَ النَّهْبُ
وَلي نحو أكْنافِ العِرَاقِ صَبَابةٌ ... ولا غَرْوَ أن يَستوحِشَ الكَلِفُ الصَّبُّ[1]
فإن يُنزِل الرحمنُ رَحْلِيَ بَيْنَهُمْ ... فَحينئذ يبدو التأسُّفُ والكَرْبُ
فَكَم قائلٍ: أغفلْتُهُ وَهْوَ حاضرٌ ... وأطلبُ ما عَنْهُ تجيءُ به الكُتْبُ!
هنالك يَدْرِي أنَّ لِلبُعْدِ قِصَّةً ... وأنَّ كَسادَ العِلْمِ آفتُه القُرْبُ![2]
[فيا عجباً مَن غاب عنهم تشوّقوا ... له، ودُنُوُّ المرءِ من دارهم ذنبُ
وإنَّ مكاناً ضاقَ عَنّي لَضيِّقٌ ... على أنه فُسْحٌ مَهامِهُهُ سُهْبُ[3]
وإنَّ رِجالاً ضَيَّعُوني لَضُيَّعٌ ... وإنَّ زماناً لم أنلْ خِصْبَهُ جَدْبُ]

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه:

ولكنَّ لي في يُوسفٍ خَيْرَ أسوةٍ ... وَلَيْسَ على مَن بالنبيِّ ائتَسَى ذَنْبُ[4]
يقولُ - وقال الحقَّ والصدقَ - إنّني ... حفيظٌ عليهم؛ ما على صَادقٍ عَتْبُ

ومن المختار له قوله: [من البسيط]

لا يَشْمَتنْ حَاسِدِي إنْ نكبةٌ عَرَضتْ ... فالدَّهرُ لَيسَ على حَالٍ بِمُتَّرَكِ
ذُو الفَضْلِ كالتِّبرِ طَوْراً تحتَ مِيقعَةٍ ... وتارةً في ذُرى تاجٍ على مَلِكِ![5]

ومن ذلك قوله: [من الوافر]

لَئِنْ أصبحتُ مُرْتَحِلاً بِشَخصِي ... فَرُوحي عِندَكُم أبداً مُقيمُ
وَلكِنْ لِلْعِيانِ لَطيفُ مَعْنًى ... له سَألَ المُعايَنَةَ الكَليمُ[6]

---

(١) الأكناف: النواحي، الجوانب. الصبابة: رقة الشوق وحرارته. الكَلِفُ: المُولَعُ. الصَّبُّ: العاشق المشتاق.

(٢) كَسَدَ الشيء كَساداً وكُسوداً: لم يرج لِقلّة الرغبة فيه، وكسدت السوق: لم تنفق.

(٣) الفُسْحُ: الواسع. المهامه: جمع المهمه: المفازة البعيدة، أو البلد المُقْفِر. السُّهْبُ والسَّهْبُ: الفلاة.

(٤) يوسف: هو يوسف النبي عليه السلام. ائتسى به: اقتدى.

(٥) التبر: الذهب. الميقعة: الموضع الذي يألفه البازي فيقع عليه، أو المِطْرَقَة.

(٦) عاين الشيء معاينةً وعِياناً: رآه بعينه، ويقال: لقيته عياناً: لم أشكّ في رؤيتي إياه. الكليم: هو موسى النبي (عليه السلام).

ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما في رجل نمّام: [من الطويل]

أَنَمُّ من المِرآة في كلِّ ما دَرَى وأَقطَعُ بين الناس من قُضُبِ الهِنْدِ[١]

كأن المنايا والزمانَ تعلَّمَا تَحَيُّلَهُ في القَطْعِ بين ذوي الوُدِّ!

وُجد بخطه أنه وُلد يوم الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم من شهر رمضان سنة ٣٨٤، وتُوفِّي رحمه اللّه في سِلخ شعبان من سنة ٤٥٦.

وإنما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل وإن كانت قاطعة للنسق مزيحةً عن بعض الغرض، لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم وأكثرهم ذكراً في مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء؛ وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستبدادِه بعلم الظاهر، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمت. وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم.

ولاية ابن حَمُّود الناصر(*)

ثم ولي عليّ بن حَمُّود على ما تقدَّم، وتسمَّى بالخلافة، وتلقَّب بـ«الناصر»، ثم خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدّموا عبد الرَّحْمَن بن مُحمَّد بن عبد المَلِك بن عبد الرَّحْمَن الناصر، وَلَقَّبوه بـ«المرتضي»، وزحفوا به إلى غَرْنَاطَة، وهي من البلاد التي تغلّب عليها البربر، ثم ندموا على تقديمه لِمَا رأوا من صرامته وحِدّة نفسه، وخافوا من عواقب تمكُّنه وقدرته، فانهزموا عنه ودسُّوا عليه من قتله غِيلةً[٢]، وخفي أمره.

وبقي عليّ بن حَمُّود بِقُرْطُبة مُسْتَمِرَّ الأمر عامين غير شهرين، إلى أن قتله صقالبةٌ له في الحمام سنة ٤٠٨، وكان له من الولد: يحيى، وإدريس.

ولاية القاسم بن حَمُّود المأمون(**)

ثم ولي بعده أخوه القاسم بن حَمُّود، وكان أسنَّ منه بعشرة أعوام، وكان وادعاً، أَمِنَ الناسُ معه، وكان يُذكر عنه أنه تشَيّع؛ ولكنه لم يُظهر ذلك ولا غيَّر على الناس عادةً ولا مذهباً، وكذلك سائر من ولي منهم بالأندلس.

فبقي القاسم كذلك إلى شهر ربيع الأول سنة ٤١٢، فقام عليه ابن أخيه

---

(١) قضب الهند: السيوف القاطعة، المصنوعة في الهند.

(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٢٧؛ الأعلام: ٤/ ٢٨٣.

(٢) الغيلة: الاغتيال. وقتله غيلةً: أي على غفلةٍ منه.

(**) ترجمته في بغية الملتمس: ٢٨؛ الأعلام: ٥/ ١٧٥.

يَحْيَى بن علي بن حَمُود، بِمالَقَة، فهرب القاسم عن قُرْطُبَة بلا قتال وصار بإشبيلية، وزحف ابن أخيه المذكور من مَالَقَة بالعساكر ودخل قُرْطُبَة بلا قتالٍ، وتَسَمَّى بالخلافة، وتلقَّب بـ«المُعتلي»؛ فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر وزحف بهم إلى قُرْطُبَة، فدخلها سنة ٤١٣، وهرب يَحْيَى بن عليّ إلى مَالَقَة، فبقي القاسم بِقُرْطُبَة شهوراً واضطرب أمره.

وَغلَب ابنُ أخيه يحيى على المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، وهي كانت مَعْقِلَ القاسم، وبها كانت امرأته وذخائره؛ وغلب ابن أخيه الثاني إدريس بن عليٍّ صاحب سَبْتَة على طَنْجَة، وهي كانت عُدة القاسم، يلجأ إليها إن رأى ما يخافه بالأندلس.

وقام عليه جماعة أهل قُرْطُبَة بالمدينة، وغلّقوا أبوابها دونه، وحاصرهم نيفاً وخمسين يوماً، وأقام الجمعة في مسجد خارج قُرْطُبَة، يُعرف بمسجد ابن أبي عُثمان، أثرُه باقٍ إلى اليوم. ثم إن أهل قُرْطُبَة زحفوا إلى البربر، فانهزم البربر عن القاسم وخرجوا من الأرباض كلها في شعبان سنة ٤١٤، ولحقت كلُّ طائفة من البربر ببلدٍ غَلَبت عليه.

وقصد القاسم إشْبِيليَّة، وبها كان ابناه مُحمَّد والحسن، فلما عرف أهل إشْبِيليَّة خروجه عن قُرْطُبَة ومجيئَه إليهم، طردوا ابنيه ومن كان معهما من البربر، وضبطوا البلد، وقدَّموا على أنفسهم ثلاثة من أكابر البلد، أحدهم القاضي أبو القاسم مُحمَّد بن إسماعيل بن عبّاد اللَّخْمي، ومُحمَّد بن يريم الألهاني، ومُحمَّد بن الحسن الزبيدي. ومكثوا كذلك أياماً مشتركين في سياسة البلد وتدبيره، ثم استبد القاضي أبو القاسم مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد بالأمر والتدبير، وصار الآخَران من جملة الناس.

ولحق القاسم بِشَرِيش، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى، فزحفوا إلى القاسم فحاصروه حتى صار في قبضة ابن أخيه، وانفرد ابن أخيه يحيى بولاية البربر.

وبقي القاسم أسيراً عنده وعند أخيه إدريس بعده إلى أن مات إدريس، فَقُتِل القاسم خنقاً سنة ٤٣١، وحُمل إلى ابنه مُحمَّد بن القاسم بالجزيرة، فدفنه هناك.

فكانت ولاية القاسم منذ تَسمَّى بالخلافة بِقُرْطُبَة إلى أن أسره ابن أخيه، ستة أعوام، ثم كان مقبوضاً عليه ستَّ عشرةَ سنة عند ابني أخيه يحيى وإدريس، إلى أن قُتل ـ كما ذكرنا ـ في أول سنة ٤٣١، ومات وله ثمانون سنة، وله من الولد مُحمَّد والحسن، أمهما أميرة بنت الحسن بن قَنُّون بن إبراهيم بن مُحمَّد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

ولاية يحيى بن علي المُعتلي(*)

اختلف في كنيته، فقيل: أبو القاسم، وقيل: أبو مُحمَّد؛ وأمه لَبُونةُ بنت مُحمَّد بن الحسن بن القاسم المعروف بقَنُّون بن إبراهيم بن مُحمَّد بن القاسم بن إدريس بن إدريس بن عبد اللّه بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وكان الحسن بن قنُّون من كبار ملوك الحَسَنيِّين وشُجعانهم وَمَرَدَتِهم[1] وطُغاتهم المشهورين، فتسمى يحيى بالخلافة بِقُرْطُبَة سنة ٤١٣ كما ذكرنا، ثم هرب عنها إلى مَالَقَة سنة ٤١٤ كما وصفنا، ثم سعى قوم من المفسدين في ردِّ دعوته إلى قُرْطُبَة في سنة ٤١٦، فتم لهم الأمل، إلا أنه تأخر عن دخولها باختياره، واستخلف عليها عبد الرَّحْمَن بن عَطَّاف اليَفْرني، فبقي الأمر كذلك إلى سنة ٤١٧، ثم قَطعت طاعتَه جماعةُ البربر، [وصرفوا عاملهم، وبايعوا المعتلي الأموي أخا المرتضي. وبقي المعتلي هذا يُرَدِّدُ لحصارهم العساكر، إلى أن اتفقت كلمة البربر على الاستسلام لأبي القاسم] وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن، وعظم أمره بِقَرْمُونَة، فصار محاصراً لإشْبِيليَّة، طامعاً في أخذها، فخرج يوماً وهو سكران إلى خيل ظهرت من إشْبِيليَّة بقرب قَرْمُونَة، فلقيها وقد كمنوا له، فلم يكن بأسرعَ من أن قتلوه، وذلك يوم الأحد لسبعِ خلون من المحرم سنة ٤٢٧؛ وكان له من الولد: الحسن، وإدريس، لأمَّيْ ولد.

[ردُّ الأمر إلى بني أمية]
ولاية عبد الرَّحْمَن بن هِشَام المُستظهر(**)

ولما انهزم البربر عن قُرْطُبَة مع أبي القاسم كما ذكرنا، اتفق رأي أهل قُرْطُبَة على ردّ الأمر إلى بني أمية، فاختاروا منهم ثلاثةً، وهم عبد الرَّحْمَن بن هِشَام بن عبد الجبَّار بن عبد الرَّحْمَن الناصر، أخو المهدي المذكور آنفاً، وسُليمانُ بن المرتضي المذكور آنفاً، ومُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن هِشَامِ بن سُليمان القائمِ على المهديِّ بنِ الناصر.

ثم استقر الأمر لعبد الرَّحْمَن بن هِشَام بن عبد الجبَّار، فَبُويع بالخلافة لثلاث عشرة ليلة خلت لرمضان سنة ٤١٤، وله اثنتان وعشرون سنة، وتلقَّب بـ«المُستظهر». وكان مولده سنة ٣٩٢ في ذي القعدة، يُكْنَى أبا المُطرِّف، وأمُّه أمُّ ولدِ اسمُها «غاية».

(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٣٠؛ الأعلام: ٨/ ١٥٧.

(١) المَرَدَةُ: جمع المارد: الطاغية.

(**) ترجمته في: جذوة المقتبس: ٢٤؛ بغية الملتمس: ٣١؛ الأعلام: ٣/ ٣٤١.

ثم قام عليه أبو عبد الرَّحْمَن مُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن عُبيد اللَّه بن عبد الرَّحْمَن الناصر، مع طائفة من أراذل العوام، فقتَل عبدَ الرَّحْمَن بن هِشام، وذلك لثلاثٍ بقين من ذي القعدة سنة ٤١٤ المؤرخة، ولا عقب له.

وكان في غاية الأدب والبلاغة والفهم ورقة النفس، كذا قال أبو مُحمَّد عليّ بن أحمد، وكان خبيراً به لأنه وَزَرَ له. وقال الوزير أبو عامر أحمد بن عبدالملك بن شهيد[1]: كان المُستظهر شاعراً ويستعمل الصناعة فيجيد، وهو القائل في ابنة عمه:

[من الطويل]

حَمامةُ بيتِ العَبْشَمِيِّين رَفْرَفتْ ... فَطِرْتُ إليها من سَرَاتهم صَقْرَا[2]

تَقِلُّ الثريا أنْ تَكُونَ لها يداً ... ويَرْجو الصباحُ أنْ يَكُونَ لها نَحْرَا

وإني لَطَعَّانٌ إذا الخَيْلُ أقبلتْ ... جَوانبها حتى تُرى جُونها شُقْرَا[3]

ومُكْرِمُ ضَيفي حينَ ينزلُ سَاحتي ... وَجاعلُ وَفْرِي عِنْدَ سَائِلِه وفْرَا[4]

وهي طويلة، قالها أيام خِطبته لابنة عمه أم الحكم بنت سُليمان المستعين. قال أبو عامر: «وكان متهماً في أشعاره ورسائله، حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبي زيد حين وفد عليه ارتجالاً، فعجب أهل التميز منه، وأما أنا فقد كنت بلوته. وكان ورود يعلى فجأة ولم يبرح من مجلسه حتى ارتجل الأبيات، وأنا واللَّه أخاف أن يزلّ، فأجاد وزاد». هذا آخر كلام أبي عامر.

ولاية مُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن المُستكفي باللَّه(*)

ولي مُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن المذكور وله ثمانٍ وأربعون سنة وأشهر، لأن مولده في سنة ٣٦٦، وكنيته أبو عبد الرَّحْمَن، أمه أمُّ ولدٍ اسمُها «حوراء»، وكان أبوه قد قتله ابن أبي عامر في أول دولة هِشَام المُؤيَّد، لسعيه في القيام وطلبه للأمر.

وكان مُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن هذا يُلقب بـ«المُستكفي باللَّه»، وكانت ولايته ستة أشهر وأياماً، وكان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير، وَزَرَ له رجلٌ حائك يُعرف بـ«أحمد بن خالد»، هو كان المدبّرَ لأمره والمدير لدولته؛ فقل في دولةٍ يُديرها حائك...!

---

(١) من كبار الأندلسيين أدباً وعلماً. وُلد بقرطبة، وتوفي فيها سنة ٤٢٦هـ/ ١٠٣٥م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ١/ ١١٦).

(٢) العبشميون: بنو عبد شمس.

(٣) الجُونُ: جمع الجَوْن: الأسود أو الأبيض، وهو من الأضداد، وقيل: هو الأسود تخالطه حمرة.

(٤) الوَفْرُ: التّامُّ من كل شيء، أو الغِنَى واليسار.

(*) ترجمته في: جذوة المقتبس: ٢٥؛ بغية الملتمس: ٣٣؛ الأعلام: ٦/ ١٩٠.

ولم يكن كذلك إلى أن خُلِع، وقُتِل وزيره المذكور في داره؛ دخل عليه عَوَامّ أهلِ قُرْطُبَة نهاراً فتولّوه بالحديد إلى أن بَرَد، وخلعوا المُستكفي بالله وأخرجوه عن قُرْطُبَة، بعد أن أقام ثلاثة أيام مسجوناً لا يصل إليه طعام ولا شراب، ثم نَفَوْه ـ كما ذكرنا ـ فلحق بالثغور، ورجع الأمر إلى يحيى بن عليّ الفاطمي.

وانتهى المُستكفي المذكور من الثغر إلى قرية تُعرف بـ «شمنت» بالقرب من مدينة «سالم»، ومعه أحد قواده، وهو عبد الرَّحْمَن بن مُحمَّد بن السليم، من ولد سَعِيد بن المُنذر القائد المشهور أيام عبد الرَّحْمَن الناصر؛ فَكَرِه هذا القائد التماديَ معه، فاستدعى المُستكفي غداءه، فعمد القائد إلى دجاجة فَدهَنها له بعُصارة نبت يقال له: «البيش»[1] ـ وهو كثير ببلاد الأندلس وخصوصاً بتلك الجهة ـ فلما أكلها المُستكفي مات مكانه، فغسّله وكفّنه وصلّى عليه ودفنه؛ فقبره هناك، ولا عقب له[2].

ثم أقام يحيى بن علي الفاطمي في الولاية نافذ الأمر، إلّا أنه لم يدخل قُرْطُبَة، وإنما كان مقيماً بِقَرْمُونة كما قد قدمنا، إلى أن قُتل في التاريخ الذي تقدم ذكره.

ولاية هِشَام المعتدّ بالله(*)

ولما انقطعت دعوة يحيى بن علي الفاطمي عن قُرْطُبَة في التاريخ الذي ذكرنا، أجمع رأي أهل قُرْطُبَة على ردّ الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك والذي تولى معظمَه وسعى في تمامه، الوزير أبو الحزم جَهْوَر بن مُحمَّد بن جَهْوَر بن عُبيد الله بن مُحمَّد بن الغَمْر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي عَبْدة[3]. وقد كان ذهب كل من ينافس في الرياسة ويَخُبُّ في الفتنة بِقُرْطُبَة؛ فراسل جَهْوَر من كان معه على رأيه من أهل الثغور والمتغلّبين هنالك على الأمور، وداخلَهم في هذا الأمر، فاتفقوا بعد مدة طويلة على تقديم أبي بكر هِشَام بن مُحمَّد بن عبد الملك بن عبد الرَّحْمَن الناصر، وهو أخو المرتضي المذكور آنفاً.

وكان هِشَام هذا مقيماً بحصن يدعى «ألْبُنْت»، من الثغور، عند أبي عبد الله مُحمَّد بن عبد الله بن قاسم القائد المتغلّب بها؛ فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨، تلقَّب بـ«المعتدّ بالله».

---

(١) البيش: نبت عصارته سمٌّ ناقع.
(٢) كان قتله سنة ٤١٥هـ، وقيل: سنة ٤١٦هـ، والله أعلم. (بغية الملتمس: ٣٣).
(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٣٤؛ جذوة المقتبس: ١٢٦؛ الأعلام: ٨/٨٨.
(٣) من أعيان أهل الأندلس، كان موصوفاً بالفضل والدهاء والعقل. (بغية الملتمس: ٢٦٠).

وكان مولده في سنة ٣٦٤، وكان أسنَّ من أخيه المرتضي بأربعة أعوام، وسنّه يوم بُويع له أربع وخمسون سنة، أمُّه أمُّ ولدٍ اسمُها «عاتب».

فبقي ينتقل في الثغور ثلاثة أعوام لا يستقر بموضع، ودارت هنالك فتن عظيمة بين الرؤساء المتغلّبين واضطراب شديد، إلى أن اتفق أمرهم واجتمع رأيهم على أن يسير إلى قُرْطُبَة قصبةِ المُلك. فسار إليها ودخلها في الثامن من ذي الحجة سنة ٤٢٠، فلم يُقم بها إلا يسيراً حتى قامت عليه طائفة من الجند، فخُلِع، وَجَرَت أمور يطول شرحها، من جملتها إخراج المعتدّ بالله هذا من قصره هو وحشمه، والنساء حاسراتٌ عن أوجههن، حافيةٌ أقدامُهن، إلى أن أُدخلوا الجامعَ الأعظم على هيئة السبايا، فأقاموا هنالك أياماً يُتعطَّفُ عليهم بالطعام والشراب، إلى أن أُخرجوا عن قُرْطُبَة.

ولحق هِشَام ومن معه بالثغور بعد اعتقالٍ بِقُرْطُبَة، فلم يزل يجول في الثغور إلى أن لحق بابن هُود المتغلّب على مدينة لَارِدَة وسَرَقُسْطَة وأَفْرَاغَة وطَرْطُوشة وما والى تلك الجهات، فأقام عنده هِشَام إلى أن مات في سنة ٤٢٧ ولا عقب له؛ فهشام هذا آخر ملوك بني أمية بالأندلس.

نَسَبُهُ: هو هِشَام بن مُحمَّد بن عبد المَلِك بن عَبد الرَّحْمَن الناصر بن مُحمَّد بن عبد اللَّه بن مُحمَّد بن عبد الرَّحْمَن بن الحَكَم بن هِشَام بن عبد الرَّحْمَن الداخل ابن مُعَاوية بن هِشَام بن عبد المَلِك بن مَرْوَان بن الحَكَم.

وبخلعه انقطعت الدعوةُ لبني أمية وذِكرُهم على المنابر بجميع أقطار الأندلس والعُدوة إلى الآن.

فهذا آخر ما انتهى إلينا من أخبار بني أمية بالأندلس على شرط التلخيص.

ذكر أخبار الأندلس بعد انتقال الدعوة الأموية عنها، ومن ملكها من الملوك إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٦٢١

[مآل قُرْطُبَة بعد انتهاء الدولة الأموية]

ولما انقطعت دعوة بني أمية كما ذكرنا بالأندلس ولم يبق من عقبهم من يصلح للإمارة ولا من تليق به الرياسة، استولى على تدبيرِ مُلك قُرْطُبَة جَهْوَرُ بن مُحمَّد بن جَهْوَر، ويُكْنَى: أبا الحَزْم، وقد تقدم ذكر نسبه في ترجمة هِشَام المُعْتَدّ.

وأبو الحَزْم هذا قديم الرياسة شريف البيت، كان آباؤه وزراء الدولة الحَكَمِيَّة والعامرية، وهو موصوف بالدهاء وبُعد الغَوْر وحصافة العقل[١] وحسن التدبير. ولم يدخل من دهائه في الفتن الكائنة قبل ذلك، كان يتصاوَنُ عنها ويُظهر النزاهة والتديُّن والعفاف؛ فلما خلا له الجوُّ، وأَصْفَرَ[٢] الفِنَاء، وأقفر النادي من الرؤساء، وأمكنته الفرصة، وثب عليها، فتولى أمرها، واضطلع بحمايتها.

ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً، جرياً على ما قدّمنا من إظهار سُنن العفاف؛ بل دبّرها تدبيراً لم يُسبَق إليه؛ وذلك أنه جعل نفسه مُمْسِكاً للموضع إلى أن يجيء من يتفق الناس على إمارته فَيُسلِّم إليه ذلك. ورتّب البوابين والحشَمَ على تلك القصور على ما كانت عليه أيام الدولة. ولم يتحوَّل عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رتّبهم لذلك وهو المشرف عليهم. وصيَّر أهل الأسواق جُنداً له، وجعل أرزاقهم رؤوس أموالٍ تكون بأيديهم مُحْصَاةً عليهم يأخذون ربحها ورؤوس الأموال باقيةٌ محفوظةٌ، يُؤخَذون بها ويُراعَوْن في كل وقتٍ كيف حِفظُهم لها، وفرَّق السلاح عليهم وأمرهم بتفرقته في الدكاكين والبيوت، حتى إذا دهمهم أمرٌ في ليلٍ أو نهار كان سلاح كل واحد معه حيث كان من بيته أو دكانه.

---

(١) حَصُفَ الشيء حصافةً: جاد واستحكم، يقال: حَصُف فلان: استحكم عقله، وجاد رأيه.

(٢) أَصْفَرَ الفِناءُ وَصَفِرَ: خلا.

وكان أبو الحزم هذا يشهد الجنائز ويعود المرضى، جارياً على طريقة الصالحين، وهو مع ذلك يدبّر الأمور تدبير الملوك المتغلّبين. وكان آمناً وادعاً، وقُرْطُبَة في أيامه حرماً يأمن فيه كلُّ خائف.

واستمر أمره على ذلك إلى أن مات في غرّة صفر سنة ٤٣٥، فكانت مدة تدبيره منذ استولى إلى أن مات أربع عشرة سنة وأشهراً.

ثم وَلِي ما كان يتولّى من أمر قُرْطُبَة بعده ابنُه أبو الوليد مُحمَّد بن جَهْوَر، فجرى في السياسة وحسن التدبير على سنن أبيه، غير مُخِلٍّ بشيء من ذلك، إلى أن مات أبو الوليد المذكور في سلخ شوال من سنة ٤٤٣.

فغلب عليها بَعْدَ أُمورٍ جَرَتْ، الأميرُ الملقَّب بالمأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطُلة، فدبَّرها مدة يسيرة إلى أن مات.

وخلفَ فيها بعده من البربر رجلٌ يعرف بـ«ابن عكاشة»، أظن اسمه مُوسَى؛ فكان بها إلى أن غلبه عليها وأخرجه منها الأميرُ الظافر بحول اللّه أبو القاسم مُحمَّد بن عبّاد على ما يأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

فهذا آخر أخبار قُرْطُبَة وكَوْنِها داراً للملك.

وبعد غَلَبة المُعتمد عليها صارت تبعاً لإشْبِيليَّة.

فصل

[رجع الحديث إلى بني حمّود]

[ومطمع بني عبّاد في التغلب على قُرْطُبَة]

وأما أحوال الحَسَنيِّين، فإنه لما قُتِل يَحْيَى بن علي كما ذكرنا لسبع خلون من المحرم سنة ٤٢٧ ـ رجع أبو جَعْفَر أحمد بن مُوسَى المعروف بـ«ابن بَقَّنَّة»، ونجا الخادمُ الصَّقْلَبيّ، وهما مدبِّرا دولة الحَسَنيِّين، فأتيا مَالَقة، وهي دار مملكتهم، فخاطبا أخاه إدريس بن عليّ، وكان بِسَبْتة، وكان يملك معها طَنْجَة، واستدعياه، فأتى مَالقَةَ، وبايعاه بالخلافة على أن يجعل حَسَنَ بن يحيى المقتول مكانه بِسَبْتَة؛ ولم يبايعا واحداً من ابنَيْ يحيى، وهما إدريس وحَسَن، لصغرهما. فأجابهما إلى ذلك، ونهض نَجَا مع حسن هذا إلى سَبْتَة وطَنْجَة، وكان حسن أصغرَ ابنَيْ يَحْيَى ولكنه أَسَدُّهما رأياً[1].

وتلقّب إدريس بـ«المُتأيِّد»، فبقي كذلك إلى سنة ٣٠ أو ٣١، فتحركت فتنة، وَحَدَثَ للقاضي أبي القاسم مُحمَّد بن إسماعيل بن عبّاد[2] صاحب إشْبِيليَّة أملٌ في التغلُّب على تلك البلاد، فأخرج ابنه إسماعيل في عسكر مع من أجابه من قبائل البربر، ونهض إلى قَرْمُونَة فحاصرها، ثم نهض إلى حصن يدعى «أَشُونة»، وحصن آخر يدعى «إِسْتِجَة»، فأخذهما؛ وكانا بيد مُحمَّد بن عبد اللَّه، رجلٍ من قواد البربر من بني بَرْزال؛ فاستصرخ مُحمَّدُ بن عبد اللَّه إدريسَ بن عليّ الحسني وقبائلَ صَنْهَاجَة، فأمدّه صاحب صَنْهَاجة بنفسه، وأمدّه إدريس بعسكر يقوده ابنُ بَقَنَّة أحمدُ بن مُوسَى مدبِّرُ دولته؛ فاجتمعوا مع مُحمَّد بن عبد اللَّه. ثم غلبت عليهم هيبةُ إسماعيل بن مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد، قائدِ عسكر أبيه القاضي أبي القاسم، فافترقوا، وانصرف كل واحد منهم إلى بلده. فبلغ ذلك إسماعيل بن مُحمَّد، فَقوِي

---

(١) أَسَدُّهما رأياً: أصوبهما رأياً، يقال: سَدَّ فلان: أصاب في قوله وفعله، وسدَّ قوله وفعله: استقام وأصاب، فهو سديد، وأَسَدُّ.

(٢) هو أبو القاسم، محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد، من بني عطاف بن نعيم اللخمي، من نسل ملك الحيرة النعمان بن المنذر: مؤسس الدولة العبادية في إشبيلية. توفي سنة ٤٣٣هـ/١٠٤١م. (جذوة المقتبس، الحميدي: ١٠٧).

أَمَلُه، ونهض بعسكره قاصداً طريق صاحب صَنْهَاجَة، وقدَّر صاحب صَنْهَاجَة أنه سيلحقه، فوجَّه إلى ابن بَقَنَّة يسترجعُه، وإنما كان فارقه قبل ذلك بساعة، فرجع إليه، والتقت العساكر؛ فما كان إلا أن تراءى الجمعان، فولَّى عسكرُ ابنِ عباد منهزماً، وأسلموا إسماعيل، فكان أول مقتول، وحُمل رأسه إلى إدريس بن علي الحسني.

وقد كان إدريس استشعر بالهلاك، فنزل عن مَالقَة إلى جبل بُبَاشتر، وهو الذي قام فيه ابن حَفْصُون المتقدم الذكر[1]، فَتحصَّن به وهو مريض مُدْنَف، فلم يَعِش إلا يومين ومات، وترك من الولد يحيى، قُتل بعده، ومُحمَّداً الملقب بالمهدي، وحسناً المتلقب بـ«السامي». وكان له ابن هو أكبر بنيه اسمه عليّ، مات في حياة أبيه. وترك ابناً اسمه عبد الله، أخرجه عمُّه[2] ونفاه لما وَلِي.

وقد كان يحيى بن علي المذكورُ قبلُ قد اعتقل ابنَيْ عمّه مُحمَّداً والحَسنَ ابنَي القاسم بن حَمُّود بالجزيرة، وكان الموكَّل بهما رجلاً من المغاربة يُعرف بأبي الحجَّاج، فحين وصل إليه خبرُ قتل يحيى، جمع من كان في الجزيرة من المغاربة والسودان، وأخرج مُحمَّداً والحَسَن، وقال: هذان سيِّداكم! فسارع أجمعهم إلى الطاعة لهما، لشدة ميل أبيهما إلى السودان قديماً وإيثارِه لهم. وانفرد مُحمَّدٌ بالأمر دون الحَسَن، ومَلَك الجزيرة، إلا أنه لم يَتسَمَّ بالخلافة، وبقي معه أخوه الحَسَنُ مُدَّةً، إلى أن حدث له رأى في التنسك، فلبس الصوف وتبرأ من الدنيا، وخرج إلى الحج مع أخته فاطمة بنت القاسم، زوجة يحيى بن علي المعتلي.

فلما مات إدريس كما تقدم، رام ابنُ بَقَنَّة أحمدُ بن مُوسَى ضَبْطَ الأمر لولده يحيى بن إدريس المعروف بِـ«حَيّون»، ثم لم يجسر على ذلك الجَسْرَ التام، وتحيَّر وتردّد.

ولما وصل خبر قتل إسماعيل بن عبَّاد، وموت إدريس بن عليّ إلى نَجا الخادم الصَّقْلبي، وكان بِسَبْتَة، استخلف عليها من وثق به من الصقالبة، وركب البحر هو وحَسَن بن يحيى إلى مَالَقَة، ليرتِّب الأمر له؛ فلما وصلا إلى مَرْسَى مَالقَةَ، خارت قوى ابن بَقَنَّة وهرب إلى حصن «كمارش»، على ثمانية عشر ميلاً من مَالقَةَ.

ودخل حَسَن ونجا مَالقَةَ، واجتمع إليهما من بها من البربر، فبايعوا حَسَن بن يحيى بالخلافة، وَتَسَمَّى بـ «المُستعلي»، ثم خاطب ابن بقنّة وأمّنه، فلما رجع إليه قبض عليه وقتله، وقتل ابن عَمِّه يحيى بن إدريس.

---

(١) لم يرد ذكر ابن حفصون في ما تَقدَّم من الكتاب، ومن المحتمل أن يكون ذلك في القسم الذي فُقِدَ منه.

(٢) يعني: المعتلي يحيى بن عليّ بن حمّود.

ورجع نجا إلى سَبْتَة وطَنْجَة، وترك مع الحَسَن رجلاً كان من التجار يُعرف بالسّطيفي، كان نجا كثيرَ الثقة به، فبقي الأمر كذلك نحواً من عامين.

وكان الحَسَن بن يحيى متزوجاً بابنة عَمّه إدريس، فقيل: إنها سمّته أسفاً على أخيها، فلما مات احتاط السطيفي على الأمر، واعتقل إدريس بن يحيى، وكتب إلى نجا بالخبر.

وكان للحَسَن ابنٌ صغيرٌ عند نجا، فقيل إنه اغتاله أيضاً فقتله، فاللَّه أعلم.

ولم يُعقب حَسَن بن يحيى، فاستخلف نجا على سَبْتَة وطَنْجَة من وثق به من الصقالبة عند وصول الخبر إليه، وركب البحر إلى مَالَقَةَ، فلما وصل إليها زاد في الاحتياط على إدريس بن يحيى، وأكّد اعتقاله، وعزم على محو أمر الحَسَنيِّين جملةً، وأن يضبِط تلك البلاد لنفسه، فدعا البربر الذين كانوا جندَ البلد، وكشَف الأمر إليهم علانية، ووعدهم بالإحسان، فلم يجِدوا لمساعدته بُدًا، فوافقوه في الظاهر، وعَظُم ذلك في أنفسهم باطناً. ثم جمع عسكره، ونهض إلى الجزيرة ليستأصل مُحمَّد بن القاسم، فحاربه أياماً، ثم أحسّ بفتور نيات الذين معه، فرأى أن يرجع إلى مَالقَةَ، فإذا حصل فيها نَفَى من يخاف غائلته[1] منهم واستصلح سائرهم، واستدعى الصقالبةَ من حيثما أمكنه ليقوى بهم على غيرهم. وأحسّ البربر بهذا منه، فاغتالوه في الطريق من قبل أن يصل إلى مَالَقَة، فَقُتِلَ وهو على دابته في مضيقٍ صارَ فيه، وقد تقدّمه إليه الذي أراد الفتك به، وفرّ من كان معه من الصقالبة بأنفسهم. ثم تقدم فارسان من الذين غدروا به يركضان حتى وردا مَالقَة، فدخلا وهما يقولان: البشرى البشرى! فلما وصلا إلى السّطيفي، وضعا سيفيهما عليه فقتلاه.

ثم وافى العسكر فاستخرجوا إدريس بن يحيى من محبسه، فقدموه وبايعوه بالخلافة، وتسمَّى بـ«العالي». فظهرت منه أمور متناقضة، منها أنه كان أرحمَ الناس قلباً، كثير الصدقات؛ يتصدق كل يومٍ بخمسمائة، وردَّ كلَّ مطرودٍ عن وطنه إليه، وردّ عليهم ضياعهم وأملاكهم، ولم يسمع بَغْياً في أحد من الرعية. وكان أديب اللقاء، حسن المجلس، يقول من الشعر الأبياتَ الحسان. ومع هذا فكان لا يَصْحَبُ ولا يُؤْثِر إلّا كلَّ ساقطٍ رَذْل، ولا يَحْجُبُ حُرَمَه عنهم. وكلّ من طلب منه حصناً من حصون بلاده ممن يجاوره من صَنْهَاجَة أو بني يَفْرَنَ أعطاه إياه. وكتب إليه أمير صَنْهَاجَة أن يُسلِّم إليه وزيره ومدبِّر أمره وصاحبَ أبيه وجدِّه: مُوسَى بن عفَّان السبتي، فلما أخبره بأنّ الصنهاجيَّ كتب إليه يطلبه منه وأنه لا بُدَّ من تسليمه إليه، قال له مُوسَى بن عفان: «افعَلْ ما تُؤْمَر،

---

(١) الغائلة: الفساد والشرُّ، أو الداهية، والجمع: غوائل.

سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّه مِنَ الصَّابرين»[١]! فبعث به إلى الصَّنْهَاجي فقتله.

وكان قد اعتقل ابنيْ عمه مُحمَّداً وحَسَناً ابني إدريس بن علي في حصن «إيرُش»، فلما رأى ثقتُه الذي في الحصن اضطرابَ آرائه، خالف عليه وقدَّم ابنَ عَمّه مُحمَّد بن إدريس. فلما بلغ ذلك السودانَ المرتَّبين في قصبة مَالقَةَ، نادوا بدعوة ابن عَمّه مُحمَّد بن إدريس، وراسلوه بالمجيء إليهم وامتنعوا بالقصبة.

واجتمعت العامة إلى إدريس بن يحيى، واستأذنوه في حرب القصبة والدفاع عنه؛ ولو أذن لهم ما ثبت السودان فُوَاقَ ناقة[٢]، فأبى، فقال لهم: الزموا منازلكم ودَعُوني؛ فتفرقوا عنه.

وجاء ابن عَمّه، فَسُلِّم عليه، وَبُويع بالخلافة، وتسمَّى بـ«المهدي»، وولَّى أخاه عَهْدَه، وسمَّاه «السامي»، واعْتَقل ابن عمّه إدريس بن يحيى في الحصن الذي كان هو معتقلاً فيه.

وظهرت من مُحمَّد بن إدريس هذا شهامةٌ وجرأة شديدة هابه بها جميع البربر، وأشفقوا منه، وراسلوا المرتَّب في الحصن الذي فيه إدريس بن يحيى هذا واستمالوه، فأجابهم وقام بدعوة إدريس.

وقد كان إدريس أولَ ولايته بعد قتل نجا ـ كما تقدم ـ قد وَلَّى سَبْتَةَ وطَنْجَة رجلين من بَرَغْوَاطَة، قبيلةٍ من قبائل البربر، مع عبيد أبيه، اسم أحدهما رزق اللَّه، والآخر سَكات؛ فلما خُلع إدريس كما تقدم، بقيا حافظين لمكانَيْهما.

فلما قام ـ كما ذكرنا ـ بدعوته صاحبُ حصن إيرُش، لم يُظهر مُحمَّدٌ مبالاةً بذلك، بل ثبت ثباتاً شديداً. وكانت والدته تشجعه وتقوِّي مَتْنَه وتُشرِف على الحرب بنفسها فَتُحْسِن إلى منْ أَبْلَى. فلما رأى البربر شدةَ عزمه وثباته، فتَّ ذلك في أعضادهم[٣] وتخلَّوا عن إدريس بن يحيى، ورأوا أن يبعثوا به إلى سَبْتَة وطَنْجَة، إلى البَرَغْوَاطيَّيْن اللذين ذكرنا، وقد كان إدريس جعل ابنه عندهما في حضانتهما؛ فلما وصل إليهما أظهرا تعظيمه ومخاطَبَته بالخلافة، إلا أنهما حَجَباه حجاباً شديداً ولم يَدَعا أحداً من الناس يصل إليه، فتلطَّف[٤] قوم من أكابر البربر حتى وصلوا إليه، وقالوا له: إن

(١) هذا من قول اللَّه تعالى على لسان إسماعيل عليه السلام: ﴿**قال يا أَبَتِ افْعَلْ ما تُؤْمَر سَتَجِدُني إنْ شَاءَ اللَّه مِنَ الصَّابرين**﴾. [الصافات: ١٠٢].

(٢) الفَوَاقُ: الوقت بين الحلبتين، أو الوقت بين قبضتي الحالب لضرع الناقة. وفي قوله: «لم يثبت السودان فواق ناقة»: كناية عن سرعة هزيمتهم.

(٣) فَتَّ في أعضادهم: أَوهن قواهم. والأعضاد: جمع العَضُد: ما بين المرفق إلى الكتف.

(٤) تَلطَّف للأمر، وفيه، وبه: تَرفَّق، ومنه: تَلطَّف بفلان: احتال له حتى اطَّلع على أحواله.

هذين العبدين قد غَلَبَا عليك، وحالا بينك وبين أمرك، فأْذَن لنا نَكفِيكهُما، فأبى؛ ثم أخبرهما بذلك، فنفيا أولئك القوم، وأخرجا إدريس بن يحيى، وبَعَثَا به إلى الأندلس، وتمسّكا بولده لصغره؛ إلا أنهما في كل ذلك يخطبان لإدريس بالخلافة.

ثم إن مُحمَّد بن إدريس أنكر من أخيه الملقب بـ«السامي» أمراً، فنفاه إلى العُدْوَة، فصار في جبال غمارة، وهي بلاد تنقاد لهؤلاء الحَسَنِيِّين، وأهلُها يعظّمونهم تعظيماً مفرطاً.

ثم إن البرابرة خاطبوا مُحمَّد بن القاسم الكائن بالجزيرة الخضراء، واجتمعوا إليه ووعدوه بالنصر. فاستفزّه الطمع وخرج إليهم، فبايعوه بالخلافة، وتسمَّى بـ«المهدي»؛ وصار الأمر في غاية الأُخلوقة والفضيحة: أربعةٌ كلُّهم يتسمَّى بأمير المؤمنين، في رقعةٍ من الأرض مقدارها ثلاثون فرسخاً في مثلها.

فأقاموا معه أياماً ثم افترقوا عنه إلى بلادهم، ورجع مُحَمَّد خاسئاً إلى الجزيرة ومات لأيام؛ فقيل إنه مات غمًّا؛ وترك نحواً من ثمانية ذكور.

فتولَّى أمر الجزيرة بعده ابنُه القاسم بن مُحمَّد بن القاسم، إلا أنه لم يتسمَّ بالخلافة.

وبقي مُحمَّد بن إدريس [المهدي] بِمَالَقَة إلى أن مات سنة ٤٤٥.

وكان إدريس بن يحيى المعروف بـ«العالي» عند بني يَفْرَن بتاكرونة؛ فلما تُوفِّي مُحمَّد بن إدريس بن يحيى [المهدي] رَدَّت العامةُ إدريس العالي إلى مَالَقَة واستولى عليها، وهو آخر من ملكها من الحَسَنيِّين. فلما مات، أجمع البربر رأيَهم على نفي الحَسَنيِّين عن الأندلس إلى العُدْوَة، والاستبداد بضبط ما كانوا يملكونه من البلاد، ففعلوا ذلك وتمَّ لهم ما أرادوا منه.

كانت الجزيرة الخضراء وما والاها من القرى إلى تاكرونة، ومَالَقَة وما والاها أيضاً إلى حصن منكب وغَرْنَاطَة وأعمالها، في ملك البربر. وملكوا مع ذلك بعض أعمال إشبِيلِيَّة، كحصن أَشُونَة، وقَرْمُونة، وشَلَّبَر. ولم يزالوا كذلك إلى أن أخرجَ من أيديهم ما كانوا يملكونه من أعمال إشبِيلِيَّة المُعتضدُ باللَّه أبو عمرو عبّاد بن مُحمَّد بن إسماعيل بن عبّاد اللخمي، ثم أتم ابنه أبو القاسم المُعتمد على اللَّه ما ابتدأه أبوه من ذلك.

وهذا آخر أخبار الحَسَنيِّين وما يتعلق بها، حسبما أورده أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن أبي نَصْر الحُميدي، عليه عوَّلت في أكثر ذلك، ومن كتابه نقلت، خلا مواضع تبينت غلطَه فيها، أصلحتُها جَهْدَ ما أقدر.

وعلى اللَّه قَصْدُ السبيل، وهو المسؤول في الهداية قولاً وعملاً.

فصــل

يتضمن ذكر أحوال الأندلس بعد انقطاع الدعوة الأموية عنها على الإجمال لا على التفصيل

وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فإنّ أهلها تفرَّقُوا فِرقاً، وتغلَّب في كلّ جهة منها متغلِّب، وَضبط كلُّ متغلِّب منهم ما تغلب عليه، وتقسَّموا ألقاب الخلافة؛ فمنهم من تسمَّى بـ«المُعتضِد»، وبعضهم تسمَّى بـ«المأمون»، وآخر تسمَّى بـ«المُستعين»، والمُقتدر، والمُعتصم، والمُعتمد، والمُوفق، والمُتوكل؛ إلى غير ذلك من الألقاب الخِلافية؛ وفي ذلك يقول أبو عليّ الحسن بن رشيق[1]:

مِـمَّـا يُـزهِّـدُنـي فـي أرضِ أنـدلـسٍ ... سَـمَـاعُ مُـقْـتَـدِرٍ فـيـهـا وَمُـعـتـضِـدِ[2]

ألـقـابُ مَـمْـلَـكـةٍ فـي غَـيْـرِ مَـوْضِـعـهـا ... كَـالهِرِّ يَـحكِـي انْتِفاخاً صَوْلَةَ الأسدِ!

وأنا ذاكرٌ إن شاء اللّه في هذا الفصل أسماءهم والجهات التي تغلَّبوا عليها، على نحو ما شرطتُ من الإجمال؛ إذ لكلٍّ منهم أخبار وسِيَر ووقائعُ لو بسطتُ القولَ فيها خرج هذا التصنيف عن حدّ التلخيص إلى حيّز الإسهاب. وأيضاً فالذي منعني عن استيفاء أخبارهم أو أخبار أكثرهم، قِلةُ ما صَحِبني من الكتب، واختلالُ معظم محفوظاتي.

[ملوك الطوائف]

فأوّلهم في الربع الشرقي، رجل اسمه سُلَيْمان بن هُود، تلقب بـ«المُؤتمن»، وتلقَّب ابنه بـ«المقتدر»، وتلقَّب ابنه بـ«المستعين»[3].

---

(١) هو أبو علي، الحسن بن رشيق القيرواني: أديب، شاعر، ناقد. ولد في المسيلة بالمغرب، وتوفي سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧١م. من آثاره: «العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده»، وديوان شعر. (معجم الأدباء، ياقوت الحموي: ٣/ ٢٢٠). والبيتان في ديوانه: ٦٦.

(٢) زهد في الشيء وعنه زهداً وزهادةً: أعرض عنه وتركه لاحتقاره، أو لتحرّجه منه.

(٣) كذا في الأصل. وفي غيره من المراجع: أن سليمان بن هود هذا تلقَّب بالمستعين، وابنه بالمقتدر، وابنه بالمؤتمن.

كان بنو هود هؤلاء يملكون من مدن هذه الجهة الشرقية: طَرْطُوشَة وأعمالَها، وسَرَقُسْطَة وأعمالها، وأَفراغة، ولَارِدَة، وقلعة أيوب؛ هذه اليوم كلُّها بأيدي الإفرنج، يملكها صاحب بَرْشَنُونة ـ لعنه اللّه ـ وهي البلاد التي تُسَمَّى أَرْغُن، حدّ هذا الاسم آخر مملكة البرشنوني مما يلي بلاد إفرنسة.

* * *

[ويجاور بني هُود هؤلاء رجل آخر اسمه عبد الملك بن عبد العزيز، يُكْنَى أبا مَرْوَان، قديم الرياسة، هو أحق ملوك الأندلس بالتقدم لشرف بيته، ولا أعلم له لقباً، كان يملك بَلَنْسِيَة وأعمالها].

* * *

وكان يلي الثغر رجل آخر يقال له أبو مَرْوَان بن رَزِين، كان يملك إلى أول أعمال طُلَيْطُلَة.

* * *

وكان الذي يملك طُلَيْطُلَة وأعمالها: الأمير أبو الحَسَن يحيى بن إسماعيل بن عبد الرَّحْمَن بن إسماعيل بن عَامِر بن مُطَرِّف بن مُوسَى بن ذي النُّون[١].

وأبو الحَسَن هذا أقدمُ ملوك الأندلس رياسةً وأشرفهم بيتاً وأحقهم بالتقدُّم، تلقَّب بـ«المأمون»؛ كان أبوه إسماعيل هو الذي تغلّب على طُلَيْطُلَة من قبلُ واستبد بِمُلْكها أَوّلَ الفتنة.

ولم يزل أبو الحَسَن هذا يملك طُلَيْطُلَة وأعمالها كما ذكرنا، إلى أن أخرجه عنها الأدفنش[٢] ـ لعنه اللّه ـ واستولى عليها النصارى في شهور سنة ٤٧٨، فهي قاعدة ملك النصارى إلى وقتنا هذا.

* * *

وكان يملك قُرْطُبَة وأعمالها إلى أول الثغر: جَهْوَر بن مُحمَّد بن جَهْوَر المتقدم ذكره ونسبه إلى أن غلبه عليها صاحب طُلَيْطُلَة إسماعيل بن ذي النُّون والد أبي الحَسَن المذكور آنفاً.

* * *

وكان يملك إشبِيلِيّة وأعمالها: القاضي أبو القاسِم مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد

(١) توفي سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م بطُلَيْطُلة.

(٢) هو ألفونس السادس ملك قَشْتَالة.

اللخمي، تغلّب عليها بعد أن أخرج عنها القاسِم بن حَمُّود وابنيه مُحمَّداً والحَسَن على ما سيأتي الإيماء إليه إن شاء اللّه عزَّ وجلَّ.

* * *

وكان يملك مَالَقَة والجزيرة وغَرْنَاطَة وما والى ذلك: البربر بنو بَرْزَال الصِّنْهاجِيُّون على ما قدمناه.

* * *

وتغلَّب على المَرِيَّة وأعمالها زُهَير العامري الخادم، ثم ملكها بعده خَيْرَان العامري أيضاً الخادم، ثم تغلَّب عليها بعدهما أبو يحيى مُحمَّد بن مَعْن بن صُمَادح المتلقب بـ«المُعتصم»؛ فلم يزل فيها إلى أن أخرجه عنهايُوسُف بن تَاشُفِين اللَّمْتُوني في شهور سنة ٤٨٤.

* * *

وكان يملك دَانية وأعمالها: مُجاهدٌ العامري(١)، أصله رومي، مولى لأبي عَامِر مُحمَّد بن أبي عَامِر، ثم ملكها بعده ابنه علي بن مُجاهد، وتلقَّب بـ«المُوفّق»، لا أعلم في المُتغلّبين على جهات الأندلس أصْوَنَ منه نفساً ولا أطهر عرضاً ولا أنقى ساحةً، كان لا يشرب الخمر ولا يقرب من يشربها، وكان مؤثِراً للعلوم الشرعية مكرماً لأهلها. تُوفِّي قبل فتنة المرابطين بيسير، لا أتحقق تاريخ وفاته(٢).

* * *

وكان يملك الثغر الذي من الجهة المغربية من الأندلس وبعضَ المدن المجاورة للبحر الأعظم: ابنُ الأفطس المتلقب بـ«المُظفَّر»، ذهب عني اسمه(٣)، ثم كان له ابنٌ اسمه عُمَر، يُكْنَى أبا مُحمَّد، تلَقَّب بـ«المُتوكل على اللّه»، كان يملك بَطَلْيُوس وأعمالَها، وَيَابرة، وشَنْتَرين، والأَشبونة.

كان المُظَفَّر هذا أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه باسمه، على نحو «الاختيارات» للروحي، و«عيون الأخبار» لأبي مُحمَّد بن قُتَيْبَة(٤)؛

---

(١) كان من أهل الأدب والشجاعة والمحبة للعلوم وأهلها. نشأ بقرطبة، وكانت له همَّة وجلادة وجرأة، وتوفي سنة ٤٣٦هـ/ ١٠٤٥م. (بغية الملتمس، الضبي: ٤٧٢).

(٢) يقال: إن عليًا بن مجاهد ظلّ على حكم دانية حتى غلبه عليها المقتدر أحمد بن سليمان بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، سنة ٤٦٨هـ، فخرجَ منها، وانقطعت أخباره.

(٣) هو محمد بن عبد اللّه بن الأفطس.

(٤) هو أبو محمد، عبد اللّه بن مسلم بن قتيبة الدينوري: من أئمة الأدب، مُصنِّفٌ مُكثِرٌ. ولد في ـ

جاء هذا الكتاب في نحوٍ من عشرة أجزاء ضخمة، وقفت على أكثره، ترجمته «المُظفَّريّ».

وكان لابنه المُتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر، مع شجاعةٍ مفرطةٍ وفروسيةٍ تامة، وكان لا يُغِبُّ الغزو ولا يشغله عنه شيء. واتصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب يُوسُف بن تَاشُفِين، وقتلوا ولديه الفضل والعباس صبراً؛ ضربوا أعناقهم في غرّة سنة ٤٨٥.

وكانت أيام بني المُظفَّر بمغرب الأندلس أعياداً ومواسم، وكانوا ملجأً لأهل الآداب، خلدت فيهم، ولهم قصائد شادت مآثرهم وأبقت على غابر الدهر حميد ذكرهم؛ وفيهم يقول الوزير الكاتب الأبرع ذو الوزارتين أبو مُحمَّد عبد المجيد بن عَبْدُون[1]، من أهل مدينة يَابُرة، قصيدته الغرّاء، لا بل عقيلته العذراء، التي أزرت على الشعر، وزادت على السحر، وفعلت في الألباب فعل الخمر، فجلّت عن أن تُسَامَى، وأنفت من أن تُضاهَى[2]؛ فَقَلَّ لها النظير، وكثر إليها المشير، وتَسَاوى في تفضيلها وتقديمها باقلٌ وجرير[3]؛ فللّه هي من عقيلة خدرٍ قَرُبتْ بسهولتها حتى أطمعتْ؛ وبَعُدَت حتى عَزَّت فامتنعت؛ أوردتها في هذا المصنف وإن كان فيها طولٌ مخرجٌ عن الحدّ الذي رسمته؛ مُخِلٌّ بالتلخيص الذي شرطته؛ لِصحَّة مبانيها، ورشاقة ألفاظها وجودة معانيها، سلك فيها أبو مُحمَّد رحمه اللّه طريقة لم يُسْبَق إليها، وورد شِرْعةً لم يُزَاحَم عليها؛ فلذلك قلَّ مثلها لا بل عُدِم، وعزَّ نظيرها فما تُوُهِّم ولا عُلم، وهي: [من البسيط]

الدَّهْرُ يَفْجَعُ بَعْدَ العَيْنِ بالأثرِ فما البكاءُ على الأشباحِ والصُّورِ؟
أَنهاكَ أنهاكَ لا آلُوكَ مَوْعِظةً عَنْ نَوْمةٍ بين نابِ الليثِ والظُّفُرِ
فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وإنْ أبدَى مُسَالَمَةً والبِيضُ والسُّودُ مثلُ البيضِ والسُّمُرِ
ولا هُوادَةَ بينَ الرأسِ تَأخُذُه يدُ الضِّرابِ وبين الصَّارِمِ الذَّكَرِ[4]

= بغداد، وسكن الكوفة، وولي قضاء الدينور، فنُسِب إليها. توفي سنة ٢٧٦هـ/ ٨٨٩م. من آثاره: «الشعر والشعراء»، و «عيون الأخبار». (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٣/ ٤٢).

(١) هو أبو محمد، عبد المجيد بن عبد اللّه بن عبدون الفهري اليابرتي: أديب الأندلس في عصره. كان يُلقَّب بذي الوزارتين. ولد بيابرة، وتوفي فيها سنة ٥٢٩هـ/ ١١٣٥م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ١٤٩).

(٢) تُضَاهَى: تُشَابَهُ.

(٣) باقل: هو باقل الإيادي، الذي يُضرب بعيّه المثل، فيقال: «أعيى من باقل». جرير: هو جرير بن الخطفي، الشاعر الأموي المشهور.

(٤) الصارم الذكر: السيف القاطع المصنوع من أجود أنواع الحديد.

فلا تَغُرَّنْكَ مِنْ دُنياكَ نَوْمَتُها ... فما صِناعةُ عَيْنَيْها سِوَى السَّهَرِ

ما لِلّيالي ـ أقالَ اللّهُ عَثْرَتَنا ـ ... مِنَ اللّيالي وَخَانَتْها يدُ الغِيَرِ (١)

في كُلِّ حِينٍ لها في كلِّ جَارِحةٍ ... مِنَّا جِراحٌ وإنْ زاغتْ عن النَّظَرِ

تَسُرُّ بالشيءِ لَكِنْ كَيْ تَغُرَّ بهِ ... كالأَيْمِ ثارَ إلى الجاني من الزَّهَرِ

كَمْ دَوْلَةٍ وَلِيَتْ بالنصرِ خِدْمَتَها ... لم تُبْقِ منها ـ وَسَلْ ذِكْرَاكَ ـ من خبرِ

هَوَتْ بِدَارا وفَلَّتْ غَرْبَ قاتلِهِ ... وكانَ عَضْباً على الأملاكِ ذا أُثُرِ (٢)

واسترجعتْ من بني ساسانَ ما وَهَبتْ ... ولم تَدَعْ لِبَنِي يُونانَ من أَثَرِ (٣)

وألحقتْ أختَها طَسْماً، وعادَ على ... عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقِضُ المِرَرِ (٤)

وما أقالت ذوي الهيئاتِ مِنْ يَمَنٍ ... ولا أجارتْ ذوي الغاياتِ من مُضَرِ (٥)

ومَزّقتْ سَبَأً في كلِّ قاصيةٍ ... فما الْتَقَى رائحٌ منهم بمُبْتَكِرِ (٦)

وأنفَذتْ في كُلَيْبٍ حُكْمَها، وَرَمتْ ... مُهَلْهِلاً بين سَمْعِ الأرضِ والبصرِ (٧)

وَلَمْ تَرُدَّ على الضِّلِّيلِ صِحَّتَهُ ... ولا ثَنَتْ أَسداً عن ربِّها حُجُرِ (٨)

وَدوَّخَتْ آلَ ذُبْيانٍ وإخوتَهُمْ ... عَبْساً، وغَصَّت بني بدرٍ على النَّهَرِ (٩)

---

(١) العَثْرَةُ: الزَّلَة. الغِيَرُ: غِيَرُ الدهر: أحواله وأحداثه المتغيرة.

(٢) دارا: من ملوك الفرس، لبث في الحكم ثلاثين عاماً، وقتله الإسكندر. فَلَّ السيف فَلاً: ثلمه وكسر حَدَّه. الغَرْبُ: أوّل كل شيءٍ وحدُّه. العضب: السيف القاطع. الأملاك: الملوك. الأثر: فرند السيف: ما يُلمح في صفحته من أثر تموّج الضوء.

(٣) بنو ساسان: الأكاسرة من ملوك فارس.

(٤) طسم، وعاد، وجرهم: من قبائل العرب القديمة.

(٥) أقالت: يقال: أقال اللّه عثرته: صفح عنه وتجاوز.

(٦) سبأ: قوم ورد ذكرهم في قوله تعالى: **﴿لَقَدْ كانَ لسَبأ في مَسْكَنِهم آيةٌ جَنَّتان عَن يَمينٍ وشمالٍ، كُلوا من رِزْقِ ربِّكُم واشكُروا له، بلدةٌ طيِّبةٌ وربٌّ غَفُور. فأعرضوا فأرسلنَا عليهم سيل العرم. . .﴾** إلى قوله تعالى: **﴿ومزقناهم كلّ مُمزَّق﴾** [سبأ: ١٦ ـ ٢٠]. الرائح: العائد إلى داره في العشي. المبتكر: الخارج منه صباحاً.

(٧) كليب: هو كليب بن ربيعة الذي يقال فيه: «أعزُّ من كليب»، لما بلغه من عِزٍّ وشرفٍ وسؤدد. ومهلهل: أخوه، وقد قتله بعض عبيده غدراً.

(٨) الضِّلِّيل: هو الشاعر الجاهلي امرؤ القيس بن حجر الكندي، ملك كندة، وكانت قبيلة أسد قد قتلت أباه حجراً، فحمل امرؤ القيس عبء الثأر له، وحارب أسد في مواقع عِدّة، حتى أدركه الأجل في «أنقرة» من بلاد الروم.

(٩) ذبيان، وعبس: أخوان ابن بني بغيض بن ريث بن غطفان. بنو بدر: بطن من ذبيان.

وألحقتْ بِعَدِيٍّ بالعراقِ على ... يَدِ ابنهِ أحمرِ العينينِ والشَّعَرِ[١]
وَأهلكتْ أبرَويزاً بابنهِ وَرَمتْ ... بيَزْدَجُرْدَ إلى مَرْوٍ فلم يَحُرِ[٢]
وبلَّغتْ يَزْدَجُرْدَ الصِّينَ واختزلتْ ... عَنْهُ سِوى الفُرسِ جَمْعَ التُّركِ والخَزَرِ[٣]
وَلَمْ تَرُدَّ مَواضي رُسْتمٍ وَقَنَا ... ذِي حاجبٍ عنه سَعْداً في ابنةِ الغِيَرِ[٤]
يَوْمَ القَلِيبِ بَنُو بدرٍ فَنُوا وسعَى ... قَلِيبُ بَدْرٍ بمنْ فيه إلى سَقَرِ[٥]
وَمَزَّقتْ جَعْفَراً بالبيضِ واختَلَسَتْ ... مِنْ غِيلِهِ حمزةَ الظَّلَّامَ للجُزُرِ[٦]
وأَشرفتْ بخُبَيْبٍ فَوْقَ فارِعةٍ ... وألصقتْ طَلْحَةَ الفَيَّاضَ بالعَفَرِ[٧]
وخَضَّبتْ شَيبَ عثمانٍ دماً وخطَتْ ... إلى الزُّبَيْرِ ولم تَسْتَحْيِ مِن عُمَرِ[٨]
ولا رَعَتْ لأبي اليَقْظانِ صُحْبَتَهُ ... ولم تُزَوِّدْهُ إلا الضَّيْحَ في الغُمُرِ[٩]
وَأَجْزَرَتْ سَيْفَ أشقاها أبا حَسَنٍ ... وأَمْكَنتْ من حُسَيْنٍ رَاحَتيْ شَمِرِ[١٠]

---

(١) عدي: هو عدي بن زيد: شاعر جاهلي قديم، كان يسكن الحيرة من أرض العراق. وكان النعمان بن المنذر قد حبسه ثم قتله. فعمل ابنه زيد بن عدي على الانتقام منه، ولم تقرّ عينه إلّا بعد أن أوغر صدر كسرى ملك الفرس عليه، فأمر بقتله. وأحمر العينين والشعر: صفة للنعمان بن المنذر لبرصٍ كان فيه.

(٢) أبرويز: هو كسرى أبرويز بن هرمز، من أشهر ملوك فارس. قتله ابنه شيرويه بتحريضٍ من الرعية. يزدجرد: هو آخر ملوكهم، وكان فرَّ من قصره إثر دخول جيش المسلمين إلى بلاده. لم يحر: لم يرجع.

(٣) في البيت إشارة إلى هرب يزدجرد إلى الصين، وتحالفه مع الترك والصغد والخزر ضد المسلمين.

(٤) رستم: هو قائد جيش الفرس يوم القادسية. ذو حاجب: هو خرزاد حامل رايتهم. وسعد: هو سعد بن أبي وقاص قائد جيش المسلمين في معركة القادسية. ابنة الغِيَر: الداهية.

(٥) القليب: البئر. وفي البيت إشارة إلى يوم القليب في الجاهلية، وغزوة بدر الكبرى زمن الرسول ﷺ.

(٦) يذكر اثنين من آل رسول اللّه ﷺ هما: جعفر بن أبي طالب، وقد استشهد في غزوة مؤتة، وحمزة بن عبد المطلب، وقد استشهد يوم أُحُد. وقوله: ظلّام الجزر: أي الكريم الذي يكثر من نحر الجزر للناس.

(٧) يذكر مصرع خبيب بن عدي الأنصاري، الذي أُسِرَ يوم الرجيع، وَصُلِب وقُتل بمكة، ومصرع طلحة بن عبيد اللّه التميمي، الذي قُتِل يوم الجمل.

(٨) يُشير إلى مقتل كلٍّ من عثمان بن عفان، والزبير بن العوام، وعمر بن الخطاب غدراً في مواضع مختلفة.

(٩) أبو اليقظان: هو عمار بن ياسر، الذي قتله أصحاب معاوية بن أبي سفيان يوم صِفِّين. الضيح: اللبن.

(١٠) أجزر فلاناً: دفع له شاةً تصلح للذبح. أبو حسن: هو الإمام علي بن أبي طالب كرَّم اللّه =

وَلَيْتَهَا إذ فَدَتْ عَمْراً بخارجةٍ فَدَتْ عَلِيًّا بمنْ شَاءتْ من البشرِ(١)
وَفي ابنِ هندٍ وفي ابن المُصطفى حَسنٍ أَتتْ بِمُعْضِلةِ الألباب والفِكَرِ(٢)
فَبعْضُنا قائلٌ ما اغْتالَهُ أحدٌ وَبعْضُنا سَاكتٌ لم يُؤتَ مِن حَصَرِ(٣)
وأرْدَت ابْنَ زِيَادٍ بالحُسيْنِ فَلَمْ يَبُؤْ بِشِسْعٍ له قَدْ طاحَ أو ظُفُرِ(٤)
وعَمَّمتْ بالظُّبى فَوْدَيْ أَبي أَنَسٍ وَلَمْ تَرُدَّ الرَّدَى عَنْهُ قَنا زُفَرِ(٥)
وأنزلتْ مُصْعَباً مِنْ رأسِ شَاهقةٍ كانتْ بِهَا مُهْجَةُ المُختارِ في وَزَرِ(٦)
وَلَمْ تُراقِبْ مكانَ ابنِ الزُّبير ولا رَاعتْ عِيَاذَتَهُ بالبَيْتِ والحَجرِ(٧)
وأَعْملَتْ في لَطِيمِ الجِنِّ حيلتَها واسْتَوْسقتْ لأبي الذِّبّانِ ذي البَخَرِ(٨)
وَلَمْ تَدَعْ لأبي الذِّبَّانِ قَاضِبَهُ لَيْسَ اللطيمُ لها عَمْرٌو بِمُنْتَصِرِ(٩)
وأَحرقتْ شِلوَ زَيدٍ بعدما احترقتْ عليه وَجْداً قلوبُ الآي والسُّوَرِ(١٠)

= وجهه، والحسين: هو ابنه. أشقاها: هو عبد الرحمن بن ملجم الذي طعن عليًّا، وشمر: هو ابن الجوشن: أحد العاملين على قتل الحسين في كربلاء.

(١) عمرو: هو عمرو بن العاص، وخارجة: رجل من أنصاره في مصر.

(٢) ابن هند: هو معاوية بن أبي سفيان، وأمه هند بنت عتبة بن ربيعة. وحسن: هو الحسن بن علي بن أبي طالب. المعضلة: المشكلة أو المسألة الصعبة. الألباب: العقول والأفهام.

(٣) الحَصَرُ: يقال: حَصِرَ فلان حَصَراً: ضاق صدره، وحَصِرَ القارىء: عَيَّ في منطقه ولم يقدر على الكلام، وحَصِر عن الشيء: امتنع عنه عجزاً.

(٤) ابن زياد: هو عبيد اللّه بن زياد بن أبيه، أمير الكوفة، وأحد مُدبِّري مقتل الحسين في كربلاء. يبوء: يرجع. الشِّسْعُ: رباط النعل. والمعنى: أن الليالي اقتصت للحسين من ابن زياد بميتةٍ مشابهةٍ على يد إبراهيم بن الأشتر النخعي من بعد.

(٥) أبو أنس: هو الضحّاك بن قيس الفهري. زفر: هو زفر بن الحارث الكلابي، حليف الضحاك في معركة مرج راهط. الظُّبى: جمع ظبة: حَدُّ السيف. الفود: جانب الرأس. القنا: الرماح.

(٦) مصعب: هو مصعب بن الزبير، وكان والياً على العراق من قِبَل أخيه عبد اللّه. الشاهقة: العالية، المرتفعة، والمراد بها: قلعة الكوفة.

(٧) يريد: عبد اللّه بن الزبير، وكان يُسمَّى العائذ، لأنه كان يقول: أنا العائذ بالبيت. ولكن تلك العياذة لم تمنعه من مَنْجَنيق الحجّاج بن يوسف الثقفي وسيفه.

(٨) لَطِيمُ الجنّ: هو عمرو بن سعيد الأموي، وكان عبد الملك بن مروان قد استدرجه بالحيلة إلى داره وقتله. وأبو الذبان: كنية نُبِزَ بها عبد الملك، وكان أبخر.

(٩) قاضبه: سيفه.

(١٠) الشلو: العضو. زيد: هو زيد بن علي بن الحسين، وكان ثار على الأمويين، وبُويع بالخلافة في الكوفة سنة ١٢٢هـ.

وأظفرتْ بالوليدِ بنِ اليزيدِ وَلمْ تُبقِ الخلافةَ بينَ الكأسِ والوترِ[١]
حَبَابةٌ حَبُّ رُمَّانٍ أُتيحَ لها وأحمرٌ قطرته نفحةُ القطرِ[٢]
وَلمْ تَعدْ قُضبُ السفَّاحِ نائيةً عَنْ رَأسِ مَرْوانَ أو أشياعِه الفُجُرِ[٣]
وأَسبلتْ دَمْعَةَ الرّوحِ الأمينِ على دَمٍ بِفَخٍّ لآلِ المُصْطَفى هَدَرِ[٤]
وأَشرقتْ جَعْفَراً والفضلُ يَنظرُه والشيخَ يَحْيَى بِريقِ الصارمِ الذَّكَرِ[٥]
وأَخفرتْ في الأمينِ العهدَ، وٱنتدبتْ لِجَعْفرٍ بابنِهِ والأعبُدِ الغُدرِ[٦]
وما وَفَتْ بِعُهُودِ المُسْتَعينِ ولا بِما تأكَّدَ لِلمُعتزِّ مِنْ مِرَرِ[٧]
وأَوْثقتْ في عُراها كُلَّ مُعتمدٍ وأَشْرَقتْ بِقَذاها كُلَّ مُقْتَدِرِ
وَروَّعتْ كُلَّ مأمونٍ ومُؤتَمَنٍ وأَسلمتْ كُلَّ منصورٍ ومُنتصِرِ
وأعثرتْ آلَ عَبَّادٍ لَعاً لَهُمُ بذيلِ [زَبَّاءَ] لم تَنفِرْ مِنَ الذُّعُرِ[٨]

* * *

بَني المظفَّرِ والأيامُ ـ لا نُزلتْ ـ مَراحِلٌ، والورى منها على سَفرِ
سُحقاً لِيَوْمِكُم يوماً ولا حَمَلتْ بِمثْلِهِ ليلةٌ في غابرِ العُمُرِ[٩]

---

(١) الوليد بن يزيد: أحد خلفاء بني أمية، وكان مولعاً بالخمر والغناء، متهماً في دينه.
(٢) حبابة: جارية مغنية، كانت ليزيد بن عبد الملك. وكان مُولعاً بها. فماتت شَرِقةً بِحبَّات رُمَّان تناولتها في خلوة أنس وطرب.
(٣) السفاح: هو أبو العباس السفاح، أول خلفاء الدولة العباسية. والقضب: السيوف القاطعة. ومروان: هو مروان بن محمد، آخر خلفاء الدولة الأموية.
(٤) فَخّ: موضع على مسافة فرسخ من مكة، قُتِلَ فيه عَدَدٌ من آل بيت النبي ﷺ، في أيام المهدي العباسي، وذهب دمهم هدراً.
(٥) جعفر والفضل: ابنا يحيى بن خالد البرمكي. وفي البيت إشارة إلى نكبة البرامكة في بغداد زمن الرشيد العباسي.
(٦) الأمين: هو محمد بن هارون الرشيد، الذي ولي الخلافة بعد أبيه، فثار عليه أخوه المأمون وقتله، واستبدّ بالملك.
وجعفر: هو جعفر بن المعتصم الملقب بالمتوكل، الذي أعان ابنه المنتصر على قتله ليستبد بالحكم. الأعبد: العبيد. الغُدر: جمع الغادر: الخائن، الناكث للعهد والذمّة.
(٧) المستعين: هو أبو العباس، أحمد بن المعتصم، ولي الخلافة بعد المنتصر سنة ٢٤٨هـ، ثم كان مصيره القتل في نزاع على الخلافة. والمعتز: هو المعتز بن المتوكل، ولي الخلافة بعد خلع المستعين، ثم مات قتلاً بعد حين. المِرَرُ: جمع المِرَّة: الأصالة والإحكام.
(٨) لعاً: كلمة تأسف أو توجع، تُقال للعاثر. زبَّاء: الداهية الشديدة، أو الناقة التي كثر الشعر في وجهها.
(٩) الغابر: الماضي.

مَـنْ لـلأسِـرَّةِ، أو مـن لـلأعِـنَّـةِ، أو مـن لـلأسِـنَّـةِ يُـهـدِيـهـا إلـى الـثُّـغـرِ
مَن للظُّبى وَعَوالي الخطِّ قد عُقِدتْ أطرافُ أَلسُنِها بالعيِّ والحَصرِ[١]
وطَوّقت بالمنايا السُّودِ بِيْضَهُمُ فأعجب لِذاكَ وما منها سِوَى الذكرِ
مَنْ لليراعةِ أَوْ مَنْ للبراعةِ أَوْ مَنْ للسماحةِ أَوْ لِلنَّفْعِ والضَّررِ
أَوْ دَفْعِ كارثةٍ أَوْ رَدْعِ آزفةٍ أو قَمْعِ حَادثةٍ تَعْيَا على القدَرِ[٢]
وَيْبَ السَّماحِ وَوَيْبَ البأسِ لَوْ سَلِما وحَسْرةِ الدين والدنيا على عُمَرِ[٣]
سَقَتْ ثَرَى الفضلِ والعباسِ هاميةٌ تُعزَى إليهم سَماحاً لا إلى المطرِ[٤]
ثلاثةٌ ما رأى السَّعدان مِثْلَهُمُ وأخبر وَلَوْ عزّزا في الحوتِ بالقمرِ
ثلاثةٌ ما ارْتَقَى النَّسْران حَيْثُ رَقُوا وكلُّ ما طارَ مِنْ نَسْرٍ ولم يَطِرِ
ثلاثةٌ كَذواتِ الدهرِ منذُ نأَوا عَنّي، مَضَى الدهرُ لم يَربَعْ ولم يحُرِ[٥]
ومَرَّ مِنْ كلِّ شيءٍ فيه أطيَبُهُ حتى التمتُّعُ بالآصالِ والبُكَرِ
أين الجلالُ الذي غَضَّتْ مَهابَتُهُ قُلوبَنا وعُيونَ الأنجمِ الزُّهُرِ[٦]
أين الإباءُ الذي أَرْسَوا قَواعِدَهُ على دَعائِمَ من عِزٍّ ومِنْ ظَفَرِ
أين الوفاءُ الذي أَصْفَوْا شَرائِعَه فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ[٧]
كانوا رواسيَ أَرْضِ اللَّه، منذ مَضوْا عنها اسْتطارتْ بمنْ فيها ولم تَقِرِ[٨]
كانوا مَصابيحَها فَمُذْ خَبَوْا عَثَرتْ هذي الخليقةُ يا لَلَّهِ في سَدَرِ[٩]
كانوا شَجَا الدَّهرِ فَاسْتهوتْهُمُ خدَعٌ منه بأحلامِ عادٍ في خُطى الحضَرِ[١٠]

---

(١) العوالي: الرماح، والخط: موضع في البحرين، كانت تُثقَّفُ فيه الرماح.
(٢) الآزفة: القيامة، ومنه: الأزف: الضيق وسوء العيش. قمع فلاناً: قهره وذلّله، أو منعه عما يُريد، أو ضرب أعلى رأسه.
(٣) وَيْب: كلمة مثل وَيْل، تقول: وَيْبَكَ، وَوَيْبَ لك، وَوَيْباً لك، ويقال: وَيْبَ فلان. عمر: هو أبو محمد عمر المتوكل بن المظفر.
(٤) الفضل والعباس: هما ابنا المتوكل، وقد قتلهما المرابطون في بَطَلْيُوس. الهامية: السحابة الممطرة.
(٥) لم يربع: لم يقف. لم يحر: لم يرجع.
(٦) الزهر: المشرقة، المتلألئة.
(٧) الشرائع: جمع الشريعة: مورد الماء الذي يُسْتقى منه بلا رِشاء.
(٨) لم تقر: لم تثبت.
(٩) السَّدَرُ: الحيرة، يقال: سَدِرَ فلان: تَحيَّر بَصَرُه.
(١٠) الشجا: ما اعترض ونشب في الحلق من عظم ونحوه.

وَيلُمِّهِ مِن طَلُوبِ الثأرِ مُدْرِكِهِ مِنهُم بِأُسْدِ سَرَاةٍ في الوَغَى صُبُرِ[١]
مَنْ لي ولا مَنْ بهمْ إن أظلَمتْ نُوَبٌ ولَم يَكُنْ لَيْلُها يُفْضِي إلى سَحَرِ[٢]
مَنْ لي ولا مَنْ بهمْ إن عُطِّلتْ سُنَنٌ وأُخْفِيتْ أَلسُنُ الآثارِ والسِّيَرِ[٣]
مَنْ لي ولا مَنْ بهم إن أطبقتْ مِحَنٌ وَلَمْ يَكُنْ وِرْدُها يَدعو إلى صَدَرِ[٤]
على الفَضائلِ إلّا الصبرَ بَعْدَهُم سلامُ مُرتَقِبٍ للأجرِ مُنتَظِرِ
يَرْجُو عَسَى وله في أُختِها أَمَلٌ والدهرُ ذو عُقَبٍ شَتَّى وذو غِيَرِ[٥]
قَرَّطتُ آذانَ مَنْ فيها بِفَاضِحَةٍ على الحِسَانِ حَصَى الياقوتِ والدُّرَرِ[٦]
سَيَّارةٍ في أقاصي الأرضِ قَاطِعَةٍ شَقَاشِقاً هَدَرَتْ في البَدْوِ والحَضَرِ[٧]
مُطاعَةِ الأمرِ في الألبابِ قَاضِيةٍ مِنَ المسامعِ ما لَمْ يُقضَ مِنْ وَطَرِ[٨]

وكان أبو مُحمَّد هذا يكتب للمتوكل على اللّه، ونَمَتْ حاله معه؛ وهو أحد كُتَّاب المغرب، وممن جمع منهم فَضيلتَي الكتابة والشعر، على أنه مُقِلٌّ من النظم، لم يثبت به منه إلّا يسير بالنسبة إلى غزارة آدابه ونباهة قدره. وسيمرٌّ من مختار رسائله في موضعه من هذا الكتاب ما يدلّ على ما وصفناه به.

حكى عن نفسه رحمه اللّه أنه كان بين يَدَيْ مُؤدِّبه، وسِنُّه إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، فَعنَّ للمؤدِّب أن قال: [من المجتث]

الشِّعرُ خُطَّةُ خَسْفِ

وجعل يردد هذا القول. قال الوزير أبو مُحمَّد رحمه الله: فكتبت في لَوْحِي مجيزاً له:

لِكُلِّ طَالِبِ عُرْفِ[٩]

---

(١) الوغى: الحرب.
(٢) النُّوَبُ: جمع النائبة: الحادثة، النازلة. السحر: آخر الليل قُبيل الفجر.
(٣) السُّنَنُ: المناهج والطرائق.
(٤) المِحَنُ: الدواهي والمصائب. الورد: الإشراف على الماء. الصَّدَرُ: الرجوع عنه.
(٥) غِيَرُ الدهر: حوادثه وأحواله المتغيرة.
(٦) قَرَّطَ الأذن: جعل فيها قُرْطاً. الفاضحة: الكاسرة، يقال: فضخ الشيء: كسره، وفضخ العين: فَقَأها.
(٧) الشقاشق: جمع الشقشقة: ما يخرجه الجمل من فمه عند الهدير، يقال: هدرت شقشقة فلان: ثار أو أفصح في الكلام.
(٨) الوطر: الحاجة فيها مأرب.
(٩) العُرْفُ: المعروف.

ثم خطر لي بيت ثانٍ، وهو:

لِلشَّيْخِ عَيْبَةُ عَيْبِ   وَلِلْفَتَى ظَرْفُ ظَرْفِ[١]

قال: فنظر إليّ المؤدب وقال: يا عبد المجيد، ما الذي تكتب؟ فأريته اللوح؛ فلما رآه لطمني وعَرَكَ أذني وقال: لا تشتغل بهذا! وكتب البيتين عنده.

ومن غزارة حفظه رحمه اللّه ما حدّث الوزير الأجلّ أبو بَكْر مُحمَّد ابن الوزير أبي مَرْوَان عبد الملك بن أبي العلاء زُهْر بن عبد الملك بن زُهْر[٢] ـ وكان أبو بَكْر هذا قد مات عن سنٍّ عاليةٍ، نيَّف على الثمانين ـ قال:

«بينا أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخٌ أمرته أن يكتب لي «كتاب الأغاني»[٣] فجاء الناسخ بالكراريس التي كتبها؛ فقلت له: أين الأصل الذي كتبتَ منه لأقابل معك به قال: ما أتيت به معي؛ فبينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليزَ علينا رجلٌ بذُّ الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرُها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثَها[٤] من غير إتقان لها؛ فحسبتُه لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلّم وقعد وقال لي: يا بنيّ، استأذن لي على الوزير أبي مَرْوَان؛ فقلت له: هو نائم؛ هذا بعد أن تكلّفتُ جوابَه غايةَ التكلّف؛ حملني على ذلك نزوةُ الصِّبا وما رأيتُ من خشونة هيئة الرجل. ثم سكت عني ساعة، وقال: ما هذا الكتاب الذي بأيديكما؟ فقلت له: ما سؤالك عنه؟ فقال: أحبُّ أن أعرف اسمه، فإني كنت أعرف أسماء الكتب! فقلت: هو «كتاب الأغاني»؛ فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟ قلت: بلغ موضع كذا، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على قَالَبِه، فقال: وما لِكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبتُ منه الأصل الذي يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال: لم أَجِئْ به معي؛ فقال: يا بُنيَّ، خُذ كراريسك وعارِضْ؛ قلت: بماذا؟ وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صباي؛ قال: فتبسمت من قوله، فلما رأى تبسُّمي قال: يا بُنيَّ أَمْسِك عليَّ؛ قال: فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فواللّه إن أخطأ واواً ولا فاء؛ قرأ هكذا نحواً من كراستين، ثم أخذت له في وسط السِّفر وآخره، فرأيت حِفظَه في ذلك كلِّه سواء.

«فاشتدَّ عَجَبِي، وقمتُ مُسرعاً حتى دخلت على أبي فأخبرته بالخبر ووصفت له

---

(١) العَيْبَةُ: الوعاء، الظرف.

(٢) كان ابن زهر من نوابغ الطب والأدب في الأندلس. ولد بإشبيلية، وخدم دولتي الملثمين والموحدين. توفي بمراكش سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٩م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ٢٥٠).

(٣) هو كتاب ضخم، يقع في ثلاثة وعشرين جزءاً ـ وفقاً لطبعة دار الثقافة ببيروت ـ ألفه أبو الفرج الأصفهاني، المتوفى سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧م.

(٤) لاثَ العمامة على رأسه: لَفَّها وعَصَبَها.

الرجل؛ فقام كما هو من فَوْرِه، وكان ملتفًّا برداءٍ ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يَرْفُقُ على نفسه، وأنا بين يديه، وهو يُوسعني لوماً، حتى ترامى على الرجل وعانقه، وجعل يقبّل رأسه ويديه ويقول: يا مولاي اعذرني، فواللّه ما أَعْلَمني هذا الجِلْفُ[١] إلا الساعة؛ وجعل يَسُبُّني، والرجل يُخَفِّض عليه ويقول: ما عَرَفني؛ وأبي يقول: هَبْهُ ما عَرَفَك، فما عُذرهُ في حُسن الأدب.

«ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدّثا طويلاً؛ ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب، وأمر بدابته التي يركبها فأُسْرِجَت، وحلف عليه ليركبنّها ثم لا ترجع إليه أبداً.

«فلما انفصل قلت لأبي: من هذا الرجل الذي عظَّمته هذا التعظيم؟ قال لي: اسكت ويحك! هذا أديب الأندلس وإمامها وسيِّدُها في علم الآداب، هذا أبو مُحمَّد عبد المجيد بن عَبْدُون، أيسرُ محفوظاته «كتابُ الأغاني»؛ وما حِفْظُهُ في ذكاء خاطره وجودة قريحته؟».

سمعت هذه الحكاية من أبي بَكْر بن زُهر رحمه اللّه حين دخلت عليه وقد وفد على مَرَّاكُش لتجديد بيعة أمير المؤمنين أبي عبد اللّه مُحمَّد بن أبي يُوسُف في شهور سنة ٥٩٥.

وأنشدني الوزير أبو بَكْر المذكور في هذا التاريخ لنفسه ـ بعد أن سألني عن اسمي وعن نسبي فَتسمَّيْت وانتسبتُ، وتسمَّى لي هو رحمه اللّه وانتسب من غير استدعاءٍ، تواضعاً منه وَشَرَفَ نفسٍ وتهذيبَ خُلُقٍ، قدَّس اللّه روحه وسامحه: **[من البسيط]**

لَاحَ المَشيبُ على رأسي فَقُلْتُ لَهُ: ... الشَّيْبُ والعَيْبُ لا واللّه ما اجْتَمَعَا

يا سَاقِيَ الكأسِ لا تَعْدِلْ إليَّ بها ... فَقَدْ هَجرْتُ الحُمَيَّا والحميمَ مَعَا![٢]

وأنشدني رحمه الله وقال احفظ عني: **[من البسيط]**

إنّي نَظَرْتُ إلى المرآةِ إذ جُلِيَتْ ... فَأنْكَرَتْ مُقْلتايَ كُلَّ ما رَأَتا

رَأَيتُ فيها شُيَيْخاً لَستُ أَعْرِفُهُ ... وَكُنْتُ أَعْرِف فيها قَبْلَ ذاك فَتَى

هذا ما أنشدني لنفسه بلفظه، رحمه اللّه. وله شعر كثير أجاد في أكثره. وأما الموشحات خاصةً فهو الإمام المقدَّم فيها، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كلُّ من بعده إليها؛ هو آخر المجيدين في صناعتها، ولولا أن العادة لم تجر بإيراد

(١) الجِلْفُ: الكَزُّ الغليظ الجافي، أو الأحمق.

(٢) عَدَلَ عَدْلاً وَعُدُولاً: مال. الحُمَيَّا: حُمَيَّا كلّ شيءٍ: شِدَّتُه وَحِدَّتُه، وَحُمَيَّا الشباب: أوله ونشاطه، ومن الخمر: شِدَّتها وَسَوْرَتُها. الحميم: القريب الذي تودّه ويودّك.

الموشحات في الكتب المجلدة المخلدة لأوردتُ له بعض ما بقي على خاطري من ذلك.

[رجع القول إلى ملوك الطوائف]

ثم رجع بنا القول إلى ذكر أحوال الأندلس؛ فهؤلاء الرؤساء الذين ذكرنا أسماءهم هم الذين ملكوا الأندلس بعد الفتنة وضبطوا نواحيها؛ واستبدّ كلُّ رئيس منهم بتدبير ما تغلَّب عليه من الجهات، وانقطعت الدعوة للخلافة وذِكْرِ اسمها على المنابر؛ فلم يُذكر خليفة أمويّ ولا هاشميّ بقطرٍ من أقطار الأندلس، خلا أيامٍ يسيرةٍ دُعِيَ فيها لِهِشَام المؤيد بن الحكم المستنصر بمدينة إشْبِيليَّة وأعمالها، حسبما اقتضته الحيلة واضطر إليه التدبير، ثم انقطع ذلك حسبما يأتي بيانه إن شاء اللَّه تعالى، فأشبهت حالُ ملوك الأندلس بعد الفتنة حال ملوك الطوائف من الفرس بعد قتل دارا بن دارا.

ولم يزالوا كذلك وأحوال الأندلس تضعف وثغورها تختلّ، وَمُجَاوِرُوها من الروم تشتد أطماعهم ويقوى تَشوُّفهم؛ إلى أن جمع اللَّه الكلمة، ورأَبَ الصَّدع، ونَظَم الشَّمل، وَحسَم الخلاف، وأَعزَّ الدين، وأعلى كلمة الإسلام، وقطع طمع العدو، بِيُمْن نَقيبة أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يُوسُف بن تَاشُفين اللَّمْتُوني، رحمه اللَّه. ثم استمرَّ على ذلك ابنُه عليّ، وأعادا إلى الأندلس معهود أمنها وسالف نضارة عيشها؛ فكانت الأندلس في أيامهما حرماً آمناً. وأولُ دعاءٍ دُعِيَ للخلافة العباسية ـ أبقاها اللَّه ـ على منابر الأندلس في أيامهما. ولم تزل الدعوة العباسية وذِكْر خلفائها على منابر الأندلس والمغرب إلى أن انقطعت بقيام ابن تُومَرْت[١] مع المصامدة في بلاد السُّوس[٢]، على ما يأتي بيانه إن شاء اللَّه عزَّ وجلَّ.

---

(١) هو أبو عبد اللَّه، محمد بن عبد اللَّه بن تومرت المصمودي البربري، المتلقب بالمهدي: مؤسس الدولة المُؤمنية الكومية. توفي سنة ٥٢٤هـ/ ١١٣٠م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ٢٢٨).

(٢) السوس: كورة بالمغرب مدينتها طنجة، وهناك أيضاً السوس الأقصى، ومدينته طَرَقَلة. وقيل: السوس: بلدة بالمغرب، كانت الروم تُسمِّيها «قَمُّونية». (معجم البلدان، الحموي: ٣/ ٢٨٠).

فـصـل

[في مُلْكِ بني عبَّاد بإشْبِيليَّة]

وإذ ذكرنا أحوال ملوك الأندلس المتغلّبين عليها بعد الفتنة على ما شرطنا من الإجمال، فلنرجع إلى ذكر مملكة إشْبِيليَّة خصوصاً من جزيرة الأندلس، وذِكْرِ من مَلَكَها؛ فبذلك يتصل نَسَقُ الأخبار عمَّا نريده، ويتطرَّق لنا القول فيما نقصده؛ لأنَّ مَلِك إشْبِيليَّة هو كان السببَ في دخول يُوسُف بن تَاشُفين مع المرابطين الأندلس، على ما سَيُذكر إن شاء اللَّه تعالى، فنقول:

أمّا أحوال إشْبِيليَّة فإنها كانت في طاعة الفاطميين، أعني: عليّ بن حَمُّود، والقاسم بن حَمُّود، ويحيى بن علي بن حَمُّود، أيام كان الأمر دائراً بينهم على ما تقدم ذكره؛ فلما زحف يحيى بن عليّ بالبرابر إلى قُرْطُبَة، وهرب القاسِم بن حَمُّود منها وقصد إشْبِيليَّة ـ وقد كان ابناه مُحمَّد والحَسَن مُقيميْن بها ـ اجتمع أمر أهل إشْبِيليَّة واتفق رأيُهم على إخراج مُحمَّد والحَسَن عنها قبل وصول القاسم أبيهما؛ فأخرجوهما. وجاء القاسم فمنعوه دخول البلد أيضاً، واتفقوا على تقديم رجل منهم يرجع إليه أمرهم وتجتمع به كلمتهم؛ فتوارد اختيارهم بعد مَخْض الرأي وتنقيح التدبير، على القاضي أبي القاسم مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد اللخمي؛ لما كانوا يعلمونه من حصافة عقله، وسعة صدره، وعلوّ همته، وحسن تدبيره؛ فعرضوا عليه ما رأوه من ذلك، فتهيَّب الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد أولاً، وأبى ذلك إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سمَّاهم، لكي يكونوا له أعواناً ووزراء وشركاء، لا يقطع أمراً دونهم، ولا يُحدث حدثاً إلا بمشورتهم ـ وهؤلاء المُسَمَّون هم: الوزير أبو بَكْر مُحمَّد بن الحَسَن الزُّبَيْدي[١]، ومُحمَّد بن يريم الألهاني، وأبو الأصبغ عِيسَى بن حجَّاج الحَضْرَمي، وأبو مُحمَّد عبد اللَّه بن علي الهوزني، في رجال آخرين ذهبت عني أسماؤهم إلا أني أعرف قبائلهم وبيوتهم ـ ففعلوا ذلك وأجابوه إلى ما أراد. ولم يزل يدبر أمر إشْبِيليَّة وهؤلاء المذكورون وزراؤه.

---

(١) هو أبو بكر، محمد بن الحسن بن عبيد اللَّه بن مذحج الزبيدي الأندلسي الإشبيلي: عالم باللغة والأدب، شاعر. توفي بإشبيلية سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ٨٢).

وكان له من الولد إسماعيل، وهو الأكبر، يُكْنَى أبا الوليد؛ وعبَّاد، يُكْنَى: أبا عَمْرُو؛ فأما إسماعيل فخرج إلى لقاء البربر بعد أن حدث لأبيه أمل في التغلب على ما كان البربر يملكونه من الحصون القريبة من إشْبِيليَّة، بعسكر من جند إشْبِيليَّة، فالتقى هو وصاحب صَنْهَاجَة؛ فأسلمت إسماعيلَ عساكرهُ، وكان أوّل قتيل، وَقُطِعَ رأسه وسِيرَ به إلى مَالقَة، إلى إدريس بن علي الفاطمي، كما تقدّم.

وبقي الأمر كذلك، والقاضي أبو القاسم يدبّر الأمور أحسن تدبير، وكان صالحاً مصلحاً، إلى أن مات في شهور سنة ٤٣٩.

ولاية المُعتضد بالله العبَّادي

ثم ولي ما كان يليه بعده من أمور إشْبِيليَّة وأعمالها، ابنه أبو عمرو عبَّاد بن مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد، فجرى على سَنن أبيه في إيثار الإصلاح وحسن التدبير وبسط العدل، مدةً يسيرةً. ثم بدا له أن يستبد بالأمور وحده؛ وكان شهماً صارماً حديدَ القلب شجاعَ النفس بعيدَ الهمة ذا دهاء، وواتته مع هذا المقادير؛ فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً، فمنهم من قتله صبراً، ومنهم من نفاه عن البلاد، ومنهم من أماته خمولاً وفقراً، إلى أن تمّ له ما أراده من الاستبداد بالأمر، وتلقّب بـ«المُعتضد بالله».

وقيل: إنه ادَّعى أنه وقع إليه هِشَام المؤيد بالله، ابن الحَكَم المستنصر بالله؛ وكان الذي حمله على تدبير هذه الحيلة ما رآه من اضطراب أهل إشْبِيليَّة، وخاف قيام العامة عليه، لأنهم سمعوا بظهور من ظهر من أمراء بني أمية بِقُرْطُبَة، كالمُستظهر، والمُستكفي، والمُعتدّ؛ فاستقبحوا بقاءهم بغير خليفة. وبلغه أنهم يطلبون من أولاد بني أمية من يقيمونه؛ فادَّعى ما ادعاه من ذلك؛ وذكر أن هِشَاماً عنده بقصره، وشهد له خواصٌّ من حشمه، وأنه في صورة الحاجب له المنفذ لأموره؛ وأمر بالدعاء له على المنابر. فاستمرَّ ذلك من أمره سنين، إلى أن أظهر موته ونعاه إلى رعيته في سنة ٤٥٥ واستظهر بعهدِ عَهِدَه له هِشَام المذكور فيما زعم، وأنه الأمير بعده على جميع جزيرة الأندلس.

ولم يزل المُعتضد هذا يُدوّخ[١] الممالك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندلس، وكان قد اتخذ خُشباً في ساحة قصره جلّلها[٢] برؤوس الملوك والرؤساء

(١) دَوَّخَ الممالك أو البلاد: سار فيها حتى عرفها ولم تَخفَ عليه طرقها وأحوالها. ودَوَّخ الرجل وأداخه: أذلّه وأخضعه.

(٢) جَلَّلَ الشيءَ: غَطَّاه أو عَمَّهُ.

عوضاً عن الأشجار التي تكون في القصور؛ وكان يقول: في مثل هذا البستان فَلْيُتنزَّه.

وجملة أمر هذا الرجل أنه كان أوحد عصره شهامةً وصرامةً وشجاعةَ قلب وحِدّةَ نفس؛ كانوا يشبّهونه بأبي جَعْفَر المنصور من مُلوك بني العبَّاس؛ كان قد استوى في مخافته ومهابته القريبُ والبعيد، لا سيما منذ قَتَل ابنه وأكبر ولده المرشحَ لولاية عهده صبراً. وكان سبب ذلك أن ولده المذكور ـ وكان اسمه إسماعيل ـ كان يبلغه عنه أخبارٌ مضمونُها استطالةُ حياته وتمنّي وفاته، فيتغاضى المعتضد ويتغافلُ تغافلَ الوالد، إلى أن أدّى ذلك التغافلُ إلى أن سكر إسماعيل المذكور ليلةً وتسوّر سورَ القصر الذي فيه أبوه، في عُبْدانٍ وأراذلَ معه، ورام الفتك بأبيه؛ فانتبه البوابون والحرس، فهرب أصحاب إسماعيل، وأُخِذَ بَعْضُهم فأقرّ وأخبر بالكائنة على وجهها؛ وقيل: إن إسماعيل لم يكن معهم وإنما بعثهم على ذلك، وجعل لمن قَتل أباه المُعتضد جُعْلاً سَنِيًّا، فاللّٰه أعلم. فقبض المعتضد على ابنه إسماعيل هذا واستصفى أمواله وضرب عنقه؛ فلم يبق أحد من خاصته إلا هابه من حينئذ.

وبلغني أنه قتل رجلاً أعمى بمكة كان يدعو عليه بها؛ كان هذا الرجل من بادية إشْبِيلِيّة؛ كان المعتضد قد وضع يده على بعض مالٍ لهذا الرجل الأعمى، وذهب باقي مالِه حتى افتقر، ورحل إلى مكة، فلم يزل يدعو على المُعتضد بها إلى أن بلغه عنه ذلك، فاستدعى بعضَ من يريد الحجّ وناوله حُقًّا[1] فيه دنانير مطليّة بالسم، وقال: لا تفتح هذا حتى تدفعه إلى فلان الأعمى بمكّة؛ وسَلِّم عليه عنّا! فاتفق أن سَلِمَ الرجلُ ومعه الحقّ، فحين وصل مكّة لقي الأعمى ودفع إليه الحُقّ، وقال: هذا من عند المعتضد؛ فأنكر ذلك الأعمى، وقال: كيف يظلمُني بإشْبِيلِيّة ويَتصدَّق عليّ بالحجاز؟ فلم يزل الرجلُ يخفّضه إلى أن سكن وأخذ الحُقّ، فكان أولَ شيء فعله أن فتح الحُقّ وعمد إلى دينار من تلك الدنانير فوضعه في فمه، وجعل يقلّب سائرها بيده، إلى أن تمكّن منه السم، فما جاء الليل حتى مات؛ فأعجبْ لرجل بقاصية المغرب يعتني بقتل رجل بالحجاز!

وقتل على هذه الصورة رجلاً من المؤذنين من أهل إشْبِيلِيّة؛ فرّ منه إلى طُلَيْطُلَة، فكان يدعو عليه بها في الأسحار، مقدّراً أنه قد أمن غائلته إذ صار في مملكة غيره. فلم يزل يُعمل فيه الحيلة إلى أن بعث من قتله فجاءه برأسه.

وكان أكبر من يناويه[2] من المتغلبين المجاورين له وأشدّهم عليه: البربر في صَنهاجة، وبنو بَرْزَال الذين بِقَرْمُونَة وأعمالها من نواحي إشْبِيلِيّة؛ فلم يزل يُصرِّف

---

(١) الحُقُّ: وعاء صغير ذو غطاء، يُتَّخذُ من عاج أو زجاج، أو من غيرهما.

(٢) يناويه: يناوئه: يعاديه أو يفاخره ويباريه.

الحيلة تارة ويجهِّز الجيوش أخرى إلى أن استنزلهم؛ ففرّق كلمتهم وشتّت مُنتظِم أمرهم، ونفاهم عن جميع تلك البلاد وصفتْ له أموره.

كان له عَيْنٌ[١] بِقَرْمُونَة يكتب له بأخبار البربر؛ بَلَغ من لطف حيلة المعتضد وقد أراد أن يكتب إلى ذلك الرجل الذي جعله عيناً له بِقَرْمُونة كتاباً في بعض أمره، أن استدعى رجلاً من بادية إشْبِيليَّة شديدَ البَلَه كثير الغفلة، وقال له: إخلع ثيابك؛ وألبسه جُبةً جعل في جيبها كتاباً وخاط عليه، وقال له: اخرج إلى قَرْمُونَة، فإذا وصلت بقربها فاجمع حُزمة حطب وادخل بها البلد وقِفْ حيث يقف أصحاب الحطب، ولا تَبِعْها إلا لمن يشتريها منك بخمسة دراهم؛ وكان قد قرر هذا كلَّه مع صاحبه الذي بِقَرْمُونة؛ فخرج البدوي كما أمره المعتضد، فلما قرب من قَرْمُونَة جمع حزمةً من الحطب، ولم يكن قبل هذا يعاني جمعه؛ فجمع حُزمةً صغيرةً ودخل بها البلد، ووقف في موقف الحطابين، فجعل الناس يَمُرُّون عليه ويسومون منه حُزمته، فإذا قال: لا أبيعها إلا بخمسة دراهم، ضحك من يسمع هذا القول منه ومرَّ عنه؛ فلم يزل كذلك إلى أن أجنَّه الليل والناس يسخرون منه، فبعضهم يقول: هذا آبِنُوس! ويقول الآخر: لا بل هو عُودٌ هندي! وما أشبه هذا؛ حتى مرّ به صاحب المعتضد، فقال له: بكم تبيع حزمتك هذه؟ فقال: بخمسة دراهم! فقال: قد اشتريتها فاحملها إلى البيت؛ فقام يحملها والرجل بين يديه حتى بلغ بيته، فوضع الحزمة ودفع إليه الخمسة الدراهم. فلما أخذها وهمّ بالانصراف قال له: أين تريد في هذا الوقت وقد علمتَ خوف الطريق؟ فبِت الليلة عندي، فإذا أصبحتَ رجعت إلى منزلك؛ فأجابه؛ فأدخله إلى بيت وقدّم له طعاماً، وسأله كأنه لا يعرفه: من أين أنت؟ فقال: أنا من بادية إشْبِيليَّة؛ قال: يا أخي، ما الذي جاء بك إلى هذا الموضع وقد علمتَ نكد البربر وَشُؤمَهم وهوانَ الدماء عليهم؟ فقال: حَملتْني على هذا الحاجة! ولم يُظهِر له أن المعتضد أرسله؛ فلم يزل الرجل يحادثه إلى أن أخذه النوم، فلما رأى غلبةَ النوم عليه قال له: تجرَّدْ من ثوبك هذا فهو أهنأ لنومك وأرْوَحُ لجسمك! فتجرَّد الرجل ونام، وأخذ صاحب المعتضد الجبةَ ففتق جيبها، واستخرج الكتاب فقرأه وكتب جوابه، وجعله في جيب الجبة وخاط عليه كما كان؛ فلما أصبح الرجل لبس جبته، ورجع إلى إشْبِيليَّة وقصد باب دار الإمارة واستأذن، فأُدخل على المعتضد، فقال له: اخلع تلك الجبة؛ وكساه ثياباً حساناً فرح بها البدوي، وخرج من عنده فرحاً يَرَى أنه قد خلع عليه؛ ولم يعلم فيمَ ذهب ولا بِمَ جاء! وأخذ المعتضد الكتاب من جيب الجبة فقرأه وتمّم ما أراد من أمره.

وله في تدبير ملكه وإحكام أمره حِيَلٌ وآراء عجيبة لم يُسبق إلى أكثرها، يطول تعدادها ويخرج عن حد التلخيص بسطها.

---

(١) العَيْنُ: الجاسوس.

ولما قَتل ابنه إسماعيل ـ كما تقدم ـ وكان لقّبه «المُؤيِّد»، عهد بعده إلى ابنه أبي القاسم مُحمَّد بن عبَّاد بن مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد، ولقبه بـ«المُعتمد على اللّه»؛ فَحَسُنتْ سيرةُ أبي القاسم هذا في حياة أبيه وبعد وفاته.

[أولية المرابطين في مَرَّاكُش]

وفي إمارة المُعتضد باللّه هذا نزل لمتونةُ ومسوفةُ ـ قبيلتان عظيمتان من البربر ـ رحبةَ مَرَّاكُش؛ فتخيروها دار ملكهم لتوسُّطها البلاد. وكانت إذ نزلوها غَيْضَةً[1] لا عمران بها، وإنما سُمّيت بعبدٍ أسود كان يستوطنها، يخيف الطريق اسمه مَرَّاكُش. فاستوطنها البربر كما ذكرنا، وقدّموا عليهم رجلاً منهم اسمه تَاشُفِين بن يُوسُف.

وكان المُعتضد في كل وقتٍ يستطلع أخبار العُدوة؛ هل نزل البربر رحبة مَرَّاكُش؟ وذلك لما كان يراه في ملحمةٍ كانت عنده أن هؤلاء القوم خالِعُوه أو خالعو ولدِه ومُخرجوه من ملكه؛ فلما بلغه نزولهم جَمَع ولده وجعل ينظر إليهم مُصَعِّداً وَمُصَوِّباً ويقول: يا ليت شعري مَنْ تناله معرةُ[2] هؤلاء القوم، أنا أو أنتم؟ فقال له أبو القاسم من بينهم: جعلني اللّه فداك وأنزل بي كل مكروه يُريد أن يُنزله بك! فكانت دعوةً وافقت المقدار[3].

وكان نزول لمتونة ومسوفة قَبِيلَتَيْ المرابطين رحبةَ مَرَّاكُش، في صدر سنة ٤٦٣، وانفصالهم عنها جملةً واحدةً في وسط سنة ٥٤٠؛ فكانت مدة إقامتهم في الملك منذ نزلوا رحبة مَرَّاكُش إلى أن انفصلوا عنها وأخرجهم عنها المصامدة، نحواً من سِتٍّ وسبعين سنة.

ثم تُوفِّي المُعتضد باللّه في شهر رجب من سنة ٤٦٤، واختُلف في سبب وفاته، فقيل: إن ملك الروم سمَّه في ثياب أرسل بها إليه؛ وقيل: إنه مات حَتْفَ أنفه، فاللّه أعلم.

ولاية أبي القاسم بن عبَّاد المُعتمد على اللّه

ثم قام بالأمر من بعده، ابنه أبو القاسم مُحمَّد بن عبَّاد بن مُحمَّد بن إسماعيل بن عبَّاد؛ وزاد إلى المُعتمد على اللّه: الظَّافر بحول اللّه. وكان المُعتمد هذا يُشبَّهُ بهارون الواثق باللّه[4] من مُلوك بني العباس، ذكاءَ نفس وغزارةَ أدب. وكان

---

(١) الغَيْضَةُ: الأجمة، أو الموضع يكثر فيه الشجر ويلتف.

(٢) المَعَرَّةُ: الأذى والمساءة والمكروه.

(٣) المِقْدَارُ: القَدَرُ.

(٤) هو أبو جعفر، هارون بن محمد بن هارون الرشيد، المُلقَّب بالواثق: من خلفاء الدولة=

شعره كأنه الحُلل المُنشَّرة. واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس. وكان مقتصراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضمُّ إليه. وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصى، كالشجاعة والسخاء والحياء والنزاهة، إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة. وفي الجملة فلا أعلم خصلة تُحمد في رجلٍ إلّا وقد وهبه اللّه منها أوفر قسم، وَضرب له فيها بأوفى سهم. وإذا عُدّتْ حسناتُ الأندلس من لدن فتحها إلى هذا الوقت؛ فالمُعتمد هذا أحدُها، بل أكبرها.

وَلِي أمرَ إشبيليَّة بعد أبيه، وله سبع وثلاثون سنة. واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤؛ فكانت مدة ولايته إلى أن خُلِعَ وأُسر عشرين سنة؛ كانت له في أضعافها مآثر أعيا على غيره جمعها في مائة سنة أو أكثر منها. وكانت له رحمه اللّه همة في تخليد الثناء وإبقاء الحمد.

[عبد الجليل بن وَهْبُون الشاعر](*)

كان من جملة شعرائه رجل من أهل مدينة مُرْسِية اسمه عبد الجليل بن وَهْبُون، كان حسن الشعر لطيف المأخذ حسنَ التوصُّل إلى دقيق المعاني؛ أنشد يوماً بين يدي المُعتمد رحمه اللّه بعضُ الحاضرين بيتين لعبد الجليل بن وَهْبُون هذا قالهما قديماً قبل وصوله إلى المُعتمد، وهما: [من البسيط]

قَلَّ الوفاءُ فما تَلْقَاهُ في أَحدٍ ... وَلا يَمُرُّ لِمَخْلُوقٍ على بالِ
وَصَارَ عِنْدَهُم عَنْقَاءَ مُغْرِبَةً ... أو مِثْلَ ما حدَّثوا عن ألفِ مِثْقالِ!(١)

فأُعجِب المُعتمد بهما وقال: لمن هذان البيتان؟ فقالوا: هما لعبد الجليل بن وَهْبُون أحد خدم مولانا! فقال المُعتمد عند ذلك: هذا واللّه اللؤم البَحْت؛ رجلٌ من خُدامنا والمنقطعين إلينا يقول: «أو مِثْلَ ما حدّثوا عن ألفِ مِثْقالِ»! وهل يتحدث أحدٌ عنا بأسوأَ من هذه الأحدوثة؟ وأمر له بألفِ مثقالٍ. فلما دخل عليه يتشكر له قال له: يا

= العباسية. ولد ببغداد، وولي الخلافة بعد وفاة أبيه المعتصم باللّه سنة ٢٢٧هـ، وتوفي سنة ٢٣٢هـ/٨٤٧م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٤/ ١٥).

(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ٣٨٧؛ تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٤/ ٦٦٥.

(١) العنقاء المغربة: كلمة لا أصل لها، يقال: إنها طائر عظيم لا تُرَى إلّا في الدُّهور، ثم كثر ذلك حتى سَمّوا الداهية عنقاء مغربة، قال الشاعر:

وَلَوْلَا سُلَيْمَانُ الخَلِيفَةُ حَلَّقَتْ ... بِهِ مِنْ يَدِ الحَجَّاجِ عَنْقَاءُ مُغْرِبُ

وزعم بعضهم أن العنقاء طائر يظهر عند مغرب الشمس، وقال آخرون: العنقاء المغرب: طائر لم يره أحد. (لسان العرب، ابن منظور: ٤/ ٣١٣٦ ـ مادة عنق).

أبا مُحمَّد، هل عاد الخبرُ عِياناً؟ قال: إي واللّه يا مولاي؛ ودعا له بطول البقاء؛ فلما همّ بالانصراف قال له: يا عبد الجليل، الآن حدِّث بها لاعَنْها، يعني: ألف مثقال.

* * *

وله رحمه اللّه[١] شعرٌ كثيرٌ بَرَّز في أكثره وأجاد ما أراد، وَسَيمرُّ منه في أضعاف أخباره ما يشهد له بالتبريز، عند ذوي التمييز؛ فَمِمَّا اختاره من شعره قوله: [من الكامل]

عَلِّل فُؤادَكَ قَدْ أَبَلَّ عَلِيلُ ... وٱغْنَمْ حَياتَك فالبقاءُ قَلِيلُ[٢]
لَوْ أنَّ عُمْرَكَ ألفُ عَامٍ كَامِلٍ ... ما كانَ حقًّا أنْ يُقالَ طَويلُ
أَكَذَا يقودُ بكَ الأَسَى نحو الرَّدَى ... والعُودُ عُودٌ والشَّمولُ شَمولُ[٣]
لا يَسْتَبيكَ الهمُّ نَفْسَكَ عَنْوَةً ... والكأسُ سيفٌ في يَدَيْكَ صقيلُ[٤]
بالعقلِ تَزْدَحِمُ الهمومُ على الحَشَا ... فالعقلُ عِنْدي أَنْ تَزُولَ عُقولُ!

ومن شعره السيَّار، لا بل الطيَّار، قَوْلُه في مملوكٍ له صغيرٍ كان يتصرَّف بين يديه، أهداه له صاحب طُلَيْطُلَة؛ اسم المملوك سيف: [من البسيط]

سَمَّوْه سَيْفاً وفي عَيْنَيْه سَيْفَانِ ... هذا لِقَتْلي مَسْلُولٌ وَهَذانِ[٥]
أما كَفَتْ قَتلةٌ بالسَّيْفِ واحدةٌ ... حتَّى أُتيحَ مِنَ الأجفانِ ثِنْتَانِ
أَسَرْتُهُ وَثَنَاني غُنْجُ مُقْلَتِه ... أَسِيرَه، فَكِلَانا آسِرٌ عاني[٦]
يا سَيْفُ أَمْسِكْ بِمَعْرُوفٍ أَسيرَ هَوًى ... لا يَبْتَغي مِنْكَ تَسْريحاً بإحْسَانِ![٧]

ومن شعره الرشيق المليح الخفيف الروح، الذي حكى الماء سلاسةً والصخر ملاسةً، قوله في هذا المملوك وقد عذّر: [من مخلع البسيط]

تَمَّ لَهُ الحُسْنُ بالعِذَارِ ... واقترنَ الليلُ بالنهارِ[٨]

---

(١) يعني: المعتمد بن عبّاد.
(٢) عَلَّل فلاناً بطعام أو غيره: شغله به ولَهَّاه، وعَلَّل المريض: عالجه من عِلَّتِهِ. أَبَلَّ العليل: بَرَأَ. غَنِمَ الشيءَ غُنْماً: فاز به.
(٣) الأَسَى: الحزن. الرَّدَى: الهلاك، الموت. الشَّمُولُ: من أسماء الخمر.
(٤) اسْتَبَاهُ: أسره، أو استماله وجذبه. عَنْوَةً: أي قَسْراً وقَهْراً وغَلَبَةً. الصقيل: المَجْلُوُّ.
(٥) سيف مسلول: مُشهرٌ، مُخرجٌ من غمده.
(٦) العاني: الأسير، أو الذليل.
(٧) سَرَّحَ فلاناً: أطلقه، أو أرسله، أو أخلاه من عمله، وسَرَّح المرأة: طَلَّقها.
(٨) العذار: جانب اللحية.

أَخْـضَـرُ فـي أبـيـضٍ تـبـدَّى ذَلِـكَ آسِـي وذا بَـهَـارِي[١]
فَـقَـدْ حَـوَى مَـجْـلِـسِـي تـمـامـاً إنْ كـانَ مِـنْ ريـقِـه عُـقَـارِي[٢]

وبينا هو يوماً في قُبة له يكتب شيئاً، أو يطالع، وعنده بعض كرائمه، فدخلت عليه الشمس من بعض الكُوَى الكائنةِ فيها، فقامت دونه تستره من الشمس، فقال رحمه اللّه بديهاً: [من البسيط]

قَامَتْ لِتَحْجبَ ضَوْءَ الشَّمْسِ قَامَتُها عَنْ ناظري، حُجِبَتْ عَنْ ناظرِ الغِيَرِ[٣]
عِـلْـمـاً لَـعَـمْـرُكَ مِـنْـهَـا أَنَّـهـا قَـمَـرٌ هَلْ تَكْسِفُ الشَّمْسَ إلّا صُورةُ القَمَرِ!

وبينا جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها، إذ لمع البرق فارتاعت؛ فقال رحمه اللّه بديهاً: [من السريع]

رِيـعَـتْ مِـنَ الـبَـرْقِ وفـي كـفِّـهـا بَـرْقٌ مِـنَ الـقَـهْـوَةِ لَـمَّـاعُ[٤]
عَـجِبْتُ منها وَهي شَمْسُ الضُّحَى كَـيْـفَ مِـنَ الأنـوارِ تَـرْتَـاعُ!

وله مع هذا مَقَاطِعُ حسانٌ كان يرتجلها في مجالس أُنسه، ولاستدعاءِ خاصّة جلسائه، منعني من استيفائها قلةُ ما على خاطري منها.

وسيمرّ من شعره الذي قاله في أيام محنته ما يفجر الصُمَّ، ويزعزع الشُمَّ[٥].
وكان لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حَسَنَ الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله.

[أبو الوليد بن زيدون][*]

فمن جملة وزرائه الوزير الأجلّ ذو الرياستين، أبو الوليد أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن زَيْدُون، ذو الأدب البارع، والشعر الرائع، أحد شعراء الأندلس المجيدين

---

(١) الآس: شجر دائم الخضرة، أبيض الزهر، ذو رائحة طيبة. البهار: زهر طيب الرائحة، ينبت في الربيع، ويقال له: العرار.
(٢) العقار: الخمر.
(٣) الغير: غِيَرُ الدهر: أحداثه وأحواله المتغيرة.
(٤) ريعت: فزعت. القهوة: من أسماء الخمر.
(٥) الصُمُّ: الصخور، والشُمُّ: الجبال.
(*) ترجمته في: بغية الملتمس: ١٨٦؛ وفيات الأعيان: ١/ ١٣٩؛ البداية والنهاية: ١٢/ ١١١؛ شذرات الذهب: ٣/ ٣١٢؛ كشف الظنون: ٢٧٨، ٨٤١؛ إيضاح المكنون: ١/ ٤٨٥؛ معجم المؤلفين: ١/ ٢٨٤؛ الأعلام: ١/ ١٥٨؛ تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٤/ ٥٨٨؛ جذوة المقتبس: ١٢١؛ المطرب من أشعار أهل المغرب: ١٦٤.

وفحولها المبرِّزين. كان إذا نَسَبَ أنساك كُثيِّراً[١]، وإذا مدح أزرى بزُهير[٢]، وإذا فخر أناف[٣] على امرىء القيس[٤]؛ فمن جملة مقاطعه التي تشهد له بجودة الطبع وإتقان الصنعة قوله: [من البسيط]

بَيْني وَبَيْنكَ ما لو شِئْتَ لم يَضِعِ ... سِرٌّ إذا ذاعتِ الأسرارُ لم يَذِعِ
يا بائعاً حَظَّه مِنّي وَلوْ بُذِلتْ ... لِيَ الحياةُ بِحظِّي مِنْهُ لم أَبِعِ
يَكْفِيكَ أَنَّكَ إنْ حَمَّلتَ قَلْبيَ ما ... لا تَسْتَطيعُ قُلُوبُ الناسِ يَسْتَطِعِ
تِهْ أَحتمِلْ، وٱستَطِلْ أَصْبِرْ، وعِزَّ أَهُنْ ... ووَلِّ أُقبِل، وَقُلْ أَسمع، ومُر أُطعِ!

وهو القائل ـ رحمه اللّه ـ يخاطب بني جَهْوَر، وكان قد وَزَرَ لهم قبل وزارته للمُعتمد؛ لأن أصله من مدينة قُرْطُبَة، فنالته منهم مِحنةٌ، فخرج عن قُرْطُبَة إلى إشْبِيليَّة وافداً على المُعتمد، فَعلَتْ رُتبته عنده؛ فكان يبلغه عن بني جَهْوَر ما يسوءه في نفسه وقرابته بِقُرْطُبَة، فقال يخاطبهم: [من الطويل]

بَني جَهْوَرٍ أَحْرَقْتُمُو بِجَفَائِكُم ... فُؤادي، فما بالُ المدائح تَعْبَقُ
تَعُدُّونَني كالعَنْبرِ الوَرْدِ، إنَّما ... تَفُوحُ لَكُمْ أنفاسُه حِينَ يُحْرَقُ

ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رِقّةً ويمتزج بأجزاء الهواء لطافةً، قصيدته التي قالها يتشوق ابنة المهدي «ولّادة»[٥]، وهي بِقُرْطُبَة وهو بإشْبِيليَّة: [من البسيط]

[أَضْحَى التَّنائي بَديلاً مِنْ تَدَانينا ... وَنابَ عَنْ طِيبِ لُقْيانا تَجافينا][٦]
بِنْتُمْ وبِنَّا فما ٱبْتَلَّتْ جَوانحُنا ... شَوْقاً إليْكُمْ ولا جَفَّتْ مآقِينا[٧]

---

(١) هو كثير بن عبد الرحمن، المعروف بكثيِّر عزّة: شاعر حجازي غزل، عاش في العصر الأموي، وكانت وفاته سنة ١٠٥هـ/٧٢٣م. (الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٩/٢ ـ ٣٨).

(٢) هو زهير بن أبي سلمى بن رياح المزني: شاعر جاهلي مُقدَّم مُجيد، عُرِف بحكمته ورويته ونفاذ بصيرته. توفي نحو ١٣ق.هـ/نحو ٦٠٩م. (الشعر والشعراء، ابن قتيبة: ١/٧٦).
وأزرى بالشيء: تهاون به وقصَّر.

(٣) أناف عليه: أشرف.

(٤) هو امرؤ القيس بن حجر الكندي: أمير الشعراء في الجاهلية. توفي نحو ٨٠ق.هـ/نحو ٥٤٥م. (الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني: ٩/٧٦).

(٥) كذا وردت، والصواب: ولادة بنت المستكفي باللّه، وهي شاعرة، أديبة، كانت تخالط الشعراء، وتساجل الأدباء. توفيت سنة ٤٨٤هـ/١٠٩٢م. (بغية الملتمس، الضبي: ٥٤٧).

(٦) التنائي: التباعد. التداني: التقارب. التجافي: التباعد.

(٧) بان بَيْناً: ابتعد. المآقي: العيون، أو أطرافها.

نَكَادُ حِينَ تُناجيكُم ضَمائِرُنا ... يَقْضِي علينا الأسَى لَوْلَا تأسِّينا[١]

حَالَتْ لِفَقْدِكُم أيَّامُنا فَغَدَتْ ... سُوداً وكانتْ بِكُمْ بِيضاً ليالينا[٢]

إذْ جَانِبُ العَيْشِ طَلْقٌ مِنْ تألُّفِنا ... ومَوْرِدُ اللَّهْوِ صافٍ مِنْ تَصافِينا[٣]

وَإِذْ هَصَرْنا غُصُونَ الأُنْسِ دانيةً ... قُطوفُها فَجَنَيْنا مِنْهُ ما شِينا[٤]

لِيُسْقَ عَهْدُكُم عَهْدُ السُّرورِ فَمَا ... كُنتُمْ لِأَرْواحِنَا إلَّا رَيَاحِينا[٥]

مَنْ مُبْلِغٌ مُلْبِسينا بِانْتِزَاحِهِمُ ... حُزناً مع الدَّهْرِ لا يَبْلَى ويُبْلينا[٦]:

أَنَّ الزمانَ الذي ما زالَ يُضْحِكُنا ... أُنساً بِقُرْبِهِمُ قَدْ عَادَ يُبْكِينا!

غِيظَ العِدَى مِنْ تَساقِينا الهَوَى فَدَعَوْا ... بِأَنْ نَغَصَّ فقال الدَّهْرُ آمينا[٧]

فَانْحَلَّ ما كانَ مَعْقُوداً بِأَنْفُسِنا ... وانْبَتَّ ما كانَ مَوْصُولاً بأيدينا[٨]

وَقَدْ نَكُونُ وما يُخْشَى تَفَرُّقُنا ... فاليومَ نَحْنُ وما يُرْجَى تلاقينا

[ما حَقُّنا أَنْ تُقِرُّوا عَيْنَ ذي حَسَدٍ ... بِنا، ولا أَنْ تَسُرُّوا كَاشِحاً فِينا[٩]

يا لَيْتَ شِعْري وَلَم نُعتِبْ أَعَادِيَكُمْ ... هَلْ نالَ حَظًّا مِنَ العُتْبَى أَعَادِينا[١٠]

لم نَعْتَقِد بَعْدَكُم إلّا الوفاءَ لَكُمْ ... رأياً وَلَمْ نَتَقَلَّدْ غَيْرَه دِينَا[١١]

كُنّا نَرَى اليأسَ تُسْلِينا عَوارِضُه ... وَقَدْ يَئِسْنا فما لليأسِ يُغْرِينا][١٢]

يا سارِيَ البَرْقِ غَادِ القَصْرَ فَاسْقِ بِهِ ... مَنْ كانَ صِرْفَ الهَوَى والوُدّ يَسْقِينا[١٣]

---

(١) ناجاه مُناجاةً وَنِجاءً: سَارَّهُ. الأسى: الحزن. التَّأسِّي: التَّجلُّد والتَّصبُّر.

(٢) حالت: تَغيَّرت.

(٣) الطَّلْقُ (من الوجوه): الضاحك المُستبشر، ومن الأيام والليالي: المُشرق الخالي من الحرّ والبرد والريح والمطر وكلّ أذَى. تَألُّفنا: اجتماعنا وتوافقنا. صافى فلاناً: صدقه المحبة والمودّة، وتصافيا: تخالصا في الودّ.

(٤) هَصَرَ الغصن: جذبه وأماله، أو عطفه وكسره من غير فصل. ماشِينا: ما شِئْنا.

(٥) الرياحين: جمع الريحان: نبات طيب الرائحة.

(٦) انتزح فلان: ابتعد.

(٧) غَصَّ بالماءِ ونحوه غَصًّا وغَصَصاً: وقف في حلقه فلم يكد يسيغه.

(٨) انْبَتَّ: انقطع.

(٩) قَرَّت العين: هدأت وسكنت، كناية عن الرضى والسرور. الكاشح: العدو المُبغض.

(١٠) أعتبَ فلاناً: أرضاه بعد العتاب. وعتب عليه: لامه. العُتْبَى: الرِّضا.

(١١) تَقلَّد الأمر: احتمله.

(١٢) تُسلينا: تُنسينا.

(١٣) الساري: السائر ليلاً. غادِ القَصْرَ: باكِرْه. الصِّرْفُ: المَحْضُ، الخالص.

[واسألْ هُنالِك هَلْ عَيْنِي تُذكِّرُني إلفاً تَذَكُّرُهُ أَمْسَى يُعَنِّينا][1]
ويا نَسيمَ الصَّبَا بَلِّغْ تَحيَّتَنا مَنْ لَوْ على البُعدِ حَيًّا كانَ يُحْيينا
[مَنْ لا يَرَى الدَّهْرَ يَقْضِينا مُسَاعَفَةً فيهِ وإنْ لم يَكُنْ عَنَّا يُقَاضِينَا][2]

* * *

[وبَيْتِ مُلْكٍ كَأنَّ اللَّه أَنْشَأَهُ مِسْكاً وَقَدْ أنشأ اللَّهُ الوَرَى طِينَا][3]
أوْ صَاغَهُ وَرِقاً مَحْضاً وتَوَّجَهُ مِنْ نَاصِعِ التِّبرِ إبداعاً وتَحْسِينَا[4]
إذا تَأَوَّدَ آدَتْهُ رَفاهِيَةٌ تُدْمِي العُقولَ وأدمَتْهُ البُرَى لِينَا[5]
كَأنما نَبتَتْ في صَحْنِ وَجْنَتِهِ زُهْرُ الكَواكِبِ تَعْويذاً وتَزْيِينَا
ما ضَرَّ أنْ لم نَكُنْ أكفاءَه شَرَفاً وَفي المَودَّةِ كافٍ مِنْ تَكَافِينَا][6]

* * *

لا تَحْسَبوا نَأْيَكُم عَنَّا يُغيِّرُنا إذْ طالَ ما غَيَّرَ النأْيُ المُحِبِّينَا[7]
واللَّهِ ما طَلَبتْ أهواؤنا بَدَلاً مِنْكُم ولا انْصَرَفَتْ عَنْكُم أمانينَا
[ولا اسْتَفَدْنَا خَليلاً عَنْكِ يَشْغَلُنا وَلا اتَّخَذْنا بَدِيلاً مِنْكِ يُسْلِينَا]
يا رَوْضَةً طالَ ما أَجْنَتْ لَواحِظَنَا وَرْداً جَناه الصِّبا غَضًّا ونَسْرِينَا[8]
ويا حَياةً تَمَلَّأْنا بِزَهْرَتِها مُنًى ضُروباً وَلَذَّاتٍ أفانينَا[9]
[ويا نَعيماً خَطَرْنا مِنْ غَضَارَتِهِ في وَشْيِ نُعْمَى سَحَبْنا ذَيلَها حِينَا][10]
لَسْنا نُسَمِّيكِ إجلالاً وتَكْرِمَةً فَقَدْرُكِ المُعْتَلِي عَنْ ذاكَ يُغنينَا
إذِ انفرَدْتِ فما شُورِكْتِ في صِفَةٍ فَحَسْبُكِ الوَصْفُ إيضاحاً وتَبْيينَا
يا جَنَّةَ الخُلدِ أُبْدِلْنا بِسَلْسَلِها والكَوْثَرِ العَذْبِ زُقُّوماً وغِسْلينَا[11]

---

(١) يُعَنِّينا: يُتعبنا.
(٢) المساعفة: يقال: ساعف فلاناً وأسعفه: واتاهُ وقَرُبَ منه في مصافاة ومعاونة.
(٣) الورى: الخَلْقُ.
(٤) صاغ المعدن: سبكه، أو صنعه على مثالٍ مستقيم. الوَرِقُ: الفضة. التِّبْرُ: الذهب.
(٥) تَأَوَّد: تَعوّج وتَثنّى. آدَتْهُ: قوَّته وآزرته. البُرَى: جمع البُرَة: الخلخال.
(٦) الأكفاء: جمع الكُفْء: المماثل.
(٧) النأي: البُعْدُ.
(٨) اللواحظ: العيون. الغَضُّ: الطَّرِيّ النَّضر.
(٩) تَملأَّ من الشيء: شبع، ومنه: مَلأْتُ منه عيني: أعجبني منظره، فأدمت النظر إليه.
(١٠) الغضارة: السعة والنعمة.
(١١) السَّلْسَلُ: الماء العذب الصافي، السَّهل المرور في الحَلْق. الزُقُّومُ: شجرة مُرّة كريهة الرائحة، =

كَأَنَّنَا لَمْ نَبِتْ والوَصْلُ ثَالِثُنَا والسَّعدُ قد غَضَّ مِنْ أجفانِ وَاشِينَا[١]
سِرَّانِ في خاطِرِ الظَّلماءِ يَكْتُمُنَا حَتَّى يكادَ لِسانُ الصُّبحِ يُفْشِينَا[٢]
[لا غَرْوَ في أنْ ذَكَرْنا الحُزْنَ حِينَ نَهتْ عَنْهُ النُّهى، وَتَركْنَا الصَّبْرَ نَاسِينَا][٣]
أنَّا قرأنا الأسَى يَوْمَ النَّوَى سُوَراً مَكتوبةً وأخذْنا الصَّبْرَ تَلْقِينَا[٤]
[إنْ كانَ قَدْ عَزَّ في الدنيا اللقاءُ فَفي مَواقِفِ الحَشْرِ نَلْقَاكُمْ، وَيكْفِينَا[٥]
أمَّا هَواكِ فَلَمْ نَعْدِلْ بِمَنْهَلِهِ شَرْباً وإنْ كان يُرْوِينا فَيُظْمِينَا[٦]
لم يَخْفَ أُفْقُ جَمالٍ أنتِ كَوْكَبُه سَالِينَ عنهُ، وَلَمْ نَهْجُرْهُ قَالِينَا[٧]
وَلا اخْتِياراً تَجنَّبناكِ عَنْ كَثَبٍ لَكِنْ عَدَتْنا على كُرْهٍ عَوَادِينَا[٨]
نَأسَى عَلَيْكِ إذا حُثَّتْ مُشَعْشَعةً فِيهَا الشَّمولُ وغنَّانا مُغَنِّينَا[٩]
لا أكؤُسُ الراحِ تُبْدِي مِنْ شَمائِلِنا سِيمَا ارْتياحٍ وَلا الأوتارُ تُلْهِينَا[١٠]
دُومي على العَهْدِ، ما دُمْنَا، مُحَافِظَةً فالحُرُّ مَنْ دَانَ إنصافاً كما دِينَا[١١]
فما ابْتغيْنا خَليلاً مِنْكِ يَحبِسُنا ولا اسْتَفدْنا حَبيباً عَنْكِ يُغْنِينَا[١٢]
وَلَوْ صَبَا نَحْوَنا مِنْ عُلْوِ مَطْلعهِ بَدْرُ الدُّجى لَمْ يَكُنْ حَاشَاكِ يُصْبِينَا[١٣]
أَوْلِي وَفاءً وإنْ لَمْ تَبْذُلي صِلَةً فَالذِّكرُ يُقْنِعُنا والطَّيْفُ يَكْفِينَا

= ثمرها طعام أهل النار. قال تعالى: ﴿إنّ شَجَرَةَ الزقُّوم طَعَامُ الأثِيم﴾ [الدخان: ٤٣]. الغِسْلِينُ: ما يسيل من جلود أهل النار كالقيح وغيره. قال تعالى: ﴿ولاَ طَعَامَ إلاَّ مِن غِسْلِين﴾ [الحاقة: ٣٦].

(١) غَضُّ البَصَرَ: كَفُّهُ وخَفَضَه. الواشي: الذي ينقل أخبار المُحبِّين، ويَسْعَى إلى إفساد علاقاتهم.
(٢) أفشى الخبر أو السِّرّ: نشره وأذاعه.
(٣) النُّهى: العَقْلُ.
(٤) الأسى: الحزن. النوى: البعد. تلقينا: يقال لَقَّنَهُ الكلام: ألقاه إليه ليعيده.
(٥) عَزَّ الشيءُ: قَلَّ فلا يكاد يُوجد، وعَزَّ عليه الأمر: اشْتَدَّ. الحشر: أي يوم القيامة.
(٦) المنهل: المَوْرِدُ، المَشْرَبُ.
(٧) القالي: المُبغض.
(٨) عَدَا عليه عَدْواً وَعُدْواناً: ظلمه وتجاوز الحَدَّ. العوادي: جمع العادية: مؤنث العادي: العَدُوّ. وعوادي الدهر: نوائبه.
(٩) مشعشعة: أي خمر مشعشعة: ممزوجة بالماء. الشمول: من أسماء الخمر.
(١٠) الشمائل: الطِّباع. السِّيما: العلامة. قال تعالى: ﴿سِيمَاهُم في وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩].
(١١) دان فلان: اعتقد أو أطاع وخضع، أو جازى، أو أحسن.
(١٢) الخليل: الصاحب أو الرفيق، أو الحبيب.
(١٣) صَبَا: مَالَ، أو حَنَّ وتَشوَّق.

وَفِي الجوابِ قناعٌ لَوْ شَغَفْتِ بِهِ ... بِيضَ الأيادي التي ما زِلْتِ تُولِينَا[١]
عَلَيْكِ مِنِّي سَلامُ اللَّهِ ما بَقِيَتْ ... صَبَابةٌ مِنْكِ تُخْفِيها فَتُخْفِينَا][٢]

أوردتها على الاختيار لا على النسق، ولعل في كثيرٍ مما تركتُ منها أحسن مما أوردتُ، وإنما منعني من استيفائها الوفاء بشرط التلخيص.

ومن شعره رحمه اللَّه، مما قاله في مدة صباه: [من البسيط]

أَخَذْتَ ثُلْثَ الهَوَى غَصْباً ولي ثُلُثُ ... وَلِلْمُحبِّين فيما بَيْنَهُمْ ثُلُثُ
تاللَّهِ لَوْ حَلَفَ العُشَّاقُ أَنَّهمو ... مَوتَى مِنَ الوَجْدِ يَوْمَ البينِ ما حَنِثُوا[٣]
قَوْمٌ إذا هُجِروا مِنْ بَعْدِ ما وُصِلوا ... ماتوا، فإنْ عادَ مَنْ يَهْوَوْنه بُعِثُوا
تَرَى المُحبِّين صَرْعَى في عِرَاصِهِمُ ... كَفِتْيَةِ الكَهْفِ مَا يَدْرُون مَا لَبِثُوا[٤]

ومما قال رحمه اللَّه يتشوّق ابنةَ المهدي المذكورة[٥] وَمَعاهِدَهُ بِقُرْطُبَة، وضمّنها بيتَ أبي الطيب[٦] في أوّل قصيدته الكافورية[٧]: [من البسيط]

«بِمَ التَّعلُّلُ لا أَهْلٌ ولا وَطَنُ ... وَلا نَدِيمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ»![٨]

قصيدة أوّلها: [من البسيط]

هَلْ تَذْكُرونَ غَريباً عادَهُ شَجَنُ ... مِنْ ذِكْرِكُمْ وَجَفَا أَجْفَانَه الوَسَنُ[٩]
يُخْفي لَواعِجَه والشَّوْقُ يَفْضَحُهُ ... فَقَدْ تَساوى لَدَيْهِ السِّرُّ والعَلَنُ[١٠]
يا وَيْلَتاهُ! أَيَبْقَى في جَوانحهِ ... فُؤادُهُ وَهْوَ بالأطلالِ مُرْتَهَنُ[١١]

---

(١) أَوْلَى فلاناً معروفاً: صنعه إليه.
(٢) الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(٣) البَيْنُ: البُعْدُ والفراق. حنث في يمينه حِنثاً: لم يَبرّ فيها وأَثِم.
(٤) صَرْعَى: جمع صريع: المطروح أرضاً. العِرَاصُ: جمع العرصة: ساحة الدار.
(٥) هي ابنة المستكفي كما أوضحنا سابقاً.
(٦) هو أبو الطيب المتنبي، أحمد بن الحسين الجعفي الكندي، الشاعر العباسي المشهور، المُتوفَّى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.
(٧) الكافورية: أي التي قالها في كافور الإخشيدي سلطان مصر في زمانه. والقصيدة في ديوانه: ٢/ ٢٨١.
(٨) النديم: الصاحب على الشراب.
(٩) الشَّجَنُ: الحُزن. الوَسَنُ: النُّعاس.
(١٠) اللواعج: جمع اللاعج: الهوى المُحرق.
(١١) الجوانح: الضُّلوع، الواحدة: جانحة. الأطلال: ما بقي شاخصاً من الديار، الواحد: طَلَلٌ.

وأَرَّقَ العَيْنَ والظلماءُ عاكِفةٌ وَرْقَاءُ قَدْ شَفَّها، أو شَفَّني، حَزَنُ[١]
فَبِتُّ أَشْكُو وَتَشْكُو فَوْقَ أَيْكَتِها وَباتَ يَهْفُو أرتياحاً بيننا الغُصُنُ[٢]
يا هَلْ أُجالسُ أقواماً أُحِبُّهمُ كُنّا وكانوا على عَهْدٍ فَقَدْ ضَغِنُوا[٣]
أو تَحْفَظُون عُهُوداً لا أُضَيِّعُها إنَّ الكِرامَ بِحفْظِ العَهْدِ تُمْتَحَنُ

ومنها:

إنْ كانَ عادَكُم عيدٌ فَرُبَّ فَتًى بالشَّوْقِ قَدْ عادَ مِنْ ذِكْرَاكُمُ حَزَنُ[٤]
وَأَفْرَدَتْهُ الليالي مِنْ أَحِبَّتِهِ فَباتَ يُنشِدُها مِمّا جَنَى الزَّمَنُ:
«بِمَ التَّعلُّلُ لا أَهْلٌ وَلا وَطَنُ وَلا نَدِيمٌ ولا كأسٌ ولا سَكَنُ»

[أبو بَكْر بن عَمّار][*]

ومنهم الوزير أبو بَكْر مُحمَّد بن عَمَّار[٥]، ذو النفس العصامية، والآداب الأهتمية؛ كان أحد الشعراء المجيدين على طريقة أبي القاسِم مُحمَّد بن هانىء الأندلسي[٦]، وربما كان أحلى منزعاً منه في كثير من شعره. ولشعره ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس، ولم أُلفِ أحداً ممن أدركته سِنّي من أهل الآداب الذين أخذتُ عنهم إلا رأيته مقدِّماً له مُؤثراً لشعره، وربما تغالى بعضهم فَشبّهه بأبي الطيب، وهيهات!

فمن قصائده المشهورة التي أجاد فيها ما أراد: قصيدته التي كتب بها من

(١) أَرَّقَ العَيْنَ: منعها النوم. عاكفة: مُقيمة، ملازمة. ورقاء: حمامة. شَفَّهُ الحزن: أنحله وأهزله.
(٢) الأَيكة: الشجر الكثيف المُلتفُّ. هَفَا الغُصن: تحرَّك واضطرب.
(٣) ضَغِنَ عليه: حَقَدَ وأبغضه بُغضاً شديداً.
(٤) عاد الشيءُ فلاناً: أصابه مرّةً بعد أُخرى، وعادَ الشيءَ: أتاه مرّةً بعد أخرى. وعاد إليه وله وعليه: رجع وارتدّ.
(*) ترجمته في: شذرات الذهب: ٣/ ٣٥٦؛ المطرب من أشعار المغرب: ١٦٩؛ وفيات الأعيان: ٤/ ٤٢٥؛ الأعلام: ٦/ ٣١٠؛ معجم المؤلفين: ١١/ ٧٤؛ تاريخ الأدب العربي (فروخ): ٤/ ٦٣٨؛ هدية العارفين: ٢/ ٧٤.
(٥) هو أبو بكر، محمد بن عمار بن الحسين بن عمار المَهْريّ، نسبة إلى مَهْرَة، وهي قبيلة عربية من قضاعة، ويقال له أيضاً: الشِّلْبِيّ والأندلسي، ويُلقَّب بذي الوزارتين.
(٦) هو أبو القاسم، محمد بن هانئ بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي: شاعر مجيد، كان عند المغاربة كالمتنبي عند المشارقة. توفي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. (شذرات الذهب، ابن العماد: ٣/ ٤١).

سَرَقُسْطَة حين فَرَّق المُعتضد باللّه بينه وبين المُعتمد ـ لأنه شغله عن كثيرٍ من أمره فنفاه ـ وهي: [من الطويل]

عَلَيَّ، وإلَّا ما بُكَاءُ الغَمائمِ ... وَفِيَّ، وإلَّا ما نِيَاحُ الحَمائمِ
وَعنِّي أثارَ الرَّعْدُ صَرْخَةَ طَالبٍ ... لِثأرٍ وَهَزَّ البَرْقُ صَفْحَةَ صَارِمِ[١]
وَما لَبِسَتْ زُهْرُ النُّجومِ حِدَادَها ... لِغَيْري وَلا قَامَتْ لَهُ في مآتمِ[٢]

وفي هذه القصيدة يقول يمدح المعتضد باللّه:

[إذا رَكِبُوا فانظُره أوَّلَ طَاعنٍ ... وإنْ نَزلُوا فارْصُدْه آخِرَ طَاعِمِ][٣]
أَبَى أَنْ يَراه اللّهُ إلَّا مُقَلَّداً ... حَميلةَ سَيْفٍ أو حَمَالةَ غَارِمِ[٤]

ومن جيد نسيبه قوله في قصيدة يمدح بها المعتضد باللّه: [من الكامل]

جَاهُ الهَوَى ـ فَاسْتَشْعِرُوه ـ عَارُهُ ... وَنَعِيمُه ـ فَاسْتَعْذِبُوه ـ أُوارُه![٥]
لا تَطْلُبُوا في الحُبِّ عِزًّا إنَّما ... عُبْدَانُه في حُكْمِهِ أَحْرَارُه[٦]
قالوا أضرَّ بِكَ الهَوَى فَأَجَبْتُهمْ ... يا حَبَّذَاه وحَبَّذا إضرارُه
قَلْبي هُوَ اخْتَارَ السَّقامَ لِجسْمِهِ ... زِيًّا، فَخَلُّوه وَما يَخْتَارُه
عَيَّرْتموني بالنُّحولِ وإنَّما ... شَرَفُ المُهَنَّدِ أنْ تَرِقَّ شِفَارُه[٧]
وَشَمِتُّمُ لِفِراقِ مَنْ أَلِفْتُهُ ... وَلَرُبَّما حَجَبَ الهِلالَ سِرَارُه[٨]
أَحَسِبْتُمُ السُّلوانَ هَبَّ نَسِيمُهُ ... أَوْ أَنَّ ذاكَ النومَ عادَ غِرارُه[٩]
إنْ كان أَعْيا القلبُ مِنْ حَرْبِ الجَوَى ... خَذَلَتْهُ مِنْ دَمْعي إذنْ أَنْصارُه[١٠]

---

(١) الصارم: السيف القاطع. (٢) النجوم الزهر: المتلألئة.
(٣) رَصَدَهُ رَصْداً وَرَصَداً: رقبه.
(٤) في رواية:
«أَبَى أَنْ يَرَاهُ اللّه غَيْرَ مُقَلَّدٍ ... حِمالةَ سَيْفٍ . . . .»
الحميلة: علاقة السيف ونحوه. الحَمَالةُ: الدية، أو الغرامة يحملها قوم عن قوم.
(٥) الجاه: المنزلة والقدر. الأُوار: اللهب، أو حَرُّ الشمس والنار.
(٦) العُبدان: العبيد، الواحد: عَبْدٌ.
(٧) المهند: السيف المصنوع في الهند. الشِّفَارُ: جمع الشفرة: ما عُرِّضَ وَحُدِّدَ من الحديد، كحدِّ السيف والسِّكين والخنجر وغير ذلك.
(٨) السِّرار: سِرَارُ الشهر: آخر ليلةٍ فيه، ويقال: اسْتَسَرَّ القمر: خفي ليلة السِّرار.
(٩) السلوان: النسيان مع طيب نفس. الغرار: القليل من النوم.
(١٠) أعيا: تعب. الجوى: حرقة الحبِّ والوجد.

مَـنْ قَـدَّ قَـلْـبـي إذ تَـثـنَّـى قَـدُّهُ وَأقـامَ عُـذْرِي إذْ أطـلَّ عِـذَارُه[١]
أَمْ مَنْ طَوَى الصُّبْحَ المنيرَ نِقَابُهُ وَأَحاطَ باللَّيْلِ البَهِيمِ خِمَارُه[٢]
غُصْنٌ وَلكِنَّ النُّفُوسَ رِياضُهُ رَشَأٌ وَلَكِنَّ القُلوبَ عَرَارُه[٣]
سَخِرَتْ بِبَدْرِ التَّمِّ غُرَّتُهُ كما أَزْرَتْ على آفاقِه أَزْرَارُه[٤]
ما زالَ لَيْلُ الوَصْلِ مِنْ فَتَكاتِهِ تَسْرِي إليَّ بِعَرْفِهِ أَسْحَارُه[٥]
وَيَجُودُ رَوْضَ الحُسْنِ مِنْ وَجَناتِهِ دَمْعِي فَيَنْدَى رَنْدُه وبَهَارُه[٦]
حَتَّى سَقَانِي الدَّهْرُ كَأسَ فِرَاقِهِ فَسَكِرْتُ سُكْراً لا يُفيقُ خُمَارُه[٧]
وَوَقفْتُ في مِثْلِ المُحصَّب مَوقِفاً لِلبَيْنِ مِنْ حَبِّ القُلوبِ جِمَارُه[٨]
حَيْرانَ أَعْمَى الطَّرف وَهْو سَماؤُهُ وأذابَ فيه القَلْبَ وَهْوَ قَرَارُه[٩]
وَلَئِنْ يُذِبْهُ وَهْوَ مَثْوَاهُ فَكَمْ قَدْ أَحرَقتْ عُودَ العَفارةِ نَارُه[١٠]
إنْ يَهْنِهِ أنّي أضَعْتُ لِحُبِّهِ قَلْبي وَذاعَتْ عِنْدَهُ أَسْرَارُه...
.....فَلْيَهْنِ قَلْبِي أنْ شَكَاهُ وِشَاحُهُ لِسِوَارِه فَاقْتَصَّ مِنْهُ سِوَارُه![١١]
فَوَحُسْنِهِ لَقَد انتَدَبْتُ لِوَصْفِهِ بالبُخْلِ لَوْلا أنْ حِمْصاً دَارُه
بَلَدٌ رَمَتْني بالمُنَى أَغْصَانُه وَتفجَّرتْ لي بالنَّدى أَنْهَارُه

ولابن عمّار هذا مع المُعتمد أخبار عجيبة عُنِيَ بجمعها أهلُ الأندلس، وأنا إن

---

(١) قَدَّ القلبَ: شقَّه.

(٢) النقاب: القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها. ليل بهيم: شديد السَّواد. الخمار: ثوب تغطي به المرأة رأسها.

(٣) الرَّشأ: ولد الظبية إذا قَوِي وتحرّك ومشى مع أُمّه. العَرارُ: نبات طيب الرائحة.

(٤) بَدْرُ التَّمّ: القمر ليلة اكتماله.

(٥) فتكاته: يقال: فَتَكَ فَتْكاً: ركب ما تدعو إليه نفسه غير مبالٍ. العَرْفُ: الرائحة الطيبة. الأسحار: جمع السحر: آخر الليل قبيل طلوع الفجر.

(٦) يجوده: يصيبه، يقال: جاد المطر الأرض: أصابها، وجاد المطر القوم: عَمّ أرضهم وشملهم. الرَّنْدُ: شجر طيب الريح، أو الآس. البَهَارُ: زهر طيّب الريح، ينبت في الربيع.

(٧) الخُمار (من الخمر): ما يُصيب شاربها من ألمها وصداعها، أو ما خالط الإنسان من سُكر الخمر.

(٨) المُحصَّبُ: موضع رمي الجِمار بِمِنًى. الجمار: جمع الجمرة: الحصاة الصغيرة.

(٩) الطَّرْفُ: العَيْنُ، أو النظر. القرار: المكان المنخفض يجتمع فيه الماء.

(١٠) المثوى: المقام، مكان الإقامة.

(١١) الوشاح: نسيج عريض يُرصَّع بالجوهر، تَشدُّه المرأة بين عاتقها وكَشْحَيْها.

شاء اللَّه مُوردٌ منها ما لا يُخلّ بالشرط الذي التزمته، ولا يخرج عن الحدّ الذي رسمته، حسبما بقي على خاطري من ذلك؛ لأني كنت في حداثة سِنّي قد صرفتُ عنايتي إلى أخبار ابن عمّار هذا مع المُعتمد، لما تَضمنته من الآداب. وقد فَتّشْتُ خِزانة حفظي فلم أُلْفِ[1] فيها إلّا نبذةً يسيرةً، وأنا مُوردُها إن شاء اللّه عزَّ وجلَّ.

فابن عمَّار هذا هو مُحمَّد بن عمَّار، يُكْنَى أبا بَكر، أصله من «شِلْب»، من قرية من أعمالها يقال لها «شنبوس». مولده ومولد آبائه بها. كان خامل[2] البيت ليس له ولا لأسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه حَظٌّ، ولا ذُكِرَ منهم بها أحد. وَرَدَ مدينة «شِلْب» طفلاً فنشأ بها، وتعلم علم الأدب على جماعةٍ، منهم: أبو الحجَّاج يُوسُف بن عِيسَى الأعلم[3]. ثم رحل إلى قُرْطُبة فتأدب بها، ومهر في صناعة الشعر، فكان قُصارَاه التكسب به، فلم يزل يجول في الأندلس مُسْتَرْفِداً لا يخصُّ بمدحه الملوكَ دون غيرهم، بل لا يبالي ممن أخذ ولا من استعطف من مَلكٍ أو سُوقة، وله في ذلك خبر ظريف:

وذلك أنه ورد في بعض سَفراته «شِلْبَ»، لا يملكُ إلّا دابةً لا يجد علفها، فكتب بشعر إلى رجلٍ من وجوه أهل السوق، فكان قَدْرُه عند ذلك الرجل أن ملأ له المخلاة شعيراً ووَّجه بها إليه؛ فرآها ابن عمَّار من أجلّ الصِّلات وأسنى الجوائز. ثم اتفق أن عَلَتْ حال ابن عمَّار وساعده الجدّ ونهض به البخت، وانتهى أمره أن ولَّاه المُعتمد على اللَّه مدينة «شِلْب» وأعمالَها، أول ما أفضَى الأمر إليه، فدخلها ابن عمَّار في موكب ضخم وجملةِ عبيدٍ وحشم، وأظهر نخوةً لم يُظهرها المُعتمد على اللّله حين وليها أيام أبيه المُعتضد باللَّه؛ فكان أولَ شيء سأل عنه، الرجلُ صاحبُه صاحبُ الشعير، فقال: ما صنع فلان، أهو حيّ؟ قالوا: نعم؛ فأرسل إليه بمخلاته بعينها بعد أن ملأها دراهم، وقال لرسوله: قل له: لو ملأتَها بُرًّا لملأناها تبراً.

ولم يزل ابن عمَّار على الحال التي ذكرناها، من التقلُّب في بلاد الأندلس للاستجداء والاستعطاف، إلى أن ورد على المُعتضد باللَّه أبي عمرو، فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها: [من الكامل]

أدِرِ الزُّجاجةَ فالنسيمُ قَدِ انبَرى وَالنَّجْمُ قَدْ صَرَفَ العِنانَ عن السُّرَى[4]

---

(١) لم أُلْفِ: لم أجد.

(٢) الخامل: يقال: خَمَلَ الرجل: خَفِيَ فلم يُعرف ولم يُذكر.

(٣) هو يوسف بن عيسى بن سليمان النحوي، المعروف بالأعلم، ويكنى: أبا الحجّاج: عالم باللغة والأدب والشعر، من أهل شنتمرية. توفي سنة ٤٧٦هـ بإشبيلية. (الصلة، ابن بشكوال: ٥٢٤).

(٤) انبرى: عَرَضَ. العنان: سير اللجام الذي تُمسك به الدابة، استعاره للنجم. وصَرَفَ الشيءَ صَرْفاً: ردَّه عن وجهه. السُّرَى: السير في الليل.

وَالصُّبْحُ قَدْ أَهْدى لَنَا كَافُورَهُ لَمَّا اسْتَرَدَّ اللَّيْلُ مِنَّا العَنْبَرا[١]

وفيها قال يَمدح المُعتضد:

عَبَّادٌ المُخْضَرُّ نائلُ كَفِّهِ وَالجوُّ قَدْ لَبِسَ الرِّداءَ الأَغْبَرا[٢]

قَدَّاحُ زَنْدِ المَجْدِ لا يَنْفَكُّ مِنْ نَارِ الوَغَى إلّا إلى نارِ القِرَى[٣]

يَخْتارُ أَنْ يَهَبَ الخَرِيدَةَ كَاعِباً والطِّرْفَ أجْرَدَ والحُسامَ مُجَوْهَرَا[٤]

وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقعة أوقعها المُعتضد بالبربر:

شَقِيَتْ بِسَيْفِك أُمَّةٌ لَمْ تَعْتَقِدْ إلّا اليَهُودَ وإنْ تَسَمَّوْا بَرْبَرَا

أثمرتَ رُمْحَكَ مِنْ رُؤُوسِ كُماتِهِم لَمَّا رأيتَ الغُصْنَ يُعْشَقُ مُثْمِرَا[٥]

وَخَضَبْتَ سَيْفَكَ مِنْ دِمَاءِ نُحورِهِم لَمَّا عَهِدْتَ الحُسْنَ يُلْبَسُ أَحْمَرا[٦]

ومن أبيات هذه القصيدة بيت لم أسمع لمتقدّم ولا متأخر بمثله، وهو قوله:

السَّيْفُ أَفْصَحُ مِنْ زِيَادٍ خُطبةً في الحَرْبِ إنْ كانتْ يَمِينُك مِنْبَرا[٧]

ولما أنشد المُعتضدَ هذه القصيدة استحسنها وأمر له بمالٍ وثيابٍ ومَرْكَبٍ، وأمر أن يُكتب في ديوان الشعراء؛ فكان كذلك. ثم تعلّق بالمُعتمد على اللّه وهو إذ ذاك شاب، فلم تزل حالُه معه تتزيّد، ومَوَاتُّ[٨] خدمتِه له تقوى وتتأكد، إلى أن صار ابنُ عَمّار ألزَقَ بالمُعتمد من شعرات قَصِّه[٩]، وأدنى إليه من حبل وريدِه[١٠]؛ كان المعتمد لا يَستغني عنه ساعةً من ليلٍ ولا نهار.

---

(١) الكافور: شجر يُتّخذ منه مادة شفّافة، رائحتها عطرية، وطعمها مُرٌّ، وهو أصناف كثيرة. العنبر: مادة صلبة، لا طعم لها ولا ريح إلا إذا سُحِقت أو أُحرقت.

(٢) لبس الرداء الأغبر: أي علاه الغبار، أو اشتدَّ غباره، أو تلوّن بلون الغبار.

(٣) الوَغَى: الحرب. القِرَى: ما يُقَدَّمُ للضيف من طعام وشراب.

(٤) الخريدة: الفتاة العذراء البِكْر. الكاعب: الفتاة التي نهد ثديها، أي ارتفع وبرز. الطِّرْفُ: العتيق الكريم من الخيل. الأجرد: القليل الشعر. الحسام: السيف. مجوهرٌ: مُرصَّعٌ بالجَوْهَر.

(٥) الكماة: جمع الكَمِيّ: البطل أو الفارس التّامُّ السلاح.

(٦) خضبت: صبغت، لطخت. النحور: جمع النحر: أعلى الصدر.

(٧) زياد: يعني زيادَ بن أبيه، وهو من خطباء بني أمية المشهورين.

(٨) المواتُّ: جمع مائّة: الحُرْمة أو الوسيلة.

(٩) القَصُّ: عظم الصدر المغروز فيه أطراف الأضلاع من الجانبين.

(١٠) حبل الوريد: عرق تزعم العرب أنه من الوتين، وهو الشريان الرئيس الذي يُغذّي جسم الإنسان بالدم النقيّ الخارج من القلب. وهو من قوله تعالى: **﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾** [ق: ١٦].

ثم اتفق أن ولِيَ المُعتمدُ على اللّه «شِلْبَ» من قِبل أبيه، فاستوزر ابنَ عمَّارٍ هذا في تلك الولاية، وسلَّم إليه جميع أموره، فغَلَب عليه ابنُ عمَّار غلبةً شديدةً، وساءت السمعة عنهما... فاقتضى نظر المُعتضد التفريقَ بينهما، ونفى ابن عمَّارٍ عن بلاده حسبما تقدّم الإيماء إليه. فلم يزل ابن عمّار مغترباً في أقاصي بلاد الأندلس، إلى أن تُوُفِّي المُعتضد باللّه، فاستدعاه المُعتمد، وقرّبه أشدَّ تقريبٍ، حتى كان يشاركه فيما لا يشارك فيه الرجل أخاه ولا أباه.

وله معه أيام كونهما بِشِلْب خبر عجيب؛ وذلك أن المُعتمد استدعاه ليلةً إلى مجلس أُنسه، على ما كانت العادة جارية به، إلَّا أنه في تلك الليلة زاد في التحفِّي[١] به والبرّ له على المعتاد، فلما جاء وقت النوم أقسم المُعتمد عليه: لتضعَنّ رأسك معي على وسادٍ واحد! فكان ذلك. قال ابن عمَّار: فهتف بي هاتف في النوم يقول: «لا تغترّ أيها المسكين؛ إنه سيقتلك ولو بعد حين!» قال: فانتبهت من نومي فَزِعاً، وتعوّذت، ثم عدتُ، فهتف بي الهاتف على حالته الأولى؛ فانتبهتُ، ثم عدتُ، فسمعته ثالثةً؛ فانتبهت فتجردت من أثوابي والتففتُ في بعض الحصُر، وقصدت دهليز القصر مستخفياً به، وقد أزمعتُ على أني إذا أصبحت خرجتُ مستخفياً حتى آتي البحر فأركبه وأقصد بلاد العُدْوَة فأكون في بعض جبال البربر حتى أموت. فانتبه المُعتمد فافتقدني فلم يجدني، فأمر بطلبي، فَطُلِبْتُ له في نواحي القصر، وخرج هو بنفسه يَتوكأ على سيفه والشمعة تُحمل بين يديه؛ فكان هو الذي وقع عليّ؛ وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فُتح؛ فوقف بإزاء الحصير الذي كنت فيه، فكانت مني حركةٌ فأحسّ بي، وقال: ما هذا يتحرك في هذا الحصير؟ ثم أمر به فَنُفِضَ، فخرجت عُرياناً ليس عليَّ إلا السراويل! فلما رآني فاضت عيناه دموعاً وقال: يا أبا بَكْر، ما الذي حملك على هذا؟ فلم أر بُدًّا من أن صدقتُه، فقصصتُ عليه قصتي من أولها إلى آخرها، فضحك وقال: يا أبا بَكْر، أضغاث أحلامٍ، هذه آثار الخُمار، ثم قال لي: وكيف أقتلك؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه؟ وهل أنت عندي إلا كنفسي؟ فتشكر له ابن عمَّار ودعا له بطول البقاء، وتناسى الأمر فنسيه، ومرت على ذلك الأيام والليالي، إلى أن كان من أمره ما سيأتي الإيماء إليه، فصدقت رؤيا ابن عمَّار، وقتل المُعتمد نفسه كما قال!

ولما أفضى الأمر إلى المُعتمد كما ذكرنا، سأله ابن عمَّار ولاية «شِلْب»، وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم؛ فأجابه المُعتمد إلى ذلك وولّاه إياها أَنْبَهَ ولاية؛ جعل إليه جميع أمورها، خارجها وداخلها. فاستمرت ولاية ابن عمَّار عليها إلى أن اشتد

---

(١) تَحَفَّى بفلان: احتفل به.

شوق المُعتمد إليه، وَضَعُف عن احتمال الصبر عنه؛ فاستدعاه وعزله عنها واستوزره؛ فكانت حاله معه شبيهةً بحال جَعْفَر بن يَحْيَى[١] مع الرشيد.

ولم يزل المُعتمد يُعدُّه لكل أمرٍ جليلٍ، ويؤهّله لكل رتبةٍ عاليةٍ. وكان ابن عمَّار مع هذا لا يُناط به أمرٌ إلا اضطلع به وكانَ فيه كالسكة المحماة. واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم الأدفنش إذا ذُكر عنده ابن عمَّار قال: هو رجل الجزيرة! وكان ابن عمَّار هو الذي ردّه عن قصد إشْبِيلِيَّة وقُرْطُبَة وأعمالهما؛ وذلك أنه خرج في جيوشٍ ضخمةٍ يقصد بلاد المُعتمد طامعاً فيها، فخافه الناس، وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه؛ فتولى ابن عمَّار ردّه بألطف حيلةٍ وأيسر تدبير؛ وذلك أنه أقام سُفرة شطرنج في غاية الإتقان والإبداع، لم يكن عند مَلِكٍ مثلُها، جعل صورها من الآبنوس[٢] والعود الرطب والصندل[٣]، وحلَّاها بالذهب، وجعل أرضها في غاية الإتقان؛ فخرج من عند المُعتمد رسولاً إلى الأدفنش، فلقيه في أول بلاد المسلمين، أعظم الأدفنش قدومه وبالغ في إكرامه، وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خبائه والمسارعة في حوائجه؛ فأظهر ابن عمَّار تلك السفرة، فرآها بعض خواصّ الأدفنش، فنقل خبرها إليه. وكان العلج ـ أعني الأدفنش ـ مولعاً بالشطرنج، فلما لقي ابن عمَّار سأله: كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمَّار فيه طبقةً عالية، فأخبره بمكانه منه؛ فقال له: بلغني أن عندك سفرة في غاية الإتقان! قال ابن عمَّار: نعم؛ فقال: كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمَّار لترجمانه: قل له: أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حُكمي! فقال له الأدفنش: هلمها لننظر إليها. فأمر ابن عمَّار من جاء بها، فلما وُضعت بين يدي العلج صَلَّبَ وقال: ما ظننت أن إتقان الشطرنج يبلغ إلى هذا الحد! ثم قال لابن عمَّار: كيف قلت؟ فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الأدفنش: لا ألعب معك على حكم مجهولٍ لا أدري ما هو، ولعله شيء لا يمكنني! فقال ابن عمَّار سِرَّ ما أراده لرجالٍ وثق بهم من وجوه دولة الأدفنش، وجعل لهم أموالاً عظيمةً على أن يؤازروه على أمره، ففعلوا. فتعلقت نفس العلج بالسفرة، وشاور خاصته فيما رسمه ابن

---

(١) هو أبو الفضل، جعفر بن يحيى بن خالد البرمكي: وزير الرشيد العباسي. ولد ونشأ ببغداد، وكان الرشيد يدعوه: أخي، فانقادت له الدولة، يحكم بما يشاء فلا تُرَدُّ أحكامه، إلى أن نقم الرشيد على البرامكة، فقتله في مقدمتهم. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٧/ ١٥٢).

(٢) الآبنوس: شجر ينبت في الحبشة والهند، خشبه أسود صلب، ويُصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث.

(٣) الصَّنْدَلُ: شجر خشبه طيّب الرائحة، يظهر طيبها بالدَّلْك والإحراق.

عمَّار، فهوّنوا عليه وقالوا له: إن غلبتَه كانت عندك سفرة ليس عند ملكٍ مثلُها، وإن غلبك فما عساه أن يحتكم؟ وقبّحوا عنده إظهار الملك العجز عن شيء يُطلب منه، وقالوا له: إن طلب ابنُ عمّار ما لا يمكن فنحن لك بردّه عن ذلك. ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمّار فجاء ومعه السفرة، فقال له: قد قبلتُ ما رسمتَه! فقال له ابن عمّار: فاجعل بيني وبينك شهوداً ـ أسماهم له ـ فأمر الأدفنش بهم فحضروا، وافتتحا يلعبان. وكان ابن عمّار ـ كما ذكرنا ـ طبقةً بالأندلس؛ لا يقوم له أحد فيها؛ فغلَب الأدفنش غلبةً ظاهرةً لجميع الحاضرين، لم يكن للعلج فيها مطعن. فلما حقّت الغلبة قال ابن عمّار: هل صحّ أن لي حكمي؟ قال: نعم، فما هو؟ قال: أن ترجع من ههنا إلى بلادك! فاسودّ وجه العلج وقام وقعد، وقال لخواصه: قد كنت أخاف من هذا حتى هوّنتموه عليّ! في أمثال لهذا القول، وهمَّ بالنَّكث والتمادي لوجهه، فقبَّحوا ذلك عليه، وقالوا له: كيف يَجْمُل بك الغدر وأنت ملكُ ملوكِ النصارى في وقتك! فلم يزالوا به حتى سكن، وقال: لا أرجع حتى آخذ إتاوة عامين خلافَ هذه السنة! فقال ابن عمّار: هذا كله لك! وجاءه بما أراد، فرجع وكفَّ اللّه بأسه، ودفعَه بحوله وحُسن دفاعه عن المسلمين. ورجع ابن عمّار إلى إشْبيليَّة وقد امتلأت نفس المُعتمد سروراً به.

ثم إن المُعتمد حدث له أمل في التغلب على مُرْسِيَةَ وأعمالها، وهي التي تُعْرَف بـ«تُدْمِير»[1]؛ وكانت بيد أبي عبد الرَّحْمَن مُحمَّد بن طَاهِر، كان هو المتغلِّبَ عليها والمدبِّر لأمرها، فجهَّز المُعتمد جيوشاً عظيمةً، وتكفَّل له ابن عمّار بأخذها وإخراج ابن طاهر عنها؛ فولاه ما تولى من ذلك. وخرج ابن عمّار حتى نزل على مُرْسِيَة، فأخذها وأخرج ابن طَاهِر عنها. فلحق ابن طَاهِر حين خرج من مُرْسِيَة ببني عبد العزيز بِبَلَنْسِيَة؛ فكان بها إلى أن مات رحمه اللّه.

ولما تغلب ابن عمّار على مُرْسِيَة دار ملك بني طَاهِر كما ذكرنا، حدثته نفسه وسوّل له سوءُ رأيه أن يستبد بأمره، وأن يضبط تلك البلاد لِنفسه؛ فلم يزل يُصرِّف الحيلة في ذلك إلى أن تمَّ له بعضه ودانت له مُرْسِيَة وأعمالها، وطمع في ملك بَلَنْسِيَة؛ إلى أن قام عليه رجلٌ من أهل مُرْسِيَة يقال له ابن رَشِيق، كان أبوه من عُرَفاء الجند بها؛ وكان ابن عمّار قد خرج لبعض أمره، فدعا ابن رشيق هذا إلى نفسه، وقامت معه العامة وبعض الجند، فسمع ابن عمّار بذلك، فجاء يركض حتى أتى

---

(١) تدمير: كورة في شرق الأندلس، قاعدتها مُرسِيَة، وكان يحكمها قبل الفتح العربي أمير قوطي من قرابة لذريق اسمه تيودمير، وباسم هذا الأمير سمّى العرب هذه الكورة. وقيل: بل سمّوها تدمير تشبيهاً لها بتدمر من بلاد الشام. وتقع تدمير شرقي قرطبة، وبينهما مسافة سبعة أيام للراكب القاصد. (معجم البلدان، الحموي: ٢/ ١٩).

المدينةَ وقد غلّقت أبوابها دونه؛ فحاصرها بمن معه أياماً، فامتنعت عليه ولم يقدر على دخولها؛ فبقي حائراً لا يدري ما يصنع ولا أين يتوجه؛ وقد كان بلغ المُعتمد قيامه عليه وخلع يده من طاعته، فلم ير إلّا الهروب ملجأً، فهرب حتى لحق ببني هُود بِسَرَقُسْطَة، فأقام عندهم حتى ثقل عليهم وخافوا غائلته؛ وبغّضه في عيونهم ما فعل مع صاحبه ووليِّ نعمته، فأخرجوه عن بلادهم.

ولم تزل البلاد تتقاذفه، وملوكها تَشْنأه[١]، إلى أن وقع في حصنٍ من حصون الأندلس في غاية المنعة يُدعى «شَقورة»[٢]، كان المتغلبَ عليه رجلٌ يقال له: ابن مُبارك، فأكرم وفادته وأحسن نزله، ثم بدا له بعد أيام فَقَبض عليه وقيّده وجعله في سجنه. فلما رأى ابنُ عمّار ذلك منه قال له: لا عليك أن تكتب إلى ملوك الأندلس بكوني عندك وتَعرضني عليهم، فما منهم إلّا من يرغب فيّ؛ فمن كان أشدَّهم رغبة جعلَ لك مالاً ووجهتَ بي إليه! ففعل ابن مُبارك ذلك، فما عرضه على أحدٍ من ملوك الأندلس إلّا رغب فيه. وكتب فيمن كتب إلى المعتمد...

وفي ذلك يقول ابن عمار: **[من السريع]**

أَصْبَحْتُ في السوقِ يُنادَى على ... رأسي بأنواعٍ مِنَ المالِ
واللّه ما جارَ عَلى مالهِ ... مَنْ ضَمَّني بالثَّمن الغالي!

وفي هذا السجن يقول ابن عمّار وقد استدعى نورة[٣] يستنظف بها فَتعذَّرت عليه، فاستدعى مُوسَى فَأُتي بها، فقال في ذلك: **[من المجتث]**

بُؤْسَى شَقُورةَ عِندي ... أَرْبَى عَلى كُلِّ بُوسَى[٤]
فَقَدْتُ «هَارونَ» فيها ... فَظَلْتُ أطلبُ «مُوسَى»![٥]

وبعث المُعتمدُ على اللّه من رجاله من تسلَّم ابن عمّار من يد ابن مُبارك، بعد أن بعث إليه بمالٍ وخيلٍ، وأمر المُعتمدُ الذين تسلموا ابن عمّار أن يزيدوا في الاحتياط عليه وتقييده. فخرجوا به حتى وَافَوْا قُرْطُبَةَ، ووافق ذلك كون المُعتمد بها، فدخلها ابن عمّار أشنع دخولٍ وأسوأه، على بغلٍ بين عِدْلَيْ تِبْنٍ، وقيودُه ظاهرةٌ للناس. وقد

---

(١) تشنأه: تبغضه.

(٢) شقورة: حصن منيع، شمالي مرسية، وهو رأس جبل عظيم، يخرج من أسفله نهران، أحدهما يمرّ بقرطبة، وثانيهما يمرُّ ببلنسية.

(٣) النورة: حجر الكلس، أو أخلاط من أملاح الكلسيوم والباريون تُستعمل لإزالة الشعر.

(٤) البُؤْسى: البؤس: المشقة، أو الفقر. أَرْبَى: زاد.

(٥) في البيت إشارة إلى موسى عليه السلام وأخيه هارون، الذي ناصره وشدَّ أزره. وفي قوله: «أطلب موسى» تورية لطيفة، إذ يحتمل المعنى: موسى عليه السلام، أو الآلة التي يُحلق بها الشعر.

كان المعتمد أمر بإخراج الناس خاصةً وعامةً حتى ينظروا إليه على تلك الحال. وقد كان قبل هذا إذا دخل قُرْطُبَة اهتزَّت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يردُّ عليه ابنُ عمَّار السلام، وغيرُهم لا يصل إلا إلى تقبيل رِكابه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعدٍ لا يستطيع الوصول إليه. فسبحان مُحيل الأحوال ومُديل الدول!

فدخل ابن عمَّار قُرْطُبَة كما ذكرنا، بعد العزة القعساء[1] والمُلك الشامخ، والرياسة الفارعة[2]، ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه؛ فسبحان من سلبه ما وهبه، ومنعه ما كان به أَمْتَعَه.

وأخبر بعض الموكلين به ما اتفق لهم معه من فرط ذكائه وسرعة فطنته، قال: لما قَرُبنا من قُرْطُبَة بحيث يرانا الناس، خرج فارسٌ من البلد يركض يقصدنا، فلما رآه ابن عمَّار ـ وكان معتمًّا ـ أزال العمامة عن رأسه، فجاء الفارس حتى وصل إلينا، فنظر إلى ابن عمَّار ودخل معنا في الصف فمشى، فسألناه فيم جاء؟ فقال: الذي جئتُ فيه صَنَعَهُ هذا الرجل قبل أن أصل إليه! فعلمنا أنه أُرسِل ليُزيلَ عِمامته.

فأدخل على المُعتمد على الله على الحالة التي ذكرت، يرسفُ في قيوده[3]؛ فجعل المُعتمد يُعَدِّدُ عليه أياديه ونعمه، وابن عمَّار في ذلك كله مطرقٌ لا ينبس[4]، إلى أن انقضى كلام المُعتمد؛ فكان من جواب ابن عمَّار أن قال: ما أُنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبقاه الله، ولو أنكرته لشهدت عليَّ به الجمادات فضلاً عَمَّن ينطق؛ ولكني عثرتُ فأَقِلْ، وزللتُ فاصفح! فقال المُعتمد: هيهات؛ إنها عثرة لا تُقال! وأمر به فأُحْدِرَ في النهر إلى إشْبِيلِيَّة، فَدُخِلَ به إشْبِيلِيَّة على الحال التي دخل عليها قُرْطُبَة، وجُعِلَ في غرفة على باب قصر المُعتمد المعروف بالقصر المبارك ـ وهو باق إلى وقتنا هذا ـ فطال سجنه هناك.

كُتِبَتْ عنه في هذا السجن قصائد لو توسَّل بها إلى الدهر لنزع عن جوره، أو إلى الفَلك لكفَّ عن دَوْره؛ فكانت رُقًى[5] لم تَنْجَعْ، وَدَعواتٍ لم تُسْمَعْ، وتمائم[6] لم تَنْفَعْ، فمنها قوله: **[من الطويل]**

سَجَاياكَ إنْ عَافَيْتَ أنْدَى وَأَسْجَحُ ... وَعُذْرُكَ إنْ عَاقَبْتَ أَجْلَى وَأَوْضَحُ[7]

---

(١) القَعْسَاءُ: الثابتة. (٢) الفارعة: العالية.
(٣) رسف في قيده رَسْفاً ورسيفاً: مشى فيه مشياً رويداً.
(٤) لا ينبس: لا ينطق، لا تتحرّك شفتاه بشيء.
(٥) الرُّقَى: جمع رقية: العوذة التي يُرْقَى بها المريض ونحوه.
(٦) التمائم: جمع تميمة: ما يُعلّق في العنق لدفع العين.
(٧) السجايا: جمع سَجِيَّة: الطبيعة والخُلُق. سجح الشيء سجحاً وسجاحةً: سَهُلَ ورَفُقَ.

وَإنْ كَانَ بَيْنَ الخُطَّتَيْنِ مَزِيَّةٌ فَأَنْتَ إلى الأدنى مِنَ اللّه تَجْنَحُ[١]
حَنَانَيْكَ في أخذي بِرَأيكَ، لا تُطِعْ عِدَاي وَلَوْ أثنوْا عَلَيْكَ وأَفْصَحُوا[٢]
فَإنَّ رَجائي أنْ عِنْدَكَ غَيْرَ مَا يَخُوضُ عَدُوِّي اليَوْمَ فيهِ وَيَمْرَحُ[٣]
ولِمْ لا وَقَدْ أسلفتُ وُدًّا وَخِدْمَةً يَكُرّانِ في لَيْلِ الخطايا فَيُصْبِحُ[٤]
وَهَبْنِي وَقَدْ أعقبْتُ أعمالَ مُفْسِدٍ أمَا تَفْسُدُ الأعمالُ ثُمَّتَ تَصْلُحُ
أقِلْنِي بما بَيْنِي وَبَيْنَكَ مِنْ رِضَى لَهُ نَحْوَ رُوحِ اللّه بابٌ مُفَتَّحُ
وَعَفِّ على آثارِ جُرْمٍ سَلَكْتُها بهَبَّةِ رُحْمَى مِنْكَ تَمْحُو وتُمصِحُ[٥]
ولا تَلْتَفِتْ قَوْلَ الوُشَاةِ وَرأيَهمْ فَكُلُّ إناءٍ بالذي فيهِ يَرْشَحُ[٦]
سَيأتيكَ في أمري حَديثٌ وَقَدْ أتى بِزُورِ بني عَبْدِ العزيزِ مُوشَّحُ[٧]
ومَا ذاكَ إلّا ما عَلِمْتَ فَإنَّني إذا ثُبْتُ لا أنفكُّ آسو وأجْرَحُ[٨]
كأنّي بِهِمْ لا دَرّ لِلّهِ دَرُّهم أشاروا تجاهي بالشماتِ وَصَرّحوا
وقالوا سَيَجْزيه فُلانٌ بِفعْلِهِ فَقُلْتُ وَقَدْ يَعْفو فُلانٌ وَيَصْفَحُ!
ألا إنَّ بَطْشاً للمُؤيَّد يَرتمي وَلكِنَّ حِلْماً لِلمؤيَّد يَرْجَحُ[٩]
وَماذا عَسَى الوَاشُون أنْ يَتَزيّدوا سِوَى أنَّ ذنبي وَاضِحٌ مُتَصحِّحُ
نَعَمْ ليَ ذَنْبٌ غَيْرَ أنَّ لِحِلْمِهِ صَفاةً يزِلُّ الذنبُ عنها فَيسفَحُ[١٠]
عليهِ سَلامٌ كيفَ دارَ بهِ الهَوَى إليّ فَيَدْنو أو عليَّ فَيَنزَحُ[١١]

---

(١) تجنح: تميل.

(٢) حنانيك: مصدر من المصادر المثناة التي تجب إضافتها إلى ضمير المخاطب في الغالب، وهي مثناة لفظاً من دون المعنى، وَيُراد بها التكرير، ومعنى حنانيك على هذا التعريف: تَحنُّناً بعد تَحنُّنٍ، أو حناناً بعد حنان. أثنى على الرجل: امتدحه.

(٣) خاض القوم في الحديث خَوْضاً: تفاوضوا فيه. يمرح: يتبختر ويختال وينشط.

(٤) أَسْلَفْتُ: قَدَّمتُ. كَرَّ: رجع، أو عاد مرّةً بعد أخرى. الخطايا: الآثام والذنوب.

(٥) عَفّى على الأثر: محاه وأزاله، وعَفّى فلان على ما كان منه: جاء بالصلاح بعد الفساد. تُمصح: تُزيل، تُذهب.

(٦) يرشح: ينضح، يسيل.

(٧) الزور: الكذب، الباطل.

(٨) ثاب فلان: رجع. آسو: أُداوي، أُطَبِّبُ.

(٩) البَطْشُ: العُنف والشِّدَّة. يرجح: يثقل، يقال: رجحت إحدى الكفتين الأخرى: مالت بالموزون.

(١٠) الصفاة: الصخرة الملساء. زَلَّ: زَلِقَ. سَفَحَ: سال، انصبَّ.

(١١) ينزح: يبتعد.

وَيَهْنِيهِ إنْ مُتُّ السُّلُوُّ فإنَّني أموتُ ولي شَوْقٌ إليهِ مُبرِّحُ[(١)]
وَبَيْنَ ضُلُوعي مِنْ هَواه تميمةٌ سَتَنْفَعُ لَوْ أنّ الحمامَ يُجلِّحُ[(٢)]

ولما بلغت المُعتمد هذه القصيدة وأنشدت بين يديه، كان بحضرته رجل من البغداديين، فجعل يُزْرِي على هذا البيت «وبين ضلوعي...» ويقول: ما أراد بهذا المعنى؟ فكان من جواب المُعتمد ـ رحمه اللّه ـ أن قال: أما لئن سَلبَه اللّه المروءةَ والوفاء، لَما أَعدمه الفطنة والذكاء؛ إنما نظر إلى بيت الهُذَليّ[(٣)] من طرف خفيّ، وهو: [من الكامل]

وإذا المنيّةُ أَنشبتْ أظفارَها أَلفيْتَ كُلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ![(٤)]

ولم يزل ابن عمّار هذا بسجن المُعتمد، إلى أن قتله صَبْراً في شهور سنة ٤٧٩.

وتلخيص خبر قتله، أنه لما طال سجنه كتب إليه بالقصيدة التي تقدَّم إنشادها، فأدركت المُعتمدَ بعضُ الرقة، فوجَّه إليه ليلاً وهو في بعض مجالس أنسه، فَأُتي به يَرْسفُ في قيوده، فجعل المُعتمد يعدد مننه عليه وأياديه قِبَله، فلم يكن لابن عمّار جواب ولا عذر، غير أنه أخذ في البكاء، وجعل يترقَّق للمُعتمد ويمسح عِطْفَيْه ويستجلب من الألفاظ كلَّ ما يُقدِّر أنَّه يزرع له الرأفة في قلب المُعتمد؛ فتم له بعض ما أراد من ذلك، وعطفت المُعتمدَ عليه سابقتُه وقديمُ حرمته؛ فقال له قولاً يتضمن العفو عنه تعريضاً لا تصريحاً؛ وأمر بردِّه إلى محبسه؛ فكتب ابن عمّار من فَوره بما دار له مع المُعتمد إلى ابنه الراضي باللّه، فوافاه الكتاب وبحضرته قومٌ كانت بينهم وبين ابن عمّار إِحَنٌ[(٥)] قديمة؛ فلما قرأ الراضي الكتاب قال لهم: ما أرى ابن عمّار إلا سيتخلص؛ فقالوا له: ومن أين علم مولانا ذلك؟ فقال: هذا كتاب ابن عمّار يُخبرني فيه أن مولانا المُعتمد قد وعده بالخلاص؛ فأظهر القوم الفرح وهم يبطنون غيره؛ فلما قاموا من مجلس الراضي نشروا حديث ابن عمّار أقبحَ نَشر، وزادوا فيه زياداتٍ قبيحةً صُنْتُ هذا الكتاب عن ذكرها. فبلغ المُعتمدَ ذلك، فأرسل إلى ابن عمّار

(١) السُّلُوُّ: النسيان مع طيب نفس. شوقٌ مُبرِّحٌ: شديد.
(٢) جلَّح: سار سيراً شديداً، وجلَّح فلان: أقدم ومضى.
(٣) الهذلي: هو أبو ذؤيب، خويلد بن خالد بن محرث الهذلي: شاعر فحل مخضرم، سكن المدينة، واشترك في الغزو والفتوح، وهلك أبناؤه الخمسة بالطاعون في مصر. توفي نحو ٢٧هـ/ ٦٤٨م. (خزانة الأدب، البغدادي ـ صادر ـ: ١/ ٢٠٣).
(٤) أنشب الشيء في غيره: أعلقه به. ألفاه: وجده وصادفه. والبيت في جمهرة أشعار العرب للقرشي: جـ ٢/ ١٨٥.
(٥) الإِحَنُ: الأحقاد.

وقال له: هل أخبرتَ أحداً بما كان بيني وبينك البارحة؟ فأنكر ابن عمَّار كلَّ الإنكار، فقال المُعتمد للرسول: قل له: الورقتان اللتان استدعيتَهما، كتبتَ في إحداهما القصيدة، فما فعلتَ بالأخرى؟ فادّعى أنه بَيّض فيها القصيدة؛ فقال المعتمد: هلمَّ المسوّدة! فلم يجد جواباً، فخرج المُعتمد حَنِقاً وبيده الطّبرزينُ[١] حتى صعد الغرفة التي فيها ابن عمَّار، فلما رآه علم أنه قاتله، فجعل ابن عمَّار يزحف وقيوده تُثقله، حتى انكبَّ على قدَمي المُعتمد يقبلهما، والمُعتمد لا يثنيه شيء؛ فعلاه بالطبرزين الذي في يده، ولم يزل يضربه به حتى بَرَد[٢].

ورجع المُعتمد فأمر بغسله وتكفينه، وصلّى عليه ودفنه بالقصر المبارك. فهذا ما انتهى إلينا من خبر ابن عمَّار مُلَخَّصاً حسبما بقي على خاطري.

[رجع الحديث عن بني عباد]

ولم يزل المُعتمد هذا في جميع مدة ولايته والأيام تساعده، والدهر على ما يريده يؤازره ويعاضده، إلى أن انتظم له في ملكه من بلاد الأندلس ما لم ينتظم لملك قبله، أعني من المتغلّبين. ودخلت في طاعته مدنٌ من مدائنها أعيت الملوكَ وأعجزتهم، وامتدت مملكته إلى أن بلغت مدينة مُرْسِيَة، وهي التي تُعرف بِـ«تُدْمِير»، بينها وبين إشْبِيليَّة نحو من اثنتي عشرة مرحلة، وفي خلال ذلك مدن متسعة وقرى ضخمة.

وكان تَغَلُّبُه على قُرْطُبَة، وإخراجه ابن عكَّاشة منها يوم الثلاثاء لسبع بقين من صفر سنة ٤٧١. ثم رجع إلى إشْبِيليَّة واستخلف عليها[٣] ولده عبّاداً ولقّبه بـ«المأمون»، وهو أكبر ولده، وُلد له في حياة أبيه المُعتضد، وسماه «عبّاداً»، فكان المُعتضد يضمه إليه ويقول: يا عبَّاد، يا ليت شعري مَن المقتولُ بِقُرْطُبَة، أنا أو أنت؟ فكان المقتولَ بها عبَّادٌ هذا في حياة أبيه المُعتمد، وفي السنة التي زال عنهم الملك فيها.

[أول أمر المرابطين بالأندلس]

ولما كانت سنة ٤٧٩ جاز المُعتمد على اللّه البحر قاصداً مدينة مَرَّاكُش إلى يُوسُف بن تَاشُفين، مستنصراً به على الروم، فلقيه يُوسُف المذكور أحسن لقاء، وأنزله أكرم نُزُل، وسأله عن حاجته، فذكر أنه يريد غزو الروم، وأنه يريد إمداد أمير المسلمين إياه بخيلٍ ورجال ليستعين بهم في حربه. فأسرع أمير المسلمين المذكور

---

(١) الطبرزين: سلاح قديم يشبه الفأس.
(٢) بَرَدَ الرجل: مات.
(٣) يعني: على قرطبة.

إجابته إلى ما دعاه إليه؛ وقال له: أنا أوّل مُنتدبٍ لنصرة هذا الدين، ولا يتولى هذا الأمر أحدٌ إلا أنا بنفسي!

فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً بإسعاف أمير المسلمين إياه في طِلْبَتِه(١)، ولم يدر أنّ تدميره في تدبيره؛ وسلَّ سيفاً يحسبه له ولم يدرِ أنه عليه؛ فكان كما قال أبو فراس(٢): [من الطويل]

إذا كانَ غَيْرُ اللَّه لِلمَرْءِ عُدّةً أَتَتْهُ الرَّزايا مِنْ وُجُوهِ الفَوائدِ(٣)

كما جرَّت الحنفاءُ حَتْفَ حُذَيفةٍ وَكانَ يَراها عُدَّةً لِلشَّدائدِ!(٤)

فأخذ أمير المسلمين يُوسُف بن تَاشُفين في أهبة العبور إلى جزيرة الأندلس؛ وذلك في شهر جمادى الأولى من السنة المذكورة، فاستنفر مَن قدر على استنفاره من القُوّاد وأعيان الجند ووجوهِ قبائل البربر؛ فاجتمع له نحو من سبعة آلاف فارس في عدد كثير من الرَّجل؛ فعبر البحر بعسكر ضخم، وكان عبوره من مدينة سَبْتة، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء، وتلقاه المُعتمد في وجوه أهل دولته، وأظهر من برّه وإكرامه فوق ما كان يظنه أميرُ المسلمين، وقدَّم إليه من الهدايا والتحف والذخائر الملوكية ما لم يظنه يُوسُف عند ملك؛ فكان هذا أول ما أوقع في نفس يُوسُف التشوُّفَ(٥) إلى مملكة جزيرة الأندلس.

ثم إنه فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً شرقيَّ الأندلس، وسأله المُعتمد دخولَ إشْبِيليَّة دارَ ملكه ليستريح فيها أياماً حتى تزول عنه وعثاء السفر(٦)، ثم يقصد قصده، فأبى عليه وقال: إنما جئت ناوياً جهاد العدوّ، فحيثما كان العدوُّ توجهت وَجهه.

وكان الأدفنش ـ لعنة اللّه ـ محاصراً لحصنٍ من حصون المسلمين يُعرف بحصن «الليط»؛ فلما بلغه عبور البربر أقلع عن الحصن راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر.

وتوجه يُوسُف المذكور إلى شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصَر،

---

(١) الطِّلْبَةُ: المطلوب، أو الحاجة.

(٢) هو أبو فراس، الحارث بن سعيد بن حمدان الحمداني: أمير شاعر فارس. تقلَّد منبج وحرّان وأعمالهما، وأسره الروم مدّةً طويلة. توفي سنة ٣٥٧هـ/٩٦٨م. (يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، الثعالبي: ١/٥٧، وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٢/٥٨). والبيتان في ديوانه: ٨٨.

(٣) الرزايا: المصائب.

(٤) حذيفة: هو حذيفة بن بدر، والحنفاء: فرسه.

(٥) تَشوَّف للشيء وإليه: تَطلَّع، وتَشوَّف أمراً: طمع له.

(٦) وعثاء السفر: شِدَّته وَمَشقَّته.

والإصلاحَ بين المعتمد على اللّٰه وبين رجل كان تغلّب على مُرْسِيَة يقال له: ابن رَشِيق ـ قد تقدّم ذكره في أخبار ابن عمّار ـ فأصلح بينهما يُوسُف أمير المسلمين، على أن يخرج له ابنُ رشيق عن مُرْسِيَة، ويعوّضه المُعتمد عن ذلك مالاً جعله له، ويوليه في جهة إشْبِيلِيَّة ولاية؛ فأجابه ابن رَشِيق إلى ذلك؛ وتسلم المُعتمد مُرْسِية وأعمالها.

ولقي يُوسُف أمير المسلمين ملوكَ الأندلس الذين كان عليهم طريقه، كصاحب غَرْنَاطَة، والمُعتصم بن صُمَادح[1] صاحب المَرِيَّة، وابن عبد العزيز أبو بَكْر صاحب بَلَنسِيَة.

[وقعة الزَّلّاقَةُ]

ثم إنّ يُوسُف المذكور استعرض جُنْدَهُ على حصن الرقة؛ فرأى منهم ما يسرُّه، فقال للمُعتمد على اللّٰه: هلمَّ ما جئنا له من الجهاد وقصدِ العدوّ؛ وجعل يُظهر التأفف من الإقامة بجزيرة الأندلس، ويتشوّق إلى مَرَّاكُش، ويُصغِّر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته: «كان أمر هذه الجزيرة عندنا عظيماً قبل أن نراها، فلما رأيناها وقعتْ دون الوصف!» وهو في ذلك كله «يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء[2]!» فخرج المُعتمد بين يديه قاصداً مدينة طُلَيْطُلة، واجتمع لِلمُعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار الأندلس.

وانتَدَب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمدّ ملوكُ الجزيرة يُوسُفَ والمُعتمد بما قدروا عليه من خيلٍ ورجالٍ وسلاحٍ، فتكامل عدد المسلمين من المتطوعة والمرتزقة[3] زُهاء عشرين ألفاً، والتقَوا همَ والعدوُّ بأول بلاد الروم.

وكان الأدفنش ـ لعنه اللّٰه ـ قد استنفر الصغير والكبير، ولم يدَعْ في أقاصي مملكته من يقدر على النهوض إلا استنهضه، وجاء يجرُّ الشوك والشجر؛ وإنما كان مقصوده الأعظم قطع تَشَوُّفِ البرابرة عن جزيرة الأندلس، والتهيُّب عليهم. فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحدُ إلّا يُؤدِّي إليه الإتاوة[4]، وهم كانوا أحقرَ في عينه وأقلَّ من أن يحتفل لهم!

---

(١) هو محمد بن معن بن محمد بن صمادح التجيبي الأندلسي، الملقب بـ «المعتصم باللّٰه الواثق بفضل اللّٰه». توفي سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م. (الأعلام، الزركلي: ١٠٦/٧).

(٢) «يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء»: مثل يُضرب لمن يريك أنه يعينك، وإنما يجرُّ النفع إلى نفسه. وقال أبو زيد والأصمعي: أصله الرجل يُؤتى بِاللّبن؛ فيظهر أنه يريد الرغوة خاصة، ولا يريد غيرها، فيشربها، وهو في ذلك ينال من اللبن. ومنه قال الكميت الأسدي:

فَإِنّي قَدْ رَأَيْتُ لَكُمْ صُدُوداً ... وَتَحْسَاءً بِعِلَّةِ مُرْتَغِينَا

(مجمع الأمثال، الميداني: ٤١٧/٢).

(٣) المرتزقة: الذين ينخرطون في الجيش أو القتال طمعاً بالغنيمة، أو لِقاء مبلغ من المال يأخذونه.

(٤) الإتاوة: الجزية، أو الخراج.

ولما تراءى الجمعان من المسلمين والنصارى، رأى يُوسُف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من كثرةِ عَددٍ، وَجَوْدَةِ سلاح وخيلٍ، وظهورِ قوةٍ؛ فقال للمعتمد: ما كنت أظن هذا الخنزير ـ لعنه اللَّه ـ يبلغ هذا الحدّ!

وجمع يُوسُف أصحابه ونَدَب لهم من يَعِظُهم ويُذكِّرهم؛ فظهر منهم مِنْ صدق النية والحرص على الجهاد واستسهال الشهادة ما سُرَّ به يُوسُف والمسلمون.

وكان ترائيهم يوم الخميس، وهو الثاني عشر من شهر رمضان؛ فاختلفت الرسلُ بينهم في تقرير يوم الزحف ليستعدَّ الفريقان؛ فكان من قول الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ: الجمعة لكم، والسبت لليهود وهم وزراؤنا وكُتابنا وأكثرُ خدم العسكر منهم، فلا غنًى بنا عنهم، والأحد لنا؛ فإذا كان يوم الاثنين كان ما نريده من الزحف. وقصَد ـ لعنه اللَّه ـ مخادعةَ المسلمين واغتيالهم، فلم يتم له ما قصد...

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمون لصلاة الجمعة ولا أمارة عندهم للقتال، وبنى يُوسُفُ بن تَاشُفين الأمرَ على أن الملوكَ لا تَغْدِر؛ فخرج هو وأصحابه في ثياب الزينة للصلاة؛ فأما المُعتمد فإنه أَخذ بالحزم، فركب هو وأصحابه شَاكِّي السلاح[1]، وقال لأمير المسلمين: صَلِّ في أصحابك؛ فهذا يومٌ ما تطيب نفسي فيه، وها أنا من ورائكم؛ وما أظن هذا الخنزير إلا قد أضمر الفتك بالمسلمين. فأخذ يُوسُف وأصحابه في الصلاة، فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوههم الخيل من جهة النصارى، وحمل الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ في أصحابه؛ يظن أنه قد انتهز الفرصة؛ وإذا المُعتمد وأصحابه من وراء الناس، فأغنى ذلك اليوم غَناءً[2] لم يُشْهَدْ لأحد من قبله؛ وأخذ المرابطون سلاحهم فاستوَوْا على متون الخيل، واختلط الفريقان؛ فأظهر يُوسُف بن تَاشُفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم يكن يحسبه المُعتمد؛ وهزم اللَّه العدوَّ، واتبعهم المسلمون يقتلونهم في كل وجهٍ، ونجا الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ في تسعة من أصحابه؛ فكان هذا أحد الفتوح المشهورة بالأندلس، أعزّ اللَّه فيه دينه وأعلى كلمته، وقَطَع طمعَ الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ عن الجزيرة، بعد أن كان يُقدِّر أنها في ملكه، وأن رؤوسها خدم له؛ وذلك كله بحسن نية أمير المسلمين.

وَتُسمَّى هذه الوقعة عندهم وقعة «الزَّلاقة». وكان لقاء المسلمين عدوهم كما ذكرنا في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر رمضان الكائن في سنة ٤٨٠. ورجع يُوسُف بن تَاشُفين وأصحابه عن ذلك المشهد منصورين مفتوحاً لهم وبهم. فَسُرّ بهم

---

(١) «شاكِّي السلاح»: يقال: شَكّ فلان في السلاح: لَبِسَه تامًّا.

(٢) الغَنَاءُ: النفع والكفاية.

أهل الأندلس، وأظهروا التيمن بأمير المسلمين والتبرك به، وكثر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر، وانتشر له من الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها؛ وذلك أن الأندلس كانت قبله بصدد التَّلاف، من استيلاء النصارى عليها وأَخْذهم الإتاوة من ملوكها قاطبةً. فلما قهر اللّه العدوّ وهزمه على يد أمير المسلمين، أظهر الناسُ إعظامه، ونشأ له الودّ في الصدور.

ثم إنه أحب أن يجول في الأندلس على طريق التفرّج والتنزه، وهو يريد غير ذلك؛ فجال فيها ونال من ذلك ما أَحب، وفي خلال ذلك كله يُظهر إعظام المُعتمد وإجلاله، ويقول مصرِّحاً: إنما نحن في ضيافة هذا الرجل وتحت أمره، وواقفون عند ما يَحدّه.

[بين المُعتصم بن صُمَادح والمُعتمد بن عبَّاد]

وكان ممن اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحَظِي عنده واشتدَّ تقريبُ أمير المسلمين له: أبو يحيى مُحمَّد بن مَعْن بن صُمَادح المُعتصم صاحب المَريَّة. وكان المُعتصم هذا قديمَ الحسد لِلمُعتمد، كثير النفاسة[١] عليه؛ لم يكن في ملوك الجزيرة من يناويه[٢] غيره، وربما كانت بينهما في بعض الأوقات مراسلات قبيحة. وكان المعتصم يَعيبه في مجالسه وينال منه؛ ويمنع المُعتمدَ من فعل مثل ذلك مُرُوءتُه ونزاهة نفسه وطهارة سريرته وشدة مُلوكيته. وقد كان المُعتمد قبل عبور أمير المسلمين بيسير، توجَّه إلى شرقي الأندلس يتطوَّف على مملكته ويطالع أحوال عماله ورعيته؛ فلما داني أولَ بلاد المُعتصم، خرج إليه في وجوه أصحابه، وتلقَّاه لقاءً نبيلاً، وعزم عليه ليدخُلَنّ بلاده؛ فأبى المُعتمد ذلك. ثم اتفقا بعد طول مُراودة[٣] على أن يجتمعا في أول حدود بلاد المُعتصم وآخرِ حدود بلاد المُعتمد، فكان ذلك واصطلحا في الظاهر. واحتفل المُعتصم في إكرامه، وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملوكية المُعَدّة لمجالس الأنس ما ظَنّه مُكْمِداً[٤] لِلمُعتمد مُثيراً لغمّه. وقد أعاذ اللّه المُعتمدَ من ذلك، وصان خُلقه الكريم عنه، وعَصَمه بفضله منه؛ ثم افترقا بعد أن أقام المُعتمد

(١) النفاسة: يقال: نافس فلاناً في الشيء: سابقه وباراه فيه، ومنه: نفس الشيءَ وبه على فلان: حسده ولم يَرَهُ أهلاً له.

(٢) يناويه: يناوئه: يُباريه أو يُعاديه، أو يُفاخره.

(٣) المراودة: يقال: راوده عن الأمر، وعليه: داراه، وراوده على الأمر: طلب منه فعله. وراوده مراودةً ورِواداً: خادعه وراوغه.

(٤) مُكْمِداً: يقال: كَمِدَ الرجل: كتم حزنه، أو حزن حزناً شديداً، وأكمد الحزن فلاناً: غَمَّهُ.

عنده في ضيافته ثلاثة أسابيع، ورجع المُعتمد إلى بلاده. وبإثْر ذلك عبر إلى مَرَّاكُش؛ ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقيه المُعتصم بهدايا فاخرة وتُحفٍ جليلة، وتلطَّف في خدمته حتى قرّبه أمير المسلمين أشدَّ تقريب؛ وكان يقول لأصحابه: هذان رَجُلَا هذه الجزيرة! يعني المُعتصم والمُعتمد. وكان أكبرَ أسباب تقريبِ أمير المسلمين إياه، ثناءُ المُعتمد عليه عند أمير المسلمين، وَوَصْفُه إياه عنده بكل فَضْلٍ؛ ولم يكن المُعتصم بعيداً من أكثر ما وَصَفه به.

ولما اشتدّ تمكُّنُ المُعتصم من أمير المسلمين، بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المُعتمد وإفسادِ ما بينهما ـ حَسَّن له ذلك سوءُ رأيه ودَنَسُ سريرته وضعف بصره بعواقب الأمور، وليقضي اللّه أمراً كان مفعولاً، وليبلغ القَدَر ميقاته؛ وإذا أراد اللّه تمامَ أمر هَيَّأ له أسباباً ـ فشرع المُعتصم فيما أراده من ذلك؛ ولم يدرِ أنه ساقطٌ في البئر التي حَفَر، وقتيلٌ بالسلاح الذي شَهَر، فكان من جملة ما أَلقى إلى أمير المسلمين، أنْ جعل يُقرِّر عنده عُجب المُعتمد بنفسه، وفَرْط كِبره، وأنه لا يرى أحداً كفؤاً له. وزعم أنه قال له في بعض الأيام ـ وقد قال له المُعتصم: طالت إقامة هذا الرجل بالجزيرة، يعني أمير المسلمين ـ: «لو عَوَجْتُ له إصبعي ما أقام بها ليلةً واحدةً هو ولا أصحابُه: وكأنك تخافُ غائلته؛ وأيُّ شيءٍ هذا المسكينُ وأصحابه؟ إنما هم قوم كانوا في بلادهِم في جهدٍ من العيش، وغلاء من السِّعر، جئنا بهم إلى هذه البلاد نُطعمهم حِسْبَةً وائتجاراً[١]، فإذا شبعوا أخرجناهم عنها إلى بلادهم!» إلى أمثال هذا القول من تحقير أمرهم. وأعانه على ذلك قومٌ من وجوه الأندلس، إلى أن بلغوا ما أرادوه من تغيُّر قلب يُوسُف أمير المسلمين على المُعتمد.

وقد كان أمير المسلمين ضَرَب لنفسه ولأصحابه أجلاً وَحدَّ له ولهم مدةً يقيمونها في الجزيرة لا يزيدون عليها. وإنما فعل ذلك تطييباً لقلب المُعتمد وتسكيناً لخاطره؛ فلما انقضت تلك المدة أو قاربت، عَبَر أمير المسلمين إلى العدوة وقد وَغِرَ صدرُه وتغيّرت نفسه: **[من الطويل]**

وما النفسُ إلَّا نُطْفَةٌ في قَرارةٍ إذا لَمْ تُكَدَّر كان صَفْواً غَدِيرُها[٢]

هذا مع ما ذكرنا من طمعه في الجزيرة وتشوُّفِه إلى مملكتها؛ وظهرت للمُعتمد قبل عبوره أشياءُ عَرف بها أنه غُيِّر عليه!

---

(١) احتسب فلان الأجر على اللّه: ادَّخره، وفعل الشيءَ حسبةً: أي مُدَّخِراً أجره على اللّه. ائتجر فلان ائتجاراً: طلب الثواب بصدقةٍ ونحوها.

(٢) النطفة: القطرة، أو المَنِيّ، أو الماء الصافي. القرارة: المكان المنخفض يندفع إليه الماء ويستقرُّ فيه.

[نكبة بني عبَّاد]

ورجع أمير المسلمين إلى مَرَّاكُش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيمُ المُقْعِد؛ فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه: كنت أظنُّ أني قد ملكت شيئاً، فلما رأيت تلك البلاد، صَغُرت في عيني مملكتي؛ فكيف الحيلة في تحصيلها؟ فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يراسلوا المُعتمد يستأذنونه في رجالٍ من صُلَحاء أصحابهم رَغِبوا في الرِّباط بالأندلس ومُجاهدة العدوّ والكَوْنِ ببعض الحصون المصاقِبة[1] للروم إلى أن يموتوا؛ ففعلوا، وكتبوا إلى المُعتمد بذلك، فأذن لهم، بعد أن وافقه على ذلك ابنُ الأفطس المُتوكّل صاحبُ الثغور؛ وإنما أراد يُوسُف وأصحابه بذلك أن يكون قومٌ من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها، فإذا كان أمرٌ من قيامٍ بدعوتهم أو إظهارٍ لمملكتهم وجدوا في كل بلدٍ لهم أعواناً.

وقد كانت قلوب أهل الأندلس ـ كما ذكرنا ـ قد أُشرِبَتْ[2] حبَّ يُوسُف وأصحابه، فجهز يُوسُف من خيارِ أصحابه رجالاً انتخبهم، وأمَّر عليهم رجلاً من قرابته يسمى «بُلُجِّين»، وأَسَرَّ إليه ما أراده، فجاز بُلُجِّينُ المذكور، وقصد المُعتمدَ من ملوك الجزيرة فقال له: أين تأمرني بالكَوْن؟ فوجَّه معه المُعتمد من أصحابه من يُنزله ببعض الحصون التي اختارها لهم، فنزل حيث أنزلوه هو وأصحابه. وأقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المُعتمد، وكان مبدؤها في شوال من سنة ٤٨٣ بأخذ جزيرة طريف المقابلة لِطَنْجَة من العُدْوَة، دون مقدّمةٍ ظاهرة توجب ذلك، فتشعَّبت جموعُه وأهواؤها ملتئمة، وانتثرت بلادُه وقلوبُ أهلها على محبته منتظمة.

ولما أخذ المرابطون جزيرة طَرِيف ونادوا فيها بدعوة أمير المسلمين، انتشر ذلك في الأندلس، وزحف القومِ الذين قدمنا ذكرهم، الكائنون في الحصون، إلى قُرْطُبَة؛ فحاصروها وفيها عبَّادُ بن المُعتمد الملقب بـ«المأمون»، وقد تقدّم ذكره، وهو من أكبر وِلده؛ فدخلوا البلد، وقُتل عبادُ هذا بعد أن أَبلى عذراً، وأظهر في الدفاع عن نفسه جَلداً وصبراً؛ ذلك في مستهل صفر الكائن في سنة ٤٨٤؛ فزادت الإحنة[3] والمحنة، واستمرّت في غُلَوائها[4] الفتنة.

وأجمعت على الثورة بحضرة إشبِيليّة طائفة، فأُعلم المُعتمدُ بما اعتقدته الطائفة

(١) صاقب المكان مصاقبةً وصقاباً: قاربه، ودنا منه، وواجهه.

(٢) أُشرِبَت قُلوبُهم: أُشبِعَت.

(٣) الإحنة: الحِقْدُ والضِّغْنُ.

(٤) الغُلَوَاءُ: الغُلُوُّ، وغُلَواءُ الشباب: أوّله وحِدَّتُه.

المذكورة، وكُشِفَ له عن مرادها، وأُثبت عنده سوءُ اعتقادها، وأُغرِيَ بتمزيق أديمها[١] وسفك دمها، وحُضَّ على هتك حَريمها وكشف حُرَمِها؛ فأبى له ذلك مَجْدُه الأثيل[٢]، ورأيه الأصيل، ومذهبه الجميل، وما حباه اللّه[٣] به من حسن اليقين، وصحةِ العقل والدين؛ إلى أن أمكنتهم الغرّة[٤] يوم الثلاثاء منتصف رجب من السنة المذكورة، فقاموا بجيش غير مُسْتَنصَر، واسْتَنْسَروا بُغاثاً غير مُسْتَنْسَر[٥]؛ فبرز هو من قصره، سيفه بيده، وغلالته[٦] ترفّ[٧] على جسده، لا دَرَقة[٨] له ولا دِرْعَ عليه؛ فلقي على باب من أبواب المدينة يُسمَّى بابَ الفرج، فارساً من الداخلين مشهورَ النجدة شاكي السلاح، فرماه الفارس برمحٍ قصيرِ أنابيبِ القناة، طويلِ شفرة السنان؛ فالتوى الرمح بغلالته وخرج تحت إبطه، وعَصَمه اللّه منه، ودَفَعه بفضله عنه؛ وصبَّ هو سيفه على عاتق الفارس فشقّه إلى أضلاعه فخرّ صريعاً، وانهزمت تلك الجموع، ونزل المُتسنِّمون[٩] للأسوار عنها؛ وظنّ أهل إشْبِيليّة أنّ الخناق قد تَنفَّس.

فلما كان عصر ذلك اليوم، عاودهم القوم، فَظُهِرَ على البلد من واديه، ويُئِسَ من سُكْنَى ناديه، وبلغ فيه الأملَ حاسده وشانيه[١٠]، وشَبَّت النار في شوانيه، فانقطع عندها الأمل والقول، وذهبت القوّة من أيدي أهلها والحَوْل. وكان الذي ظهر عليها من جهة البرّ، رجلٌ من أصحاب يُوسُف أمير المسلمين يُعرف بِحُدَيْر بن واسْنُو؛ ومن الوادي رجلٌ يعرف بالقائد أبي حَمَامة مولى بني سُجُوت؛ والتوَت الحال أياماً يسيرةً، إلى أن ورد الأمير سِيرُ بن أبي بَكْر بن تَاشُفين ـ وهو ابن أخي أمير المسلمين ـ بعساكر متظاهرة، وحشودٍ من الرعية وافرة، والناس في خلال هذه الأيام قد خامرهم الجزع[١١]، وخالط قلوبَهم

(١) الأديم: الجلد.

(٢) الأثيل: الأصيل.

(٣) حباه اللّه: اختصه.

(٤) الغِرَّةُ: الغفلة في اليقظة.

(٥) استَنسَرَ: تَشبَّه بالنّسر. البغاث: طائر صغير أبغث اللون، أصغر من الرخم، بطيء الطيران. وفي المثل: «إن البغاث في أرضنا يستنسر» ومعناه: من جاورنا عَزَّ بنا.

(٦) الغِلَالَةُ: ثوب رقيق يُلْبَسُ تحت الدثار.

(٧) تَرِفُّ: تضطرب وتَتَحَرَّك.

(٨) الدَّرَقَةُ: ترسٌ من جلدٍ ليس فيه خَشَب ولا عَقَب.

(٩) تَسَنَّم السُّورَ: عَلَاه.

(١٠) الشّانيءُ: المُبْغِضُ.

(١١) خامرهم: خالطهم ومازجهم. الجزع: عدم الصبر على المصيبة.

الهلع[١]، يقطعون السُّبلَ سِياحةً، ويعبرون النهر سِباحةً، ويتولَّجون[٢] مجاريَ الأقذار، ويترامَون من شرفات الأسوار، حرصاً على الحياة. والموفون بالعهد، المقيمون على صريح الودّ، ثابتون؛ إلى أن كان يوم الأحد لإحدى وعشرين ليلة خلت من رجب من السنة المذكورة، وهذا يوم الكائنة العظمى، والطامّة الكبرى[٣]، فيه حُمّ[٤] الأمر الواقع، واتسع الخَرق[٥] على الراقع، وَدُخِلَ البلد من واديه، وأصيب حاضره وباديه، بعد أن جَدّ الفريقان في القتال، واجتهدت الفئتان في النزال، وظهر من دفاع المُعتمد رحمه اللّه وبأسِه، وترامِيه على الموت بنفسه، ما لا مزيد عليه، ولا تناهِ لِخَلْقِ إليه، وفي ذلك يقول المُعتمد بعد ما نزل بالعُدْوَةِ أسيراً حَسِيراً[٦]: **[من مجزوء الكامل]**

لـمـا تَـمـاسَـكـتِ الـدُّمـوعْ ... وتـنَـهْـنَـهَ الـقـلـبُ الـصَّـدِيـعْ[٧]
قَـالـوا الـخُـضـوعُ سِـيـاسـةٌ ... فَـلْـيَـبْـدُ مِـنْـكَ لَـهُـم خُـضُـوعْ
وألَـذُّ مِـنْ طَـعْـمِ الـخُـضُـو ... ع عـلـى فـمِـي الـسُّـمُّ الـنَّـقِـيـعْ[٨]
إنْ تَـسْـتَـلِـبْ عَـنِّـي الـدُّنَـا ... مُـلْـكي وتُـسْـلِـمـنـي الـجُـمـوعْ[٩]
فَـالـقَـلْـبُ بَـيْـنَ ضُـلُـوعِـه ... لَـمْ تُـسْـلِـم الـقَـلْـبَ الـضُّـلـوعْ
لَـمْ أُسْـتَـلَـبْ شَـرَفَ الـطِّـبـا ... ع أَيُـسْـلَـبُ الـشَّـرفُ الـرَّفـيـعْ
قَـدْ رُمْـتُ يَـوْمَ نِـزَالِـهِـمْ ... أَلّا تُـحـصِّـنَـنـي الـدُّروعْ[١٠]
وَبَـرَزْتُ لَـيْـسَ سِـوَى الـقَـمـيـ ... ـصِ عَـنِ الـحـشَـا شَـيءٌ دَفُـوعْ
وَبَـذلْـتُ نَـفْـسـي كَـيْ تَـسِـيـ ... ـلَ إذا يـسـيـلُ بـهـا الـنَّـجِـيـعْ[١١]
أَجَـلـي تـأخَّـرَ، لـم يَـكُـنْ ... بِـهَـوايَ ذُلّـي والـخُـشـوعْ

---

(١) الهَلَعُ: الجزع الشديد.
(٢) يتولَّجون: يدخلون.
(٣) الطّامّةُ الكبرى: القيامة، قال تعالى: ﴿**فإذا جَاءتِ الطَّامَّةُ الكُبْرَى * يَوْمَ يَتذكَّرُ الإنسانُ ما سَعَى**﴾ [النازعات: ٣٤، ٣٥]. والطامة: الداهية تفوق ما سواها.
(٤) حُمّ الأَمْرُ: قُضِيَ، وحُمّ الشيءُ: دنا أو قَرُبَ.
(٥) الخَرْقُ: الثقب في الثوب وغيره.
(٦) الحَسِيرُ: من لا غطاء على رأسه، ومن الجنود: من لا دِرْعَ له ولا مِغْفَر.
(٧) تَنَهْنَه فلان عن الشيء: كفّ وامتنع. الصديع: المَشْقُوق.
(٨) السُّمُّ النَّقيع: القاتل.
(٩) استلب الشيءَ: انتزعه قهراً. أَسْلَمَ فلاناً: خذله وأهمله وتركه لِعَدُوّه وغيره.
(١٠) رُمْتُ: أردتُ وابتغيتُ.
(١١) النجيع: دم الجوف.

مـا سِـرْتُ قَـطُّ إلـى الـقِـتَـا ... لِ وكـانَ مِـنْ أَمَـلـي الـرُّجـوعْ
شِـيَـمُ الألـى أنـا مِـنْـهُـمـو ... والأصـلُ تَـتْـبَـعُـهُ الـفُـروعْ![١]

فَشُنَّت الغارة في البلد، ولم يترك البربر لأحد من أهلها سَبداً ولا لَبَداً[٢]، وانتهبت قصور المُعتمد نهباً قبيحاً، وأُخذ هو قَبْضاً باليد، وجُبر على مخاطبة ابنيه: المُعتدّ بالله، والراضي بالله، وكانا بِمَعْقِلين من معاقل الأندلس المشهورة، لو شاءا أن يمتنعا بهما لم يصل أحدٌ إليهما، أحد الحصنين يُسمَّى «رُنْدَة»، والآخر «مارْتُلَة»؛ فكتب [إليهما] رحمه الله، وكتبت السيدةُ الكبرى أمهما، مُسْتَعطفَيْن مُسْتَرحِمَيْن، مُعْلِمَيْن أن دمَ الكُلِّ منهم مُسترهَنٌ بثبوتهما. فأنفا من الذلّ، وأبيا وضع أيديهما في يد أحد من الناس بعد أبيهما. ثم عطفتهما عواطف الرحمة، ونظرا في حقوق أبويهما المقترنة بحق الله عزَّ وجلّ، فَتمسَّك كلٌّ منهما بدينه، ونبذ دنياه، ونزلا عن الحِصْنَيْن بعد عهودٍ مبرمةٍ، ومواثيق محكمةٍ. فأما المُعْتَدُّ بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كلّ ما كان يملكه. وأما الراضي بالله فعند خروجه من قصره قُتل غِيلةً[٣] وأُخْفِيَ جَسَدُه.

وَرُحِلَ بالمُعتمد وآله، بعد استئصال جميع أحواله، ولم يصحب من ذلك كلّه بُلْغةَ[٤] زاد؛ فركب السفين، وحلَّ بالعُدْوَة محلَّ الدفين؛ فكان نزوله من العُدْوَةِ بِطَنْجَة؛ فأقام بها أياماً، ولقيه بها الحُصْري الشاعر[٥]، فجرى معه على سوء عادته من قُبح الكُدْية[٦] وإفراط الإلحاف[٧]، فرفع إليه أشعاراً قديمةً قد كان مَدَحه بها، وأضاف إلى ذلك قصيدةً استجدّها عند وصوله إليه. ولم يكن عند المُعتمد في ذلك اليوم مما زُوِّد به فيما بلغني أكثرُ من ستة وثلاثين مثقالاً، فَطَبَع عليها وكتب معها بقطعة شعرٍ يعتذر من قلّتها ـ سقطتْ من حفظي ـ ووجّه بها إليه. فلم يجاوبه عن القطعة، على سهولة الشعر على خاطره وخفّتِه عليه. كان هذا الرجل ـ أعني الحُصْري ـ الأعمى ـ

---

(١) الشِّيَمُ: الطِّباع أو الخِصَال.
(٢) السَّبَدُ: القليل من الشعر. اللَّبَدُ: الصوف.
يقال: ما له سَبَدٌ ولا لَبَدٌ: أي ما له قليلٌ ولا كثير.
(٣) الغيلة: الاغتيال، وَقُتِلَ غِيلَةً: على غَفْلَةٍ منه.
(٤) البلغة: ما يكفي لِسَدِّ الحاجة ولا يَفْضُلُ عنها.
(٥) هو أبو الحسن، علي بن عبد الغني الفهري الحصري: شاعر من أهل القيروان. سكن الأندلس مدّةً، وتوفي في طنجة سنة ٤٨٨هـ/ ١٠٩٥م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ٣٠٠).
(٦) الكدية: حرفة السائل المُلِحّ.
(٧) الإلحاف: يقال: ألحف السائل إلحافاً: أَلَحَّ بالمسألة.

أسرع الناس في الشعر خاطراً، إلا أنه كان قليل الجيد منه؛ فحرّكه المُعتمد على اللّه على الجواب بقطعة أولها: [من مجزوء الرمل]

قُلْ لِمَنْ قَدْ جَمَعَ العِلْمَ وَمَا أَحْصَى صَوابَهْ
كان في الصُّرَّةِ شِعْرٌ فَتَنَظَّرْنا جَوابَهْ
قَدْ أَثَبْناكَ فَهَلَّا جَلَبَ الشِّعْرُ ثوابَهْ؟

ولما اتصل بزعانفة[1] الشعراء ومُلْحِفي أهلِ الكُدْيَة ما صنع المُعتمد رحمه اللّه مع الحُصْري، تعرّضوا له بكل طريقٍ، وقصدوه من كل فجٍّ عميقٍ[2]، فقال في ذلك رحمه اللّه: [من الكامل]

شُعراءُ طَنْجَةَ كلُّهم والمَغْرِبِ ذَهَبُوا مِنَ الإغرابِ أبعدَ مَذْهَبِ[3]
سَألوا العَسيرَ مِنَ الأسيرِ وإنَّه بِسُؤالهم لأَحَقُّ فأعجبْ واعجبِ[4]
لَوْلَا الحياءُ وعِزَّةٌ لَخْمِيَّةٌ طَيَّ الحَشَا ساواهمُ في المطلبِ
قَدْ كَانَ إنْ سُئِلَ النَّدى يُجْزِلْ وإنْ نادى الصَّريخُ ببابِهِ ارْكَبْ يَرْكَبِ[5]

وله في هذا المعنى رحمه اللّه: [من الرمل]

قُبِّحَ الدهرُ فماذا صَنَعا كُلَّما أَعْطَى نَفِيساً نَزَعَا[6]
قَدْ هَوَى ظُلْماً بِمَنْ عَادتُهُ أن يُنادِي كلَّ مَنْ يَهْوَى لَعَا![7]
مَنْ إذا الغيثُ هَمَى مُنْهَمِراً أَخْجَلَتْهُ كَفُّه فانقطَعا[8]
مَنْ غَمامُ الجودِ مِنْ رَاحتِه عَصَفَتْ رِيحٌ بِهِ فَانْتَشَعَا[9]
مَنْ إذا قِيلَ الخَنَا صُمَّ وإنْ نَطَقَ العَافُون هَمْساً سَمِعَا[10]

---

(١) الزعانف: جمع الزعنفة: كل جماعة ليس أصلهم واحداً، أو رديء كلّ شيءٍ وَرُذَالُه.
(٢) الفجُّ: الطريق الواسع البعيد.
(٣) أغرب الشاعر: أتى بالغريب البعيد عن الفهم، وأغرب في الأمر: بالغ فيه.
(٤) العَسِيرُ: الشديد، الصعب.
(٥) يجزل: يُكثر. الصريخ: الاستغاثة، أو المُستغيث، أو المُغيث. وفي عجز البيت خلل عروضي.
(٦) النفيس: العظيم القيمة.
(٧) لَعاً: لفظٌ معناه الدعاء للعاثر بأن يرتفع من عثرته، يقال: لَعاً لفلان، وفي الدعاء عليه بالتعس يقال: لا لَعاً لك.
(٨) الغَيْثُ: المطر. هَمَى: انصبَّ ماؤه. انهمر المطر: انسكب بِقُوَّة.
(٩) الجَوْدُ: المطر الغزير الذي لا مطر فوقه.
(١٠) الخَنَا: الفُحش في الكلام. العافون: طالبو المعروف.

قَـلْ لِـمَـنْ يَـطْـمَـعُ فـي نـائِـلِـهِ   قَـدْ أزال الـيـأسُ ذاك الـطَّـمَـعَـا[١]
رَاحَ لا يـمـلـكُ إلّا دَعْـوةً   جَـبَـرَ الـلّـهُ الـعُـفـاةَ الـضُّـيَّـعـا!

وأقام المعتمد بِطَنْجَة ـ رحمه اللّه ـ أياماً على الحال التي تقدم ذكرها، ثم انتقل إلى مدينة مِكْنَاسة[٢]، فأقام بها أشهراً، إلى أن نفذ الأمر بتسييرهم إلى مدينة أغمَات[٣]؛ فأقاموا بها إلى أن تُوفِّي المُعتمد رحمه اللّه، وَدُفِن بها فقبره معروف هناك. وكانت وفاته في شهور سنة ٨٧، وقيل: سنة ٨٨، فاللّه أعلم، وسنُّه يوم تُوفِّي إحدى وخمسون سنة.

فمن أحسن ما مَرَّ بي مما رُثيَ به المُعتمد على اللّه مقطوعةٌ من شعر ابن اللبَّانة[٤] أولها: [من البسيط]

لِـكُـلِّ شـيءٍ مِـنَ الأشـيـاءِ مِـيـقـاتُ   ولـلـمُـنـى مِـنْ مَـنَـايـاهُـنَّ غـايـاتُ[٥]
والـدهرُ في صِبْغَةِ الـحرباءِ مُنْغَمِسٌ   ألـوانُ حَـالاتـه فـيـهـا اسـتـحـالاتُ[٦]
وَنَـحْـنُ مِـنْ لُـعَـب الـشَّـطْـرنـج في يـدِهِ   ورُبـمـا قُـمِـرَتْ بـالـبَـيْـدقِ الـشَّـاةُ[٧]
فَـانْـفُـضْ يَـدَيْـكَ مِـنَ الـدنـيـا وَسَـاكِـنِـهـا   فـالأرضُ قـد أقـفـرتْ والـنـاس قَـدْ مـاتـوا
وَقُـلْ لِـعـالَـمِـهَـا الأرضـيِّ قَـدْ كَـتَـمَـتْ   سَـريـرةَ الـعـالـم الـعُـلـويِّ أَغْـمـاتُ
طَـوَتْ مـظَـلَّـتُـهـا، لا بَـلْ مَـذَلَّـتُـهـا   مَـنْ لـم تَـزَلْ فَـوْقَـهُ لـلـعـزِّ رايـاتُ
مَـنْ كـانَ بـيـن الـنَّـدَى والـبـأسِ، أنـصُـلـه   هِـنْـديَّـةٌ وعَـطَـايـاه هُـنَـيـدَاتُ[٨]

---

(١) النائل: العطاء.
(٢) مِكْنَاسَة: مدينة في المغرب، في بلاد البربر، بينها وبين مراكش أربعة عشرة مرحلة نحو الشرق، وقيل: مكناسة: حصن بالأندلس من أعمال ماردة. (معجم البلدان، الحموي: ٥/ ١٨١).
(٣) أغمات: مدينة في المغرب، قرب مراكش، بينهما مسيرة يوم. فيها أصناف كثيرة من الفواكه والخيرات. وظلّ قبر المعتمد معروفاً فيها إلى أمدٍ بعيدٍ بعد وفاته. (معجم البلدان، الحموي: ١/ ٢٢٥).
(٤) هو أبو بكر، محمد بن عيسى بن محمد اللخمي الداني، المعروف بابن اللَّبَّانة: أديب، شاعر، عارف بالأخبار. توفي بميورقة سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٣م. (معجم المؤلفين، كحالة: ١١/ ١٠٨).
(٥) الميقات: الموعد.
(٦) الحرباء: دويبة على شكل شام أبرص، مخططة الظهر، تستقبل الشمس نهارها، وتدور معها كيف دارت، وتتلون ألواناً، وَيُضرب بها المثل في الحزم والتلون. استحال الشيء: تحوّل، أو اعوجّ بعد استواءٍ.
(٧) قَمَرَ فلاناً قَمْراً: غلبه في لعب القمار. البيدق: من أدوات الشطرنج.
(٨) أنصله: سيوفه. هندية: مصنوعة في الهند، وهي أجود أنواع السيوف. هنيدات: جمع هنيدة: اسم للمائة من الإبل.

أنكرْتُ إلا التواءَ للقُيودِ بهِ ... وكيف تُنْكر في الرَّوضاتِ حيَّاتُ
وَقُلْتُ هُنَّ ذؤاباتٌ فَلِمْ عُكِسَتْ ... مِنْ رأسهِ نحو رِجْلَيْهِ الذؤاباتُ[1]
رَأَوْهُ لَيْثاً فَخافوا مِنْهُ عادِيةً ... عَذَرْتهمْ فَلِعُدْوَى الليثِ عاداتُ[2]

وله قصيدة يرثيهم[3] بها، وهي كثيرة الجيد، أولها: [من البسيط]

تَبْكي السَّماءُ بِدَمْعٍ رائحٍ غادي ... على البَهاليلِ مِنْ أَبناءِ عَبَّادِ[4]
على الجبال التي هُدَّتْ قَواعِدُها ... وكانتِ الأرضُ مِنْهُم ذاتَ أوتادِ
والرابياتُ عَليْها اليانعاتُ ذَوَتْ ... أنوارُها فَغَدَتْ في خَفْضِ أوْهادِ[5]
عِرِّيسةٌ دَخلتْها النائباتُ على ... أَسَاوِدٍ لَهُم فيها وآسادِ[6]
وَكَعْبةٌ كانتِ الآمالُ تَعْمُرُها ... فاليومَ لا عاكِفٌ فيها ولا بادِ[7]
تِلْكَ الرماحُ رِمَاحُ الخطِّ ثَقَّفَها ... خَطْبُ الزمانِ ثِقَافاً غَيْرَ مُعتادِ[8]
والبِيضُ بيض الظُّبا فَلَّت مَضارِبَها ... أَيدي الرَّدَى وثَنتْها دُونَ إغمادِ[9]
لما دَنا الوقتُ لم تُخْلَفْ له عِدَةٌ ... وَكُلُّ شيءٍ لميقاتٍ وَميعَادِ[10]
كم مِنْ درارِيِّ سَعْدٍ قد هَوَتْ وَوَهَتْ ... هُنَاكَ مِنْ دُرَرٍ لِلْمَجْدِ أفرادِ[11]
نُورٌ ونَوْرٌ فَهَذا بعد نِعْمتِهِ ... ذَوَى وذاك خَبَا مِنْ بَعْدِ إيقادِ[12]
يا ضَيْفُ أقفرَ بيتُ المَكْرُماتِ فَخُذْ ... في ضَمِّ رَحْلِك واجمع فَضْلةَ الزادِ

---

(١) الذؤابات: جمع الذؤابة: شعر مقدم الرأس.
(٢) العادية: مؤنث العادي: العَدُوّ، أو الخيل المغيرة، وعوادي الدهر: نوائبه.
(٣) أي: يرثي بني عبّاد.
(٤) البهاليل: جمع البهلول: الشريف الجامع لصفات الخير.
(٥) اليانعات: الثمار الناضجة. الأوهاد: ما انخفض من الأرض، الواحدة: وَهْدَة.
(٦) العِرِّيسة: الشجر الكثيف الملتف، يكون مأوًى للأسد.
(٧) العاكف: المقيم، المُلازم.
(٨) الخَطُّ: موضع في البحرين اشتهر بصناعة الرماح، فكانت تُنْسَبُ إليه. ثَقَّفها: قَوَّمها. الخطب: الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب.
(٩) البيض: السيوف. الظُّبا: جمع الظُّبة: حَدُّ السيف. فَلَّت: تَثلَّمت. أغمد السيف إغماداً: وضعه في غِمْدِه.
(١٠) العِدَةُ: الموعد.
(١١) هَوَت: سَقَطت. وَهَت: ضَعُفَت.
(١٢) خبا: تلاشى وخمد بريقه.

ويـا مُـؤَمِّـلَ وادِيـهـم لِـيَـسـكُـنَـه ... خَفَّ القطينُ وجَفَّ الزرع بالوادي[١]
ضَلَّتْ سبيلُ النَّدى بابنِ السبيل فَسِرْ ... لِغَيْرِ قَصْدٍ فما يَهْدِيكَ مِنْ هادي

وفيها يقول:

نَسِيتُ إلا غَدَاةَ النهرِ كَوْنَهُمُ ... في المُنْشآتِ كأمواتٍ بألحادِ[٢]
والناسُ قَدْ ملأوا العِبْرين واعتبروا ... مِنْ لؤلؤٍ طافياتٍ فَوْقَ أزبادِ[٣]
حُطَّ القناعُ فلم تُسْتَرْ مُخَدَّرَةٌ ... ومُزِّقَتْ أوجُهٌ تمزيقَ أَبرادِ[٤]
تَفَرَّقوا جِيرةً مِنْ بَعْدِ ما نَشَأوا ... أَهْلاً بأهلٍ وأولاداً بأولادِ
حانَ الوَداعُ فَضَجَّتْ كلُّ صارخةٍ ... وَصارخٍ مِنْ مُفَدَّاةٍ ومِنْ فادي
سَارَتْ سَفائنُهم والنَّوحُ يَتْبعُها ... كأنَّها إبلٌ يَحْدُو بها الحادي[٥]
كَمْ سَالَ في الماءِ مِنْ دَمْعٍ وكم حَمَلَتْ ... تلك القطائعُ مِنْ قِطْعاتِ أكبادِ
مَنْ لي بِكُم يا بَني ماءِ السَّماءِ إذا ... ماءُ السماء أَبَى سُقْيا حَشَا الصادي[٦]

وهي طويلة جداً، هذا ما اخترت له منها.

[أبو بَكْر الداني][*]

وابن اللبَّانة هذا هو أبو بَكْر مُحمَّد بن عِيسَى[٧]، من أهل مدينة دَانِيَة، وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكها مُجاهد العامري وابنه عليٌّ المُوفَّق على ما تقدَّم.

ولابن اللبَّانة هذا أخ اسمه عبد العزيز، وكانا شَاعِرِيْن، إلا أن عبد العزيز منهما لم يَرْضَ الشعرَ صِناعةً ولا اتخذه مكسباً، وإنما كان من جملة التجار. وأما أبو بَكْر فَرَضِيَه بضاعةً، وتخيَّره مكسباً، وأكثرَ منه، وقَصد به الملوك فأخذ جوائزهم، ونال

(١) خَفَّ القطين: رحلوا، والقطين: السُّكَّان.
(٢) المنشآت: السُّفُن. الألحاد: القبور.
(٣) العِبْران: مُثَنَّى العِبْر: من النهر: شاطئه وناحيته. الأزباد: جمع الزَّبَد: الرغوة.
(٤) القناع: ثوب تغطي به المرأة رأسها. المُخدَّرة: المرأة المصونة في خِدْرِها. الأبراد: الأثواب.
(٥) الحادي: سائق الإبل.
(٦) الصادي: الظمآن.
(*) ترجمته في: شذرات الذهب: ٤/ ٢٠؛ كشف الظنون: ٩٩٣، ١٩٦٣؛ إيضاح المكنون: ١/ ٩٨، ٢/ ٥٦٢؛ هدية العارفين: ٢/ ٨٣؛ معجم المؤلفين: ١١/ ١٠٨؛ الأعلام: ٦/ ٣٢٢.
(٧) . . .ابن محمد اللخمي الداني. . .

أسنى الرتب عندهم. وشعره نبيل المأخذ، وهو فيه حسن المَهْيَع[١]، جمع بين سهولة الألفاظ ورشاقتها، وجودة المعاني ولطافتها؛ كان منقطعاً إلى المُعتمد، معدوداً في جملة شعرائه؛ لم يَفِدْ عليه إلا آخرَ مُدَّتِه؛ فلهذا قلّ شعره الذي يمدحه به.

وكان ـ رحمه اللَّه ـ مع سهولة الشعر عليه وإكثاره منه، قليلَ المعرفة بعلله، لم يُجِد الخوض في علومه، وإنما كان يعتمد في أكثره على جَودة طبعه وقوة قريحته؛ يدل على ذلك قوله في قصيدة له سيرد ما أَختاره منها في موضعه: [من الكامل]

مَن كان يُنفِقُ من سَوادِ كِتابِه ... فأنا الذي مِنْ نُورِ قلبي أُنفِقُ

ولما خُلع المُعتمد على اللَّه، وأُخرج من إشْبِيليَّة، لم يزل أبو بَكْر هذا يتقلب في البلاد، إلى أن لحق بجزيرة مُيُرْقَة[٢]، وبها مُبشِّر العامري المتلقب بـ«الناصر»؛ فحظي عنده وعَلَت حالُه معه، وله فيه قصائد أجاد فيها ما شاء؛ فمنها قصيدة ركب فيها طريقةً لم أسمع بها لمتقدمٍ ولا متأخرٍ، وذلك أنه جعلها من أولها إلى آخرها، صَدْرُ البيت غزلٌ وعَجْزُهُ مدحٌ، وهذا لم أسمع به لأحد؛ وأول القصيدة: [من الكامل]

وَضَحَتْ وَقَدْ فَضَحَتْ ضِياءَ النَّيِّرِ ... فَكأنَّما التحفَتْ بِبِشْرِ مُبشِّرِ[٣]

وَتبسَّمتْ عَنْ جَوْهَرٍ فَحسبْتُه ... ما قَلَّدتْهُ مَحامدي مِنْ جَوْهرِ

وَتكلَّمتْ فكأنَّ طِيبَ حَديثِها ... مُتِّعتُ مِنْهُ بطيبِ مِسْكٍ أذفَرِ[٤]

هَزَّتْ بِنَغْمةِ لَفْظِها نَفْسِي كما ... هُزَّت بِذِكْراه أعالي المِنْبَرِ

أذنبتُ واستغفرتُها فَجرَتْ على ... عاداتِه في المُذنِبِ المُسْتغفِرِ

جَادتْ عَليَّ بِوَصْلِها فَكأنَّهُ ... جَدْوَى يَدَيْهِ على المُقِلِّ المُقْتِرِ[٥]

وَلَثمْتُ فَاهَا فاعتقدتُ بأنني ... مِنْ كفِّه سُوِّغْتُ لَثْمَ الخِنْصَرِ[٦]

سَمَحتْ بِتَعنيقي فَقُلْتُ صَنيعةٌ ... سمحتْ عُلاه بها فَلَمْ تَتَعذَّرِ

نَهْدٌ كَقَسْوَةِ قَلْبِهِ في مَعْرَكٍ ... وَحَشاً كَلِينِ طِبَاعِه في مَحْضَرِ

وَمَعاطِفٌ تَحْتَ الذَّوائِبِ خِلْتُها ... تَحْتَ الخوافقِ ما لَهُ مِنْ سَمْهَرِي[٧]

---

(١) المَهْيَع: الطريق البيِّن الواضح.

(٢) في معجم البلدان وغيره: «مَيُورْقَة». وهي أكبر جزائر الأندلس في بحر الروم.

(٣) وَضَحَت: ظهرت وبانت.

(٤) مِسْكٌ أذفر: جَيِّدٌ إلى الغاية.

(٥) الجَدْوَى: العطية. المُقْتِرُ: الفقير المُعدم.

(٦) الخِنْصَرُ: الإصبع الصُّغرى.

(٧) المعاطف: جوانب الجسد. الذوائب: جمع الذؤابة: شعر مقدم الرأس. الخوافق: الأعلام=

حَسُنَتْ أمامي في خِمَارٍ مِثْلَ ما حَسُنَ الكَمِيُّ أمَامَه في مِغْفَرِ[1]
وتَوشَّحَتْ فكأنّه في جَوْشَنٍ قَدْ قامَ عَنْبَرُه مَقَامَ العِثْيَرِ[2]
غَمَزتْ بِبَعْضِ قِسِيِّهِ مِنْ حَاجِبٍ ورَنَتْ بِبَعْضِ سِهَامِهِ مِنْ مَحْجِرِ[3]
أَوْمَتْ بِمَصْقولِ اللّحاظِ فَخِلْتُهُ يُومِي بِمَصْقُولِ الصَّفيحةِ مُشْهَرِ[4]
وَضَعَتْ حَشَايَاهَا فُوَيْقَ أرائكٍ وَضْعَ السُّروجِ على الجِيادِ الضُّمَّرِ[5]
مِنْ رَامةٍ أو رُومةٍ، لا عِلْمَ لي أأتتْ عنِ النُّعمانِ أم عن قَيْصَرِ[6]
بِنْتُ الملوكِ فَقُلْ لِكِسْرَى فارسٍ تُعْزَى وإلا قُلْ لِتُبَّعِ حِمْيَرِ[7]
عاديتُ فيها غُرَّ قومي فاعْتَدَوْا لا أرضُهم أرْضِي ولا هُم مَعْشَرِي[8]
وَكَذلِكَ الدُّنيا عَهِدْنا أهلَها يَتعافرون على الثَّريدِ الأعفرِ[9]
طَافتْ عَليَّ بِجَمرةٍ مِنْ خَمْرَةٍ فرأيتُ مِرِّيخاً بِرَاحةِ مُشْتَرِي[10]
فكأنّ أُنْمُلَهَا سُيوفُ مُبشِّرٍ وَقد اكتستْ عَلَقَ النَّجيعِ الأحمرِ[11]
مَلِكٌ أَزِرَّةُ بُرْدِهِ ضُمَّتْ على بَأسِ الوَصِيِّ وَعَزْمَةِ الإسكندَرِ

= والرايات. السمهري: رمح منسوب إلى «سَمْهَر»، وهو رجل كان يصنع الرماح ويقوّمها.

(١) الخِمارُ: ثوب تغطي به المرأة رأسها. الكمي: البطل التامّ السلاح. المِغْفَرُ: زَرَدٌ يُنسج من الدروع على قدر الرأس، يُلبس تحت القلنسوة.

(٢) توشّحت: لبست الوشاح. الجَوْشَنُ: الدِّرْعُ، أو الصدر. العِثْيَرُ: الغُبار.

(٣) القِسِيُّ: جمع القوس: آلة على هيئة هلالٍ، تُرمى بها السهام. رنت: أدامت النظر مع سكون طرفٍ. المَحْجِر (من العين): ما أحاط بها.

(٤) أَومت: أومأت. الصفيحة: وجه كل شيء عريض، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر. المُشْهَرُ: المسلول.

(٥) الأرائك: جمع الأريكة: المَقْعَدُ المُنَجَّدُ. السُّروج: جمع السَّرْج: رَحْلُ الدابة. الجياد الضُّمَّر: المهزولة.

(٦) رامة: موضع في البادية. رومة: اسم مدينة في بلاد الروم. النعمان: هو النعمان بن المنذر ملك الحيرة. قيصر: أي قيصر الروم.

(٧) تُعْزَى: تُنْسَبُ.

(٨) المَعْشَرُ: أهل الرجل.

(٩) عافر الرجل غيره: صارعه محاولاً إلقاءه في العَفَر، وعافر فلان في الشيء: عالجه ليصل منه إلى ما يُريد. الثريد: ما يُثْرَدُ من الخبز، أي يُفَتُّ ثم يُبَلُّ بِمَرَقٍ.

(١٠) المريخ والمشتري: كوكبان في الفضاء.

(١١) العلق: الدم الغليظ أو الجامد، أو القطعة منه، قال تعالى: ﴿خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ٢]. النجيع: دم الجوف.

هذا ما اخترت له منها.

ومن نسيبه المليح الخفيف الروح قوله يتغزل ويمدح مُبَشِّراً هذا: [من الكامل]

هَلَّا ثَنَاكَ عَليَّ قلبٌ مُشْفِقُ فَترى فَراشاً في فِراشٍ يُحْرَقُ
قَدْ صِرْتُ كالرَّمَقِ الذي لا يُرْتَجى وَرَجَعْتُ كالنَّفَسِ الذي لا يُلْحَقُ[1]
وَغَرِقْتُ في دمعي عَلَيْك وَغَمَّني طَرْفي فَهَلْ سَبَبٌ به أتعلَّقُ[2]
هَلْ خُدْعَةٌ بِتحيَّةٍ مَخْفِيَّةٍ في جَنْبِ مَوْعِدِكَ الذي لا يَصْدُقُ
أنتَ المنيَّةُ والمُنى، فيكَ ٱستوى ظِلُّ الغمامةِ والهَجيرُ المُحْرِقُ[3]
لكَ قَدُّ ذابلةِ الوَشيجِ وَلَوْنُها لَكِنْ سِنَانُكَ أكحلٌ لا أزرقُ[4]
وَيُقالُ إنَّكَ أيْكةٌ حتَّى إذا غَنَّيْتَ قيلَ هو الحَمَامُ الأوْرَقُ[5]
يا مَنْ رَشَقتُ إلى السُّلُوِّ فَرَدَّني سَبَقتْ جُفُونُكَ كُلَّ سَهْمٍ يُرْشَقُ[6]
لَوْ في يَدِي سِحْرٌ وَعِنْدي أخْذَةٌ لَجَعَلْتُ قَلْبَكَ بَعْضَ حينٍ يَعْشَقُ
لِتَذوقَ ما قَدْ ذُقْتُ مِنْ ألم الجَوَى وَتَرِقَّ لي مِمَّا تَراهُ وتُشْفِقُ[7]
جَسَدِي مِنَ الأعداءِ فيكَ لأنَّهُ لا يَسْتَبِينُ لِطَرْفِ طَيْفٍ يَرْمُقُ[8]
لَمْ يَدْرِ طَيْفُكَ مَوْضِعي مِنْ مَضْجَعي فَعَذَرْتُه في أنَّه لا يَطْرُقُ[9]
جَفَّتْ عَلَيْكَ مَنَابِتي ومَنابِعي فالدمعُ يَنْشَغُ والصَّبابةُ تُورِقُ[10]
وكأنَّ أعلامَ الأميرِ مُبَشِّرٍ نُشِرَتْ على قلبيَ فَأصْبَحَ يَخْفِقُ[11]

وفيها يقول، يصف لعب الأسطول في يوم المهرجان:

بُشْرَى بِيَوْمِ المِهْرَجَانِ فإنَّه يَوْمٌ عَلَيْهِ مِن احْتِفائكَ رَوْنَقُ[12]

(١) الرَّمَقُ: بقية الروح. (٢) غَمَّني: أحزنني.
(٣) الهجير: نصف النهار وقت اشتداد الحرّ.
(٤) الوشيج: ما نبت من القنا والقصب مُلتفاً. سنانك أكحل: يريد سنان عينه.
(٥) الأيكة: الشجر الكثيف الملتف.
(٦) السُّلُوُّ: النسيان مع طيب نفس. رَشَقَ الشيءَ رشقاً: رماه. ومنه: رشقه ببصره: أحدّه إليه.
(٧) الجوى: حرقة الحب والوجد.
(٨) رمقه رَمْقاً: نظر إليه، ورمقه ببصره: أتبعه بصره يتعهّده وينظر إليه ويرقبه.
(٩) يَطْرُقُ: يزور ليلاً.
(١٠) يَنْشَغُ: يسيل. الصبابة: رقة الشوق وحرارته.
(١١) يخفق: يتحرّك ويضطرب.
(١٢) الاحتفاء: الاحتفال. الرَّوْنَقُ: الحُسْنُ والجمال.

طَارتْ بناتُ الماءِ فيه وَرِيشُها ريشُ الغُرابِ وغيرُ ذلك شَوْذَقُ[١]
وعَلى الخليجِ كَتيبةٌ جَرّارةٌ مِثْلُ الخليجِ كِلاهُما يَتَدَفَّقُ[٢]
وَبَنُو الحرُوبِ على الجَوارِيّ التي تَجري كما تجري الجِيادُ السُّبَّقُ[٣]
مَلأ الكُمَاةُ ظُهورَها وبُطونَها فأتتْ كما يأتي السَّحابُ المُغْدِقُ[٤]
خَاضَتْ غَديرَ الماءِ سَابحةً بِهِ فَكأنّما هي في سَرابٍ أيْنُقُ[٥]
عَجَباً لها! ما خِلْتُ قَبْل عِيانِها أنْ يَحمِلَ الأُسْدَ الضَّواريَ زَوْرَقُ
هَزَّتْ مَجاديفاً إليكَ كأنَّها أهْدَابُ عَيْنٍ للرقيبِ تُحَدِّقُ[٦]
وَكأنَّها أقلامُ كاتبِ دَوْلةٍ في عُرْضِ قِرْطَاسٍ تَخُطُّ وتَمْشُقُ[٧]

وله فيها إحسان كثير. وله من قصيدة يتغزل: [من الطويل]

فُؤادِي مُعَنًّى بالحِسانِ مُعَنَّتُ وَكُلُّ مُوَقًّى في التَّصابِي مُوَقَّتُ[٨]
ولي نَفَسٌ يَخْفَى ويَخْفُتُ رِقَّةً وَلَكِنَّ جِسْمي مِنْهُ أَخْفَى وأَخْفَتُ
وَبِي مَيِّتُ الأعضاءِ حَيٌّ دَلالُه غَرامي به حَيٌّ وَصَبْرِيَ مَيِّتُ
جَعلْتُ فُؤادي جَفْنَ صارِمِ جَفْنِهِ فَيا حَرَّ ما يَصْلَى به حِينَ يُصْلَتُ[٩]
أَذِلُّ لَهُ في هَجْرِهِ وهو يَنْتَمي وأَسكُنُ بالشَّكوى لَهُ وهو يَسْكُتُ
وَما انْبَتَّ حَبْلٌ مِنْهُ إذ كانَ في يَدِي لِرَيْحَانِ رَيْعانِ الشَّبيبة مَنْبِتُ[١٠]

ومن جيِّد ماله من قصيدة يمدح بها مُبَشِّراً ناصر الدولة أولها: [من الكامل]

رَاقَ الرَّبيعُ ورَقَّ طَبْعُ هَوائِهِ فَانْظُرْ نَضَارةَ أرضِهِ وَسَمائِهِ[١١]

---

(١) الشَّوْذَقُ: الصقر، أو الشاهين.
(٢) الكتيبة: الفرقة العظيمة من الجيش.
(٣) الجواري: السُّفُن.
(٤) الكماة: الأبطال المُدجَّجُون بالسلاح. السحاب المُغدق: الكثير المطر.
(٥) السراب: الآل. الأينق: جمع الناقة: أنثى البعير.
(٦) تُحدِّقُ: تُشَدِّدُ النظر.
(٧) مَشَقَ في الكتابةَ: مَدَّ حروفها، أو أسرع فيها.
(٨) مُعَنًّى: مُتْعَبٌ. مُعَنَّتٌ: من عَنَتَ الرجل: وقع في مَشَقَّةٍ وشِدَّة.
(٩) الجفن: الغِمْدُ. الصارم: السيف. يُصْلَى: يُحْرَقُ. يُصْلَتُ السيفُ: يُسَلُّ، يُشْهَرُ.
(١٠) انْبَتَّ: انقطع.
(١١) النضارة: البهجة والرونق والحسن.

وَاجْعَلْ قَرِينَ الوَرْدِ فيه سُلافَةً ... يَحْكي مُشَعْشَعُها مُصَعَّدَ مَائِهِ[(١)]
لَولَا ذُبولُ الوَرْدِ قُلْتُ بِأَنَّهُ ... خَدُّ الحبيبِ عَلَيْه صِبْغُ حَيائِهِ
هَيْهَاتَ أينَ الوَرْدُ مِنْ خَدِّ الذي ... لا يَسْتَحِيلُ عَلَيْك عَهْدُ وَفائِهِ[(٢)]
الوَرْدُ لَيْس صِفاتُه كَصِفاتِه ... والطَّيْرُ لَيْسَ غِنَاؤُها كَغِنائِهِ
يَتَنفَّسُ الإصباحُ والرَّيحانُ مِنْ ... حَرَكاتِ مَعْطِفِهِ وحُسْنِ رُوَائِهِ[(٣)]
وَيَجُولُ في الأَرْوَاحِ رَوْحُ ما سَرَتْ ... رَيَّاهُ مِنْ تِلْقَائِهِ بِلِقَائِهِ[(٤)]
صَرَفَ الهوى جِسْمِي شَبيهَ خَيَالِه ... مِنْ فَرْطِ خِفَّتِهِ وفَرْطِ خَفَائِهِ

ومن أحسن ما على خاطري له بيتان يصف بهما خالاً، وهما: [من البسيط]

بَدَا على خَدِّهِ خالٌ يُزَيِّنُهُ ... فَزادني شَغَفاً فيه إلى شَغَفِ[(٥)]
كَأَنَّ حَبَّةَ قَلْبِي عِنْدَ رُؤْيَتِهِ ... طَارتْ فقالَ لها: في الخدِّ مِنْهُ قِفِي![(٦)]

ولابن اللبَّانة هذا إحسان كثير، منعني من استقصائه خوفُ الإطالة، وأيضاً فَلأَنَّ هذا الكتاب ليس موضوعاً لهذا الباب؛ وإنما يأتي منه فيه ما تدعو إليه ضرورةُ سياق الحديث.

[رجع الحديث إلى أخبار المُعتمد]

ثم رجع بنا القول إلى أخبار المُعتمد على اللّه.

وبلغني أن رجلاً رأى في منامه قبل الكائنة العظمى على بني عبَّاد بأشهر يسيرة وهو بمدينة قُرْطُبَة، كأن رجلاً أتى حتى صعد المنبر واستقبل الناس بوجهه يُنشدهم رافعاً صوته: [من الرمل]

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أناخوا عِيسَهُم ... في ذُرَى مَجْدِهِم حِينَ بَسَقْ[(٧)]
سَكَتَ الدَّهْرُ زَمَاناً عَنْهُم ... ثُمَّ أَبْكَاهُم دَماً حِينَ نَطَقْ!

فما كان إلا أشهرٌ يسيرة حتى وقع بهم وأبكاهم الدهر كما قال.

---

(١) السلافة: أفضل الخمر وأخلصها.
(٢) يَسْتَحِيلُ: يتغيَّرُ.
(٣) الرُّواء: المنظر الحسن.
(٤) الرَّيَّا: الريح الطيِّبة.
(٥) الشَّغَفُ: شِدَّة الحبّ والوَلَع.
(٦) حبة القلب: سُويداؤه.
(٧) بَسَقَ: علا وارتفع.

وبلغ من حال المُعتمد على اللَّه بأغمات، أنّ آثرَ حَظيّاته وأكرمَ بناتِهِ أُلْجِئتْ إلى أن تستدعي غَزْلاً من الناس تسدُّ بأجرته بعض حالها، وتُصلح به ما ظهر من اختلالها. فأُدخل عليها فيما أُدخل غَزْلٌ لبنت عَريفِ شُرطةِ أبيها؛ كان بين يديه يَزَعُ الناس[1] يوم بُروزه، لم يكن يراه إلّا ذلك اليوم. واتفق أن السيدة الكبرى أمَّ بنيه اعتلَّت، وكان الوزير أبو العلاء زُهْرُ بن عبد الملك بن زُهْر[2] بِمَرَّاكُش؛ قد استدعاه أمير المسلمين لعلاجه؛ فكتب إليه المُعتمد راغباً في علاج السيدة ومطالعةِ أحوالها بنفسه. فكتب إليه الوزير مُؤدِّياً حقه ومجيباً له عن رسالته ومُسعفاً له في طِلْبَته[3]. واتفق أن دعا له في أثناء الرسالة بطول البقاء؛ فقال المُعتمد في ذلك: **[من الوافر]**

دَعَا لي بالبقاءِ وَكَيْفَ يَهْوَى ... أَسِيرٌ أَنْ يَطُولَ بهِ البقاءُ

أَلَيْسَ الموتُ أَرْوَحَ مِنْ حياةٍ ... يَطُولُ على الشقيِّ بها الشَّقَاءُ[4]

فَمَنْ يكُ مِنْ هَواهُ لقاءُ حِبٍّ ... فإنَّ هَوايَ مِنْ حَتْفي اللقاءُ[5]

أأرغبُ أنْ أعيشَ أَرَى بَنَاتي ... عَوارِيَ قَدْ أَضَرَّ بها الحَفَاءُ[6]

خَوادِمَ بِنْتِ مَنْ قَدْ كانَ أَعْلَى ... مَراتِبِهِ إذا أَبْدُو النِّداءُ

وَطَرْدُ الناسِ بين يَدَيْ مَمَرِّي ... وَكَفُّهمو إذا غَصَّ الفِنَاءُ[7]

ورَكْضٌ عن يمينٍ أو شِمالٍ ... لِنَظْمِ الجيش إنْ رُفِعَ اللِّواءُ[8]

يُعَنِّيهِ أَمَامٌ أو وَرَاءٌ ... إذا اختلَّ الأَمَامُ أو الوَرَاءُ[9]

وَلَكِنَّ الدُّعاءَ إذا دَعَاهُ ... ضَميرٌ خالصٌ نَفَعَ الدُّعاءُ

جُزِيتَ أبا العَلاء جَزاءَ بَرٍّ ... نَوَى بِرًّا وَصاحَبَكَ العَلاءُ[10]

---

(١) يَزَعُ الناس: يَكُفُّهم وَيَمْنَعُهم.

(٢) هو أبو العلاء، زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر: طبيب، فيلسوف، وزير، من أهل إشبيلية. نشأ في شرق الأندلس، وسكن قرطبة، وتوفي سنة ٥٢٥هـ/ ١١٣١م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٥٠).

(٣) المُسْعِفُ: المُعين، المُساعد. الطِّلْبَةُ: المطلوب، من طلب الشيءَ: التمسه وأراده.

(٤) أروح: أكثر راحةً.

(٥) الحَتْفُ: الهلاك، الموت.

(٦) الحَفَاءُ: المَشْيُ بلا خُفٍّ ولا نعلٍ.

(٧) الفِنَاءُ: الساحة في الدار، أو بجانبها. وغصَّ الفِناء: امتلأ بالوفود والزائرين.

(٨) اللواء: الراية أو العلم.

(٩) يُعَنِّيه: يُتعبه.

(١٠) البَرُّ: الخَيِّرُ، المُحْسِنُ. العلاء: الرفعة والسُّمُوُّ.

سَيُسْلِي النَّفسَ عمّا فاتَ عِلْمي ... بأَنَّ الكُلَّ يُدْرِكه الفَنَاءُ[١]

وورد عليه أغماتَ، أبو بَكْر بن اللبّانة المتقدمُ الذكر، ملتزماً عهد الوفاء، قاضياً ما يجب عليه من شكر النُّعْمَى؛ فَسُرَّ المعتمدُ بوُرودِه، فلما أزمع[٢] ابن اللبّانة على السفر، استنفد المُعتمد وُسْعَه ووجّه إليه بعشرين مثقالاً وثوبين، وكتب إليه معها: **[من الوافر]**

إليكَ النَّزر مِنْ كَفٍّ الأسيرِ ... فإنْ تَقبَل تَكُنْ عَيْنَ الشَّكُورِ[٣]

تَقبَّلْ ما يَذُوبُ لَهُ حَياءً ... وإنْ عَذَرتْه حالاتُ الفقيرِ!

ولا تَعْجَبْ لِخَطْبٍ غَضَّ مِنْهُ ... أَلَيْسَ الخسفُ مُلتزِمَ البدُورِ؟[٤]

ورَجِّ لِجَبْرِهِ عُقْبَى نَداه ... فَكَمْ جَبَرتْ يَداهُ مِنْ كَسيرِ[٥]

وَكَمْ أَعْلَتْ عُلاه مِنْ حَضِيضٍ ... وَكَمْ حَطَّتْ ظُباهُ مِنْ أميرِ[٦]

وَكَمْ مِنْ مِنْبَرٍ حَنَّتْ إليْهِ ... أعالي مُرْتقَاه، ومِنْ سَريرِ

زَمَانَ تزاحفتْ عَنْ جَانِبيْهِ ... جِيادُ الخيلِ بالموت المُبِيرِ[٧]

فَقَدْ نظرتْ إليه عُيونُ نَحْسٍ ... مَضَتْ مِنْهُ بِمَعْدُومِ النَّظيرِ

نُحُوسٌ كُنّ في عُقْبَى سُعودٍ ... كَذاكَ تدورُ أقدارُ القديرِ

وَكَمْ أَحْظَى رِضَاهُ مِنْ حَظِيٍّ ... وَكَمْ شَهَرتْ عُلَاهُ مِنْ شَهِيرِ[٨]

زَمانَ تنافستْ في الحظِّ مِنْهُ ... مُلوكٌ قَدْ تَجُورُ على الدُّهورِ![٩]

بِحَيْثُ يَطيرُ بالأبطالِ ذُعْرٌ ... ويُلفَى ثَمَّ أرْجَح مِنْ ثَبِيرِ[١٠]

---

(١) الفَنَاءُ: الزوال، الهلاك.

(٢) أزمع على السَّفر: عَزَمَ عليه وتهيَّأ له.

(٣) النَّزرُ: القليل، اليَسير.

(٤) الخطب: الأمر الشديد يكثر فيه التخاطب. غَضَّ منه: خفضه، ونقصه، وحطَّ من قدره. الخَسْفُ: يقال: خَسَفَ القَمَرُ خَسْفاً: ذهب ضَوْءُه أو نقص.

(٥) الندى: الجود والكرم. جَبَرَ العظم الكسير: أصلحه، ومنه: جبر عظمه: أصلح شؤونه وعطف عليه، وجبر الفقير واليتيم: كفاه حاجته.

(٦) الحضيض: ما سفل من الأرض. الظُّبَى: جمع الظبة: حَدُّ السيف.

(٧) المُبير: المُهْلِك، يقال: بار الشيء بَوْراً وبواراً: هلك، وأباره: أهلكه.

(٨) الحَظِيُّ: الذي يُفَضَّل على غيره في المحبة، يقال: حظي فلان عند الناس: علا شأنه وأحبوه، وأحظاه السلطان: قرَّبه واختصه وأدناه.

(٩) تنافست الملوك: تبارت وتسابقت. تجور: تظلم.

(١٠) يُلْفَى: يُوجَدُ. أرجح: أثقل، أرزن. ثبير: جبل في الحجاز.

فامتنع ابن اللبّانة من قبول ذلك عليه، وصرفَه بجملته إليه؛ وكتب مجيباً له عن شعره: [من الوافر]

سَقَطْتَ مِنَ الوَفاءِ على خَبيرِ ... فَذَرْني والذي لَكَ في ضَميرِي
تَركْتُ هَوَاكَ وَهْوَ شقيقُ دِيني ... لَئِنْ شُقَّتْ بُرُودي عَنْ غَدُورِ[١]
وَلا كُنتُ الطَّليقَ مِنَ الرَّزايا ... لَئِنْ أصبحتُ أُجْحِفُ بالأسيرِ[٢]
أَسِيرُ ولا أَصيرُ إلى اغتنامٍ ... مَعاذَ اللَّه مِنْ سُوءِ المصيرِ
إذا ما الشُّكرُ كانَ وإنْ تَناهَى ... على نُعْمَى فما فَضْلُ الشَّكورِ؟
جَذِيمةُ أنتَ والأيامُ خانَتْ ... وما أنا مَنْ يُقَصِّرُ عَنْ قَصِيرِ[٣]
أنا أَدْرَى بِفَضْلِكَ مِنكَ إنِّي ... لَبِسْتُ الظِّلَّ مِنْهُ في الحَرُورِ[٤]
غَنِيُّ النفسِ أنتَ وإنْ ألحَّتْ ... على كَفَّيْكَ حَالاتُ الفقيرِ
تُصَرِّفُ في النَّدَى حِيَلَ المعالي ... فَتَسْمَحُ مِنْ قَليلٍ بالكثيرِ[٥]
أُحَدِّثُ منكَ عَنْ نَبْعٍ غَريبٍ ... تَفَتَّحَ عَنْ جَنى زَهْرٍ نَضِيرِ[٦]
وأَعْجَبُ مِنكَ أنَّكَ في ظَلامٍ ... وَتَرْفَعُ لِلعُفاةِ مَنارَ نُورِ
رُوَيْدَكَ سَوْفَ تُوسِعُني سُروراً ... إذا عادَ ارتقاؤُكَ لِلسَّريرِ[٧]
وَسَوْفَ تُحِلُّني رُتَبَ المعالي ... غَداةَ تَحُلُّ في تلكَ القُصُورِ

---

(١) الشقيق: الأخ. البرود: الأثواب.

(٢) الرزايا: المصائب. أجحف به: اشتدَّ بالإضرار به.

(٣) جذيمة: هو جذيمة بن الأبرش اللخمي ملك العراق، وقصير: هو قصير بن سعد اللخمي الذي يضرب به المثل فيقال: «لأمرٍ ما جَدَع قصيرٌ أنفه». (مجمع الأمثال، الميداني: ٢/ ١٩٦).
ولجذيمة وقصير قصة مفصلة في كتب الأمثال والأدب، خلاصتها أن الزباء ملكة الجزيرة قتلت جذيمة ثأراً لأبيها، فجدع قصير أنفه، وأوهم الزباء أن قومه جدعوا أنفه لميله بالولاء إليها، فصدقته ووثقت به. فتآمر عليها مع قومه، فدخلوا قصرها وقتلوها ثأراً لجذيمة. (مجمع الأمثال، الميداني: ١/ ٢٣٣).

(٤) الحرور: حَرُّ الشمس. قال تعالى: **﴿وما يَسْتَوِي الأَعْمَى والبَصِير * ولا الظُّلمات ولا النور * ولا الظِّلُّ ولا الحَرُور﴾** [فاطر: ٢٠ ـ ٢٢].

(٥) سَمُحَ سَماحَةً وسُموحَةً: بذل في العُسْرِ واليُسْر عن كرمٍ وسخاء. والسماحة: الجود والكرم، أو السهولة واللين.

(٦) الجَنَى: ما يُجنى من الشجر. النضير: الحَسَنُ المُشْرِقُ.

(٧) السرير: أي سرير الملك.

تَـزِيـدُ عـلـى ابـنِ مَـرْوَانٍ عَـطـاءً بـهـا وأنـيـفُ ثـمَّ عـلـى جَـرِيـرِ[1]
تـأهَّـبْ أَنْ تَـعُـودَ إلـى طُـلـوعٍ فَـلَـيْـسَ الـخَـسْـفُ مُـلـتـزِمَ الـبُـدورِ

فراجعه المعتمد بهذه الأبيات: [من الخفيف]

رَدَّ بِـرِّي بَـغْـيـاً عَـلـيَّ وَبِـرّا وَجَـفَـا فَـاسْـتَـحَـقَّ لَـوْمـاً وَشُـكْـرَا!
حَـاطَ نَـزْرِي إِذْ خَـافَ تـأكـيـد ضُـرِّي فَـاسْـتَـحـقَّ الـجـفـاءَ إذْ حـاطَ نَـزْرَا
فـإذا مـا طـويـتُ فـي الـبـعـض حَـمْـداً عـاد لَـوْمـي فـي الـبـعـض سِـرًّا وجَـهْـرَا
يـا أبـا بَـكْـرِ الـغَـرِيـبَ وَفـاءً لا عَـدِمْـنـاكَ فـي الـمـغـارِبِ ذُخْـرَا
أَيَّ نـفـعٍ يُـجـدِي احـتـيـاطُ شَـفـيـقٍ مُـتُّ ضُـرًّا فـكَـيْـفَ أرهـبُ ضُـرًّا؟[2]

فأجابه ابن اللبّانة رحمه اللّه: [من الخفيف]

أيُّـهـا الـمـاجـدُ الـسَّـمَـيْـدَعُ عُـذْراً صَـرْفِـيَ الـبِـرَّ إنَّـمـا كـان بِـرًّا[3]
حَـاشَ لـلّـه أنْ أُجِـيـحَ كَـرِيـمـاً يَـتَـشَـكَّـى فَـقْـراً وَكَـمْ سَـدَّ فَـقْـرَا[4]
لا أَزِيـدُ الـجـفـاءَ فـيـه شُـقـوقـاً غَـدَرَ الـدَّهـرُ بـي لَـئِـنْ رُمْـتُ غَـدْرَا[5]
لَـيْـتَ لـي قُـوَّةً أوَ آوي لِـرُكْـنٍ فَـتَـرى لِـلـوفـاءِ مِـنِّـي سِـرًّا[6]
أنـتَ عَـلَّـمْـتَـنـي الـسِّـيـادةَ حَـتَّـى نَـاهَـضَـتْ هِـمَّـتـي الـكـواكـبَ قَـدْرَا[7]
رَبِـحَـتْ صَـفْـقَـةٌ أُزِيـلُ بُـروداً عَـنْ أَدِيـمـي بـهـا وأَلْـبَـسُ فَـخْـرَا[8]
وَكَـفـانـي كـلامُـكَ الـرَّطْـبُ نَـيْـلاً كَـيْـفَ أُلْـفـي دُرًّا وأَطْـلُـبُ تِـبْـرَا![9]
لَـمْ تَـمُـتْ إنَّـمـا الـمـكـارمُ مَـاتَـتْ لا سَـقَـى الـلّـهُ بَـعْـدَكَ الأرضَ قَـطْـرَا[10]

---

(١) ابن مروان: هو عبد الملك بن مروان، الخليفة الأموي المُتوفَّى سنة ٨٦هـ/ ٧٠٥م. جرير: هو جرير بن الخطفي، الشاعر الأموي المتوفى سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م.
(٢) الشفيق: المُشْفق، من شَفِقَ عليه: رَقَّ له وعَطَفَ عليه.
(٣) الماجد: الشَّريف الخَيِّرُ. السَّمَيْدَعُ: السَّيِّدُ الكريم السَّخِيُّ، أو الرئيس الشجاع.
(٤) «أجيح كريماً»: يقال: جاح فلان: هلك مال أقربائه، وجاحت المصيبة المال: أهلكته واستأصلته.
(٥) الشُّقوق: الصُّدُوعُ أو الثُّقُوبُ.
(٦) آوى إلى المكان: لجأ إليه.
(٧) ناهض فلان: قاوم، والمراد هنا: سَابَقَ وبَارَى.
(٨) الصَّفْقَةُ: العقد، أو البيعة، أو ضرب اليد عند البيع علامة إنفاذه.
(٩) ألفى الشيءَ: وجده. التبر: الذهب.
(١٠) القطر: المطر.

ومما قاله المُعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يُكتب على قبره: [من البسيط]

قَبْرَ الغَريبِ سَقاكَ الرائحُ الغادي ... حَقًّا ظَفِرْتَ بأشلاءِ ابنِ عبَّادِ[١]

بالحِلْم بالعلْم بالنُّعمَى إذا اتَّصلتْ ... بالخِصْبِ إنْ أجدبوا بالرِّيِّ للصادي[٢]

بالطَّاعِنِ الضاربِ الرامي إذا اقتتَلوا ... بالموتِ أحمرَ بالضِّرغامةِ العادي[٣]

بالدهرِ في نِقَمٍ بالبحرِ في نِعَمٍ ... بالبدرِ في ظُلَمٍ بالصدرِ في النادي[٤]

نَعَمْ هو الحقُّ حاباني به قَدَرٌ ... مِنَ السماءِ فوافاني لِميعادِ[٥]

ولَم أكنْ قَبْلَ ذاك النَّعْشِ أعلمُهُ ... أنَّ الجبالَ تَهادَى فوقَ أعوادِ[٦]

كفاكَ فارفُقْ بما استُودِعتَ من كرَمٍ ... رَجاكَ كلُّ قَطُوبِ البَرْقِ رَعَّادِ[٧]

يَبْكي أخاه الذي غيَّبْتَ وابِلُهُ ... تَحْتَ الصَّفيحِ بدمعٍ رائحٍ غادي[٨]

حَتّى يَجُودَكَ دَمْعُ الطَّلِّ مُنهمِراً ... مِنْ أعْيُنِ الزَّهرِ لم تَبْخَلْ بإسْعَادِ[٩]

وَلا تَزَلْ صَلَواتُ اللَّهِ دائمةً ... على دَفينِكَ لا تُحْصَى بِتَعْدادِ!

وكان للمُعتمد على اللَّه هذا ولد يُلقَّب بـ«فخر الدولة»، رشّحه للملك من بعده، وجعله وليّ عهدِه، ولقبه بـ«المُؤيَّد بنصر اللَّه»؛ فعاقته الفتنةُ عن مراده، وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإيراده؛ فما برح بفخر الدولة هذا تغيّر الأيام بعد الفتنة، إلى أن أسلم نفسه في السوق، وتعلم من الصنائع صَنْعة الصُّوّاغ، فمرَّ به مُحمَّد بن اللبَّانة المتقدم الذكر شاعرُ أبيه، فقال في ذلك: [من البسيط]

أذْكى القلوبَ أسًى، أبكى العيونَ دَمَا ... خَطْبٌ وَجَدْناكَ فيه يُشْبِهُ العَدَما[١٠]

أفرادُ عِقْدِ المنى مِنّا قَدِ انتثرتْ ... وعَقْدُ عُرْوتِنا الوُثْقَى قدِ انْفَصَما[١١]

---

(١) الأشلاء: الأعضاء، الواحد: شِلْوٌ. وأشلاء الإنسان: أعضاؤه بعد التَّفرُّق والبِلَى.

(٢) الصادي: الظمآن.

(٣) الضرغامة: الضرغام: الأسد الضاري الشديد.

(٤) النادي: مجلس القوم.

(٥) حاباه: اختصَّه ومال إليه. وافاه: أتاه، أو أدركه.

(٦) تهادى: مشى متمايلاً، ومنه: تهادى فلان بين رجلين: اعتمد عليهما من ضعف.

(٧) استودع فلاناً وديعةً: استحفظه إياها. الرَّعَّاد: السحاب الكثير الرعد.

(٨) الوابل: المطر الشديد. الصفيح: الحجارة.

(٩) الطَّلُّ: المطر الخفيف. منهمراً: مُنصَبًا. الإسعاد: المُعاونة.

(١٠) أذكى القلوب: أشعلها. الأسى: الحزن. العدم: الموت، الهلاك.

(١١) انتثرت: تفرَّقت. انفصم: انفكَّ، انحلَّ، انفصل.

شَكاتُنا فيك يا فَخْرَ الهدى عَظُمتْ والرُّزْءُ يَعظُم فِيمَنْ قَدْرُهُ عَظُما[١]
طُوِّقتَ مِنْ نائباتِ الدَّهرِ مِخْنقةً ضَاقتْ عليكَ، وكم طَوَّقْتَنا نِعَما![٢]
وَعادَ كَوْنُكَ في دُكّانِ قارعةٍ مِنْ بَعد ما كُنْتَ في قَصْرٍ حَكى إِرَمَا[٣]
صَرَّفتَ في آلةِ الصُّوّاغِ أَنْمُلَةً لم تَدْرِ إلّا النَّدى والسيفَ والقَلَما
يَدٌ عَهِدْتُكَ لِلتَّقبيلِ تَبْسُطها فَتَستَقِلُّ الثُّريَّا أنْ تَكُونَ فَمَا
يا صَائغاً كانت العَلْيا تُصاغ له حَلْياً وكانَ عَلَيْهِ الحَلْيُ مُنتظِمَا
للنَّفخِ في الصُّور هَوْلٌ ما حَكَاهُ سِوَى هَولِ رأيناكَ فيهِ تَنْفُخ الفَحَمَا[٤]
وَدِدْتُ إذ نَظرتْ عَيْني إليكَ بهِ لَوْ أنَّ عَيْنيَ تَشْكُو قَبْلَ ذاكَ عَمَى
ما حَطَّكَ الدهرُ لَمَّا حَطَّ مِنْ شَرَفٍ وَلا تَحيَّفَ مِنْ أخْلَاقِكَ الكَرَمَا[٥]
لُحْ في العُلا كَوكباً إن لم تَلُحْ قمراً وقُمْ بها رَبْوَةً إنْ لَمْ تَقُمْ عَلَمَا
واصْبِرْ فَرُبَّتَمَا أَحْمَدْتَ عاقبةً مَنْ يَلْزِم الصَّبْرَ يَحمَدْ غِبَّ ما لَزِمَا
واللّه لو أنْصَفَتْكَ الشُّهْبُ لَانكَسَفَتْ وَلَوْ وفَى لكَ دَمْعُ المُزْنِ لَانسَجَمَا[٦]
بَكَى حَديثَكَ حتّى الدُّرُّ حِينَ غَدَا يَحْكِيكَ رَهْطاً وألفاظاً وَمُبْتَسَمَا[٧]
وَرَوْضَةُ الحُسْنِ مِنْ أزهارِها عَرِيَتْ حُزْناً عليك لأنْ أَشْبَهْتَها شِيَمَا[٨]
بَعْدَ النعيمِ ذَوَى الريحانُ حينَ رأى رَيحانَكَ الغَضَّ يذْوِي بعد ما نَعِمَا[٩]
لم يَرْحَمِ الدَّهرُ فَضلاً أنتَ حَامِلُهُ مَنْ لَيسَ يَرْحَمُ ذاكَ الفَضْلَ لا رُحِمَا
شَقيقُكَ الصُّبحُ إنْ أَضْحَى بِشَارقةٍ وأنْتَ في ظُلمةٍ فالصُّبْحُ قَدْ ظَلَمَا

---

(١) الشكاة: الشكوى. الرُّزْءُ: المصيبة.
(٢) نائبات الدهر: مصائبه. المخنقة: القلادة.
(٣) القارعة (من الطريق): وسطه. إرم: قوم منهم عاد، وقيل: مدينة كبيرة لهم.
(٤) الصُّور: آلة كالقرن يُنفخ فيها.
(٥) تَحيَّف الشيءَ: أخذ من حافاته وتَنقَّصه.
(٦) انكسفت: احتجبت. المُزْنُ: السحاب يحمل المطر. انسجم: سال وانصبَّ.
(٧) الرهط: الأهل.
(٨) الشِّيَمُ: الطِّباع، الخِصالُ.
(٩) الغَضُّ: النضر، الطريّ، اللَّيِّن. يذوي: يذبل.

فصل

[رجع الحديث عن دولة المرابطين بالأندلس]

وإنما أوردنا هذه النبذة اليسيرة من أخبار المعتمد على اللَّه، مع ما تعلق بها، وإن كانت مُخرِجةً عن الغرض؛ لندلَّ بها على ما قدمنا من ذكر فضله وغزارة أدبه وإيثاره لذلك؛ وأيضاً فليتصل نسقُ الأخبار عن المملكة، أعني مملكة الأندلس إلى المرابطين أصحاب يُوسُف بن تَاشُفين؛ ولوجهٍ ثالثٍ: وهو أن ما آلت إليه حال المُعتمد هذا من الخمول بعد النباهة[١]، والضَّعة[٢] بعد الرفعة، والقبض بعد البسط، من جملة العِبَر[٣] التي أرَتْناها الأيام، والمواعظ التي تُصَغِّر الدنيا في عيون أولي الأفهام.

ثم إن يُوسُف بن تَاشُفين استوسق له أمر الأندلس بعد القبض على المُعتمد؛ إذ كان هو كَبْشَ كتيبتها، وعَيْنَ أعيانها، وواسطةَ نظمها؛ فلم يزل أصحاب يُوسُف بن تَاشُفين يطوون تلك الممالك مملكةً مملكةً، إلى أن دانت لهم الجزيرة بأجمعها؛ فأظهروا في أول إمرتهم من النّكاية[٤] في العدو، والدفاع عن المسلمين، وحماية الثغور، ما صدّق بهم الظنون، وأثلج الصدور[٥]، وأقرّ العيون؛ فزاد حبّ أهل الأندلس لهم، واشتد خوف ملوك الروم منهم؛ وَيُوسفُ بن تاشفين في ذلك كله يمدّهم في كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش، والخيل إثر الخيل، ويقول في كل مجلس من مجالسه: «إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم، لما رأينا استيلاءهم على أكثرها، وغفلةَ ملوكهم وإهمالَهم للغزو وتواكُلَهم وتخاذُلهم وإيثارَهم الراحة؛ وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقَينة تُسمِعه، ولهو

---

(١) خَمَلَ الرجل: خفي، فلم يُعرف ولم يُذكر، وخمل ذكره وصيته: خفي. وَنَبُهَ الرجل نباهةً: شَرُفَ واشتهر.
(٢) الضَّعَةُ: الانحطاط، والخسّة، خلاف الرفعة في القدر.
(٣) العِبَرُ: المواعظ.
(٤) نَكَى العَدُوَّ وفيه نكايةً: أوقعَ به، أو هزمه وغلبه.
(٥) أثلج الصدور: سرّها وَطَمْأَنَها.

يقطع به أيامه. ولئن عشت لأعيدنّ جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنّها عليهم ـ يعني الروم ـ خيلاً ورجالاً لا عهدَ لهم بالدَّعة[1]، ولا علمَ عندهم برخاء العيش؛ إنما هَمُّ أحدهم فرس يَرُوضه ويَسْتَفْرِهه[2]، أو سلاحٌ يستجيده، أو صريخٌ[3] يُلبّي دعوته...» في أمثال لهذا القول. فيبلغ ذلك مُلوكَ النصارى، فيزداد فَرَقُهم[4]، ويقوَى ـ مما بأيدي المسلمين، بل مما بأيديهم ـ بأسُهم.

وحين مَلَك يُوسف أمير المسلمين جزيرةَ الأندلس وأطاعته بأسرها ولم يختلف عليه شيء منها، عُدَّ من يومئذ في جملة الملوك، واستحق اسم السلطنة، وتسمّى هو وأصحابه بـ«المرابطين». وصار هو وابنُه مَعْدُودَيْن في أكابر الملوك؛ لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى، وأم قُراه، ومعدن الفضائل منه. فعامة الفضلاء من أهل كلِّ شأن منسوبون إليها، ومعدودون منها. فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها، ومركز الفضائل وقُطب مدارها؛ أعدل الأقاليم هواءً، وأصفاها جوًّا، وأعذبها ماءً، وأعطرها نبتاً، وأنداها ظلالاً، وأطيبها بُكراً مُستَعذَبةً وآصالاً: [من البسيط]

أرضٌ يطيرُ فُؤادي مِنْ قَرارتهِ ... شَوْقاً لها وَلِمَنْ فيها مِنَ النَّاسِ
قَوْمٌ جَنَيْتُ جَنَى وَرْدٍ بِذِكْرِهِمُ ... فَهَلْ بِلُقْياهُمُ أَجْنِي جَنَى آسِ؟

فانقطع إلى أمير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علمٍ فحولُه، حتى أشبهت حَضْرتُه حَضْرةَ بني العباس في صدر دولتهم.

[أعيان الكُتَّاب في دولة المرابطين]

واجتمع له ولابنه من أعيان الكُتَّاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار؛ فممن كتب لأمير المسلمين يُوسُف: كاتبُ المُعتمد على اللّه أبو بَكْر المعروف بابن القَصِيرة[5]، أحد رجال الفصاحة، والحائز قَصب السبق في البلاغة؛ كان على طريقة قدماء الكُتَّاب، من إيثار جَزْل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أحدثها مُتأخرو الكتاب، اللَّهم إلا ما جاء في رسائله من

(١) الدَّعَةُ: الخَفْضُ والسعة في العيش.
(٢) استفره فلان: تَخيَّر الجَيِّد من الجِياد وغيرها.
(٣) الصَّريخ: المستغيث.
(٤) الفَرَقُ: الخوف والفزع.
(٥) هو أبو بكر، محمد بن سليمان الكلاعي الأندلسي، المعروف بابن القصيرة: أديب، من كبار الكُتَّاب. نشأ في دولة المعتضد، ثم تقدّم عند المعتمد. وكانت وفاته سنة ٥٠٨هـ/ ١١١٣م. (الصلة، ابن بشكوال: ٤٤٥).

ذلك عفواً من غير استدعاء. رأيت له عن المُعتمد رسائل تدلُّ على ما وصفتُه به، ليس على خاطري منها شيء.

[وزارة ابن عَبْدُون][*]

ثم كتب له، أو لابنه، بعد أبي بَكْر هذا ـ الوزيرُ الأجلّ أبو مُحمَّد عبد المجيد بن عَبْدُون. قد تقدَّم من نَعْتِهِ ما أغنانا عن تكراره ههنا. وكان يكتب قَبْلَ مَن كتب له منهما، للأمير سيرِ بن أبي بكر بن تَاشُفين، وهو الذي دخل على المُعتمد على اللَّه إشْبِيليَّة، فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين، باستدعاءٍ منه له.

* * *

فمن رسائله عنه إلى أمير المسلمين، رسالة يخبر بها بفتح مدينة شَنْتَرين[1] أعادها اللَّه؛ وكان سِيرُ هذا هو الذي تولَّى فَتْحَها؛ فكتب عنه أبو مُحمَّد كتاباً:

«أدام اللَّه أمر أمير المسلمين، وناصرِ الدين، أبي الحَسَن عليّ بن يُوسُف بن تَاشُفين، خافقةً بِنُصرة الدين أعلامُه، نافذة في السبعة الأقاليم أقلامُه، مِن داخل مدينة شَنْتَرِين، وقد فتحها اللَّه تعالى بحسن سيرتك، ويُمنِ نَقيبتك[2] على المسلمين.

«والحمد للَّه رب العالمين، حمداً يستغرق الألفاظَ الشارحةَ معناه، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه، لا يردُّ وجهَه نُكوص[3]، ولا يَحُدُّ كُنْهَه[4] تخصيص، ولا يَحزِرُه[5] بقبضٍ ولا ببسطِ مثالٌ ولا تخمين، ولا تَحْصُره بخبطٍ ولا بِعَقْدٍ شِمالٌ ولا يمين، ولا يَسَعُه أمدٌ يحويه، ولا يقطعه أبدٌ يستوفيه، ولا يجمعه عددٌ يُحصيه، إذا سبقتْ هَوَاديه[6]، لَحِقتْ تواليه.

«وعَلى مُحمَّدٍ عبده وأمين وحيه، الصادع بأمره ونَهيه، نظام الأمة، وإمام الأئمة، سِرّ آدم من بنيه، وفخر العالم ومن فيه ـ صلاةٌ تامة نقضيها، وتحية عامة نؤديها، تَرْفَضُّ[7] ارفضاض الزهر من كمامه، وتَنْفَضُّ[8] انفضاض المسك من ختامه؛

(*) ترجمته في الأعلام: ٤/ ١٤٩؛ الصلة: ٣١١؛ كشف الظنون: ١٣٢٩.

(١) شنترين: مدينة تقع غربيّ الأندلس، بينها وبين قرطبة خمسة عشر يوماً. (معجم البلدان: ٣/ ٣٦٧).

(٢) النقيبة: السجية والطبيعة.

(٣) النكوص: الرجوع والإحجام.

(٤) كُنْهُ الشيء: حقيقته.

(٥) حَزَرَ الشيءَ: قَدَّره بالتخمين أو الظَّنّ.

(٦) الهوادي: المتقدمات من الإبل أو الخيل.

(٧) تَرْفَضُّ: تَتفرّق وتتبدّد وتزول، ومنه: ارفضّ الماء: سال أو تَرشَّش.

(٨) انفضّ الشيء: تفرّق.

فلقد صدع بتوحيده، وَجَمَعَ على وعده ووعيدِه، وأوضح الحقَّ وجلاه، ونصح الخَلْقَ وهداه، إلّا من حقَّت عليه كلمة العذاب، وسبقت له الشقوةُ في أم الكتاب.

«وأظهر العزيزُ عزَّت أسماؤه، وجَلَّت كبرياؤه ـ دِينَه على جميع الأديان، على رَغْم من الصلبان، وَوَقْم[١] من الأوثان؛ وأنجز لنا تعالى وعده، ونَصرنا معه صلَّى اللَّه عليه وسَلم وبَعْدَه، وَجَمَع في هذه الجزيرة شملَ الإسلام بعد انصرامه وانبِتاته[٢]، وقطع غِيلَ[٣] الإشراك بعد انتصابه وثباته، وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صَيَاصِيهم[٤]، نأخذ بأقدامهم ونواصيهم.

«وكانت قلعةُ شَنترين ـ أدام اللَّه أمرَ أمير المسلمين ـ من أحصن المعاقل للمشركين، وأثبت المعاقل على المسلمين؛ فلم نَزَلْ بسعيك الذي اقتفيناه، وهديك الذي اكتفيناه، نَخْضد[٥] شَوكتها، وننحتُ أَثْلَتها[٦]، ونتناولها عَلَلاً بعد نَهَل[٧]، ونُطاولها عَجَلاً في مَهَل؛ نَخْرُفُ[٨] الحينَ بعد الحينِ سَرَاةَ رجالها، ونتَطرَّفُ[٩] المرَّةَ بعدَ المرَّةِ حُماةَ أبطالها، ونخوض غمار كِفاحهم، وبحارَ صِفاحهم[١٠]، إلى بَسْط أشباحهم، وقَبْض أرواحهم، ونُهدي للقَنا وصدورِها رؤوسهم، وإلى لَظًى وسعيرِها نفوسَهم، وننقلهم من الشِّفار اليمانية، إلى النار الحامية، ونرفع بالجِدِّ والتشمير حِجابَ كيدهم الغامض، ونُضَعْضِعُ باستخارة القديم القديرِ هضابَ أَيْدِهم الهائض[١١]. ولما رأينا هذه القلعة الشريفةَ المناسب في القلاع، المنيفةَ[١٢] المناصبِ على البِقاع، قد استشرى داؤها، وأعيا دواؤها، استخرْنا اللَّه تعالى على صَمْدِها[١٣]، وضَرَعْنا إليه في تسهيل قَصْدها؛ وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا، وإن كانت في صيانة

---

(١) الوَقْمُ: الكُرْه والقَسْرُ.
(٢) الانصرام والانبتات: الانقطاع.
(٣) الغِيلُ (في الأصل): موضع الأسد، أو الشجر الكثيف المُلْتَفّ.
(٤) الصياصي: الحصون، قال تعالى: **﴿وأنزلَ الذين ظَاهَرُوهُمْ من أهلِ الكتابِ من صَياصِيهم﴾** [الأحزاب: ٢٦].
(٥) خَضَدَ الشيءَ: كسره، أو قطعه.
(٦) الأثلة: الأصل، ونحت أثلته: عابه وتَنقَّصه.
(٧) العَلَلُ: الشرب الثاني. النَّهَلُ: الشرب الأول.
(٨) نَخْرُفُ: نقطف، نجني.
(٩) طَرَّفَ الشيءَ: أخذ من أطرافه.
(١٠) الصِّفاح: جمع الصفيحة: وجه كل شيء عريض، كوجه السيف واللوح والحجر.
(١١) الأَيْدُ: القُوَّة. الهائض: من هاض العظم هَيضاً كسره.
(١٢) المنيفة: العالية، المشرفة.
(١٣) صَمَد الشيءَ، وله، وإليه: قَصَدَهُ.

ديانته مبذولة، وعلى المكروه والمحبوب في ذاته محمولة؛ فَقَصدْنا إليها، وهجمنا هجومَ الرَّدَى عليها، في وقت انسدَّت فيه أبوابُ السُّبُل، وأعيَتْ أهلَها بحول اللّه وجوهُ الحِيَل، والدَّهرُ قد كشَّر عن أنيابه العُصْل[١]، وقام من الوُحول والسُّيول على أثْبَتِ رِجْل. فنزلنا بساحة القوم، فساء صباحُهم ذلك اليوم؛ فلم نزل نُصاولهم[٢] مصاولةَ المحتسِب المؤتجر، ونُطاولهم مطاولة المرتقِب لأمر اللّه المنتظر، ونشنّ الغارات على جميع الجهات، فَتَرِدُ جُيوشنا عليهم خفافاً وتصدر إلينا ثِقالاً، فتملأ صدور الأعداء أوجالا[٣]، وأيدي الأولياء أموالاً. وأمَرْنا بإقامة سوق سَبيهم وأموالهم، على مرأىً ومَسمعٍ من نسائهم ورجالهم؛ فازدادت ريحُهم بذلك رُكوداً، ونارُهم خموداً.

«ولما ضمَّهم لِضيقِ ولَاجِهِ الحصار، وغشيهم بتفريق أمواجِه البوار[٤]، وأحاط بهم البلاء، واستشاط عليهم بغضبِ الجبارِ القضاء، ولم يكن للَيْلِ بأسائهم سَحَرٌ يُتأمَّل، ولا لِورْدِ ضرَّائهم صَدَرٌ يُؤمَّل، اختاروا الدَّنيةَ على المنيَّة، وَرَضُوا بالاستسلام للعبودية، وإسلام الأهل والذُّرية، والسلامة من مدارج الكَفَن، وموالج الجَنن، ولو بِجُريْعَةِ الذَّقَن. وكان القتل كما قدّمنا قد أتى على صِيدِ[٥] أعيانهم، وصَناديدِ[٦] فُرسانهم، فلم تَبْقَ إلا شِرذِمةٌ[٧] قليلة، وعُصبةٌ ذليلة، لا تُضرُّ حياتهم مُوحَّداً، ولا تسرُّ نجاتهم مُلحداً. نقلناهم من يمين المنون، إلى شِمال الهُون[٨]، ومن أَليم الحِصار، إلى لئيم الإسار. وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم، بعد أن قدّموا من الخضوع صدقةً بين يَدَيْ نجواهم، ووهبنا أولاهم لأخراهم، وجعلنا العفوَ عنهم تطريقاً لسواهم، ممن يَتقيَّلُ صنيعَهم إذا نحن غداً بإذن اللّه حاصرناهم.

«وهذه القلعة التي انتهينا إلى قَرارها، واستولينا على أقطارها، أرحَبُ المدن أمداً للعيون، وأخصَبُها بلداً في السنين، لا يَريمُها[٩] الخِصبُ ولا يتخطاها، ولا

(١) العُصْل: جمع الأعصل: المُعْوَجُ في صلابة.
(٢) صاوله: غالبه ونافسه.
(٣) الأوجال: جمع الوجل: الخوف أو الفزع.
(٤) البوار: الفساد والهلاك.
(٥) الصيد: جمع الأصيد: الذي يميل بوجهه كِبْراً وتيهاً لمكانته ورفعته.
(٦) الصناديد: جمع الصنديد: الشريف الشجاع.
(٧) الشرذمة: القطعة من الشيء، يقال: شرذمة من الناس: جماعة قليلة. قال تعالى: **﴿إنَّ هَؤُلاء لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُون﴾** [الشعراء: ٥٤].
(٨) الهون: الشِّدَّة أو الخِزي. قال تعالى: **﴿اليوم تُجْزَوْنَ عَذابَ الهُون﴾** [الأنعام: ٩٣].
(٩) لا يريمها: لا يفارقها.

يَرُومها الجدبُ ولا يتعاطاها؛ فروعُها فوق الثريا شامخةٌ، وعُروقها تحت الثَّرَى راسخةٌ، تُباهي بأزهارها نجومَ السَّماء، وتُناجي بأسرارها أُذُنَ الجَوزَاء، مواقع القِطَار[1] في سواها مُغْبَرَّةٌ مُرْبَدَّة[2]، وهي زاهرةٌ تَرِفُ أنداؤها، ومطالع الأنوار في حَشَاها مُقشعِرَّةٌ مُسْوَدَّة، وهي ناضرة تَشِفُّ أضواؤها. وكانت في الزمنِ الغابر، أَعْيَتْ على عظيمِ القَياصِر، فنازلَها بأكثر من القَطْر عدداً، وحاوَلَها بأوفر من البحر مَدَداً، فأبتْ على طاعته كل الإباء، واستعصتْ على استطاعته أشدَّ الاستِعصاء، ومَرَدتْ مُرودَ[3] ماردِ على الزَّبّاء[4]. فأمكنَنا اللَّهُ تعالى من ذِرْوَتها، وأَنزل رُكابَها لنا عن صَهْوتها»

* * *

ومن رسائله الإخوانياتِ رسالةٌ كتب بها إلى أبي عبد اللَّه مُحمَّد بن أبي الخصال[5] يخطب مَودّتَه، ويستدعي من إخائه جِدَّتَه:

«أنا مع عمادي الأعظم ـ أدام اللَّه عُلوَّه ـ كَعَزِيبٍ[6] طواه الجَهْد، وآواه من تِهامَةَ وَهْد[7]، ومالَه بِريحها العقيم ولا بِحَرِّها المُقعِد المقيم عَهْد. فرفضت به من سرابها المُغرِق وشَرَابها المُحرق في حمَّام، فأشرَفَ من ذلك الجحيم وَضَرَمِه، لولا تَنْفِيسُ الرحيم عنه بِكَرَمِه، فَوَأَلَ[8] إلى ربوة من رُباها، وسأل جبالَ فاران عن مَهَبِّ صَبَاها، ليلتقط من أنفاسها بوساطة نَجْد، بَرْداً يُهديه إلى حرِّ الوجد؛ فحيَّتْه بِبَليلٍ من نسيمها العليل، فأحيتْه بعد التعليل.

«وأنا ما قصدتُ فيما خطبت به إليك لآخُذَ عليك بفضل الابتداء، وإنما سلكتُ سبيلَ الاقتداء، واتّبعت دليل الاهتداء؛ وأردت أن أستنير بأضوائك، وأستثير من سمائك، نجوماً تَهديني في غسَق الظلام، أو رُجوماً تُعدِيني على مُسترِقِ سَمْعِ الكلام. فإن سمح عمادي بالجواب ورَجْعِه، غالَبتُ ـ بما حصل منه لديَّ ووصل إليّ ـ الحمَامَ

(١) القِطار: جمع القطر: المطر.
(٢) مُرْبَدَّةٌ: اختلط سوادها بكدرة.
(٣) مَرَدت: طغت وتجاوزت الحَدّ.
(٤) الزَّبّاء: هي ملكة تدمر.
(٥) هو أبو عبد اللَّه، محمد بن مسعود بن طيِّب بن فرج بن أبي الخصال الغافقي: شاعر أديب، وزير، يُعرف بذي الوزارتين. توفي سنة ٥٤٠هـ/١١٤٦م. (الأعلام، الزركلي: ٧/ ٩٥).
(٦) العزيب: البعيد.
(٧) الوهد: المنخفض من الأرض.
(٨) وَأَلَ: لَجأَ وَخَلَصَ.

في سَجْعه[١]، والأنصارَ في حَسَّانها[٢]، والإعصار[٣] في نَيسانِها، وطَيِّئاً في وَليدها وحَبيبها[٤]، وسعداً في خالِدها وشَبيبها. وخَرَقتُ ـ بما أعار من مِراحٍ وأثار من ارتياحٍ ـ جَيْبَ مُخارِقٍ[٥] طَرَبا، ولم أَدَعْ لأبي العتاهية[٦] في المغرب وخفيفَه المطرب أَرَباً، وطويت كشحاً[٧] عن أغاريد عَبيد[٨]، وأضربت صفحاً عن أناشيد لبيد[٩]، وطالبت بُلغاءَ العصر، بالمثل المضروب في جمل مصر، وقلت: هذه القارَةُ فَرَاموها وأَنصِفوا، وهذه الغاية فَرُوموها أو نَصِّفوا، وإن كانت تُؤَمُّه البواهرُ منا أُنْجِلتْ في دَرْجِي[١٠]، ونجومُه الزواهرُ ما حَلَّتْ في بُرجي. وإنَّ كفِّي من جَنَى ثِمَارِهِ لَصِفْرٌ[١١]، وإنَّ طَرْفي من سَنَا أقمارِها لَقَفْر. وإنّي بضَنِّه عليَّ بدُرَّةٍ من بحره، أو نَفْثة من سِحره، لَبَيْن ظَنَّيْن، لم أَحصل من تحقيقهما على أثرٍ ولا عَيْن، أحدُهما قلت: إنه أَجْرَى اسمي على خَلَدِه، فلم يجدني في أَنْدَادِه[١٢] ولا بَلده، فقال: وما أنا وفلان، وهل هو إلّا من الغَرْب، وإن كان بِزَعْمه في الصميم من العُرْب، وهل الغربُ في الأقطار، إلا كاللَّحق[١٣] بين الأسطار. والآخر ربما يقول، ما لا تقبله العقول: إني لأنظر من فلانٍ

---

(١) سجعت الحمامة سَجْعاً: رَدَّدَتْ صوتها على طريقةٍ واحدة.

(٢) الأنصار: هم أصحاب رسول اللّه ﷺ الذين نصروه في المدينة المنورة. حسّان: هو الشاعر حسّان بن ثابت الأنصاري، المتوفى سنة ٥٤هـ/ ٦٧٤م.

(٣) الإعصار: ريح تهبُّ بشدَّة، وتثير الغبار، وترتفع كالعمود في السماء.

(٤) وليدها: هو أبو عبادة، الوليد بن عبيد الطائي الشاعر، المُتوفَّى سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٨م. وحبيبها: هو أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي الشاعر المُتوفَّى سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م.

(٥) مخارق: هو أبو المهنأ، مخارق بن يحيى الجزار: إمام عصره في الغناء، ومن أطيب الناس صوتاً. كان مُقرّباً من الرشيد والمأمون العباسيين. وتوفي سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٥م. (الأعلام، الزركلي: ٧/ ١٩١).

(٦) هو إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، العنزي بالولاء، الشهير بأبي العتاهية: شاعر مكثر مطبوع. نشأ في الكوفة، وسكن بغداد، وتوفي سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م. (طبقات الشعراء، ابن المعتز: ٢٢٧).

(٧) يقال: طوى كشحه على الأمر: أضمره وستره، وطوى عنه كشحه: تركه وأعرض عنه.

(٨) عبيد: هو عبيد بن الأبرص الأسدي، الشاعر الجاهلي، المُتوفَّى نحو سنة ٢٥ق.هـ/ نحو ٦٠٠م.

(٩) لبيد: هو لبيد بن ربيعة العامري، الشاعر المخضرم المشهور، المُتوفَّى سنة ٤١هـ/ ٦٦١م.

(١٠) الدَّرْجُ: الورق الذي يُكتب فيه، ويقال: أنفذته في دَرجِ كتابي: في طَيّه، ونحن دَرْجُ يديك: أي طوع يديك.

(١١) كَفِّي صِفْرٌ: خالية.

(١٢) الأنداد: جمع النِّدّ: المثل والنظير.

(١٣) اللَّحَقُ: ما يلحق بالكتاب بعد الفراغ منه، فتلحق به ما سقط عنه، أو هو كلُّ ما يجيء بعد شيءٍ سبقه.

بأحدَّ من نظر الزَّرقاء[١]، إلى أجلَّ من خطرِ العَنْقاء؛ وينشد قول أبي العلاء بن سُلَيمان[٢]، شاعر معرة النعمان:

أَرَى الـعَـنْـقَـاءَ تَـكْـبُـر أَنْ تُـصَـادا

«وأنا أُقسم بالربيع المُمطر وائتلاف أوانه، والبقيع المُزهر واختلاف ألوانه، والشباب ودولته، والمِضْرَاب وَصَوْلَته، والمثاني إذا نُسِقَت[٣]، والقَناني وما وَسَقَتْ[٤]، وإن أقسمت من بعضها بيمين، لا أتلقَّى رايتها بشِمال ولا يمين ـ أن اسمي في البلغاء والفُهَماء، كاسم العنقاء في الأسماء: اسمٌ ما وقع على مُسَمًّى، ولفظٌ ما دلَّ على مَعْنَى. فأين أقع مما تريد، وكتابي بين يدي حَمْدِي أو عِتَابي بريد، يَنْفُضُ تهائم ظنوني، أو يَنْقُض تمائم جنوني. وله الرأي العالي في الجواب، على خطإٍ كنت من ظَنِّي أو صواب، إن شاء اللَّه عزَّ وجلَّ.

«ومن سلامي، على عمادي الأعظم وإمامي، أَحْفَلُه وأَحْفَدُه[٥]، وأَجْزلُه وأَوْفَدُه؛ والسلام الأتمّ الأعمّ عليه ورحمةُ اللَّه وبركاته».

* * *

فراجعه الوزير أبو عبد اللَّه برسالة لم يُكتب مثلُها في بابها، أبدع فيها غاية الإبداع، وإن كان فيها بعض تَكلُّف، تُسَمَّى هذه الرسالة «الحَولية» منعني من إيرادها في هذا المرسوم ما فيها من الطول.

ولأبي مُحمَّد عبد المجيد المذكور إحسانٌ قد اشتهر عندنا بتلك الأقطار شهرة الأمثال، وسار ذِكره فيها سير الجنوب والشَّمال.

واتصلت حال أمير المسلمين يُوسُف ـ كما ذكرنا ـ في إيثار الغزو، وقمع[٦] ملوك الروم، والحرص على ما يعود بالمصلحة على جزيرة الأندلس، إلى أن تُوفِّي في شهور سنة ٤٩٣.

---

(١) الزرقاء: أعني زرقاء اليمامة، وكانت مشهورة بِحدَّة النظر.

(٢) هو أبو العلاء، أحمد بن عبد اللَّه بن سليمان التنوخي المعري: شاعر فيلسوف، ولد في معرة النعمان، وفقد بصره صغيراً، وتوفي سنة ٤٤٩هـ/١٠٥٧م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ١/ ١١٣).

(٣) نُسِقت: نُظِمَت، رُتِّبَت.

(٤) وَسَقَتْ: حَمَلَتْ.

(٥) أحفده: يقال: حَفَدَ الرجل حَفَدَاناً: خَفَّ وأسرع في عمله، وحَفَدَ فلاناً: أعانه وخفَّ إلى خدمته.

(٦) قَمَعَ فلاناً قَمْعاً: منعه عمَّا يُريد، أو قهره وذلَّله.

[ولاية أبي الحَسَن عليّ بن يُوسُف بن تَاشُفين](*)

وقام بأمره من بعده ابنه عليّ بن يُوسُف بن تَاشُفين، وتَلَقَّب بلقب أبيه أمير المسلمين، وسمّى أصحابه «المرابطين»، فجرى على سَنن أبيه في إيثار الجهاد، وإخافة العدو، وحماية البلاد. وكان حَسَن السيرة، جيّد الطوية(١)، نزيه النفس، بعيداً عن الظلم؛ كان إلى أنْ يُعَدَّ في الزّهاد والمتبتلين(٢) أقربَ منه إلى أن يُعَدَّ في الملوك والمتغلّبين. واشتد إيثارُه لأهل الفقه والدين، وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء؛ فكان إذا ولّى أحداً من قُضاته كان فيما يَعْهَدُ إليه ألّا يقطع أمراً ولا يبتّ حُكومةً في صغيرٍ من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعةٍ من الفقهاء. فبلغ الفقهاء في أيامه مبلغاً عظيماً لم يبلغوا مِثْلَه في الصدر الأول من فتح الأندلس.

ولم يزل الفقهاء على ذلك، وأمورُ المسلمين راجعة إليهم، وأحكامُهم صغيرُها وكبيرُها موقوفةٌ عليهم، طول مدته، فعظم أمر الفقهاء كما ذكرنا. وانصرفت وجوهُ الناس إليهم، فكثرت لذلك أموالهم، واتسعت مكاسبهم، وفي ذلك يقول أبو جَعْفَر أحمد بن مُحمَّد المعروف بابن البنّي، من أهل مدينة جَيَّان من جزيرة الأندلس: [من الكامل]

أَهْلَ الرياءِ لَبِسْتُمو نَامُوسَكُم ... كَالذئبِ أَدْلَجَ في الظَّلامِ العَاتمِ(٣)
فَمَلَكْتُمو الدنيا بِمَذْهَبِ مالكٍ ... وَقَسَمْتُو الأموال بابنِ القاسمِ(٤)
وَرَكِبْتُمو شُهْبَ الدّوابِ بأشهبٍ ... وَبأَصْبَغٍ صبغتْ لَكُم في العَالَمِ(٥)

وإنما عَرَّض أبو جَعْفَر هذا في هذه الأبيات بالقاضي أبي عبد اللّه مُحمَّد بن

(*) ترجمته في الأعلام: ٥/ ٣٣.

(١) الطِّويَّةُ: الضمير.

(٢) تَبتَّلَ الرجل: انقطع، وتَبتَّلَ إلى اللّه: تَفرَّغ لعبادته.

(٣) الرِّياء: النفاق. الناموس: القانون أو الشريعة، أو بيت الراهب، أو مأوى الأسد. أدلج الذئب: سار في الليل: أوّله أو آخره. العاتم: من أعتم الليل وعتم: مرّت قطعة منه.

(٤) مالك: هو الإمام مالك بن أنس، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السُّنَّة. أبو القاسم: من كبار علماء المالكية.

(٥) أشهب: هو أشهب بن عبد العزيز القيسي العامري الجعدي: فقيه الديار المصرية في عصره، وصاحب الإمام مالك. توفي سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م. (الأعلام، الزركلي: ١/ ٣٣٣).

حمدين قاضي قُرْطُبة، وهو كان المقصود بهذه الأبيات؛ ثم هجاه بعد هذا صريحاً بأبيات أولها: [من المتقارب]

أَدَجَّالُ هذا أوانُ الخُرُوجِ ويا شمسُ لُوحِي مِنَ المَغْرِبِ[١]
يُرِيدُ ابنُ حَمْدِينَ أَنْ يَعْتَفِي وَجَدْوَاه أنأَى مِنَ الكَوْكَبِ[٢]
إذا سُئِلَ العُرْفَ حَكَّ آسْتَهُ لِيُثْبِتَ دَعْوَاهُ في تَغْلِبِ[٣]

في أمثال لهذه الأبيات. وكان القاضي أبو عبد اللّه بن حَمْدِين ينتسب إلى تغلب ابنة وائل.

* * *

ولم يكن يَقْرب من أمير المسلمين ويَحْظَى عِنده إلّا من عَلِم عِلْمَ الفروع، أعني فروع مذهب مالك، فنَفَقتْ في ذلك الزمان كُتب المَذْهَب، وعُمل بمقتضاها ونُبذ ما سواها. وَكَثُر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب اللّه وحديثِ رسول اللّه ﷺ؛ فلم يكن أحدٌ من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء. ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كلِّ من ظهر منه الخوض في شيءٍ من علوم الكلام. وقَرَّر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيحَ علم الكلام وكراهةَ السَلَف له وَهَجْرَهم مَن ظَهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدَّى أكثره إلى اختلاف في العقائد، في أشباهٍ لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بُغْض علم الكلام وأهله، فكان يُكتب عنه في كلّ وقت إلى البلاد بالتشديد في نَبْذ الخوض في شيء منه، وتَوَعُّد من وُجد عنده شيء من كُتبه. ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي[٤] ـ رحمه اللّه ـ المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدّم بالوعيد الشديد، من سَفْك الدم واستئصال المال، إلى من وجدعنده شيء منها؛ واشتدّ الأمر في ذلك.

---

(١) الدَّجّال: أَي أعور الدَّجّال، الذي يخرج في آخر الزمان. لوحي من المغرب: يشير إلى قرب قيام الساعة، لأن ظهور الشمس من المغرب، من علاماتها الكبرى.
(٢) اعتفى فلان فلاناً: أتاه يطلب معروفه. الجدوى: العطية. أنأى: أبعد.
(٣) العُرْفُ: المعروف. وفي البيت إشارة إلى بيت الشاعر جرير بن الخطفي في الأخطل التغلبي:
والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرَى حَكَّ اسْتَهُ وتَمَثَّلَ الأمثالا
(ديوان جرير: ٣٦٢).
(٤) هو أبو حامد، محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الطوسي، الشافعي: فقيه، فيلسوف، مُتصوّف، إمام مشهور. توفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١٢م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٤/ ٢١٧؛ شذرات الذهب، ابن العماد: ٤/ ١١).

[أعيان الكتاب في عهد أبي الحسن]

ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعي أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس، وصَرَف عنايته إلى ذلك؛ حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كأبي القاسم بن الجدّ[١] المعروف بـ«الأحدب»، أحد رجال البلاغة، وأبي بَكْر مُحمَّد بن مُحمَّد المعروف بابن القَبْطُرْنَة، وأبي عبد اللّه بن أبي الخِصَال، وأخيه أبي مَرْوَان، وأبي مُحمَّد عبد المجيد بن عَبْدُون المذكور آنفاً؛ في جماعة يكثر ذكرهم.

* * *

وكان من أنبههم عنده، وأكبرهم مكانةً لديه: أبو عبد اللّه مُحمَّد بن أبي الخِصَال، وحُقَّ له ذلك؛ إذ هو آخر الكُتَّاب، وأحد من انتهى إليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباعُ الأرحب، واليد الطولى.

فَمِمَّا أَختار له رحمه اللّه، فصولٌ من رسالة كتب بها مُراجعاً لبعض إخوانه، عن رسالةٍ وردت عليه منه يستدعي فيها منه شيئاً من كلامه؛ وهذا الرجل صاحبُ الرسالة هو أبو الحَسَن عليّ بن بسَّام[٢] صاحب كتاب «الذخيرة»:

«وصل من السيد المُسترِقّ، والمالك المُستحِقّ ـ وَصَل اللّه إنعامه لديه، كما قَصَر الفضل عليه ـ كتابةُ البليغ، واستدراجه المُريع؛ فلولا أن يَصْلد[٣] زَنْدُ اقتداحِه، ويَرْقُد طرفُ افتتاحه، وتنقبضَ يدُ انبساطه، وتَغْبنَ[٤] صفقةُ اغتباطه ـ لَلَزِمْتُ معه مَرْكزَ قدري، وصُنْتُ سريرةَ صَدْري؛ لكنه بنفثات سحره يُسمع الصُّمّ، ويستنزلُ العُصْم[٥]، ويقتاد الصَّعبَ فَيُصْحَب، ويستدرُّ الصخورَ فَتُحْلَب.

«ولما فَجأني ابتداؤه، وقَرع سمعي نداؤه، فرغتُ إلى الفِكر، وخَفَق القلبُ بين الأمن والحذر، فطاردتُ من الفِقَر أوابدَ قفر؛ وشواردَ عَفر[٦]، تُغَبِّر في وجه سائقها،

---

(١) هو أبو القاسم، محمد بن عبد اللّه بن الجَدّ الفهري: من أهل التَّفنُّن في المعارف، والتَّقدُّم في الآداب والبلاغة. توفي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م. (الصلة، ابن بشكوال: ٤٤٩).

(٢) هو أبو الحسن، عليّ بن بسَّام الشنتريني الأندلسي: أديب، من الكتاب الوزراء. توفي سنة ٥٤٢هـ/ ١١٤٧م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ٢٦٦).

(٣) صَلَدَ الزَّنْدُ: صَوَّتَ ولم يُورِ.

(٤) تَغْبنُ: تنقص.

(٥) العصم: تيوس الجبل، التي تستعصم بأعالي الجبال.

(٦) العَفْرُ: وجه الأرض، أو التراب. ولعله أراد بـ «شوارد عفر»: الظباء، لأن الأعفر: هو الظبي الذي يعلو بياضه حمرة. وقد جاء في المثل: «بات على قرن أعفر»، ويضرب لمن يبيت ليله في شدَّة مُقلقة.

ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولاحقِها؛ فعلمت أنها الإهابة والمهابة[١]، والإصابة والاسْترابة[٢]، حتى أيأستني الخواطر، وأخلفتني المواطر؛ إلا زِبْرِجاً[٣] يُعْقِب جواداً، وبَهْرَجاً[٤] لا يحتمل انتقاداً؛ وأنّى لمثلي والقريحة مُزْجَاة، والبضاعةُ مُزْجاة[٥] ـ ببراعة الخطاب، وبزاعة[٦] الكتّاب. ولولا دروسُ[٧] معالم البيان، واستيلاءُ العفاء[٨] على هذا الشأن، لما فاز لمثلي فيه قِدْح، ولا تَحصَّل لي في سوقه رِبح؛ لكنه جوٌّ خال، ومضمار جُهّال؛ وهي حكمة اللّه في الخلق، وقسمته للرزق. وأنا ـ أعزّك اللّه ـ أربأ بقدر الذخيرة، عن هذه النُّتَفِ الأخيرة، وأرى أنها قد بلغت مداها، واستوفت حلاها؛ وأنا أخشى القَدْحَ في اختيارك، والإخلال بمختارِك. وعلى ذلك فواللّه ما من عادتي أن أثبت ما أكتب في رسمٍ يُنقل، ولا في وضع المراتب عندنا مُخاطَب يُتحفَّزُ له ويُحتفَل؛ وإنما هو عَفْوُ فِكر، ويسيرُ ذِكر.

«وعُذراً ـ أعزك اللّه ـ فإني خططت ما خططته والنومُ مُغازل، والقُرُّ[٩] منازل، والريح تلعبُ بالسِّراج، وتصول عليه صَوْلةَ الحجّاج[١٠]، فَطوراً تُسدِّده سِناناً، وتارة تُحرّكه لساناً؛ وآونة تطويه حُبابةً، وأخرى تنشره ذُؤابةً. وتُقيمه إبْرة لهَب، وتعطفه بُرَةَ ذَهب[١١]، أو حُمَةَ[١٢] عَقْرَب. وتُقوّسُهُ حاجبَ فتاة، ذات غَمزات، وتُسلِّطه على سَليطه، وتُزيله عن خَليطِه؛ وتَخْلعُه نَجْماً، وتمدّه رَجْماً، وتسلّ روحه من ذبالهِ،

---

(١) الإهابة: من أهاب به: دعاه إلى العمل، أو إلى تركه. والمهابة: من هابه هَيْباً ومهابةً: أجلّه وعظّمه، أو حذره وخافه.
(٢) الاسترابة: من استراب به: رأى منه ما يريبه، والرَّيْبُ: الشَّكُّ والظَّنُّ والتُّهْمَة.
(٣) الزِّبْرِجُ: الحلية والزينة من وَشي أو جوهر أو نحو ذلك، أو الذهب، أو السَّحاب.
(٤) البَهْرَجُ: الباطل، أو المباح.
(٥) المزجاة: القليلة، ومنه: زجا الشيء: راج، وزجاه وأزجاه: ساقه ودفعه أو روّجه. وفي التنزيل العزيز: ﴿**جِئْنَا بِبِضَاعَةٍ مُزْجَاة**﴾ [يوسف: ٨٨]، أي: مدفوعة، يدفعها كلّ من رآها لرداءتها، وكانت دراهم زيوفاً، أو غيرها.
(٦) بَزَعَ الكاتب وغيره: صار جريئاً على الكلام، أو صار ظريفاً كَيِّساً.
(٧) دَرَسَ الشيء: زال وامّحى أثره.
(٨) العفاء: الزوال.
(٩) القُرُّ: البَرْدُ.
(١٠) الحَجّاج: هو الحجّاج بن يوسف الثقفي، أحد كبار القادة الأمراء الشجعان في عهد بني أمية. عُرِف بشدته وقسوته وكثرة سفكه للدماء. توفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م. (الأعلام، الزركلي: ٢/ ١٦٨).
(١١) البُرَةُ: حلقة من ذهب أو غيره، تضعها المرأة في أنفها للزينة.
(١٢) الحُمَةُ: سُمُّ كلّ شيء يَلْدَغ أو يَلْسَع، أو الإبرة التي تضرب بها العقرب والزنبور ونحو ذلك.

وتُعيده إلى حاله. وربما نَصَبتْه أذُنَ جَوَاد، ومَسَختْه حَدَقَ جَراد، ومَشَقتْه حُروفاً بِرَقّ، بِكَفٍّ ودقّ. ولثمتْ بِسَناهُ قِنْدِيلَه، وألقتْ على أعطافه مِنْدِيلَه. فلا حظَّ منه للعين، ولا هداية في الطِّرس لليدين؛ والليلُ زَنجيُّ الأديم[١]، تِبريُّ النجوم؛ قد جَلَّلنا ساجُه[٢]، وأغرقتْنا أمواجُه؛ فلا مَجالَ لِلَحْظٍ، ولا تعارُف إلا بِلَفْظٍ. لو نظرتْ فيه الزرقاء لاكتحلتْ، أو خُضِبتْ به الشَّيبةُ لما نَصَلتْ[٣]؛ والكلبُ قد صافح خَيْشومُه ذَنَبَه، وأنكر البيتَ وطُنُبَه[٤]، والتوَى التواء الحُباب[٥]، واستدار استدارةَ الحَباب[٦]. وجَلده الجليد، وصعَّد أنفاسَه الصَّعيد؛ فَحِماه مُباح، ولا هريرَ[٧] ولا نُباح. والنار كالرَّحيق، أو كالصديق. كلاهما عَنقاءُ مُغرِب، أو نجم مغرب. استوى الفَضْل، ولك في الإغضاءِ الفَضْل؛ والسلام».

* * *

ولأبي عبد اللّه هذا ديوان رسائل يدور بأيدي أدباء أهل الأندلس، قد جعلوه مثالاً يحتذونه، ونصبوه إماماً يقتفونه؛ منعني من إيراد ما أختار له من ذلك، خَوْفُ الخروج إلى التطويل المملّ، والإكثارِ المخلّ.

فلم يزل أبو عبد اللّه هذا وأخوه كَاتِبيْن لأمير المسلمين، إلى أن أَخَّر أميرُ المسلمين أبا مَرْوَان عن الكتابة، لِمَوْجِدةٍ كانت منه عليه؛ سببها أنه أمره وأخاه أبا عبد اللّه أن يكتب عنه إلى جند بَلَنسِيَة، حين تخاذلوا وتواكلوا حتى هزمهم ابن رذمير ـ لعنه اللّه ـ هزيمةً قبيحةً، وقَتَل منهم مَقْتلةً عظيمةً؛ فكتب أبو عبد اللّه رسالته المشهورة في ذلك؛ وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبةً أن يحفظوها، أحسنَ فيها ما شاء، منعني من إيرادها ما فيها من الطول. وكتب أبو مَرْوَان رسالةً في ذلك الغرض، أفحش فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة؛ فمن فصولها قوله: «أيْ بني اللئيمة، وأعيارَ الهزيمة، إلامَ يُزَيِّفكم الناقد، ويردّكم الفارس الواحد؟ فليت لكم بارتباط الخيول ضأناً لها حالب قاعد. لقد آن أن نُوسِعَكُم عقاباً، وألَا تَلُوثوا[٨]

(١) زَنجيُّ الأديم: أسود مُظلم.
(٢) السَّاج: الطيلسان الضخم الغليظ، أو خشب يُجلب من الهند، أو شجر عظيم الحجم، يتغطى الرجل بِوَرَقةٍ منه فتكنُّه من المطر، وله رائحة طيبة.
(٣) نَصَلَ اللون نَصْلاً ونُصولاً: زال، ويقال: نصل الشعر أو الثوب: زال عنه خضابه أو لونه.
(٤) الطُّنُب: حَبْلٌ يُشَدُّ به الخباء والسُّرادق ونحوهما.
(٥) الحُبابُ: الحَيَّة.
(٦) الحَبابُ: طرائق تظهر على وجه الماء، أو الفقاقيع التي تطفو على وجهه.
(٧) الهرير: صوت الكلب دون النباح.
(٨) لَاثَ العِمَامة ونحوها: لَفَّها وعَصَبَها.

على وجهٍ نقاباً[١]، وأن نُعيدكم إلى صحرائكم، ونُطَهِّر الجزيرة مِنْ رحضائكم[٢]...».

في أمثالٍ لهذا القول؛ فأحنق ذلك أميرَ المسلمين وأخَّره عن كتابته، وقال لأبي عبد اللّه أخيه: كُنَّا في شكٍّ من بُغض أبي مَرْوَان للمرابطين، والآن قد صَحَّ عندنا. فلما رأى ذلك أبو عبد اللّه استعفاه فأعفاه، ورجع إلى قُرْطُبَة بعدما مات أخوه أبو مَرْوَان بِمَرَّاكُش. وأقام هو بِقُرْطُبَة إلى أن اسْتُشهِدَ في دارِه ـ رحمه اللّه ـ أولَ الفتنة الكائنة على المرابطين.

[اختلال أحوال المرابطين]

واختلت حالُ أمير المسلمين رحمه اللّه بعد الخمسمائة اختلالاً شديداً، فظهرت في بلاده مَنَاكر[٣] كثيرة؛ وذلك لاستيلاء أكابر المرابطين على البلاد، ودعواهم الاستبداد؛ وانتهوا في ذلك إلى التصريح؛ فصار كلٌّ منهم يصرّح بأنه خير من عليٍّ أمير المسلمين، وأحقُّ بالأمر منه!

واستولى النساء على الأحوال، وأُسندت إليهن الأمور، وصارت كلُّ امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملةً على كل مفسدٍ وشِرِّير وقاطع سبيل وصاحب خمرٍ وماخور[٤]؛ وأميرُ المسلمين في ذلك كله يتزيَّد تغافله، ويقوى ضعفُه؛ وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج؛ وعكف على العبادة والتبتُّل؛ فكان يقوم الليل ويصوم النهار، مشتهراً عنه ذلك؛ وأهمل أمور الرعية غاية الإهمال؛ فاختلَّ لذلك عليه كثيرٌ من بلاد الأندلس، وكادت تعود إلى حالها الأول، لا سيما منذ قامت دعوة ابن تومرت بالسُّوس.

---

(١) النِّقابُ: القناع تجعله المرأة على مارن أنفها تستر به وجهها.
(٢) الرُّحَضَاءُ: العرق الكثير يغسل الجلد.
(٣) المناكر: المنكرات.
(٤) الماخور: حانوت أو مكان، يُشرب فيه الخمر، وتُمارس فيه أنواع الفجور.

ذكر قيام مُحمَّد بن تُومَرْت المُتَسمّي بالمَهْدي(*)

[وبدء أمر المُوحّدين بالمغرب والأندلس]

ولما كانت سنة ٥١٥ قام بِسُوس مُحمَّد بن عبد اللّٰه بن تُومَرْت في صورةِ آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر.

ومُحمَّد هذا رجلٌ من أهلِ سُوس، مَولده بها بِضَيْعَة منها تُعرف بـ«إيجِلِي أَنْ وارْغَن»، وهو من قبيلة تُسمَّى «هَرْغَة»، من قوم يُعرفون بـ«إيسَرِغِينَنْ»، وهم الشُّرفاءُ بلسان المصامدة، وَلِمُحمَّد بن تُومَرْت نسبةٌ متصلةٌ بالحَسَن بن الحَسَن بن عليّ بن أبي طالب وُجِدَتْ بخطِّه[١]. وكان قد رحلَ إلى المشرق في شهور سنة ٥٠١[٢] في طلب العلم، وانتهى إلى بغداد، ولقي أبا بَكْر الشَّاشي[٣]، فأخذ عليه شيئاً من أصول الفقه وأصول الدين، وسمع الحديث على المُبارك بن عبد الجبَّار[٤] ونظرائه من المحدِّثين. وقيل: إنه لقي أبا حَامِد الغزالي بالشام أيام تَزهُّده، فاللّٰه أعلم.

وحُكِيَ أنه ذُكر للغزالي ما فَعَل أميرُ المسلمين بكتبه التي وَصلتْ إلى المغرب، من إحراقها وإفسادها، وابنُ تُومَرْتَ حاضرٌ ذلك المجلس، فقال الغزالي حين بلغه ذلك: «ليذهبنّ عن قليل مُلْكُه، وليُقتلنّ ولدُه، وما أحسب المتولي لذلك إلا حاضراً مجلسَنا!» وكان ابنُ تُومَرْت يُحدِّث نفسه بالقيام عليهم؛ فقوي طمعُه.

(*) ترجمته في: وفيات الأعيان: ٥/ ٤٥؛ شذرات الذهب: ٤/ ٧٠؛ الأعلام: ٦/ ٢٢٨.

(١) هو وفقاً لما ورد في وفيات الأعيان: «محمد بن عبد اللّٰه بن عبد الرحمن بن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن صفوان بن سفيان بن جابر بن يحيى بن عطاء بن رياح بن يسار بن العباس بن محمد بن الحسن بن علي بن أبي طالب».

(٢) كان عمره في تلك الآونة ست عشرة سنة.

(٣) هو أبو بكر، محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي القفال الفارقي المستظهري: رئيس الشافعية بالعراق في عصره. توفي سنة ٥٠٧هـ/ ١١١٤م. (الأعلام، الزركلي: ٥/ ٣١٦).

(٤) هو أبو الحسن، المبارك بن عبد الجبار بن أحمد الأزدي، البغدادي، الصيرفي، المعروف بابن الطيوري: عالم بالحديث، ثقة، مُكثر. توفي سنة ٥٠٠هـ/ ١١٠٧م. (الأعلام، الزركلي: ٥/ ٢٧١).

وكَرَّ راجعاً إلى الإسكندرية، فأقام بها يختلف إلى مجلس أبي بَكْر الطُّرْطُوشيِّ الفقيه[١]. وجرت له بها وقائعُ في معنى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أفضتْ إلى أن نفاه مُتَولِّي الإسكندرية عن البلاد؛ فركب البحر؛ فبلغني أنه استمر على عادته في السفينة من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى أن ألقاه أهلُ السفينة في البحر. فأقام أكثر من نصف يوم يجري في ماء السفينة لم يُصِبْه شيء. فلما رأوا ذلك من أمره أنزلوا إليه من أخذه من البحر، وعَظُم في صدورهم، ولم يزالوا مُكرِمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب «بِجَاية»، فأظهر بها تدريس العلم والوعظ، واجتمع عليه الناس، ومالت إليه القلوب، فأمره صاحب «بجاية» بالخروج عنها حين خاف عاديته، فخرج منها متوجهاً إلى المغرب. فنزل بضيعةٍ يقال لها «ملالة»، على فرسخ من «بجاية»؛ وبها لقيه عبد المُؤمن بن عليّ، وهو إذ ذاك متوجهٌ إلى المشرق في طلب العلم؛ فلما رآه مُحمَّد بن تُومَرْت، عرفه بالعلامات التي كانت عنده. وكان ابن تُومَرْت هذا أَوْحَدَ عصره في عِلم خطِّ الرَّمْل، مع أنه وقع بالمشرق على مَلاحِمَ من عملِ المنجِّمين وجُفورٍ[٢] من بعض خزائن خلفاء بني العباس؛ أوصله إلى ذلك كلِّه فَرْطُ اعتنائه بهذا الشأن وما كان يحدِّث به نفسه.

وبلغني من طرق صِحَاحٍ أنه لما نزل «ملالة» ـ الضيعةَ التي تقدم ذكرها ـ سُمِعَ وهو يقول: ملالة! ملالة! يكَرِّرها على لسانه يتأمل أحرفها، وذلك لما كان يراه أن أمره يقوم من موضع في اسمه ميم ولامان؛ فكان ـ كما ذكرنا ـ إذا كرَّرها يقول: ليست هي!

وأقام بهذه الضيعة أشهراً، وبها مسجد يُعرف به، وهو باقٍ إلى اليوم، لا أدري أبُني على عهده أو بعده.

. . . فاستدعى عبدَ المُؤمِن وخلا به، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه، فَتسمَّى له وانتسب. وسأله عن مقصده فأخبره أنه راحل في طلب العلم إلى المشرق. فقال له ابن تُومَرْت: أوَ خَيْرٌ من ذلك؟ قال: وما هو؟ قال: شرف الدنيا والآخرة؛ تصحبني وتُعينني على ما أنا بصدده، من إماتة المنكر وإحياء العلم وإخماد البدع. فأجابه عبد المؤمن إلى ما أراده.

---

(١) هو أبو بكر، محمد بن الوليد بن محمد بن خلف القرشي الفهري الأندلسي الطرطوشي: حافظ، فقيه، أديب، من أهل طَرْطُوشة بالأندلس. تنقل في بلاد المشرق، وأقام في الإسكندرية يُدرِّس الحديث والفقه إلى أن توفي سنة ٥٢٠هـ/١١٢٦م. (بغية الملتمس، الضبي: ١٣٥).

(٢) الجفور: جمع الجَفْر: جِلْدٌ كتب فيه الإمام علي بن أبي طالب كرَّم الله وجهه، أو جعفر الصادق، الأحداث قبل وقوعها. وعلم الجفر: علم يُبْحَثُ فيه عن الحروف من حيث دلالاتها على أحداث العالم. (المعجم الوسيط: ١/١٢٦).

وأقام ابن تُومَرْت بملالة أشهراً، ثم رحل عنها، وصحبه من أهلها رجل اسمه عبد الواحد، يعرفه المَصامدةُ بعبد الواحد الشَّرقي، وهو أول من صحبه بعد عبد المُؤمِن؛ وخرج متوجِّهاً إلى المغرب.

وقيل: إنه إنما لقي عبد المُؤمِن بموضعٍ يُعرف بِـ«فَنزارَةَ» من بلاد «مَتّيجة»، وعبدُ المُؤمِن يُعلِّم صبيان القرية المذكورة؛ فسأله ابنُ تُومَرْت صُحْبتَه والقراءةَ عليه وإعانته، بعد أن عرفه بالعلامات كما قد تقدم.

وبهذه القرية له حكايةٌ طريفة؛ وذلك أنه رأى وهو بها في المنام كأنه يأكل مع أمير المسلمين عليّ بن يُوسُف في صَحْفَةٍ[١] واحدة؛ قال: ثم زاد أكلي على أكله وأحسست من نفسي شَرَهاً إلى الطعام. ولم يزل ذلك بي إلى أن اختطفت الصَّحْفَة من بين يديه وانفردت بها! فلما انتبه قصَّ الرؤيا على رجلٍ كان يقرأ عليه، اسمه عبد المنعم بن عَشير، يُكْنَى أبا مُحمَّد، كان يقرأ عليه؛ فلما أتى على آخرها، قال: يا بنيّ، يا عبدَ المُؤمِن، هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك؛ إنما هي لرجل ثائر، يثور على أمير المسلمين فيشاركه في بعض بلاده ثم يغلبه بعد ذلك عليها كلها وينفرد بمملكتها!

واتفق له فيها أيضاً من العجائب التي تَثْبُتُ في باب الكلِم الموافِقة للقدَر، أنّ رجلاً من وجوه أصحاب الملك العزيز بن المنصور الصِّنهاجي صاحب «بجاية» و«القلعة»، وَجَد عليه الملكُ العزيز، فاشتدّ خوفه، فهرب منه إلى هذه الضيعة التي كان فيها عبدُ المُؤمِن، فكان معه بها يعلّم الصبيان. وانتهت حال ذلك الرجل إلى غاية الإقلال. ثم اتفق أن صاحبه رضي عنه، فبلغه ذلك، فسار إلى «بجاية»، فدخل عليه، فسأله: أين كنت في هذه الأيام؟ فأخبره بقصته، وكيف كان الصبيان يُحَيُّونَهُ بالكِسَر! فضحك وقال: الضيعةُ لك وما والاها! وأمر له بمالٍ ومركبٍ وثيابٍ، فخرج الرجل إلى الضيعة في خيلٍ ورجالٍ معه، وخرج إليه أهلها يتلقَّونه؛ فأتى الصبيانُ عَبْدَ المؤمن وهو قاعد بفناء المسجد، فقالوا له: أتعرف من هذا الذي اهتزّت له هذه الأرض؟ قال: لا! قالوا: هو فلان صاحبك الذي كان يُعلّمنا معك! فقال: إن كانت حالة فلان انتهت إلى هذا، فلا بدّ أن أكون أنا غداً أمير المؤمنين! فكان الأمر كما قال، ووافقت كلمتُه القدر.

وخرج ابن تُومَرْت كما ذكرنا متوجهاً إلى المغرب، حتى أتى مدينة تِلِمْسَان، فأقام بمسجدٍ بظاهرها يعرف بـ«العُبَّاد» جارياً على عادته، وكان قد وضع له في

(١) الصَّحْفَةُ: إناء من آنية الطعام، الجمع: صِحَاف.

النفوس هيبة وفي الصدور عظمة، فلا يراه أحدٌ إلا هابه، وعَظُم أمره؛ وكان شديد الصمت كثير الانقباض؛ إذا انفصل عن مجلس العلم لا يكاد يتكلم بكلمة...

أخبرني بعض أشياخ تِلِمْسَان عن رجلٍ من الصالحين كان معتكفاً معه بمسجد العبّاد، أنه خرج عليهم ذات ليلةٍ بعد ما صلّى العتمة، فنظر إليهم وقال: أين فلان؟ لرجل كان يصحبهم؛ فأخبروه أنه مسجون، فقام من وقته ودعا برجل منهم يمشي بين يديه، حتى أتى باب المدينة، فدقَّ على البوّاب دقًّا عنيفاً، واستفتح؛ فأجابه البواب إلى الفتح بسرعة من غير تلكؤ ولا إبطاء، ولو استفتح أمير البلد لتعذر ذلك عليه؛ ودخل حتى أتى السجن، فابتدر إليه السّجّانون والحرس يتمسحون به، ونادى: يا فلان! باسم صاحبهم؛ فأجابه؛ فقال: اخرج! فخرج والسجانون ينظرون إليه كأنما أُفرِغ عليهم الماءُ الحارّ، وخرج بصاحبه حتى أتى المسجد. وكانت هذه عادتَه في كل ما يريد، لا يتعذر عليه مُراد، ولا يمتنع عليه مطلوب، قد سُخِّرت له الرعية، وذُلِّلت له الجبابرة.

ولم يزل مقيماً بِتِلِمْسَان وكلُّ مَن بها يُعظِّمُه من أميرٍ ومأمورٍ، إلى أن فَصَل عنها بعد أن استمال وجوهَ أهلها وملك قلوبها؛ فخرج قاصداً مدينة فاس؛ فلما وصل إليها أظهر ما كان يظهره، وتحدّث فيما كان يتحدّث فيه من العلم. وكان جلُّ ما يدعو إليه علم الاعتقاد على طريق الأشْعَرِيّة[١]. وكان أهل المغرب ـ على ما ذكرنا ـ ينافرون هذه العلوم، ويُعادون من ظهرتْ عليه، شديداً أمرُهم في ذلك؛ فجمع والي المدينة الفقهاءَ وأحضره معهم، فجرتْ له مناظرة كان له الشفوف[٢] فيها والظهور؛ لأنه وجد جوّاً خالياً، وألفى قوماً صِياماً عن جميع العلوم النظرية خلا علمَ الفروع. فلما سمع الفقهاء كلامه أشاروا على والي البلد بإخراجه لئلا يفسد عقول العوام؛ فأمره والي البلد بالخروج؛ فخرج متوجِّهاً إلى مَرَّاكُش.

[ابن تُومَرْت في حضرة ابن تَاشُفين]

وَكُتِبَ بخبره إلى أمير المسلمين عليّ بن يُوسُف؛ فلما دخلها أُحْضِرَ بين يديه، وجمع له الفقهاء للمناظرة؛ فلم يكن فيهم من يعرف ما يقول، حاشا رجلٍ من أهل الأندلس اسمه مَالك بن وُهَيْب[٣] كان قد شارك في جميع العلوم، إلا أنه كان لا يظهر

---

(١) الأشعرية: جماعة تُنسب إلى أبي الحسن الأشعري، الآتي ذكره.

(٢) الشُّفوف: التَّفوُّق، يقال: أشَفَّ عليه: فَاقَهُ.

(٣) ذكره الضبي في بغية الملتمس (٤٦٤) قال: «فقيه حافظ مشهور، حسن الخطّ». ولم يذكر تاريخ وفاته.

إلا ما يَنفُقُ في ذلك الزمان. وكانت لديه فنون من العلم، رأيت له كتاباً سمّاه «قُراضة الذهب، في ذكر لئام العرب» ضمّنه لئام العرب في الجاهلية والإسلام، وضمَّ إلى ذلك ما يتعلق به من الآداب؛ فجاء الكتاب لا نظيرَ له في فنه؛ رأيته في خِزانة بني عبد المُؤمِن.

ولمالك بن وُهَيبٍ هذا تَحَقُّقٌ بكثيرٍ من أجزاء الفلسفة؛ رأيت بخطه كتاب «الثمرة» لبطليموس في الأحكام، وكتاب «المَجِسْطِي في علم الهيئة»، وعليه حواشٍ بتقييده أيام قراءته إياه على رجلٍ من أهل قُرْطُبَة اسمه حَمَد الذهبيّ.

ولما سمع مالكٌ هذا كلامَ مُحمَّد بن تُومَرْت، استشعر حِدَّةَ نفسه وذكاءَ خاطره واتساعَ عبارته؛ فأشار على أمير المسلمين بقتله، وقال: هذا رجلٌ مُفسِدٌ لا تُؤمَنُ غائلتُه ولا يَسمعُ كلامَه أحدٌ إلا مال إليه، وإن وقع هذا في بلاد المصامدة ثار علينا منه شرٌّ كثير! فتوقف أمير المسلمين في قتله، وأبى ذلك عليه دينُه. وكان رجلاً صالحاً مُجابَ الدعوة، يُعَدُّ في قُوَّام الليل وصُوَّام النهار، إلا أنه كان ضعيفاً مُستضعَفاً، ظهرت في آخر زمانه مناكر كثيرة وفواحش شنيعة، من استيلاء النساء على الأحوال واستبدادِهن بالأمور، وكان كل شِرِّير من لصٍّ أو قاطع طريقٍ ينتسب إلى امرأة قد جعلها ملجأً له وَوَزَراً على ما تقدم...

... فلما يئس مالكٌ مما أراده من قتل ابن تُومَرْت، أشار عليه بِسَجْنه حتى يموت؛ فقال أمير المسلمين: عَلَامَ نأخذ رجلاً من المسلمين نسجنه ولم يتعيّن لنا عليه حق؟ وهل السجنُ إلا أخو القتل؟ ولكن نأمره أن يخرج عنّا من البلد وليتوجهْ حيث شاء!

فخرج هو وأصحابه متوجهاً إلى «سُوس»؛ فنزل بموضع منها يُعْرَفُ بِـ«تِينمَلّ».

[بدء دعوة الموحدين]

من هذا الموضع قامت دعوته، وبه قبرُه، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير، من غير أن يُظهر إمرةً ولا طِلْبَةَ مُلْك. وألّف لهم عقيدةً بلسانهم. وكان أفصحَ أهل زمانه في ذلك اللسان. فلما فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشرِبت قلوبُهم مَحبتَه، وأجسامهم طاعتَه. فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غَيْرَ، ونهاهم عن سفكِ الدماء ولم يأذن لهم فيها. وأقاموا على ذلك مدة. وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل. وجعل يذكر المهدي وَيُشوِّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنّفات. فلما قرّر

في نفوسهم فضيلةَ المهديِّ ونسبه ونَعْته، ادَّعى ذلك لنفسه، وقال أنا مُحمَّد بن عبد اللَّه... ورفع نسبه إلى النبي ﷺ؛ وصرَّح بدعوى العِصْمَة لنفسه، وأنه المهديُّ المعصوم. وروى في ذلك أحاديث كثيرة، حتى استقر عندهم أنه المهديُّ، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحابُ رسول اللَّه ﷺ رسولَ اللَّه.

ثم صنف لهم تصانيف في العلم، منها كتاب سمّاه «أعزّ ما يُطلب»، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري[١] في أكثر المسائل، إلّا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها وفي مسائل قليلة غيرها. وكان يُبطن شيئاً من التشيُّع، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شيء.

[طبقات الموحدين]

وصنَّف أصحابه طبقاتٍ؛ فجعل منهم «العشرة»، وهم المهاجرون الأولون الذين أسرعوا إلى إجابته، وهم المُسمَّون بـ«الجماعة» وجعل منهم «الخمسين»، وهم الطبقة الثانية. وهذه الطبقات لا تجمعها قبيلة واحدة، بل هم من قبائل شتى، وكان يسميهم «المؤمنين»، ويقول لهم: ما على وجه الأرض مَنْ يُؤمن إيمانكم. وأنتم العصابة المَعْنِيُّون بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا تزال طائفةٌ بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرُّهم من خَذَلهم حتى يأتي أمر اللَّه»، وأنتم الذين يفتح اللَّه بكم فارسَ والروم، ويَقتل الدَّجَّال، ومنكم الأمير الذي يُصلِّي بِعيسَى بن مَرْيَم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة. هذا مع جزئياتٍ كان يخبرهم بها وَقَع أكثرها، وكان يقول: لو شئت أن أعدَّ خلفاءكم خليفةً خليفة...

فزادت فتنة القوم به، وأظهروا له شدةَ الطاعة.

وقد نظم هذا الذي وصفناه من قول ابن تُومَرْت في تخليد هذا الأمر، رجلٌ من أهل الجزائر ـ مدينةٍ من أعمال بجاية ـ وَفَدَ على أمير المؤمنين أبي يعقوب وهو بتينملّ؛ فقام على قبر ابن تُومَرْت بمحضرٍ من الموحِّدين وأنشد قصيدة أولها[**من الطويل**]

سَلامٌ على قَبْرِ الإمام المُمجَّدِ   سُلالةِ خَيْرِ العالمين مُحمَّدِ

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن إسماعيل بن إسحاق الأشعري، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري: إمام، متكلم، مجتهد، وإليه تُنسب الأشعرية. ولد في البصرة، وتوفي ببغداد سنة ٣٢٤هـ/ ٩٣٦م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ٢٦٣).

وَمُشْبِهه في خَلْقِه ثم في اسْمِهِ وفي اسْم أبيهِ والقَضاءِ المُسدَّدِ[1]
وَمُحْيي عُلومِ الدينِ بَعْدَ مَماتِها وَمُظْهِرِ أسرارِ الكتابِ المُسدَّدِ
أتتنا به البُشْرَى بأنْ يَمْلأ الدُّنا بِقِسْطٍ وَعَدْلٍ في الأنامِ مُخلَّدِ[2]
ويَفْتَتِحُ الأمصارَ شَرْقاً ومَغْرِباً وَيملِكُ عُرْباً مِنْ مُغيرٍ وَمُنْجِدِ[3]
فَمِنْ وَصْفِهِ: أَقْنَى وأَجْلَى وأنه عَلاماتُه خَمسٌ تَبينُ لِمُهتدي:[4]
زمانٌ، واسمٌ، والمكانُ، ونسبةٌ وفعلٌ له في عِصْمةٍ وتأيُّدِ[5]
وَيلبثُ سَبعاً أو فَتِسْعاً يَعيشُها كذا جاء في نصٍّ من النقلِ مُسْنَدِ
فَقدْ عاشَ تِسعاً مثلَ قولِ نبيِّنا فَذَلِكُمُ المهديُّ باللَّه يَهْتَدي
وَتتبعهُ لِلنصرِ طائفةُ الهُدَى فَأكْرِمْ بهم إخوانَ ذي الصِّدْقِ أحمدِ
هي الثُّلةُ المذكور في الذكرِ أَمْرها وَطائفةُ المهديِّ بالحق تَهْتدي[6]
وَيَقْدُمُها المنصورُ والناصرُ الذي له النصرُ حزبٌ إذ يروحُ ويغتدي
هُو المُنتقى مِنْ قَيْسِ عَيلانَ مَفْخراً ومِنْ مُرَّةٍ أهلِ الجلالِ المُوطَّدِ[7]
خَليفةُ مَهْديِّ الإله وَسيْفُه ومَنْ قَدْ غدا بالعلم والحلم مُرْتَدي
بِهمْ يَقمَعُ اللَّه الجبابرةَ الأولى يَصُدُّون عنْ حُكْمِ مِنَ الحقِّ مُرشدِ[8]
ويَقطعُ أيامَ الجبابرةِ التي أبادتْ مِنَ الإسلامِ كلَّ مُشيَّدِ[9]
فَيغْزونَ أعرابَ الجزيرة عَنْوةً ويَغْرُون منها فارساً وكأنْ قَدِ[10]
وَيَفْتَتِحُون الرومَ فَتْحَ غَنيمةٍ وَيَقْتَسِمونَ المالَ بالتّرسِ عَنْ يَدِ

---

(١) المُسَدَّدُ: من سَدَّدَ اللَّه فلاناً: قَوَّمَهُ وَوفَّقَهُ لِلسّداد، والسَّداد: الاستقامة والقَصْد، أو الصواب.
(٢) القِسْطُ: العَدْلُ.
(٣) المُغير: الذي يأتي الغور، وهو المنخفض من الأرض. المُنجد: الذي يأتي النَّجْد، وهو المرتفع من الأرض.
(٤) الأقنى: الذي ارتفعت قصبة أنفه وضاق منخره.
(٥) العصمة: يقال: عصم اللَّه فلاناً من الشَّرِّ أو الإثم عِصْمَةً: حفظه ووقاه ومنعه. التَّأيُّد: التَّقَوِّي، يقال: تأيَّد فلان: تَقَوَّى.
(٦) الثُّلَّةُ: الجماعة من الناس.
(٧) الجلال والجلالة: العظمة. المُوطَّدُ: المُثبَّتُ، المُقَوَّى.
(٨) يقمعُ: يقهر وَيُذلِّل. يَصُدُّون: يُعرضون.
(٩) المُشَيَّدُ: يقال: شَيَّد البناء شَيْداً: أعلاه ورفعه.
(١٠) عَنْوَةً: قهراً وقَسْراً وغلبةً.

وَيَغْدُون للدَّجَّالِ يَغْزُونَهُ ضُحَى يُذِيقُونه حَدَّ الحُسام المُهنَّدِ[1]
وَيَقْتُلهُ في بابِ لُدٍّ وَتَنْجَلي شُكوكٌ أمالتْ قلبَ مَنْ لم يُوحِّدِ[2]
وَينزلُ عِيسَى فِيهُم وأَميرُهم إمامٌ فَيدْعُوهمْ لِمحرابِ مَسْجِدِ
يُصلِّي بهم ذاك الأميرُ صَلاتَهُمْ بِتَقْديمِ عيسَى المُصْطَفى عَنْ تَعمُّدِ
فَيمْسَحُ بالكَفَّيْنِ مِنْهُ وَجُوهَهُمْ وَيُخبِرُهُم حَقّاً بعزٍّ مُجَدَّدِ
وَما إنْ يزالُ الأمرُ فيهِ وَفِيهمُ إلى آخرِ الدَّهْرِ الطَّويلِ المُسَرْمَدِ[3]
فأبلغْ أميرَ المُؤمنين تَحيَّةً على النَّأي منِّي والودادِ المُؤكَّدِ
عَلَيْهِ سَلامُ اللَّه ما ذَرَّ شَارِقٌ وَمَا صدَر الوُرَّاد عَنْ وِرْدِ مَوْرِدِ[4]

وقد قيل: إن منشيء هذه القصيدة لم يحضر ذلك المشهد ولم ينشدها بنفسه؛ منعته عن ذلك الكُبرَة وبعدُ الشُّقَّة؛ وإنما أرسل بها فأُنشدت على قبر الإمام. وكان عمله إياها وعبد المُؤمِن حيّ؛ فاللَّه أعلم. وهي طويلة، هذا ما اخترت له منها، ولم أوردها في هذا الموضع لأنها من مختار الشعر، ولكن لموافقتها الفصل الذي قبلها.

ولم تزل طاعة المصامدة لابن تُومَرْت تكثر، وفتنتهم به تشتدّ، وتعظيمهم له يتأكّد، إلى أن بلغوا في ذلك إلى حدّ لو أُمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء. وأعانهم على ذلك وَهوَّنه عليهم ما في طِباعهم من خفّة سفكِ الدماء عليهم. وهذا أمرٌ جُبلت عليه فِطرَهُم واقتضاه ميلُ إقليمهم.

حكى أبو عُبيد البكري الأندلسي[5] ثم القُرطبي في كتابه الموسوم بـ «المسالك والممالك» عن رجالٍ، قال: أُهديت إلى الإسكندر فرسٌ ببعض بلاد الغرب لم تلد الخيل أسبق منها، لم يكن فيها عيبٌ إلا أنها لم يسمع لها صهيل قَط؛ فلما حلّ الإسكندر في تطوافه بجبال دَرَن، وهي بلاد المصامدة، وشربت تلك الفرس من مياهها، صهلت صَهلةً اصطكت منها الجبال؛ فكتب الإسكندر إلى الحكيم يخبره بذلك؛ فكتب إليه: أنها بلادُ شرٍّ وقسوة، فعجّل الخروج منها!

---

(١) الدَّجَّالُ: هو أعور الدَّجَّال، الذي يظهر في آخر الزمان. الحسام: السيف. المُهنَّد: المصنوع في الهند.
(٢) اللُّدّ: مدينة بفلسطين. تنجلي: تنكشف.
(٣) المُسَرْمَدُ: الدائم الذي لا ينقطع.
(٤) ما ذَرَّ شارقٌ: ما طلعت شمسٌ.
(٥) هو أبو عُبَيْد، عبد اللَّه بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي: مؤرخ، جغرافي، ثقة، أديب، من أهل الأندلس. توفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. (الصلة، ابن بشكوال: ٢٤٠).

فهذه حال بلاد القوم. وأما خفّة سفك الدماء عليهم فقد شهدتُ أنا منه أيامَ كَوْني بِسُوس ما قَضيت منه العجب.

[الحرب بين المرابطين والموحدين]

ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشاً عظيماً من المصامدة جُلُّهم من أهل تينملّ، مع من انضاف إليهم من أهل سُوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المُبدِّلين الذين تَسَمَّوا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر، وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم؛ فإن أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم، فقد أباحت لكم السُّنَّة قتالهم.

وأمَّر على الجيش عَبْدَ المُؤمِن بن عليّ، وقال: أنتم المؤمنون وهذا أميركم. فاستحق عبد المُؤمِن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مَرَّاكُش، فلقيهم المرابطون قريباً منها بموضع يدعى «البحيرة»، بجيشٍ ضخمٍ من سَراة لَمْتُونَة، أميرهم الزُّبَيْر بن عليّ بن يُوسُف بن تَاشُفِين، فلما تراءى الجمعان أرسل إليهم المصامدة يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تُومَرْت، فردّوا عليهم أسوأ ردّ، وكتب عبد المُؤمِن إلى أمير المسلمين عليّ بن يوسف بما عَهِدَ إليه مُحمَّد بن تُومَرْت؛ فردّ عليه أمير المسلمين يُحذِّره عاقبةَ مفارقة الجماعة، ويذكِّره اللَّه في سفك الدماء وإثارة الفتنة. فلم يردع ذلك عَبْدَ المُؤمِن، بل زاده طمعاً في المرابطين، وحقَّق عنده ضَعْفَهم. فالتقت الفئتان، فانهزم المصامدة، وقُتِل منهم خَلْقٌ كثير، ونجا عبد المُؤمِن في نفرٍ من أصحابه. فلما جاء الخبر لابن تُومَرْت قال: أليس قد نجَا عبدُ المُؤمِن؟ قالوا: نعم. قال: لم يُفقد أحد!

ولما رجع القوم إلى ابن تُومَرْت، جعل يُهَوِّن عليهم أمر الهزيمة، ويُقرّر عندهم أن قُتلاءهم شهداء؛ لأنهم ذابُّون[1] عن دين اللَّه، مُظْهِرون للسُّنَّة؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم، وحرصاً على لقاء عدوِّهم. ومن حينئذٍ جعل المصامدة يَشنُّون الغارات على نواحي مَرَّاكُش، ويقطعون عنها موادَّ المعايش وَمَوْصُولَ المرافق، ويقتلون ويَسْبُون، ولا يُبْقُون على أحد ممن قَدَروا عليه. وكثر الداخلون في طاعتهم والمُنْحَاشون[2] إليهم؛ وابن تُومَرْت في ذلك كُلِّه يكثر التزهُّد والتقلُّل، ويظهر التشبُّه بالصالحين، والتشدُّد في إقامة الحدود، جارياً في ذلك على السُّنَّة الأولى.

(١) ذَبَّ عن الشيء: دفع وطرد.

(٢) انحاش عنه، ومنه: ابتعد، وانحاش إليه: انضَمَّ.

أخبرني من رآه ـ ممن أثق به ـ يضرب الناس على الخَمر بالأكمام والنعال وعسب النَّخل[١]، متشبهاً في ذلك بالصحابة.

ولقد أخبرني بعض من شهده وقد أُتيَ برجلٍ سكران، فأمر بحدِّه، فقال رجلٌ من وجوه أصحابه يسمى يُوسُف بن سليمان: لو شدَّدنا عليه حتى يخبرنا من أين شربها لِنَحْسِم[٢] هذه العِلَّةَ من أصلها...! فأعرض عنه. ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه. فلما كان في الثالثة قال له: أرأيتَ لو قال لنا: شربتُها في دار يُوسُف بن سُلَيمان، ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كشف على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سَقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنةً وتعظيماً، إلى أشياء كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر.

ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تختلّ، وانتقاض دولتهم يَتزيَّد، إلى أن تُوفِّي ابن تُومَرْت المذكور في شهور سنة ٥٢٤ بعد أن أسس الأمور وأحكم التدبير ورَسَم لهم ما هم فاعلوه.

---

(١) العُسُبُ: جمع العسيب: جريدة النخل المستقيمة يُكْشَطُ خُوصُها.

(٢) حَسَمَ الشيءَ: قطعه.

ذكر ولاية عبد المُؤْمِن

ثم قام بالأمر من بعده عبدُ المُؤْمِن بن عليّ، وبايعه المصامدة، واتفقت على تقديمه الجماعة. وكان الذين سَعَوْا في تقديمه وَهيَّئوا ذلك له ثلاثة، وهم من أهل الجماعة: عُمر بن عبد اللَّه الصَّنْهَاجي المعروف عندهم بعمر أزناج، وعُمَر بن ومَزَال ـ الذي كان اسمه قبل هذا فَصْكَةَ، فسماه ابنُ تُومَرْت عُمَر، يَعْرفونه بِعُمَر إينْتي ـ وعبد اللَّه بن سُلَيْمان، من أهل تينملّ، من قبيلةٍ يقال لها «مَسَكَّالة»؛ ووافقهم على ذلك سائر أهل الجماعة وأهل خمسين، وباقي الموحدين.

[وصية ابن تُومَرْت]

وذلك أن ابن تُومَرْت قبل موته بأيام يسيرة، استدعى هؤلاء المُسمّين بالجماعة، وأهل خمسين؛ وهم ـ كما ذكرنا ـ من قبائل مفترقة لا يجمعهم إلا اسم المصامدة؛ فلما حضروا بين يديه قام وكان مُتكئاً، فحمد اللَّه وأثنى عليه بما هو أهله، وصلَّى على مُحمَّد نبيه ﷺ؛ ثم أنشأ يترضّى عن الخلفاء الراشدين رضوانُ اللَّه عليهم، ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في اللَّه لومةُ لائم، وذَكر من حَدِّ عمر رضي اللَّه عنه ابنَه في الخمر، وتصميمِه على الحقّ، في أشباه لهذه الفصول، ثم قال:

«. . . فانقرضت هذه العصابة ـ نضّر اللَّه وجوهها، وشَكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيِّها ـ وخبطت[1] الناسَ فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مُداهناً[2]؛ فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوهَ الناس إليهم. . .» في أشباه لهذا القول، إلى هلم جرًّا.

«ثم إن اللَّه ـ سبحانه وله الحمد ـ مَنّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخصّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيدِه، وقيَّض[3] لكم من ألفاكم ضُلَّالا لا تهتدون،

---

(١) خَبَط الشيءَ خَبْطاً: وَطِئَهُ وَطْئاً شديداً، وخبط القوم بسيفه: ضربهم.

(٢) داهن الرجلُ مداهنةً، ودهاناً: أظهر خلاف ما أضمر، وداهنَ فلاناً: خدعه وغشّه، أو داراه ولاينه.

(٣) قَيَّضَ اللَّه له كذا: قَدَّره له وهيَّأه، وقَيَّضَ اللَّه فلاناً لفلان: أتاحه له.

وعُمْياً لا تبصرون، لا تعرفون معروفاً، ولا تُنكرون منكراً، قد فَشَتْ فيكم البِدَع[١]، واستهوتكم الأباطيل، وزَيَّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أُنزّهُ لساني عن النطق بها، وأربأ[٢] بلفظي عن ذكرها؛ فهداكم اللّه به بعد الضلالة، وبَصَّركم بعد العَمَى، وجمعكم بعد الفُرقة، وأعزَّكم بعد الذِّلَّة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين[٣]، وسيُورثكم أرضَهم وديارهم؛ ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرتْه قلوبُهم؛ وما ربك بظلام للعبيد؛ فجدِّدوا للّهِ سبحانه خالصَ نيّاتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزكِّي به سَعْيَكُم، ويتقبَّلُ أعمالكم، وينشر أمركم. واحذروا الفُرقة واختلافَ الكلمة وشتاتَ الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوِّكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر اللّه الحقَّ على أيديكم. وإلا تفعلوا شَمِلكم الذلّ وعَمَّكم الصَّغارُ[٤]، واحتقرتكم العامةُ، فَتَخَطَّفتْكم[٥] الخاصة. وعليكم في جميع أموركم بمزجِ الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف؛ واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأمة إلّا على الذي صَلُحَ عليه أمرُ أوّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم؛ هذا بعد أن بَلَوْناه[٦] في جميع أحواله، من ليلِه ونهاره، ومدخلِه ومخرجه، واختبرنا سريرتَه وعلانيته، فرأيناه في ذلك كله ثَبْتاً في دينه، مُتبصِّراً في أمره، وإني لأرجو ألا يُخلف الظنّ فيه. وهذا المشار إليه هو عبد المُؤمِن؛ فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بَدَّل أو نَكَص[٧] على عقبه أو ارتاب في أمره، ففي الموحدين ـ أعزهم اللّه ـ بركةٌ وخيرٌ كثير، والأمرُ أمرُ اللّه يقلّده من شاء من عباده».

فبايع القوم عبد المُؤمِن، ودعا لهم ابن تُومَرْت، ومسح وجوههم وصدورهم واحداً واحداً؛ فهذا سبب إمرة عبد المُؤمِن رحمه اللّه. ثم تُوفِّي ابن تُومَرْت بعد عهده بيسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المُؤمِن.

---

(١) البِدَعُ: جمع البِدْعَة: ما اسْتُحْدِثَ في الدين وغيره.

(٢) رَبَأَ بفلان عن الشيء: رَفَعَهُ ونَزَّهَهُ، وربأ الشيءَ: أعلاه ورفعه.

(٣) المارقون: الخارجون عن الدين أو الجماعة.

(٤) الصَّغَارُ: الذلُّ والضَّعة والهوان.

(٥) تَخطَّف الشيءَ وخطفه: جذبه وأخذه بسرعة، أو استلبه واختلسه. وفي التنزيل العزيز: ﴿وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِم﴾ [العنكبوت: ٦٧]. أي: يُقتلون وَيُسلبون.

(٦) بلوناه: اختبرناه، امتحنّاه.

(٧) نكص: ارتدَّ وأحجم وتراجع.

فـصـل

[حياة عبد المُؤْمِن(*) وأعماله وعُمَّاله]

وعبد المُؤمِن هذا، هو عبد المُؤمِن بن عليّ بن عَلَويّ الكُوميّ، أمُّه حُرَّةٌ كومية أيضاً، من قوم يقال لهم: بنو مُجْبَر. مولده بضيعة من أعمال تِلمْسَان تُعرف بـ«تاجرا»؛ وقيل: إنه كان يقول إذا ذُكر كومية: لستُ منهم، وإنما نحن لِقَيْس عَيْلَان بن مُضر بن نِزَار بن مَعَدّ بن عَدنَان، ولكومة علينا حقُّ الولادة بينهم والمنشأ فيهم، وهم الأخوال. وهكذا أدركتُ من أولاده وأولادِ أولادِه ينتسبون لِقَيْس عَيْلَان بن مُضَر، وبهذا استجاز الخطباءُ أن يقولوا إذا ذكروه بعد ابن تُومَرْت: «قَسيمُه رضي اللّه عنه في النسب الكريم».

كان مولده في آخر سنة ٤٨٧ في أيام يُوسُف بن تَاشُفين؛ وكانت وفاته في شهر جمادى الآخرة سنة ٥٥٨، ومدة ولايته من حين استوسق(١) له الأمر بموت عليّ بن يُوسُف أمير المسلمين ـ في سنة ٣٧ على التحقيق ـ إحدى وعشرين سنة، إلى أن تُوفي في التاريخ المذكور.

وكان أبيض ذا جسم عَمم(٢) تعلوه حمرة، شديدَ سوادِ الشعر، معتدلَ القامة، وضيءَ الوجه، جَهْوَرِيَّ الصوت(٣)، فَصيحَ الألفاظ، جَزْلَ المنطق(٤). وكان مُحبَّباً إلى النفوس؛ لا يراه أحدٌ إلّا أحبّه بديهةً. وبلغني أن ابن تُومَرْت كان يُنشد كلما رآه: [من البسيط]

تَكَاملتْ فيك أخلاقٌ خُصِصْتَ بِها ... فَكُلُّنا بِكَ مَسْرُورٌ ومُغْتَبِطُ
فَالسِّنُّ ضَاحِكَةٌ، والكَفُّ مَانِحةٌ ... والصَّدْرُ مُنْشَرِحٌ، والوَجْهُ مُنْبَسِطُ

أولاده

كان له من الولد ستة عشر ذكراً، وهم: مُحمَّد، وهو أكبر ولده ووليُّ عهده، هو الذي

(*) ترجمته في: الأعلام: ٤/ ١٧٠.

(١) اسْتَوْسَقَ له الأمر: أمكنه، واستوسق الأمر: انتظم.

(٢) اعْتَمَّ الرجل: تَمّ وطال.

(٣) جَهْوَرَ فلان: رفع الصوت بالقول، ويقال: جَهْوَرَ الصوت، فالرجل جَهْوَرِيٌّ، والصوت كذلك.

(٤) الجزل من الكلام: القويّ الفصيح الجامع.

خُلع، وعليّ، وعُمَر، ويُوسُف، وعُثْمَان، وسُلَيْمان، ويَحْيَى، وإسماعيل، والحَسَن، والحُسَيْن، وعَبْد اللَّه، وعَبْد الرَّحْمٰن، وعِيسَى، ومُوسَى، وإبراهيم، ويَعْقُوب.

وزراؤه

وَزَرَ له في أول الأمر أبو حَفْص عُمَر أزناج، إلى أن استقر الأمرُ واستقلّ عبد المُؤمِن؛ فأجلى أبا حَفْصٍ هذا عن الوزارة ورَبأ[1] بِقَدْره عنها، إذ كان عندهم فوق ذلك؛ واستوزر أبا جَعْفَر أحمد بن عَطِيَّة، فجمع بين الوزارة والكتابة، فهو معدود في الكتاب والوزراء. فلم يزل عبد المُؤمِن يجمعهما له إلى أن افتتحوا «بجاية»، فاستكتب عبد المُؤمِن من أهلها رجلاً من نُبهاء الكتاب يقال له أبو القاسم القالمي ـ وسيأتي ذِكره في كُتَّابه ـ واستمرت وزارة أبي جَعْفَر إلى أن قتله عبد المُؤمِن في شهور سنة ٥٥٣ واستصفى أمواله. ثم وَزر له عبد السلام الكُومي، وكان يُدعى «المُقَرَّب»، لشدّة تقريب عبد المُؤمِن إياه، فاستمرت وزارة عبد السلام هذا إلى أن أرسل إليه عبد المُؤمِن مَن قَتله خنقاً في شهور سنة ٥٥٧. ثم وزر له ابنه عُمَر إلى أن تُوفِّي عبد المُؤمِن.

كُتَّابُه

أبو جَعْفَر أحمد بن عَطِيّة المذكور في الوزراء، كان قبل اتصاله بعبد المُؤمِن وفي الدولة اللَّمْتُونية، يكتب لعلي بن يُوسُف في آخر أيامه. وكتب عن تَاشُفين بن عليّ بن يُوسُف؛ فلما انقرض أمرهم هرب وغيَّر هَيئته وتشَبَّه بالجند، وكان محسناً للرَّمي، وكان في الجند الذين خرجوا إلى سُوس لقتال ثائر قام هناك؛ كان الأمير على هذا الجند أبو حَفْص عُمَر إينتي المتقدم الذكر في أهل الجماعة. فلما انهزم أصحاب ذلك الثائر وقُتل هو وانفضّت تلك الجموع، طلَب أبو حَفْص مَن يكتب عنه صورةَ هذه الكائنة إلى الموحدين الذين بِمرَّاكُش، فَدُلَّ على أبي جَعْفَر هذا ونُبِّهَ على مكانه، فاستدعاه، وكتب عنه إلى الموحدين رسالة في شرح الحال، أجاد في أكثرها ما شاء، منعني من رَسْمِها في هذا الموضع ما فيها من الطول؛ فلما بلغَت الرسالةُ عبد المُؤمِن استحسنها واستدعى أبا جَعْفَرٍ هذا واستكتبه، وزاده إلى الكتابة الوزارة؛ لِما رآه من شجاعة قلبه وحصافة عقله. فلم يزل وزيرَه كما ذكرنا إلى أن قتله في التاريخ الذي ذُكر. وكان سبب قتله ـ فيما بلغني ـ أنه كانت عنده بنت أبي بَكْر بن يُوسُف بن تَاشُفين، التي تُعرف بـ«بنت الصحراوية»؛ وأخوها يَحْيَى فارسُ المرابطين المشهورُ عندهم، يُعرف أيضاً بـ«يَحْيَى بن الصحراوية»؛ فحظي يحيى هذا عند الموحِّدين،

---

(١) رَبَأَ بالشيء: رفعه وَنَزَّهَهُ.

وقَوَّدُوه على من وَحَّد من لَمْتُونَة، ولم يَزَل وجيهاً عندهم مُكْرَماً لديهم ـ وكان خليقاً بذلك ـ إلى أن نُقلت عنه إلى عبد المُؤْمِن أشياءُ كان يفعلها وأقوالٌ كان يقولها أحْنَقَتْه عليه، فتحدّث عبد المُؤْمِن ببعض ذلك في مجلسه، ورُبما هَمَّ بالقبض على يَحْيَى هذا؛ فرأى الوزير أبو جَعْفَر أن يجمع بين المصلحتين: من نصح أميره، وتحذير صهره؛ فقال لامرأته أخت يَحْيَى المذكور: قولي لأخيك يَتَحَفَّظ، وإذا دعوناه غداً فَلْيَعْتَلَّ ويُظْهِر المرض، وإن قَدَر على الهروب واللّحاق بجزيرة «مَيُورْقَة» فَلْيفعل! فأخبرته أخته بذلك، فتمارض وأظهر أَنَّ ألماً به، فزاره وجوه أصحابه وسألوه عن عِلّته، فأَسَرَّ إلى بعضهم ـ ممن كان يثق به ـ ما بلغه عن الوزير. فخرج ذلك الرجلُ الذي أَسَرَّ إليه فنقل ذلك كله بجملته إلى رجل من ولد عبد المُؤْمِن، فكان هذا هو السببَ الأكبر في قتل أبي جَعْفَر المذكور. وأمر أميرُ المؤمنين عبد المُؤْمِن بتقييد يَحْيَى المذكور وسَجْنِه، فكان في سِجْنِه إلى أن مات!

ثم كتب له بعد أبي جَعْفَر هذا: أبو القاسم عبد الرَّحْمٰن القالمي، من أهل مدينة بجاية، من ضَيْعةٍ من أعمالها تُعرف بـ«قالم»، وكتب له معه أبو مُحمَّد عَيَّاش بن عبد المَلِك بن عيَّاش، من أهل مدينة قُرْطُبَة.

قضاته

أبو مُحمَّد عبد اللّه بن جَبَل، من أهل مدينة وَهْرَان من أعمال تِلِمْسَان. ثُمَّ عبد اللّه بن عبد الرَّحْمٰن المعروف بالمالقي، لم يزل قاضياً له إلى أن تُوفِّي عبد المُؤْمِن، وصَدْراً من خلافة أبي يَعْقُوب.

[رَجْعُ الحديث إلى أخبار عبد المُؤْمِن]

وكان عبد المُؤْمِن مُؤْثراً لأهل العلم، مُحِبًّا لهم، مُحسناً إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكَوْن عنده والجِوار بحضرته، ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التنويهَ بهم والإعظامَ لهم. وقسم الطلبةَ طائفتين: طلبة الموحِّدين، وطلبة الحَضَر؛ هذا بعد أن تسمَّى المصامدةُ بالمُوحِّدين، لتسمية ابن تُومَرْت لهم بذلك لأجل خَوْضهم في علم الاعتقاد الذي لم يكن أحدٌ من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه.

وكان عبد المُؤْمِن في نفسه سَرِيَّ[١] الهِمَّة، نزيهَ النفس، شديد الملوكية، كأنه كان ورثها كابراً عن كابر[٢]، لا يرضى إلا بمعالي الأمور.

---

(١) السَّرِيُّ: الشريف، وسَرِيّ الهمة: شَرِيفُها.
(٢) الكابر: الكبير أو السَّيِّد، أو الجَدُّ الأكبر.

أخبرني الفقيه المتفنن أبو القَاسِم عبد الرَّحْمٰن بن مُحمَّد بن أبي جَعْفَر الوزير، عن أبيه عن جده الوزير أبي جَعْفَر، قال: دخلتُ على عبد المُؤمِن وهو في بستانٍ له قد أينعت ثماره، وتفتحت أزهاره، وتجاوبت على أغصانها أطيارُه، وتكامل من كل جهةٍ حُسْنُه؛ وهو قاعد في قُبةٍ مُشرفةٍ على البستان، فسلمتُ وجلستُ، وجعلتُ أنظر يَمْنة وشَأْمة، متعجباً مما أرى من حسن ذلك البستان، فقال لي: يا أبا جَعْفَر، أراك كثيرَ النظرِ إلى هذا البستان! قلتُ: يُطيلُ اللّه بقاء أمير المؤمنين، واللّه إن هذا لمنظرٌ حَسَن! فقال: يا أبا جَعْفَر، المنظرُ الحسنُ هذا؟ قلت: نعم؛ فسكت عني، فلما كان بعد يومين أو ثلاثة، أمر بِعَرْض العسكر آخِذي أسلحتهم، وجلس في مكان مُطِلّ، وَجَعلَت العسكر تمرُّ عليه قبيلةً بعد قبيلةٍ وكتيبةً إثر كتيبةٍ، لا تمرُّ كتيبةٌ إلّا والتي بعدها أحسنُ منها، جَوْدَةَ سِلَاحٍ، وفراهةَ[1] خيلٍ، وظهورَ قُوّةٍ؛ فلما رأى ذلك التفت إليَّ وقال: يا أبا جَعْفَر، هذا هو المنظر الحسن، لا ثِمارُك وأشجارُك؟.

ولم يزل عبد المُؤمِن ـ بعد وفاة ابن تُومَرْت ـ يطوي الممالك مملكةً مملكةً، ويُدوِّخ البلاد[2]، إلى أن ذلَّت له البلاد، وأطاعته العباد.

[نهاية المرابطين وآخر من وَلي الأمر منهم]

وكان آخر ما اسْتُوليَ عليه من البلاد التي يملكها المرابطون، مدينة مَرّاكُش، دار ملك أمير المسلمين وناصر الدين عليّ بن يُوسُف بن تَاشُفين؛ وهذا بعد وفاة أمير المسلمين المذكور حَتْفَ أنفِه في شهور سنة ٥٣٧. وكان قد عهد في حياته إلى ابنه تَاشُفين، فعاقته الفتنة عن تمام أمره، ولم يتفق له ما أمله من استقلال ابنه تَاشُفين المذكور بشيء من الأمور.

وخرج تَاشُفين بعد وفاة أبيه قاصداً تِلِمْسَان، فلم يتفق له من أهلها ما يريد، فقصد مدينة وَهْرَان ـ وهي على ثلاث مراحل من تِلِمْسَان ـ فحاصره الموحدون بها؛ فلما اشتد عليه الحصار خرج راكباً فرساً شهباء، عليه سلاحه، فاقتحم البحر حتى هلك. ويقال: إنهم أخرجوه من البحر وَصَلبُوه ثم أحرقوه، فاللّه أعلم بصحة ذلك.

فكانت ولاية تَاشُفين هذا من يوم وفاة أبيه إلى أن قُتِل ـ كما ذكرنا ـ بمدينة وَهْرَان، ثلاثة أعوام إلّا شهرين. وكان قتله سنة ٥٤٠. وكان طولَ هذه الولاية لا يستقرُّ به قرار ولا تستقيم له حال، تَنبُو به البلاد، وتتنكر له الرعية؛ فلم تزل هذه حاله إلى أن كان من أمره ما ذُكر.

---

(١) فَرُهَ الجواد فَرَاهَةً، وَفُرُوهَةً: جَمُلَ وَحَسُنَ.

(٢) دَوَّخَ البلاد: أخضعها أو جال فيها وعرف مسالكها.

وبعد دخول عبد المُؤمِن ـ رحمه اللَّه ـ مَرَّاكُش، طلب قبر أمير المسلمين، وبحث عنه عبد المُؤمِن أشدَّ البحث؛ فأخفاه اللَّه وستره بعد وفاته كما ستره في أيام حياته؛ وتلك عادة اللَّه الحُسنى مع الصالحين المصلحين.

وانقطعت الدعوة بالمغرب لبني العباس بموتِ أمير المسلمين وابنِه، فلم يُذكروا على منبرٍ من منابرها إلى الآن، خلا أعوامٍ يسيرة بإفريقية، كان قد ملكها يَحْيَى بن غانية[1] الثائر من جزيرة مَيُورْقة على ما سيأتي بيانه.

وكانت مدة المرابطين ـ من حين نزولهم رَحْبَة مَرَّاكُش إلى أن انقرض ملكهم جملةً واحدة بموت أمير المسلمين وابنه ـ نحواً من سِتٍّ وسبعين سنة.

[تغلب عبد المُؤْمِن على بجاية وقلعة بني حمَّاد]

ولما دان لعبد المُؤمِن جميعُ أقطار المغرب الأقصى مما كان يملكه المرابطون ـ على ما قدّمنا ـ وأطاعه أهلها، جمع جموعاً عظيمةً وخرج من مَرَّاكُش يقصد مملكة يَحْيَى بن العزيز بن المَنْصُور بن المُنتصر الصِّنْهَاجيّ، وكان يملك «بَجَايَة» وأعمالَها إلى موضع يُعرف بـ«سِيوسِيرات». وهذا الموضع هو الحدُّ فيما بينه وبين «لَمْتُونَة»؛ فقصده عبد المُؤمِن ـ كما ذكرنا ـ في شهور سنة ٥٤٠، فحاصر عبد المُؤمِن «بَجَايَة» وضيّق عليها أشد التضييق، فلما رأى يَحْيَى بن العزيز أن لا طاقة له بدفاع القوم ولا يَدَانِ بِمَنْعهم، هرب في البحر حتى أتى مدينة «بُونة»، وهي أولُ حدّ بلاد إفريقية، ثم خرج منها حتى أتى قسطنطينة المغرب، فأرسل إليه عبد المُؤمِن ـ رحمه اللَّه ـ بالجيوش، فَاسْتُنزِل وأُتِي به عبد المُؤمِن، هذا بعد أن عاهد عبدُ المُؤمِن أن يُؤمِّن يَحْيَى في نفسه وأهله.

ودخل عبد المُؤمِن بَجَايَة ومَلَكها، ومَلَك قلعةَ بني حَمَّاد، وهي معقل صَنْهَاجَة الأعظم وحِرْزُهم الأمنع، فيها نشأ ملكهم، ومنها انبعث أمرُهم.

وكان يَحْيَى هذا وأبوه العزيزُ وَجدّاه المنصور والمنتصر، وجدُّهم الأكبر حمَّاد ـ من شيعة بني عُبيدٍ وأتباعِهم والقائمين بدعوتهم؛ ومن بلادهم ـ أعني صَنْهَاجَة ـ قامت دعوةُ بني عُبيد؛ وهم الذين أظهروها ونشروها ونصروها؛ فلم يزل مُلك بني حمَّاد هؤلاء مستمراً، ودولتهم قائمةً، وأمرهم نافذاً، لا ينازعُهم أحدٌ شيئاً مما في أيديهم؛ إلى أن أخرجهم من ذلك كله ومَلَكه بأسره وضمَّه إلى مملكته: أبو مُحمَّد عبد المُؤمِن بن عَليّ في التاريخ الذي تقدم!

---

(١) هو يحيى بن علي بن يوسف المسوفي، المعروف بابن غانية: أول من ولي الأندلس من بني غانية. ولد في قرطبة، وتوفي بغرناطة سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ١٥٨).

ولما مَلَك عبد المُؤمِن بَجَاية والقلعة وأعمالَها، رتَّب من الموحِّدين من يقوم بحماية تلك البلاد والدفاع عنها؛ واستعمل عليها ابنَه عبدَ اللَّه؛ وكرّ راجعاً إلى مَرَّاكُش ومعه وفي جُنده يَحْيَى بن العزيز ملك صَنْهَاجَة وأعيان دولته؛ فحين وصلوا إلى مَرَّاكُش أمر لهم بالمنازل المتَّسِعة والمراكب النبيلة والكُسَى الفاخرة والأموال الوافرة؛ وخَصَّ يَحْيَى من ذلك بأجزلِه، وأسناه وأحفَلِه؛ ونال يَحْيَى هذا عنده رتبةً عاليةً وجاهاً ضخماً، وأظهر عبد المُؤمِن عنايةً به لا مزيدَ عليها. . .

بلغني من طُرق عِدة أن يَحْيَى بن العزيز كان في مجلس عبد المُؤمِن يوماً، فذكروا تعَذُّرَ الصرف؛ فقال يَحْيَى: أما أنا فعليَّ مِنْ هذا كُلْفةٌ شديدة، وعبيدي في كل يوم يَشْكون إليَّ ما يَلْقَوْن من ذلك، ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف ـ وذلك أن عادتهم في بلاد المغرب أنهم يضربون أنصافَ الدراهم وأرباعَها وأثمانها والخراريب، فيستريحُ النَّاس في هذا وتجري هذه الصروف في أيديهم فتتسع بِياعاتُهم ـ فلما قام يَحْيَى بن العزيز من ذلك المجلس، أتبعه عبدُ المُؤمِن ثلاثةَ أكياسِ صُروفٌ كلُّها وقال لرسوله: قل له: لا يتعذرْ عليك مطلوبٌ ما دمت بحضرتنا إن شاء اللَّه عزَّ وجلَّ!

وأقام عبد المُؤمِن رحمه اللَّه بِمرَّاكُش، مُرتِّباً للأمور المختصة بالمملكة، من بناء دور، واتخاذِ قصور، وإعداد سلاح، واستنزال مُستعصٍ، وتأمينِ سُبُل، وإحسانٍ إلى رعية، وما هذا سبيله.

فـصـل

[أحوال الأندلس بعد سقوط دولة المرابطين]

فأما أحوال جزيرة الأندلس، فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبي الحَسَن عليّ بن يُوسُف، اختلّت أحوالُها اختلالاً مُفرِطاً، أوجب ذلك تخاذلُ المرابطين وتواكلهُم، ومَيلُهم إلى الدَّعة، وإيثارُهم الراحة، وطاعتُهم النساء؛ فهانوا على أهل الجزيرة، وقلُّوا في أعينهم، واجترأ عليهم العدو، واستولى النصارى على كثير من الثغور المجاورة لبلادهم. وكان أيضاً من أسباب ما ذكرناه من اختلالها، قيامُ ابن تُومَرْت بِسُوس، واشتغالُ عليّ بن يُوسُف به عن مراعاة أحوال الجزيرة.

ولما رأى أعيان بلاد تلك الجزيرة ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين، أخرجوا مَن كان عندهم من الولاة، واستبدّ كلٌّ منهم بضبط بلده. وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى بعد انقطاع دولة بني أمية. فَأمَّا بلاد أَفراغَة فاستولى عليها ملك أرغن ـ لعنه اللّه ـ، ومَلَك مع ذلك سَرَقُسْطة ـ أعادها اللّه للمسلمين ـ وكثيراً من أعمال تلك الجهات.

واتفق أمر أهل بَلَنْسِيَة وَمُرْسِيَة وجميع شرق الأندلس على تقديم رجلٍ من أعيان الجند اسمه عبد الرَّحْمٰن بن عِيَاض. وكان عبد الرَّحْمٰن هذا من صُلحاء أمة مُحمَّد وَخِيَارِهم؛ بلغني عن غير واحدٍ من أصحابه أنه كان مُجابَ الدعوة ومن عجائب أمره أنه كان أرقَّ الناس قلباً وأسرَعهم دمعةً، فإذا ركب وأخذ سلاحه لا يقوم له أحد ولا يستطيع لقاءه بطل؛ كان النصارى يَعُدّونه وحده بمائة فارس، إذا رأوا رايته قالوا: هذا ابن عِيَاض! هذه مائة فارس! فحمى اللّه تلك الجهات ودفع عنها العدوَّ ببركة هذا الرجل الصالح. وانتشر له من الهيبة في صدور النَّصارى ما ردَّهم عن البلاد. وأقام ابنُ عِيَاض هذا بشرقي الأندلس يحفظ تلك البلاد ويذود عنها إلى أن تُوفِّي، رحمه اللّه ونضَّر وجهه وشكر له سعيه. لا أتحقق تاريخ وفاته.

وقام بأمر تلك الجهات بعده رجل اسمه مُحمَّد بن سَعْد، المعروف عندهم بـ«ابن مردنيش». كان مُحمَّد هذا خادماً لابن عِيَاض، يحمل له السلاح ويتصرف بين يديه في حوائجه؛ فلما حضرته الوفاة اجتمع إليه الجند وأعيان البلاد فقالوا له: إلى

من تُسند أمورَنا وبمن تشير علينا؟ وكان له ولد، فأشاروا به عليه؛ فقال: إنه لا يصلح، لأني سمعت أنه يشرب الخمر ويَغْفُل عن الصلاة، فإن كان ولا بدّ فقدِّموا عليكم هذا ـ وأشار إلى مُحمَّد بن سَعْد ـ فإنه ظاهر النجدة كثير الغَناء[١]، ولعل اللَّه أن ينفع به المسلمين!

فاستمرّت ولاية ابن سَعْدٍ على البلاد إلى أن مات في شهور سنة ٦٥٨.

* * *

وأما أهل المَرِيَّة فأخرجوا من كان عندهم أيضاً من المرابطين؛ واختلفوا فيمن يقدّمونه على أنفسهم؛ فندبوا إليها القائد أبا عبد اللَّه بن مَيْمُون، ولم يكن منهم، إنما هو من أهل مدينة دَانِية؛ فأبى عليهم وقال: إنما أنا رجلٌ منكم، ووظيفتي البحرُ وبه عُرِفْتُ؛ فكلّ عدوٍّ جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به. فقدِّموا على أنفسكم من شئتم غيري! فقدَّموا على أنفسهم رجلاً منهم اسمه عبد اللَّه بن مُحمَّد، يُعرف بـ«ابن الرميمي»؛ فلم يزل عليها إلى أن دخلها عليه النصارى من البر والبحر؛ فقتلوا أهلها وسبوا نساءهم وبنيهم وانتهبوا أموالهم في خبر يطول ذكره.

* * *

وَمَلك جَيَّانَ وأعمالها إلى حصن شَقورة وما والى تلك الثغور، رجلٌ اسمه عبد اللَّه، لا أعرف اسم أبيه، هو معروف عندهم بـ«ابن هَمُشْك»؛ وربما ملك عبد اللَّهِ هذا قُرْطُبَة أياماً يسيرة.

وأقامت على طاعة المرابطين أَغْرنَاطَة وإشْبِيليَّة.

* * *

فهذه جملة أحوال الأندلس في آخر دعوة المرابطين. وفي ضمن هذه الجملة جُزئيات من أخبار الحصون والقلاع والمدن الصغار أضربتُ عن ذكرها خوفاً من الإطالة، لأنها نكرةٌ، والتعريف بها مُخرج إلى الطول.

وقام بمغرب الأندلس دُعاة فتنٍ ورؤوس ضلالاتٍ؛ فاستفزُّوا[٢] عقول الجهال، واستمالوا قلوبَ العامّة؛ من جملتهم رجل اسمه أحمد بن قَسِيّ؛ كان في أوّل أمره يَدَّعي الولاية، وكان صاحبَ حيلٍ ورَبَّ شَعبذة[٣]، وكان مع هذا يتعاطى صنعة البيان وينتحل[٤] طريق البلاغة، ثم ادَّعى الهداية؛ بلغني ذلك عنه من طرق صحاحٍ. ثم لم

(١) الغَنَاءُ: النفع والكفاية.
(٢) اسْتَفَزَّهُ: اسْتَخَفَّهُ.
(٣) الشعبذة: الاحتيال.
(٤) انتحل الشيءَ: ادّعاه لنفسه وهو لغيره.

يستقم له شيء مما أراد، واختلف عليه أصحابه. وكان قيامه بحصن مَارتلة ـ وقد تقدّم اسم هذا الحصن في أخبار الدولة العَبَّادية ـ فأسلمه ـ كما ذكرنا ـ أصحابه، واختلفوا عليه، ودسُّوا إليه من أخرجه من الحصن بحيلةٍ حتى أخذه الموحدون قبضاً باليد، فعبروا به إلى العُدْوَة، فأتوا به عبدَ المُؤمِن رحمه اللَّه، فقال له: بلغني أنك ادَّعيْتَ الهداية! فكان من جوابه أن قال: أليس الفجر فجران: كاذب وصادق؟ فأنا كنت الفجرَ الكاذب! فضحك عبد المُؤمِن وعفا عنه. ولم يزل بحضرته إلى أن قتله بعضُ أصحابه الذين كانوا معه بالأندلس. ولابن قِسيٍّ هذا أخبارٌ قبيحةٌ، مضمونها الجراءة على اللَّه سبحانه، والتهاون بأمر الولاية؛ منعني من ذِكرها صَرْف العناية إلى ما هو أهم منها.

[عبور الموحدين إلى الأندلس]

ولما انتشرت دعوة المصامدة ـ كما ذكرنا ـ بالمغرب الأقصى، تشوَّف(١) إليهم أعيانُ مغرب الأندلس؛ فجعلوا يفِدون في كل يوم عليهم، ويتنافسون في الهجرة إليهم؛ فدخل في مُلْكهم كثيرٌ من جزيرة الأندلس، كالجزيرة الخضراء، ورُنْدَة، ثم إشْبِيليّة، وَقُرْطُبَة، وأغرنَاطَة. وكان الذي فتح هذه البلاد الشيخُ أبو حَفْص عُمر إينْتي المتقدّم الذكر في أهل الجماعة. واجتمع على طاعتهم أهل مغرب الأندلس.

فلما رأى عبد المُؤمِن ذلك، جمع جموعاً عظيمةً، وخرج يقصد جزيرة الأندَلُس؛ فسار حتى نزل مدينة سَبْتَة، فعبر البحر، ونزل الجبل المعروف بجبل طَارِق، وسمَّاه هو جبلَ الفتح، فأقام به أشهراً، وابتنى به قصوراً عظيمةً، وبنى هناك مدينةً هي باقية إلى اليوم. ووفد عليه في هذا الموضع وجوهُ الأندلس للبيعة، كأهل مالَقَة، وأغْرنَاطَة، وَرُنْدة، وَقُرْطُبَة، وإشْبِيليَّة، وما وَالَى هذه البلاد وانضمَّ إليها. وكان له بهذا الجبل يوم عظيم، اجتمع له وفي مجلسه فيه من وجوه البلاد ورؤسائها وأعيانها وملوكها من العُدْوَة والأندلس ما لم يجتمع لملكٍ قبله. واستدعى الشعراء في هذا اليوم ابتداءً ولم يكن يستدعيهم قبل ذلك، إنما كانوا يستأذنون فَيُؤذنُ لهم.

[مُحمَّد بن حَبُّوس الفاسي الشاعر]

وكان على بابه منهم طائفة أكثرهم مجيدون؛ فدخلوا، فكان أول من أنشد: أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن حَبُّوس(٢)، من أهل مدينة فاس. وكانت طريقته في الشعر على

(١) تَشَوَّفَ: تَطلَّع طَمِح.
(٢) هو أبو عبد اللَّه، محمد بن حسين بن عبد اللَّه بن حَبُّوس الفاسي: شاعر من أهل فاس، ولد ونشأ فيها، وتوفي سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ١٠١).

نحو طريقة مُحمَّد بن هانيء الأندلسي[١]، في قصد الألفاظ الرائعة والقعاقع[٢] المهولة وإيثار التقعير[٣]؛ إلا أن مُحمَّد بن هانيء كان أجودَ منه طبعاً وأحلى مَهْيعاً[٤]؛ فأنشد في ذلك اليوم قصيدة أجاد فيها ما أراد. [أولها]: [من الكامل]

بَلَغَ الزَّمانُ بِهَديكُم ما أَمَّلا وَتَعلَّمتْ أيامُهُ أَنْ تَعْدِلا
وَبِحَسْبِهِ أنْ كانَ شيئاً قابلاً وَجَدَ الهِدَايةَ صُورةً فَتشَكَّلا

لم يبق على خاطري منها أكثر من هذين البيتين.

ولابن حبُّوس هذا قصائد كثيرة. وكان حظِيًّا[٥] عنده، نال في أيامه ثروةً. وكذلك في أيام ابنه أبي يَعْقُوب. وكان في دولة لَمْتُونَة مقدَّماً في الشعراء، حتى نُقِلَت إليهم عنه حماقاتٌ، فهرب إلى الأندلس، ولم يزل بها مُستخفياً ينتقل من بلدٍ إلى بلدٍ، حتى انتقلت الدولة المُرابطية.

قرأ عليَّ ابنُه عبد اللّه من خَطِّ أبيه هذه الحكاية، قال:

دخلت مدينة شِلْب من بلاد الأندلس، ولي يوم دخلتُها ثلاثة أيام لم أَطْعَمْ فيها شيئاً، فسألت عَمَّن يُقْصدُ إليه فيها، فَدَلَّني بعض أهلها على رجلٍ يُعرف بـ«ابن الملح»، فعمدت إلى بعض الورّاقين فسألته سِحاءةً ودواة، فأعطانيهما؛ فكتبت أبياتاً أمتدحه بها، وقصدت داره، فإذا هو في الدّهليز[٦]، فَسلَّمت عليه، فرحَّب بي وردَّ عليّ أحسنَ ردٍّ، وتلقاني أحسنَ لقاء، وقال: أحْسَبُك غريباً! قلت: نعم؛ فقال لي: من أي طبقات الناس أنت؟ فأخبرته أني من أهل الأدب، من الشعراء؛ ثم أنشدته الأبيات التي قُلت؛ فوقعت منه أحسن موقع؛ فأدخلني إلى منزله، وقدم إليَّ الطعام، وجعل يحدّثني؛ فما رأيتُ أحسنَ محاضرةً منه. فلما آن الانصراف، خرج ثم عاد ومعه عَبدان يحملان صندوقاً حتى وضعه بين يديّ؛ ففتحه فأخرج منه سبعمائة دينار مُرابِطِية، فدفعها إليَّ وقال: هذه لك! ثم دفع إليَّ صُرَّةً فيها أربعون مثقالاً، وقال:

---

(١) هو أبو القاسم، محمد بن هانيء بن محمد بن سعدون الأزدي الأندلسي: أشعر المغاربة، وهو عندهم كالمتنبي عند أهل المشرق. توفي سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م. (شذرات الذهب، ابن العماد: ٣/ ٤١).

(٢) القعاقع: جمع القعقعة: حكاية صوت السلاح، أو صوت القعقع، وهو نوع من الطيور، أو تتابع صوت الرعد ونحوه في شدّة.

(٣) قَعَّرَ في كلامه تقعيراً: تكلَّم بأقصى حلقه.

(٤) المَهْيَعُ: الطريق البيِّن الواضح.

(٥) حَظِيًّا: مُقَرَّباً.

(٦) الدهليز: المدخل بين الباب والدار.

هذه مِن عِندي! فتعجبتُ من كلامه وأَشْكلَ عليَّ جدًا، وسألته: من أين كانت هذه لي؟ فقال لي: سأحدّثك: إني أوقفتُ أرضاً من جملة مالي للشعراء، غَلّتُها في كل سنة مائةُ دينار؛ ومنذ سبع سنين لم يأتني أحد لتوالي الفِتن التي دَهَمت البلاد؛ فاجتمع هذا المال حتى سِيقَ إليك. وأما هذه فمن حُرِّ مالي! يعني الأربعين مثقال؛ فدخلتُ عليه جائعاً فقيراً، وخرجت عنه شبعان غنيًا.

[الأَصَمُّ المرواني الشاعر، ابن الطّليق]

وأنشده في ذلك اليوم رجلٌ من ولد الشَّريف الطليق المَرْوَانيّ، كان شريفاً من جهة أمه: [من البسيط]

ما لِلعَدا جُنَّةٌ أوقى من الهربِ[١] ....

فقال عبد المُؤمِن رافعاً صوته: إلى أين . . . إلى أين؟ فقال الشاعر:

أين المفرُّ وخَيْلُ اللَّه في الطَّلبِ!

وأينَ يَذْهَبُ مَنْ في رأسِ شَاهقةٍ وَقَدْ رَمَتْه سَماءُ اللَّه بالشُّهُبِ[٢]

حَدِّثْ عنِ الرومِ في أقطارِ أندلسٍ والبَحْرُ قَدْ مَلأ العِبْرَينِ بالعَربِ[٣]

فلما أتم القصيدة قال عبد المُؤمِن: بمثل هذا تُمْدَحُ الخلفاء! فسمَّى نفسه خليفةً كما ترى. . .

وجدُّ هذا الشاعر هو الشريف الطليق، طليقُ النَّعامة؛ وإنما سُمي بذلك لأنه كان محبوساً في مُطْبِق أبي عامر مُحمَّد بن أبي عَامِر المُلقَّب بالمنصور القائم بدعوة هِشَام المُؤيِّد، أقام في ذلك المحبس سنين، فكتب يوماً قصةً يذكر فيها ما آلت إليه حاله من ضيق الحبس وضَنْك[٤] العيش، فَرُفِعت إلى ابن أبي عامر؛ فأخذها في جملة رِقَاع ودخل إلى داره. فجاءت نعامةٌ كانت هناك، فجعل يُلقي إليها الرقاع، فتبتلع شيئاً وتُلقي شيئاً. فألقى إليها رقعة هذا الشريف في جملة الرقاع وهو لم يقرأها، فأخذتها ثم دارت وألقتها في حِجْره، فرمى بها إليها ثانيةً، فدارت القصرَ كُلَّه ثم جاءت وألقتها في حِجْره، فرمى بها إليها ثالثةً. . . وفعلت ذلك مراراً؛ فتَعجَّب من ذلك، وقرأ

---

(١) الجُنَّةُ: السُّتْرَة، أو كلّ ما وَقَى من سلاحٍ وغيره.

(٢) الشاهقة: العظيمة الارتفاع، يقال: شهق البناء والجبل ونحوهما شهوقاً: عَظُمَ ارتفاعه.

(٣) العِبْرَان: جانبا النهر أو شاطئاه.

(٤) الضَّنْكُ: الضِّيْق من كلّ شيء، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤].

الرقعة، وأمر بإطلاقه؛ فَسُمِّي بذلك: طليقَ النعامة!

* * *

وأنشد في ذلك اليوم رجلٌ من أهل إشْبِيليَّة يُعرف بـ«ابن سيِّد»، ويلقب بـ«اللص»: [من البسيط]

غَمِّضْ عَنِ الشمسِ واسْتَقْصِر مَدَى زُحَلِ ... وَانْظُرْ إلى الجبلِ الرَّاسي على جَبَلِ[١]

أَنَّى اسْتَقرَّ به، أَنَّى استقلَّ به ... أَنَّى رأى شَخْصَه العالي فلم يَزُلِ

فقال له عبد المُؤمِن: لقد ثقَّلتَنا يا رجُل! فأمر به فأُجلس؛ وهذه القصيدة من خيار ما مَدَح به؛ لولا أنه كَدَّر صفوَها بهذه الفاتحة.

[الرُّصافي الرفاء الشاعر(*)]

وأنشده في ذلك اليوم الوزير الكاتب أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن غالب البَلَنْسي المعروفُ بالرُّصَافي؛ كان مُستوطِناً مدينة مَالَقَة: [من البسيط]

لَوْ جِئتَ نارَ الهدَى من جَانِبِ الطُّورِ ... قَبَسْتَ ما شئتَ من عِلْمٍ ومن نُورِ[٢]

من كلِّ زَهراءَ لم تَرْفعْ ذُؤابتَها ... ليلاً لِسارٍ ولم تُشْبَبْ لِمَقْرُورِ[٣]

فيضيَّة القَدْحِ من نورِ النُّبوَّةِ أو ... نورِ الهدايةِ تجلو ظُلمةَ الزُّورِ[٤]

ما زال يُقضِمُها التقوى بمَوْقِدِها ... صَوَّامُ هاجرةٍ قَوّامُ دَيْجُورِ[٥]

حَتَّى أضاءتْ من الإيمانِ عَنْ قَبَسٍ ... قَدْ كانَ تَحتَ رَمادِ الكُفرِ مَكْفُورِ[٦]

نُورٌ طَوَى اللَّهُ زَنْدَ الكونِ منه على ... سَقْطٍ إلى زَمَنِ المهديِّ مَذْخُورِ

وآيةٌ كَأَياةِ الشَّمْسِ بين يَدَيْ ... غَزْوٍ على الملكِ القَيْسيِّ مَنْذُورِ[٧]

---

(١) الرَّاسي: الثابت، الراسخ.

(*) ترجمته في بغية الملتمس: ١١٩؛ الأعلام: ٦/ ٣٢٤.

(٢) الطور: الجبل. قَبَس النار قَبْساً: طلبها، أوقدها، وقبس العلم أو النور: استفاده.

(٣) تُشْبَبُ: تُوقَدُ. المقرور: الذي أصابه البرد.

(٤) فيضية: نسبة إلى الفيض، وهو الكثير الغزير. القَدْحُ: إخراج نار في الزند بضرب ونحوه، يقال: قَدَح الزند، وبه: ضربه بحجره لِيُخْرِجَ النار منه، تجلو: تكشف. الزور: الباطل.

(٥) قَضَمَ الشيءَ قَضْماً: كسره بأطراف أسنانه. الهاجرة: وقت اشتداد الحَرِّ في منتصف النهار. الديجور: الظلمة.

(٦) مكفور: مَسْتُورٌ، مُخَبّأ، مَخْفِيٌّ.

(٧) إياةُ الشمس: ضَوْءُها، شعاعها.

يا دارُ دارَ أميرِ المؤمنين بِسَفْحِ الطَّـ ـوْدِ طَوْدِ الهُدَى، بُورِكْتِ في الدُّورِ[١]
ذات العِمَادَيْنِ مِنْ عِزٍّ وَمَمْلَكَةٍ على الأَسَاسَيْنِ مِنْ قُدْسٍ وَتَطْهِيرِ
ما كانَ بانيك بِالواني الكَرامةِ عَنْ قَصْرٍ على مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ مَقْصُورِ[٢]
مَواطِئٌ مِنْ نبيٍّ طالَمَا وُصِلَتْ فيها الخُطَا بينَ تَسْبِيحٍ وَتَكْبِيرِ
حَيْثُ استقلَّتْ به نَعلاه بُورِكَتا فَطيِّبتْ كُلَّ مَوْطُوءٍ وَمَعْبُورِ[٣]
وَحَيْثُ قَامَتْ قَناةُ الدين تَرْفُلُ في لِواءِ نصرٍ على البَرَّيْنِ مَنْشُورِ[٤]
في كفِّ مُنْشَمِرِ البُرْدَيْنِ ذي وَرَعٍ على التُّقَى وَصَفاءِ النفس مَفْطُورِ[٥]
يلقاك في حالِ غَيْبٍ مِنْ سَريرتِه بِعَالَمِ القُدْسِ مَشْهُودٍ وَمَحْضُورِ[٦]
تَسنَّمَ الفُلْكَ مِنْ سخطِ المرار وَقَدْ تؤدينَ يا خير أفلاك العلا سِيري[٧]
فَسِرْنَ يحملْنَ أمرَ اللَّه مِنْ مَلِكٍ باللَّه مُسْتَنْصِرٍ في اللَّه مَنْصُورِ
يُومِي له بِسُجودٍ كلُّ مَخْرَكَةٍ منها، ويُولِيه حَمْداً كلَّ تَصْرِيرِ[٨]
لما تَسابَقْنَ في بَحْرِ الزُّقاقِ به تَرَكْنَ شَطَّيْهِ في شكٍّ وَتَخْيِيرِ
أَهَزَّ مِن مَوجِهِ أثناءَ مَسْرُورٍ؟ أم خاضَ من لُجِّه أحشاءَ مَذْعُورِ؟
كأنه سالكٌ مِنْهُ على وَشَلٍ في الأرضِ من مُهَجِ الأسياف مَقْطُورِ[٩]
مِنَ السُّيوفِ التي ذابتْ لِسَطْوَتِه وقد رَمَى نارَ هَيْجَاها بِتَسْعِيرِ[١٠]
ذو المُنشآتِ الجواري في أَجِرَّتِها شَكْلُ الغَدائرِ في سَدْلٍ وَتَضْفيرِ[١١]
أَغْدَى المياهَ وأنفاسَ الرياحِ لها ما في سَجَاياهُ مِنْ لِينٍ وتَغْطِيرِ

---

(١) الطَّوْدُ: الجبل العظيم.
(٢) الواني: الضَّعيف، البطيء، العاجز.
(٣) اسْتَقَلَّ: ارتفع، واسْتَقَلَّ القوم: مضوا وارتحلوا. موطوء: اسم مفعول من: وَطِىءَ الشيءَ وَطْئاً: داسه. معبور: اسم مفعول من: عبر الطريق: قطعه.
(٤) تَرْفُلُ: تتبختر.
(٥) مُنْشَمِر: اسم فاعل من شَمَرَ الشيءَ: قَلَّصَه وضَمَّ بعضه إلى بعض. مفطورٌ: مخلوقٌ، مطبوعٌ.
(٦) السَّريرة: ما يُكْتَمُ ويُسَرُّ في النفس. القُدْسُ: البركة، وقَدُسَ قُدْساً: طَهُرَ.
(٧) تَسَنَّمَ الشيء: اعتلاه.
(٨) يُومي: يُشير.
(٩) الوَشَلُ: الماء القليل يَتحلَّب من جَبَلٍ أو صخرة، ولا يَتَّصلُ قطره.
(١٠)السَّطوة: البطش والقهر. الهيجاء: الحرب.
(١١)المنشآت الجواري: السفن التي تجري في البحر. سَدَلَ الشعر سَدْلاً: أرخاه وأرسله. ضَفَرَ الشعر وضَفَّره: نسج بعضه على بعض.

مِنْ كُلِّ عَذْراءَ حُبْلَى في تَرائبِها ... رَدْعانِ من عَنبَرٍ وَرْدٍ وكافورِ[١]
نِجالُها بين أيدٍ مِنْ مَجاذِفِها ... يَغرَقْنَ في مِثل ماءِ الوردِ مِن جُورِ[٢]
وَرُبَّما خاضَت التَّيَّارَ طائرةً ... بِمثْلِ أجنحةِ الفُتْخِ الكَواسيرِ[٣]
كأنَّما عَبَرتْ تختالُ عائمةً ... في زاخرٍ من يَدَيْ يُمْناه مَعْصُورِ
حتى رَمَتْ جَبل الفَتْحَيْنِ مِنْ كَثَبٍ ... بِساطعٍ من سَناه غَيْرِ مَبْهُورِ[٤]
للَّه ما جَبَلُ الفَتْحَيْنِ مِنْ جَبَلٍ ... مُعظَّمِ القَدْرِ في الأجيالِ مَذْكُورِ
مِنْ شامخ الأنفِ في سَحْنَائه طَلَسٌ ... لهُ مِنَ الغَيْمِ جَيْبٌ غيرُ مَزْرُورِ[٥]
مُعَبِّراً بِذُراه عَنْ ذُرَى مَلِكٍ ... مُسْتَمْطَر الكفِّ والأكنافِ مَمْطُورِ[٦]
تُمْسِي النُّجُوم على إكليلِ مَفْرِقِه ... في الجوِّ حائمةً مِثْلَ الدنانيرِ
وَرُبَّما مَسَحَتْه مِنْ ذَوائبِها ... بِكلِّ فَضْلٍ على فَوْدَيْهِ مَجْرُورِ[٧]
وأدْرَدٍ مِن ثَنَايَاهُ بِما أَخَذَتْ ... منه مَقَاحِمُ أَعْوَادِ الدَّهَارِيرِ[٨]
مُحَنَّكٍ حَلَبَ الأيامَ أَشْطُرَهَا ... وَسَاقَها سَوْقَ حادِي العِيرِ للعِيرِ[٩]
مُقَيَّدِ الخَطْوِ جَوَّالِ الخَواطِرِ في ... عَجيبِ أَمْرَيْهِ مِنْ ماضٍ وَمَنْظُورِ
قَدْ واصلَ الصَّمتَ وَالإطراقَ مُفْتَكِراً ... بادي السَّكِينةِ مُغْبَرَّ الأساريرِ
كأنه مُكْمَدٌ مِمَّا تَعَبَّدَهُ ... خَوْفُ الوَعيدَيْنِ من دَكٍّ وتسييرِ[١٠]
أَخْلِقْ به وجبالُ الأرض رَاجفةٌ ... أَنْ يطمئِنَّ غداً مِنْ كلِّ مَحْذُورِ
كَفَاهُ فضلاً أنِ انتابتْ مَوَاطِئَهُ ... نَعْلَا مليكٍ كريمِ السَّعْيِ مَشْكُورِ

---

(١) الترائب: عظام الصدر مما يلي الترقوتين: موضع القلادة. الرَّدْعُ: الزعفران.
(٢) النجال: جمع النجل: الماء المُستنقع.
(٣) الفُتْخُ: جمع الفتخاء: العُقاب اللَّيِّنة الجناحين.
(٤) من كَثَبٍ: من قُرب. السَّنا: البريق واللمعان. مبهور: اسم مفعول من: بهر الشيء فلاناً: أدهشه وحيَّره.
(٥) الشامخ: المرتفع. السَّحناء: اللون؛ الهيئة. الطَّلَسُ: الغُبْرَةُ إلى السَّواد. مزرور: اسم مفعول من: زَرَّر الشيءَ: جمعه جمعاً شديداً.
(٦) الذروة: القمة، وذروة كلّ شيءٍ: أعلاه. الأكناف: النواحي.
(٧) الفَوْدَان: جانبا الرأس.
(٨) الأدرد: الذي سقطت جميع أسنانه. الدهارير: أول الدهر في الزمان الماضي، ويقال: دهر دهارير: شديد. والدهارير أيضاً: تصاريف الدهر ونوائبه.
(٩) حلب الأيام أشطرها: جَرَّبَ أُمورَها: خَيْرَها وشرَّها.
(١٠) مُكْمَدٌ: من كَمِدَ الرجل: كتم حزنه، أو حزن حزناً شديداً. الدَّكُّ: الدَّقُّ؛ الدَّفْعُ.

مُستنشِياً بِهِمَا رِيحَ الشفاعةِ مِنْ ... ثَرَى إمامٍ بأقصى الغربِ مَقْبُورِ
ما آنفَكَّ آمِلَ أمرٍ منه بين يَدَيْ ... يَوْمِ القيامةِ مَختُومٍ وَمَقْدُورِ
حَتَّى تَصَدَّى من الدُّنيا على رَمَقٍ ... يَسْتَنجِزُ الوَعْدَ قبل النَّفخِ في الصُّورِ[1]
مُسْتَقبِلَ الجانب الغربيّ مُرتَقِباً ... كأنه باهتٌ في جَوّ اسميرِ[2]
لِبارقٍ من حُسامٍ سَلَّهُ قَدَرٌ ... بالغَرْبِ من أُفُقِ البِيضِ المشاهيرِ
إذا تألَّقَ قَيْسِيّاً أهابَ بِهِ ... إلى شَفاً من مُضاعِ الدِّين مَوْتُورِ[3]
مَلْكٌ أتى عِظَماً فوقَ الزمانِ فما ... يمرُّ فيه بشيءٍ غَيْرِ مَحْقُورِ
ما عَنَّ في الدين والدُّنيا له أَرَبٌ ... إلّا تأتَّى له مِنْ غيرِ تَعْذيرِ[4]
ولا رَمَى مِن أمانيه إلى غَرَضٍ ... إلّا هَدَى سَهْمَه نُجْحُ المقاديرِ[5]
حَتَّى كأنَّ له في كلِّ آونةٍ ... سُلطانُ رِقٍّ على الدنيا وَتَسْخيرِ[6]
مُمَيَّزُ الجَيشِ، مُلْتفًّا مَواكِبهُ ... مِن كلِّ مثلولِ عَرْشِ الملكِ مَقْهُورِ[7]
من الأولى خَضَعُوا قَسْراً له وَعَنَوْا ... لأمرِه بين مَنْهِيٍّ ومأمورِ[8]
مِنْ بَعْدِ ما عانَدُوا أمراً فما تركوا ... إذ أمكنَ العَفْوُ مَيْسُوراً لِمَعْسُورِ
بقِيَّةُ الحرْبِ، فَاتُوها وما بِهِمُ ... في الضَّرْبِ والطعْنِ سِيماءُ لِتَقْصِيرِ[9]
لا ينكر القَوْمُ مِمَّا في أكفِّهِمُ ... بيضٌ مَفاليل أو سُمْرٌ مَكَاسيرُ[10]
إذا صَدَعْتَ بأمرِ اللَّه مُجتهداً ... ضَرَبْتَ وَحْدَكَ أعناقَ الجَمَاهيرِ[11]

---

(١) الرمق: بقية الروح. قبل النفخ في الصور: قبل يوم القيامة.

(٢) الباهت: الشاحب، المُتغيِّر اللون. في جَوّ اسمير: لم يَتبيَّن لنا معناها.

(٣) الشَّفا: الحَرْفُ. قال تعالى: ﴿وَكُنتُمْ على شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُمْ منها﴾ [آل عمران: ١٠٣]. الموتور (في الأصل): الذي قُتِلَ حَمِيمُه.

(٤) عَنَّ: بان وظهر، وعَنَّ له الشيء: عَرَضَ بباله. الأرب: الحاجة.

(٥) الغَرَضُ: الهدف الذي يُرْمَى إليه. النُّجحُ: الظَّفَرُ. المقادير: الأقدار.

(٦) الرِّقُّ: العبودية. التسخير: أن يُكلِّف الإنسان غيره عملاً بلا أجر، أو أن يقهره وَيُكلِّفه ما لا يريد.

(٧) المَثْلُولُ: من ثَلَّ الدار ثَلاً: هدمها، أو ثَلَّ فُلانٌ ثَلَلاً: هَلَكَ.

(٨) قَسَرَ فلاناً قَسْراً: قهره على كُرْهٍ. عَنَوْا: خضعوا وَذلُّوا.

(٩) السِّيماءُ: العلامة.

(١٠) البيض: السيوف. المفاليل: من انْفَلَّ السيف: انكسر أو انثلم حَدُّه. السُّمر: الرماح.

(١١) صَدَع بالأمر: بَيَّنَهُ وَجَهَر به، قال تعالى: ﴿فاصْدَعْ بما تؤمر﴾ [الحجر: ٩٤].

لَا يَذْهَبَنَّ لِتَقْلِيلِ أخو سَبَبٍ ... مِنَ الأمورِ، ولا يَرْكَنْ لِتَكْثِيرِ[1]
فالبحرُ قد عادَ من ضَرْبِ العصَا يَبَساً ... والأرضُ قَدْ غرِقَت من فَوْرِ تنُّورِ[2]
وإنما هو سَيْفُ اللَّه قَلَّدَهُ ... أَقوَى الهُداةِ يداً في دَفْعِ مَحْذُورِ[3]
فإنْ يَكُنْ بِيدِ المهديِّ قائمُهُ ... فَمَوْضِعُ الحدِّ منه حَدُّ مَشهورِ
والشمسُ إن ذَكَرَتْ مُوسَى فما نَسِيتْ ... فَتاهُ يُوشَعَ قَمَّاعَ الجبابيرِ[4]

وكان الرُّصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة. وهو من مُجيدي شعراء عصره، لا سيما في المقاطيع. كالخمسة الأبيات فما دونها. وقد رويتُ شعره عن جماعةٍ ممن لقوه، وقد رأيتُ أن أورد منه ها هنا نبذةً يسيرةً تدلّ على ما وصفناه به، فمن ذلك قوله يصف نهر إشبيليَّة الأعظم، وهو نهر لا نظير له في الدنيا: [من الكامل]

ومُهدَّلِ الشَّطَّينِ تَحسَبُ أنهُ ... مُتسايِلٌ من دُرَّةٍ لِصَفائهِ[5]
فَاءتْ عَلَيْه مع الهَجيرةِ سَرْحَةٌ ... صَدِئتْ لِفَيْئَتِها صَفِيحةُ مَائهِ[6]
فَتراهُ أزرقَ في غِلَالةِ سُمْرَةٍ ... كالدَّارعِ اسْتَلْقَى بِظِلِّ لِوَائِهِ[7]

وله وقد اجتمع مع إخوان له في بعض العَشَايا في بستان رجل يقال له مُوسَى بن رِزْق: [من الكامل]

ما مِثْلُ مَوْضِعِك ابنَ رِزْقٍ مَوْضِعُ ... رَوْضٌ يَرِقُّ وَجَدْوَلٌ يَتَدَفَّعُ
فَكأنَّما هُوَ مِنْ مَحَاجِرِ غَادةٍ ... فالحُسْنُ يَنبُتُ في ثَرَاه ويَنبُعُ[8]
وَعَشِيَّةٍ لَبِسَتْ رِدَاءَ شُحوبِهَا ... والجوُّ بالغيمِ الدَّقيقِ مُقَنَّعُ

---

(١) رَكَنَ إليه رَكْناً ورُكُوناً: مال إليه وسكن، أو اعتمد عليه.

(٢) التَّنُّور: وجه الأرض، ويقال: كلُّ مَفْجَر ماءٍ تنور، قال تعالى: ﴿**حتى إذا جاء أَمْرُنا وفارَ التَّنُّور**﴾ [هود: ٤٠].

(٣) قَلَّدهُ السيف: ألقى حمالته في عنقه. المحذور: ما يُتَّقَى وَيُحْتَرزُ منه.

(٤) القَمَّاع: الكثير القَمْع، وقد قمع فلاناً قَمْعاً: قهره وذلَّله. الجبابير: الطغاة، الظالمون، المُتَسلِّطون.

(٥) تَهدَّلَ الشيء: تَدلَّى أو استرخى.

(٦) فاءت: رجعت. الهجيرة: الهاجرة: نصف النهار عند اشتداد الحَرّ. السَّرْحَةُ: واحدة السَّرْح: الماشية.

(٧) الغِلَالَةُ: ثوب رقيق يُلبس تحت الدثار. الدارع: لابس الدرع.

(٨) المحاجر: العيون، أو ما يُحيط بها. الغادة: الفتاة الناعمة الشابة.

بلَغَتْ بِنا أمدَ السُّرورِ تألُّفاً ... والليلُ نحو فِرَاقنا يتطلَّعُ[١]
فَابلُلْ بها رمقَ الغَبُوقِ فَقَدْ أتى ... مِن دُونِ قُرْصِ الشمسِ ما يُتَوقَّعُ[٢]
سَقَطتْ فلم يملك نَدِيمُكَ رَدَّها ... فَوَدِدْتُ يا مُوسَى لوأنك يُوشَعُ[٣]

وله يصف عشية أيضاً في موضع هذا الرجل المتقدم الذكر: [من الطويل]

مَحَلُّ ابنِ رِزْقٍ جَرَّ فيه ذُيُولَهُ ... مِنَ المُزْنِ ساقٍ يُحسنُ الجَرَّ والسُّقْيَا[٤]
ذَكَرْتُ عَشِيًّا فيك لا ذُمَّ عَهْدُهُ ... وإنْ نحنُ لم نَهْتَعْ بِبَهْجَتِهِ لُقْيا[٥]
ولم يَعتلقْ بي مِنْكَ عِنْدَ افتراقِنا ... سِوَى عَبَقٍ مِنْ مِسْكِ قُبْلتِكَ اللَّمْيا[٦]
وَكُنْتُ أراني في الكَرى وكأنني ... أناوَلُ كالدِّينارِ مِنْ ذَهَبِ الدُّنيا
فَلمَّا انْطَوى ذاك الأصيلُ وحُسْنُهُ ... على سَاعةٍ مِنْ أُنْسِنا، صَحَّتِ الرُّؤيا

وله يصف دولاباً: [من مخلع البسيط]

وَذِي حَنِينٍ يَكَادُ شَوْقاً ... يَختلِسُ الأَنْفُسَ اختلاسَا[٧]
لمَّا غَدَا للرياضِ جَاراً ... قالَ لهُ المَحْلُ لا مِسَاسَا[٨]
يَبْتَسِمُ الرَّوضُ حِينَ يَبْكي ... بأدمُعٍ ما رأينَ بَاسَا[٩]
مِنْ كلِّ جفنٍ يَسُلُّ سيفاً ... صَارَ لهُ غِمْدُه رِئاسَا[١٠]

وله وقد رأى صبيًّا يتباكى ويجعل من ريقه على عينيه، يحكي بذلك الدموع: [من الطويل]

عَذيريَ مِن جَذْلانَ يُبْدِي كآبةً ... وأضلُعُه مما يُحاوِلُه صِفْرُ[١١]

---

(١) التَّألُّف: التَّجمُّع، أو الأنس والمحبة، يقال: ألفه إلفاً وإلافاً: أنس به وأحبه، وألَّفَ بينهما: جمع.
(٢) الغَبُوق: شراب العَشِيّ.
(٣) النديم: الصاحب على الشراب.
(٤) المُزْنُ: جمع المزنة: السحابة الماطرة.
(٥) هَتَعَ الرجل: أقبل مسرعاً.
(٦) اعتلق الشيء بالشيء: نَشِبَ فيه واستمسك به. اللميا: اللمياء: الشَّفَةُ فيها سُمرة، يقال: لَمِيَت الشفة: اسْمرَّت، وقد استعار الشاعر هذه الصفة للقبلة.
(٧) اختلس الشيء: أخذه أو استلبه في نُهْزَةٍ.
(٨) المَحْلُ: الجَدْبُ، القحط.
(٩) الباس: اليأس: الشِّدَّة أو المَشَقَّة.
(١٠) رِئَاسُ السيف: مقبضه أو قائمه.
(١١) الجذلان: المسرور. الصِّفْرُ: الخالي.

أُمَيْلِدُ مَيَّاسٌ إذا قادَهُ الصِّبا إلى مُلَحِ الإدلالِ أيَّدَهُ السِّحرُ[(١)]
يَبُلُّ مآقي زَهْرَتَيهِ بريقِهِ ويَحْكي البُكا عَمْداً كما ابتسمَ الزَّهرُ
وَيُوهِمُ أنّ الدَّمْعَ بلَّ جُفُونَه وَهلْ عُصِرَتْ يوماً من النَّرْجِسِ الخمرُ؟

وقال يصف نائماً قد تَحبَّب العرق على خدّه: [من الكامل]

وَمُهَفْهَفٍ كالغُصنِ إلا أنهُ سَلَّ التثنّي النَّوْم عَنْ أثنائِهِ[(٢)]
أضْحَى ينامُ وَقدْ تحبَّبَ خدُّه عَرقاً فقلتُ الوَرْدُ رُشَّ بمَائِهِ[(٣)]

وللرصافي هذا افتنان في الآداب. وكان رحمه اللّه عفيف الطُّعْمة نزيهَ النفس، لا يحب أن يشتهر بالشعر مع إجادته في كثير منه.

[وصل الحديث عن عبد المُؤْمِن بن عليّ]

وأقام عبد المُؤمِن بجبل الفتح، مُرتِّباً للأمور، ممهِّداً للمملكة؛ وأعيانُ البلاد يَفِدُون عليه في كل يوم، إلى أن تمّ له ما أراد من إصلاحِ ما استولى عليه من جزيرة الأندلس.

فولَّى مدينة إشْبِيليَّة وأعمالها ابنَه يُوسُف، وهو الذي وَلِيَ الأمورَ بعده على ما سيأتي بيانه؛ وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوي الرأي والتحصيل منهم مَنْ يرجع إليه في أموره، ويعوّل عليه فيما ينويه.

وَوَلّى قُرْطُبَةَ وأعمالها أبا حَفْص عُمَر إينْتي.

وولى أغْرنَاطَة وأعمالها ابنه عُثْمَان بن عبد المُؤمِن، يُكْنَى أبا سَعِيد، وكان من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوي الصرامة منهم. وكان مُحبًّا للآداب، مُؤْثراً لأهلها، يهتز للشعر ويُثيب عليه، اجتمع له من وجوه الشعراء وأعيان الكتاب عصابةٌ ما علمتها اجتمعت لِمَلِكٍ منهم بعده.

ثم كَرَّ عبد المُؤمِن راجعاً إلى مَرَّاكُش، بعد ما ملأ ما مَلَكه من أقطار جزيرة الأندلس خيلاً ورجالاً من المصامدة والعرب وغيرِهم من أصناف الجند.

[منازل العرب الهلالية في المغرب والأندلس]

وقد كان حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس، استنفر أهل المغرب عامةً؛ فكان

---

(١) أُمَيْلد: تصغير أملد: ناعم لَيِّن من الناس والغصون. مَيَّاس: مبالغة من ماس مَيْساً وَمَيَساناً: تبختر واختال.

(٢) المهفهف: الضامر البطن، الدقيق الخصر.

(٣) تَحبَّب خَدُّه: ظهر عليه حَبَابُ العرق. والحباب: الفقاقيع التي تظهر على وجه الماء.

فيمن استنفره العربُ الذين كانوا ببلاد يَحْيَى بن العزيز، وهم قبائلُ من هِلَال بن عامر، خرجوا إلى البلاد حين خلَّى بنو عبيدٍ بينهم وبين الطريق إلى المغرب؛ فعاثوا في القيروان عيثاً[١] شديداً أوجب خرابها إلى اليوم، ودوَّخوا مملكة بني زيري بن مَنَاد، وهذا بعد موت المُعِزّ بن باديس[٢]؛ فانتقل تميم إلى المهدية. وسار هؤلاء العرب حتى نزلوا على المنصور بن المُنتصر؛ فصالحهم على أن يجعل لهم نصف غلّة البلاد، من تَمْرها وبُرّها[٣] وغير ذلك. فأقاموا على ذلك باقيَ أيامه، وأيامَ ابنه الملقب بالعزيز، وأيامَ يَحْيَى، إلى أن ملك البلاد أبو مُحمَّد عبد المُؤمِن رحمه اللَّه، فأزال ذلك من أيديهم، وصيَّرهم جنداً له، وأقطع رؤساءهم بعض تلك البلاد.

فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس، وأمر أن تُكتب في آخرها أبياتٌ قالها ـ رحمه اللَّه ـ في ذلك المعنى، وهي: [من الطويل]

أقيمُوا إلى العلياءِ هُوجَ الرَّواحِلِ ... وقُودُوا إلى الهيجاءِ جُرْدَ الصَّوَاهِلِ[٤]

وَقُومُوا لِنَصْرِ الدِّينِ قَوْمةَ ثائرٍ ... وشُدُّوا على الأعداء شَدَّةَ صَائلِ[٥]

فَمَا العِزُّ إلا ظَهرُ أجْردَ سابحٍ ... يَفُوتُ الصَّبا في شَدِّهِ المتواصلِ[٦]

وأبيضَ مأثورٍ كأنَّ فِرِنْدَهُ ... على الماءِ مَنْسوجٌ وَلَيْسَ بسائلِ[٧]

بني العمِّ مِنْ عُلْيا هِلَالِ بن عامرٍ ... وما جَمَعتْ مِنْ باسلٍ وابنِ باسلِ[٨]

تَعالَوْا فقد شُدَّتْ إلى الغَزْوِ نِيَّةٌ ... عَواقِبُها مَنْصُورةٌ بالأوائلِ

هي الغزوةُ الغرَّاءُ والموعِدُ الذي ... تَنجَّزَ مِنْ بَعْدِ المدَى المتطاوِلِ

بها تُفتحُ الدُّنيا، بها تُبلَغُ المُنى ... بها يُنصَفُ التحقيقُ مِنْ كلِّ باطلِ

أهبْنا بِكم للخيرِ واللَّهُ حَسْبُنا ... وَحَسْبُكمو واللَّهُ أعدلُ عادلِ

فما همُّنا إلا صلاحُ جَميعِكُمْ ... وَتَسْرِيحُكم في ظلِّ أخضرَ هَاطلِ

---

(١) عاث عَيْثاً، وعُيوثاً، وعَيَثاناً: أَفْسَدَ.

(٢) هو المعز بن باديس بن المنصور الصنهاجي: من ملوك الدولة الصنهاجية بإفريقية. توفي في المهدية سنة ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م. (الأعلام، الزركلي: ٧/ ٢٧٠).

(٣) البُرُّ: حَبُّ القمح.

(٤) الرواحل: جمع الراحلة: الصالح للأسفار والأحمال من الإبل. الصواهل: الجياد.

(٥) الصائل: اسم فاعل من صال عليه صولاً وصولاناً: سطا عليه ليقهره.

(٦) الأجرد: الفرس السَّبّاق، أو القصير الشعر. السابح: الفرس الذي يمد يديه في الجري.

(٧) الأبيض: السيف. فرند السيف: ما يُلمح في صفحته من أثر تموُّج الضوء.

(٨) الباسل: الشديد، الجريء.

وَتَسْويغُكم نُعْمَى تَرِفُ ظِلالُها عَليْكُم بخيرٍ عَاجلٍ غَيْرِ آجلِ[١]
فَلَا تَتَوانَوْا فَالبِدَارُ غنيمةٌ وللمُدْلجِ الساري صفاءُ المناهلِ[٢]

فاستجاب له منهم جمع ضخم؛ فلما أراد الانفصال عن الجزيرة رتبهم فيها، فجعل بَعْضَهم في نواحي قُرْطُبَة، وبعضَهم في نواحي إشْبِيليَّة مما يلي مدينة شَرِيش وأعمالها؛ فهم بها باقون إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ـ وقد انتشر من نسلهم بتلك المواضع خلقٌ كثير. وزاد فيهم أبو يَعْقُوب، وأبو يُوسُف، حتى كثروا هناك؛ فبالجزيرة اليومَ من العرب من زُغبة وريح وجُشم بن بَكْر وغيرِهم نحوٌ من خمسة آلاف فارس سِوى الرَّجَّالة.

* * *

وكان عبورُ عبد المُؤمِن ـ رحمه اللَّه ـ إلى الجزيرة ونزوله بجبل الفتح في سنة ٥٣٨، ثم كَرَّ ـ كما ذكرنا ـ راجعاً إلى مَرَّاكُش؛ فأخبرني غير واحدٍ ممن أرضى نَقْلَهُ، أنه لمَّا نزل مدينة سَلَا ـ وهي مدينة على البحر الأعظم المحيط، ينصبُّ إليها نهر عظيم يصبُّ في البحر المذكور ـ عَبَر النهر، وضُرِبَت له خيمة على الشاطىء؛ وجعلت العساكر تعبر قبيلةً بعد قبيلةٍ؛ فلما نظر إلى كثرة العدد وانتشار العالم، خرَّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقد بلَّ الدمعُ لحيتَه؛ والتفت إلى مَنْ عنده وقال: «أعرف ثلاثة أشخاص وردوا هذه المدينة لا شيء لهم إلّا رغيفٌ واحد، فراموا عُبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب وبذَلوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة؛ فقال لهم أحدهم ـ وكان شابًا جَلْداً ـ: خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحةً! فأخذا ثيابه معهما، وصعدا في القارب؛ فجعل الشابُّ يسبح، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يديه عليه ليستريح، فَضَرَبه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه؛ فما بلغ البرَّ إلّا بعد جهدٍ شديدٍ!».

فما شَكَّ السامعون للحكايةِ أنه العابر سباحةً، وأن الاثنين المذكورين هما ابن تُومَرْت وعبد الوَاحِد الشَّرقي.

ثم سار حتى أتى مَرَّاكُش، فنزلها، وأخذ في البناء والغراسة[٣] وترتيب القصور، غير مُخِلٍّ بشيء مما تحتاج إليه المملكة من السياسة وتدبير الأمور وبسط العدل والتحبُّب إلى الرعية وإخافة من تجب إخافتُه.

---

(١) سَوَّغ الشيءَ تَسْويغاً: جعله سائغاً: طيِّباً، هنيئاً سَهْلَ الابتلاع، وسَوَّغ الأمرَ: جَوَّزه وأباحه.
(٢) تَوَانَى: قَصَّرَ وَفَتَرَ وَأَبْطَأَ. البدار: الإسراع، يقال: بادر إليه مبادرةً وبداراً: أسرع، وبادر فلاناً الغاية وإليها: سبقه إليها. المدلج الساري: السائر ليلاً. المناهل: المشارب.
(٣) الغراسة: زراعة الأشجار.

وأخبرني السيد حقيقةً والماجد[1] خلقاً وخليقةً، أبو زَكَرِيَّا يحيى ابن الإمام أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب ابن الإمام أمير المؤمنين أبي مُحمَّد عبد المُؤمِن بن عليّ: أنه رأى على ظهر كتاب الحماسة بخط الخليفة عبد المُؤمِن هذين البيتين، وقال لي رحمه اللَّه: لا أدري هُمَا لَهُ أو لغيره: [من البسيط]

وحُكْمُ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعاقِبةٍ وَخلِّها سِيرةً تَبْقَى على الحِقَبِ[2]
فما تُنالُ بِغَيْرِ السيفِ مَنْزِلةٌ ولا تُرَدُّ صُدُورُ الخيلِ بالكُتُبِ

وقد كان عبد المُؤمِن حين فَصَل عن بجاية وولّى عليها ابنه عبد اللَّه ـ حسبما تقدم ـ عَهِدَ إليه أن يشنّ الغارات على نواحي إفريقية، وأن يُضيّق على تُونُس ويمنع عنها المرافق التي تصل إليها على طريقه؛ ففعل ذلك.

[غزو الموحدين لإفريقية]

ثم إن عبد اللَّه تجهز في جيشٍ عظيم من المصامدة والعرب وغيرهم، وسار حتى نزل على مدينة تُونُس، وهي حاضرة إفريقية بعد القَيْرَوان، وكرسيُّ مملكتها، ومَقَرُّ تدبيرها، وإياها يستوطن والي إفريقية، لم يزل هذا معروفاً من أمرها إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ـ فحاصرها عبد اللَّه المذكور، وأخذ في قطع أشجارها وتغوير مياهها[3]. وكان الذي يملكها في ذلك الوقت لوجار بن لوجار المعروف بابن الدوقة الروميّ صاحب صِقِلِّية ـ لعنه اللَّه ـ. وكان عامِلَهُ عليها رجلٌ من المسلمين اسمه عبد اللَّه؛ يعرف بابن خراسان؛ لم يزل عاملاً عليها حتى أخرجه الموحدون في التاريخ الذي سيذكر. فلما طال على ابن خراسان الحصار، أجمع رأيه ورأي أهل البلد من الجند على الخروج لقتال المصامدة، ففعلوا ذلك، وخرجوا بخيلٍ ضخمةٍ، فالتقوا هم وأصحابُ عبد اللَّه فانهزم أصحاب عبد اللَّه، وقُتل منهم خلقٌ كثيرٌ. ورجع عبد اللَّه ببقية أصحابه إلى بجاية، فكتب إلى أبيه يخبره بذلك.

[فتح المهدية واسترجاعها من يد الصِّقلِّيين]

فلما كان في آخر سنة ٥٥٣ أخذ عبد المُؤمِن في الحركة إلى إفريقية، فجمع جموعاً عظيمةً من المصامدة وغيرِهم من جُند المغرب، وسار حتى نزل على مدينة تونس، فافتتحها عَنوة؛ وفَصَل عنها إلى مهديَّةِ بني عُبيد؛ وفيها الروم أصحابُ ابن

---

(١) الماجد: الشريف الخَيِّر.
(٢) الحِقَبُ: الدهور.
(٣) غَوَّرَ الماء: جعله يغور في الأرض: يذهب فيها ويسفل، فلا يُستطاع الانتفاع به.

الدوقة، وفيها معهم يَحْيَى بن حَسَن بن تَميم بن المُعِزّ بن بَادِيس بن المنصور بن بُلُجِّين بن زِيري بن مَنَاد الصَّنْهاجي، ملوكُ القَيْرَوان؛ فنزل عبد المُؤْمِن عليها فحاصرها أشد الحصار، وهي من معاقل المغرب المنيعة؛ لأن بنيانها في غاية الإحكام والوَثَاقة[1]؛ بلغني أن عَرْضَ حائط سورها مَمْشَى ستة أفراس في صفٍّ واحد، ولا طريق لها من البرّ إلّا على باب واحدٍ، والبحرُ في قبضة مَن في البلد: يدخُل الشينيّ كما هو بمُقاتلتِه إلى داخل دار الصناعة، لا يقدر أحد ممن في البرّ على منعه؛ فبهذا قَدر الرومُ على الصبر على الحصار؛ لأن النجدة كانت تأتيهم من صِقِلّية في كل وقت. وأقام عبد المُؤْمِن وأصحابه عليها سبعة أشهر إلا أياماً، وأصابتهم عليها شدةٌ شديدة من غلاءِ السعر؛ بلغني عن غير واحد أنهم اشتروا الباقِلّاءَ في العسكر، سبع باقلات بدرهم مُؤمِنيّ، وهو نصف درهم النُّصاب. ثم افتتحها عبد المُؤْمِن ـ رحمه اللَّه ـ بعد أن أمَّن النصارى الذين بها على أنفسهم، على أن يخرجوا له عن البلد، ويلحقوا بِصِقِلّيةَ بلدِهم حيث مملكة صاحبِهم؛ ففعلوا ذلك، ودخل عبد المُؤْمِن وأصحابُه المهديةَ فملكوها.

وبعث إلى قابس من افتتحها، وفيها الروم أيضاً.

[امتداد مملكة الموحدين إلى الشرق]

ثم افتتح طرابلس المغرب، وأرسل إلى بلاد الجريد، وهي تَوْزَر، وَقَفْصة، وَنَفْطَة، والحامّة، وما والى هذه البلاد؛ فافتُتحت كلُّها، وأخرج الإفرنج منها وألحقهم ببلادهم كما تقدم. فمحا اللَّه به الكفر من إفريقية، وقطع عنها طمع العدو؛ فانتبه[2] بها الدينُ بعد خموله، وأضاء كوكب الإيمان بعد انطماسه وأفوله[3].

وتمَّ لعبد المُؤْمِن ـ رحمه اللَّه ـ ملك إفريقية كلها منتظماً إلى مملكة المغرب، فملك في حياته من طرابلس المغرب إلى سُوس الأقصى من بلاد المصامدة وأكثر جزيرة الأندلس؛ وهذه مملكة لم أعلمها انتظمت لأحدٍ قبله منذ اختلت دولةُ بني أمية إلى وقته.

[ألوان من شكر النعمة]

ثم كَرَّ عبدُ المُؤْمِن راجعاً من إفريقية، بعد ما استولى على بلادها ودان له أهلها[4]؛

---

(١) الوثاقة: يقال: وَثُقَ الشيءُ وَثَاقَةً: قَوِيَ وثبت وصار محكماً.
(٢) انتبه: نَبُهَ: شَرُفَ وعلا ذِكْرُه.
(٣) الأُفول: الغياب.
(٤) دان له أهلها: خضعوا.

فأخبرني بعض أشياخ الموحدين من ذوي التحصيل منهم والثقة، أَنَّ عبد المُؤمِن مرّ في طريقه راجعاً من إفريقية بِبَجاية؛ فدخل البلد متنزهاً فيه، فَمرَّ بِسُوَيْقَة[١] بناحية باب من أبوابها يدعى «باب تاطُنت»؛ فوقف ووقفتْ معه وجوهُ دولته؛ فسأل عن بيّاع بها سمّاه باسمه؛ فأخبره أهلُ السُّوَيْقَة بوفاته، فقال: هل خلَّف عَقِباً؟ قالوا: نعم؛ فأمر بشراء جميع الدكاكين التي بتلك السُّوَيْقَة وأوقفها عليهم، وأمر لهم بمال كثير. ثم التفت إلى بعض خواصّه وقال له: أتيتُ إلى هذا البيّاع ولي وللإمام ـ يعني ابن تُومَرْت ـ ولجماعةٍ من أصحابنا من الطلبة أيامٌ لم نَطْعَم فيها، وما معي إلا سِكّين الدَّواة؛ فأخذتُ منه خُبزاً وإداماً، ثم وضعت عنده السِّكِّين رهناً على ذلك، فأبى قبولها وقال لي: إني توسمتُ فيك الخير؛ فمتى أعوَزَك شيءٌ فَهَلُمَّ الدكان فهو بين يديك وبحكمك! فحقُّه عليَّ أكثرُ من هذا.

* * *

ونظر في هذا اليوم الذي ركب فيه مخترقاً بجاية إلى يحيى بن العزيز يمشي بين يديه راجلاً وقد علاه الغبار، فدمعت عيناه، واستدعاه فقال له: أتذكر يوماً خرجتَ إلى بعض منتزهاتك، فأذكر أني جمعني وإياك هذا الباب، فَوطئتْ دابتُكَ عَقِبي، فلما نظرتُ إليك أمرتَ بعض عبيدك فَوَكَزني وَكْزَةً[٢] كدتُ أقع منها لِفِيَّ! فاستحيا يَحْيَى وتغيّر لَوْنُه وأطرق، وجعل يقول: اللَّهَ اللَّهَ يا مولاي! وظَنَّ أنه الشرّ؛ فلما رأى ذلك منه قال له: إنما ذكرتُ لك ذلك على طريق الاعتبار؛ ولِتَذكُر وتنظر كيف تقلُّبُ الأيامِ بأهلها! وأمر له بما زال به رَوْعُهُ[٣].

* * *

ومرَّ في طريقه هذا ما بين البَطْحَاء وَتِلِمْسَان بموضع قد التفَّ فيه الدَّوْحُ، فجاءت منه دَوْحَةٌ[٤] في وسطها رَحْبَةٌ[٥] نقية؛ فأمر أن يُضرب خِباؤه هنالك؛ وهو غيرُ منزلٍ معروف. فلما نزل ونزلت العساكر واستقر بهم النزول، قال لبعض خواصه: أتدرون لِمَ آثرتُ النزول بهذا المكان؟ قالوا: لا؛ قال: ذلك لأني بِتُّ بهذا الموضع في بعض الليالي جائعاً مقروراً[٦]، وكانت ليلةً ممطورةً؛ فما زال هذا الدوح وقائي حتى أصبحت؛ فأردت النزول هنا على هذه الحالة لأشكر اللَّه سبحانه على الفَرْقِ ما

---

(١) السُّوَيْقَةُ: السوق الصغيرة.

(٢) وَكَزَ فلاناً: دفعه وضربه، أو ضربه بجمع يده على ذقنه، قال تعالى: **﴿فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عليه﴾** [القصص: ١٥]. ومنه: وَكَزَ فلاناً بالرمح: طعنه به.

(٣) الرَّوْعُ: الخوف والفزع.

(٤) الدوحة: الشجرة العظيمة المتشعبة ذات الفروع الممتدة.

(٥) الرحبة: الأرض الواسعة، ورحبة المكان: ساحته وَمُتَّسَعُه.

(٦) المقرور: الذي أصابه البرد.

بين المنزلتين والفصلِ ما بين المبيتين! ثم قام فتوضأ وصلَّى ركعتين شكراً للَّه عزَّ وجلَّ. وجدتُ هذه الحكاية بخطِّ رجلٍ من ولدِ ولدِ عبد المُؤمِن؛ من اسمه مُوسَى بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن.

* * *

وبدا لهُ في هذا الوجه أن يمرَّ على القرية التي تُسَمى «تاجرا» ـ وبها كان مولده كما تقدم ـ لزيارة قبر أمه وَصِلَةِ مَنْ هُناك من ذوي رحِمِه؛ فلما أطلّ عليها والجيوشُ قد انتشرت بين يديه وقد خفقَتْ على رأسه أكثرُ من ثلاثمائة راية ما بين بنود وألوية، وهُزَّتْ أكثرُ من مائتي طبلٍ ـ وَطُبولهم في نهاية الكبر وغاية الضخامة، يُخيِّلُ لسامعها إذا ضربت أن الأرض من تحته تهتزُّ ويُحِسُّ قلبه يكاد يتصدع من شدة دَوِيِّها ـ فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة؛ فقالت امرأةٌ عجوزٌ من عجائز القرية، ممن كانت تصحب أمَّه: هكذا يعود الغريب إلى بلده! تقول ذلك رافعةً صوتها...

[وفاء وفداء]

ونازع عبدَ المُؤمِن الأمرَ قومٌ من قرابة ابن عبد اللَّه يُعرفون بأيت ومَغار ـ معناه بالعربية: بنو ابن الشيخ ـ وانتهوا في ذلك إلى أن أجمع رأيهم ورأى من وافقهم على سوء صَنِيعهم على أن يدخلوا على عبد المُؤمِن خباءه ليلاً فيقتلوه؛ وظنوا أن ذلك يخفَى من أمرهم، وأن عبد المُؤمِن إذا فُقِد ولم يُعلم مَن قَتَله صار الأمر إليهم؛ لأنهم أحقّ به؛ إذ كانوا أهلَ الإمام وقرابتَه وأولى الناس به، فأعلم بما أرادوه من ذلك رجلٌ من أصحاب ابن تُومَرْت، من خيارهم، اسمه إسماعيل بن يحيىٰ الهَزْرَجي؛ فأتى عَبْدَ المُؤمِن فقال له: يا أمير المؤمنين، لي إليك حاجة! قال: وما هي يا أبا إبراهيم؟ فجميع حوائجك عندنا مقضية! قال: أن تخرج عن هذا الخباء وتَدَعني أبيتُ فيه! ولم يُعلمه بمراد القوم؛ فظن عبد المُؤمِن أنه إنما يَسْتَوْهبه الخباء لأنه أعجبه؛ فخرج عنه وتركه له؛ فبات فيه إسماعيل المذكور؛ فدخل عليه أولئك القوم فتولَّوه بالحديد حتى بَرَد. فلما أصبحوا ورأوا أنهم لم يُصيبوا عبد المُؤمِن؛ فَرُّوا بأنفسهم حتى أتوا مَرَّاكُش وراموا القيام بها؛ فأتوا البوابين الذين على القصور فطلبوا منهم المفاتيح، فأبوا عليهم؛ فضربوا عنقَ أحدهم وفرّ باقيهم؛ وكادوا يَغلبون على تلك القصور. ثم إن الناس اجتمعوا عليهم، من الجند وخاصّة العبيد، فقاتلوهم قتالاً شديداً من لَدُنْ طلوع الفجر إلى طلوع الشمس. ثم إن العبيد غلبوهم على أمرهم؛ ولم يزل الناس يتكاثرون عليهم إلى أن أَخذوا قبضاً باليد، فَقُيِّدوا وجُعلوا في السجن إلى أن وصل أبو مُحمَّد

عبد المُؤْمِن ـ رحمه اللّه ـ إلى مَرَّاكُش؛ فقتلهم صبراً، وقتَل معهم جماعةً من أعيان هرغة، بلَغه أنهم قادحون[1] في مُلكه مُتَربِّصُون به.

ولما أصبح أبو إبراهيم إسماعيل المتقدم الذكر في الخباء مقتولاً على الحال التي ذكرنا، أعظم ذلك عبدُ المُؤْمِن وَوَجدَ[2] عليه وجداً مُفرطاً أخرجه عن حد التماسك إلى حيّز الجزع، فأمر بغسله وتكفينه، وصلَّى عليه بنفسه، ودُفن.

ولم يترك إسماعيل هذا من الولد سوى ولد واحدٍ ذكر، اسمه يحيى. نال يحيى هذا في أيام أبي [يوسف] يعقوب جاهاً متسعاً ورتبةً عاليةً، وكذلك في أيام أبي عبد اللّه [محمد]؛ كانت أكثر أمورهم ترجع إليه؛ لم يزل كذلك إلى أن مات في شهور سنة ٦٠٢ وترك بنتاً واحدة، تزوجها أمير المؤمنين أبو يعقوب يُوسُف بن عبد المُؤمِن، اسمها فاطمة، لا عقب له منها؛ طال عمرها، تركتها بالحياة حين فَصَلْتُ عن مَرَّاكُش في شهور سنة ٦١١.

* * *

ولإسماعيل هذا مع ابن تُومَرْت خبر يَقْرُبُ مما قدَّمنا في النصح والتحذير، تَلَطَّف فيه إسماعيل غاية التلطف؛ وذلك أن ابن تُومَرْت حين خرج من مَرَّاكُش على الحال التي تقدمتْ من إخراج أمير المسلمين إياه عنها، سار حتى نزل الضّيعةَ التي فيها أبو إبراهيم؛ فدخل المسجد، فاجتمع أهل الضيعة على باب المسجد ينظرون إلى ابن تُومَرْت ويقول بعضهم لبعض همساً: هذا الذي نفاه أمير المسلمين عن بلاده لإفساده عقولَ الناس؛ ونحوَ هذا القول؛ وهمُّوا بقتله تقرُّباً بذلك إلى أمير المسلمين. فلما رأى ذلك أبو إبراهيم من أمرهم، تقدم إلى ابن تُومَرْت فسأله عن إعراب هذه الآية: ﴿إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠]. ففهم ابن تُومَرْت ما أراد، وخرج عن تلك الضيعة، وعَرف لأبي إبراهيم نصحه؛ ثم لحق به أبو إبراهيم هذا بعد ما اشتهر أمره بـ«تينملّ»؛ فهو معدود في أهل الجماعة.

* * *

ولما قَتَلَ عبد المُؤمِن أولئك القوم الذين قدمنا ذكرهم صبراً، هابه المصامدة وسائر أهل دولته، وعَظُم أمره في صدورهم.

وأقام عبد المُؤمِن بِمرَّاكُش بقية سنة ٥٥ وسنة ٦ وسنة ٧ وفي أول سنة ٥٨ خرج أمره إلى الناس كافةً بالغزو إلى بلاد الروم من جزيرة الأندلس. وكُتبت عنه

---

(١) قَدَحَ فيه: عابه.
(٢) وَجَدَ عليه وَجْداً: حَزِنَ.

الكتب إلى سائر الجهات يستنفر الناس ويحضّهم على الجهاد وَيُرغِّبهم فيه، فاجتمعت له جموع عظيمة. وخرج يقصد جزيرة الأندلس مُظهراً للغزو والاحتساب، ويتمم أيضاً مع ذلك ما بقي عليه من مملكتها مما بيد مُحمَّد بن سَعْد المتقدم الذكر. فسار بالجيوش حتى نزل مدينة سَلَا، فأقام بها ينتظر تكامل العساكر، فاعتلّ علته التي مات منها رحمه اللّه.

[وفاة عبد المُؤْمِن وعهده لولده]

وكانت وفاته كما تقدم في السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، أعني سنة ٥٨.

وكان قد عَهِدَ في حياته إلى أكبر أولاده مُحمَّد، وبايعه الناس، وكتب ببيعته إلى البلاد؛ فأبى تمامَ هذا الأمرِ لِمُحمَّدٍ هذا ما كان عليه من أمورٍ لا تصلح معها الخلافة، من إدمان شرب الخمر، واختلال الرأي، وكثرة الطيش، وجبن النفس. ويقال: إنه مع هذا كان به ضَرْبٌ من الجُذام[1]، فاللّه أعلم.

ولما مات عبد المُؤْمِن، اضطرب أمر مُحمَّد هذا واخْتُلف عليه اختلافاً كثيراً؛ فكانت ولايته إلى أن خُلِعَ خمساً وأربعين يوماً، واتفقوا على خلعه في شعبان من هذه السنة. وكان الذي سعى في خلعه ـ مع ما قدمنا من استحقاقه لذلك ـ أخواه يُوسُف وعُمَر.

(١) الجُذَامُ: عِلّةٌ تَتَأَكَّلُ منها الأعضاء وتتساقط.

ذكر ولاية أبي يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤْمِن وما يتعلق بها

ولما تم خلع مُحمَّد في التاريخ المذكور، بعد اتفاق من وجوه الدولة على ذلك، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المُؤْمِن: يُوسُف، وعُمَر، وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم[١] وذوي الرأي والغَناء[٢] منهم، فأباها عُمَر منهما وتأخَّر عنها مختاراً؛ وبايع لأخيه أبي يعقوب، وسلّم له الأمر؛ حَمَلَهُ على ذلك فَرْطُ عقله وإيثارُ دينه وحُبُّ المصلحة للمسلمين؛ لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لا يصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية. فبايع الناسُ أبا يَعْقُوب، واتفقت عليه الكلمة؛ فلم يختلف عليه أحد من الناس من إخوته ولا غيرِهم. وذلك كله بحسن سعي أبي حَفْص عُمَر بن عبد المُؤْمِن، وشدَّةِ تلطّفه، وجَوْدةِ رأيه. فاستوسق لأبي يَعْقُوب هذا أمرُه، وتمَّت بيعتُه في التاريخ المذكور. وكان الساعي فيها والقائم بها ومديرها إلى أن تمت ـ كما ذكرنا ـ أخوه لأبيه وأمه، أبو حَفْص المتقدم الذكر.

وأبو يَعْقُوب هذا هو يُوسُف بن عبد المُؤْمِن بن عليّ؛ أمُّه وأمُّ أخيه أبي حَفْص، امرأةٌ حُرَّة اسمها زينب ابنة مُوسَى الضرير. كان [مُوسَى هذا] من [شيوخ] أهل تينملّ وأعيانهم، [من ضَيعة يقال لها: أنسا]، وكان عبد المُؤْمِن يستخلفه على مَرَّاكُش إذا خرج عنها، وكانت مصاهرته إياه أيام كان عبد المُؤْمِن بتينملّ، برأي ابن تُومَرْت. وخَلَّفَ مُوسَى هذا من الولد الذكور ثلاثة: إبراهيم، وعليًا، ومُحمَّداً، وبنات.

صفة أبي يَعْقُوب

كان أبيض تعلوه حُمرة، شديدَ سوادِ الشعر، مستدير الوجه، أفوَهَ[٣]، أَعْيَنَ[٤]،

(١) النُّجباء: جمع النجيب: النبيه، الظاهر الفضل على أمثاله.
(٢) الغَنَاءُ: النفع والكفاية.
(٣) الأفوه: الواسع الفم.
(٤) الأعين: الواسع العينين.

إلى الطول ما هو. في صوته جهارة[١]، رقيق حواشي اللسان[٢]، حلو الألفاظ، حسن الحديث، طيب المجالسة، أعْرَف الناسِ كيف تكلمت العرب، وأحفَظهم لأيامها ومآثرها وجميع أخبارها في الجاهلية والإسلام. صرف عنايته إلى ذلك أيام كونه بإشْبِيليّة والياً عليها في حياة أبيه. ولقي بها رجالاً من أهل علم اللغة والنحو والقرآن، منهم الأستاذ اللغوي المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بـ«ابن مُلْكون»، فأخذ عنهم جميع ذلك وبرع في كثير منه.

أخبرني من لقيته من ولده، كأبي زَكَرِيَّا، وأبي عبد اللّه، وأبي إبراهيم إسحاق، وغيرهم ممن لقيته وشافهتُه منهم، أنه كان أحسنَ الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعَهم نُفوذَ خاطرٍ في غامض مسائل النحو، وأحفظَهم للغة العربية. وكان شديد الملوكية، بعيد الهمة، سخيًّا جواداً، استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال، هذا مع إيثارٍ للعلم شديدٍ، وتعطُّشٍ إليه مُفرط؛ صحَّ عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين ـ الشك منِّي؛ إما البخاري[٣] أو مُسلم[٤]، وأغلب ظنّي أنه البخاري ـ حَفِظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن، هذا مع ذِكر جُمل من الفقه. وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساعٌ في حفظ اللغة، وَتَبحُّرٌ في علم النحو حسبما تقدم. ثم طمح به شرفُ نفسه وعلوُّ همته إلى تعلُّم الفلسفة، فجمع كثيراً من أجزائها، وبدأ من ذلك بعلم الطب، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل. ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرفُ منه من أنواع الفلسفة، وأمر بجمع كتبها؛ فاجتمع له منها قريبٌ مما اجتمع للحَكم المستنصر باللّه الأموي.

أخبرني أبو مُحمَّد عبد الملك الشَّذونيّ، أحد المتحققين بِعِلْمَيْ الطب وأحكام النجوم، قال: كنت في شبيبتي أستعير كتب هذه الصناعة ـ يعني صنعة الأحكام ـ من رجلٍ كان عندنا بمدينة إشْبِيليّة، اسمه يُوسُف، يُكنى: أبا الحجَّاج، يعرف بـ«المراني» (بتخفيف الراء)، كانت عنده منها جملة كبيرة وقعتْ إلى أبيه في أيام الفتنة بالأندلس؛

---

(١) الجهارة: ارتفاع الصوت، يقال: جَهُرَ الصوتُ جُهُورة و «جهارة»: ارتفع.
(٢) رقيق حواشي اللسان: أي لِيِّن الكلام لَطِيفُهُ.
(٣) البخاري: هو أبو عبد اللّه، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري: حبر الإسلام، الحافظ لحديث رسول اللّه ﷺ، صاحب الجامع الصحيح المعروف بـ «صحيح البخاري». توفي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م. (تاريخ بغداد، البغدادي: ٢/ ٤).
(٤) مسلم: هو أبو الحسين، مسلم بن الحجّاج بن مسلم القشيري النيسابوري: الإمام، المُحدِّث، صاحب الجامع الصحيح المعروف بـ «صحيح مسلم». توفي سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٥م. (تاريخ بغداد، البغدادي: ١٣/ ١٠٠).

فكان يُعيرني إياها في غرائر[١]: أحمل غِرَارةً وأجيء بِغِرَارَةٍ؛ من كثرتها عنده، فأخبرني في بعض الأيام أنه عَدِمَ تلك الكتبَ بجملتها، فسألته عن السبب الموجب لذلك، أسرَّ إليَّ أَنَّ خبرها أُنْهِيَ إلى أمير المؤمنين، فأرسل إلى داري وأنا في الديوان لا علم عندي بذلك؛ وكان الذي أرسل كافور الخَصِيّ مع جماعة من العبيد الخاصة، وأمره ألا يُرَوِّعَ أحداً من أهل الدار، وألا يأخذ سوى الكتب، وتوَعَّدَه والذين معه أشدَّ الوعيد إن نقص أهلَ البيت إبرةٌ فما فوقها. فأُخْبِرت بذلك وأنا في الديوان؛ فظننته يريد استصفاء أموالي، فركبتُ وما معي عَقلي، حتى أتيتُ منزلي، فإذا الخصيُّ كافور الحاجبُ واقفٌ على الباب والكتبُ تخرج إليه. فلما رآني وتبيَّنَ ذُعري قال لي: لا بأس عليك! وأخبرني أن أمير المؤمنين يُسلِّم عليّ، وأنه ذكَرني بخير! ولم يزل يبسطني حتى زال ما في نفسي؛ ثم قال لي: سَلْ أهل بيتك هل راعهم أحدٌ أو نقصهم شيءٌ من متاعهم؟ فسألتهم، فقالوا: لم يَرُعْنا أحدٌ ولم ينقصنا شيء، جاء أبو المِسْك[٢] حتى استأذن علينا ثلاثَ مرات، فأخلينا له الطريق، ودخل هو بنفسه إلى خزانة الكتب فأمر بإخراجها. فلما سمعتُ هذا القول منهم زال ما كان في نفسي من الرَّوع.

ووَلَّوه بعد أَخْذِهم لهذه الكتب منه ولايةً ضخمة ما كان يُحدِّث بها نفسه.

ولم يزل يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء، وخاصةً أهل علم النظر، إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله ممن مَلَك المغرب.

[أبو بَكْر بن طُفَيْل(*)]

وكان ممن صَحِبه من العلماء المتفننين، أبو بَكْر مُحمَّد بن طُفَيْل، أحد فلاسفة المسلمين. كان متحققاً بجميع أجزاء الفلسفة؛ قرأ على جماعةٍ من المتحقِّقين بعلم الفلسفة، منهم أبو بَكْر بن الصَّائغ المعروف عندنا بابن باجَّة[٣] وغيره. ورأيت لأبي بَكْرِ هذا تصانيفَ في أنواع الفلسفة من الطبيعيات والإلهيات وغير ذلك. فمن رسائله

---

(١) الغرائر: جمع الغِرَارة: وعاء من خيشٍ ونحوه، وهو أكبر من الجوالق.

(٢) أبو المسك: كنية كافور.

(*) ترجمته في الأعلام: ٦/ ٢٤٩؛ معجم المؤلفين: ١٠/ ٢٥٩؛ كشف الظنون: ٨٦٢.

(٣) هو أبو بكر، محمد بن يحيى بن باجّة التجيبيّ الأندلسيّ السَّرَقُسْطيّ، المعروف بابن الصائغ: من فلاسفة الإسلام، يُنسب إلى التعطيل، ومذهب الحكماء. توفي سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٩م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٤/ ٤٢٩).

في الطبيعيات رسالة سماها رسالة «حيّ بن يقظان» غَرَضُه فيها بيانُ مبدإ النوع الإنساني على مذهبهم، وهي رسالة لطيفة الجرم[١] كبيرة الفائدة في ذلك الفن. ومن تصانيفه في الإلهيات رسالةٌ في النفس رأيتها بخطه رحمه اللّه. وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهيّ ونبذ ما سواه. وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة، مُعظِّماً لأمر النُّبوّات ظاهراً وباطناً، هذا مع اتساعٍ في العلوم الإسلامية. وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عِدة أصناف من الخَدَمة، من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرُّماة والأجناد، إلى غير هؤلاء من الطوائف. وكان يقول: لو نَفَق عليهم علمُ الموسيقا لأنفقتُه عندهم! وكان أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب شديدَ الشغف به والحبِّ له؛ بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر. وكان أبو بَكْر هذا أحدَ حسنات الدهر في ذاته وأدواته؛ أنشدني ابنه يَحْيَى بمدينة مَرّاكُش سنة ٦٠٣ من شعر أبيه رحمه اللّه: [من الطويل]

أَلَـمَّـتْ وقَـدْ نـام الـمُـشِـيـحُ وَهَـوَّمـا ... وأَسْرَتْ إلى وادي العقيقِ منَ الحِمَى[٢]

وَجَرَّتْ على تُرْبِ المحَصَّبِ ذَيْلَها ... فَمَا زالَ ذاكَ التُّربُ نَهْباً مُقسَّمَا[٣]

تَـنـاوَلُـهُ أيـدي الـتـجَـارِ لَـطِـيـمَـةً ... وَيَـحْـمِـلُـه الـدَّارِيُّ أيَّـانَ يَـمَّـمَـا[٤]

وَلـمَّـا رأتْ أنْ لا ظَـلَامَ يـجـنُّـهـا ... وأنَّ سُرَاهـا فـيـه لَـنْ يـتـكـتَّـمـا[٥]

نَضَتْ عَذَباتِ الرَّيطِ عنْ حُرِّ وَجْهِها ... فَأبدتْ مُحيَّا يُذْهِشُ المُتوسِّما[٦]

فَكانَ تَجلِّيها حِجابَ جَمالِها ... كَشَمْسِ الضُّحى يَعْشَى بها الطَّرْفُ كُلَّما[٧]

وَلَمَّا التقينا بَعْدَ طُولِ تَهاجُرٍ ... وَقَدْ كادَ حَبْلُ الوُدِّ أنْ يَتَصَرَّما[٨]

---

(١) الجِرْم: الحجم، أو الهيئة، أو الجسد.

(٢) أَلَمَّت: زارت زيارة قصيرة. المُشِيحُ: اسم فاعل من شاح وجهه أو بوجهه: أعرض مُبْدِياً كُرْهاً وازدراءً. هَوَّم الرجل: نام نوماً خفيفاً. أسرت: سارت ليلاً.

(٣) المُحصَّبُ: موضع رمي الجمار بِمِنىً. النَّهْبُ: الغرض المُعرَّض للإصابة، أو الغنيمة، أو المال المنهوب.

(٤) التُّجار: جمع التاجر: الشخص الذي يمارس الأعمال التجارية على وجه الاحتراف، والعرب تسمي بائع الخمر تاجراً. اللطيمة: وعاء المسك. يَمَّمَ الرجل: تَوجَّه، قَصَدَ.

(٥) يجنُّها: يَسْتُرها، يُغَطِّيها.

(٦) نضت الثوب ونحوه: نزعته وأَلْقَتْهُ. العَذَبات: جمع العَذَبة: طَرَفُ الشيء. الرَّيْطُ: جمع الرائطة: الملاءة كلها نسج واحد، أو كلّ ثوب لَيِّن رقيق. المُتوسِّمُ: المُتَفرِّسُ.

(٧) عَشا عَشْواً، وعَشِيَ عَشاً: ساء بصره ليلاً، وعن الشيء: ضَعُفَ عنه بصره فلم يره.

(٨) يَتَصرَّمُ: يَتَقَطَّعُ.

جَلَتْ عَنْ ثَنَايَاهَا وأومضَ بارقٌ فَلَمْ أدرِ مَنْ شَقَّ الدُّجنَّةَ مِنْهُما[١]
وسَاعَدني جَفْنُ الغَمامِ على البُكا فلم أدرِ دَمْعاً أيُّنا كانَ أَسْجَمَا[٢]
فَقالتْ وقد رَقَّ الحديثُ وأبصرتْ قَرائنَ أحوالٍ أَذَعْنَ المُكتَّما:[٣]
نَشَدتُكَ لَا يَذْهب بكَ الشوقُ مذهباً يُهوِّنُ صَعباً أو يُرَخِّصُ مأثَما[٤]
فأَمْسَكْتُ لا مُسْتَغنياً عنْ نَوالِها وَلكنْ رأيتُ الصَّبْرَ أوفى وأكْرَما[٥]

ومن شعره في الزهد ـ رحمه اللّه ـ ما قرأ عليَّ ابنُه من خطّه في التاريخ المذكور: [من البسيط]

يا باكياً فُرْقةَ الأحبابِ عَنْ شحَطٍ هَلَّا بَكَيْتَ فِراقَ الرُّوحِ للبَدنِ[٦]
نُورٌ تَرَدَّدَ في طينٍ إلى أَجَلٍ فَانْحازَ عُلواً وخَلَّى الطينَ لِلكَفنِ[٧]
يا شَدَّ ما افترقا مِنْ بَعْدِ ما اعْتَلقا أَظُنُّها هُدنةً كانتْ على دَخَنِ[٨]
إنْ لم يَكُنْ في رِضَى اللَّه اجتماعُهما فَيا لَها صَفْقةً تمَّتْ على غَبَنِ[٩]

وأنشدني بعض أصحابنا من الكُتَّاب له رحمه اللّه: [من المنسرح]

ما كلّ مَنْ شَمَّ نالَ رائحةً للناسِ في ذا تبايُنٌ عَجَبُ
قَومٌ لَهُمْ فكرةٌ تَجُولُ بِهِمْ بَيْنَ المعاني، أولئكَ النُّجُبُ[١٠]
وَفِرْقَةٌ في القُشورِ قَدْ وَقَفُوا وَلَيْسَ يَدرُون لُبَّ ما طلبوا[١١]
لا غايةٌ تَنْجَلِي لِناظِرِهِمْ مِنْهُ ولا يَنْقَضي لَهُمْ أَرَبُ[١٢]

---

(١) جَلَتْ: كشفت. الثنايا: أسنان الفم الأمامية. الدُّجُنَّة: الظُّلمة.
(٢) أسجم الماء أو الدم: سال أو انصبّ. وهذا أسجم من ذاك: أكثر سجوماً منه: أي سيلاناً.
(٣) المُكَتَّمُ: المستور، المَخْفِيُّ.
(٤) المذهب: الطريقة. المأثم: اسم من أثم إثماً وأثاماً ومأثماً: وقع في الإثم، وهو الذنب الذي يستحق العقوبة.
(٥) النوال: العطاء، وهو هنا الوصال أو اللقاء ونحو ذلك.
(٦) الشحط: البعد.
(٧) انحاز عن الشيء: عدل، أو انضمّ واجتمع.
(٨) اعتلقه، وبه: أحبّه حُبًّا شديداً. هدنة على دخن: أي صُلْحٌ على فساد باطن.
(٩) الصفقة: البيعة، أو العقد. الغَبَنُ: النقص والخسارة.
(١٠) تجول بهم: تطوف. النُّجبُ: الفضلاء على أمثالهم.
(١١) اللُّبُّ من كلّ شيء: خالصه وخياره.
(١٢) تنجلي: تنكشف، تظهر. الأرب: الحاجة.

لا يَتَعَدَّى امْرُؤٌ جِبِلَّتَهُ قَدْ قُسِمَتْ في الطبيعة الرُّتَبُ[1]

ولم يزل أبو بَكْر هذا يَجْلِبُ إليه العلماءَ من جميع الأقطار وَيُنبِّهُه عليهم، ويحضّه على إكرامهم والتنويه بهم، وهو الذي نبَّهه على أبي الوليد مُحمَّد بن أحمد بن مُحمَّد بن رُشْد؛ فمن حينئذٍ عَرَفوه وَنبُه قَدْرُه عندهم.

[أبو الوليد بن رُشْد(*)]

أخبرني تلميذه الفقيه الأستاذ أبو بَكْر بُنْدُود بن يَحْيى القُرْطُبي قال: سمعت الحكيم أبا الوَليد يقول غير مرَّةٍ: لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب وجدتُه هو وأبو بَكْر بن طُفَيْل ليس معهما غيرهما؛ فأخذ أبو بَكْر يُثني عليَّ ويذكر بيتي وسَلَفي، ويضمُّ بفضله إلى ذلك أشياءَ لا يبلغُها قَدْري. فكان أولَ ما فاتحني به أميرُ المؤمنين بعد أن سألني عن اسمي واسم أبي ونسبي أن قال لي: ما رأيُهم في السماء ـ يعني الفلاسفة ـ أقديمةٌ هي أم حادثة؟ فأدركني الحياء والخوف؛ فأخذتُ أتعلَّل وأُنكر اشتغالي بعلم الفلسفة؛ ولم أكن أدري ما قرَّر معه ابنُ طُفَيْل. ففهم أميرُ المؤمنين مني الرَّوْعَ والحياء؛ فالتفت إلى ابن طُفَيْل وجعل يتكلَّم على المسألة التي سألني عنها، ويذكر ما قاله أرسطوطاليس وأفلاطون وجميعُ الفلاسفة، ويُورد مع ذلك احتجاجَ أهل الإسلام عليهم؛ فرأيتُ منه غزارةَ حفظ لم أظنَّها في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له. ولم يزل يبسُطُني حتى تكلمت، فعرف ما عندي من ذلك؛ فلما انصرفتُ أمر لي بمالٍ وخلعةٍ سنيَّةٍ ومَرْكب.

وأخبرني تلميذه المتقدم الذكر عنه قال: «استدعاني أبو بَكْر بن طُفَيْل يوماً فقال لي: سمعتُ اليوم أميرَ المؤمنين يَتشكَّى من قلقِ عبارة أرسطوطاليس، أو عبارة المترجمين عنه، ويذكر غُموضَ أغراضه، ويقول: لو وَقَعَ لهذه الكتب من يُلخِّصها ويُقرِّب أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لَقَرُبَ مأخذُها على الناس؛ فإن كان فيك فضلُ قوةٍ لذلك فافعل، وإني لأرجو أن تفي به؛ لما أعلمه من جَودة ذهنك وصفاء قريحتك وقوة نُزوعك إلى الصناعة. وما يمنعني من ذلك إلا ما تَعْلَمُه من كُبرةِ سنِّي واشتغالي بالخدمة وصَرْفِ عنايتي إلى ما هو أهمُّ عندي منه. قال أبو الوليد: فكان هذا الذي حملني على تلخيص ما لَخَّصْتُه من كتب الحكيم أرسطوطاليس».

---

(١) الجِبِلَّةُ: الخِلْقة، الحالة التي فُطِرَ عليها.

(*) ترجمته في: قضاة الأندلس: ١١١؛ شذرات الذهب: ٤/ ٣٢٠؛ الأعلام: ٥/ ٣١٨؛ معجم المؤلفين: ٨/ ٣١٣؛ كشف الظنون: ٦٣، ٥١٢، ١٢٦١؛ إيضاح المكنون: ٢/ ١٩٢، ٣٢٥، ٣٤٤، ٥٨٥.

وقد رأيت أنا لأبي الوليد هذا تلخيصَ كُتبِ الحكيمِ في جُزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة، تَرْجَمهُ بـ «كتابِ الجوامع» لَخَّص فيه كتابَ الحكيم المعروفَ بـ«سمع الكيان»، و«كتابَ السماء والعالم»، و«رسالةَ الكَوْنِ والفساد»، و«كتابَ الآثارِ العُلوية»، و«كتابَ الحِسّ والمحسوس». ثم لخَّصها بعد ذلك وشرح أغراضها في كتابٍ مبسوطٍ في أربعة أجزاء.

[رَجْعُ الحديث عن الأمير أبي يعقوب]

وفي الجملة، لم يكن في بني عبد المُؤمِن فيمن تقدَّم منهم وتأخَّر مَلِكٌ بالحقيقة غير أبي يَعْقُوب هذا.

وُزَرَاؤُهُ

وَزَر له أخوه عُمَرُ أياماً يسيرةً، ثم ارتفع قَدْرُه عن الوزارة إذ رآها دونه.

ثم وَزَر له أبو العلاء إدريس بن إبراهيم بن جامع، إلى أن قَبَضَ عليه واسْتَصْفى أمواله في شهور سنة ٥٧٧.

ووزر له بعده ابنُه أبو يُوسُف وليُّ عهدِه إلى أن مات سنة ٥٨٠.

فكانت ولايته من حين بُويع له إلى أن استشهد ـ رحمة اللّه عليه ـ ببلاد الروم، اثنتين وعشرين سنة إلا أشهراً.

كُتَّابُهُ

أبو مُحمَّد عيَّاش بن عبد الملك بن عَيَّاش كاتب أبيه، وأبو القاسم المعروف بـ«القالمي»، وأبو الفَضْل جَعْفَر بن أحمد المعروفُ بـ«ابن مَحْشُوَّة»، من أهل مدينة بجاية، كان يخدم أبا القاسِم القالميَّ إلى أن مات، فكتب مكانه.

هؤلاء كتبة الإنشاء خاصة، وكُتَّاب الجيش: أبو الحسين الهَوْزَني الإشبِيلي، وأبو عبد الرَّحْمٰن الطُّوسي.

حَاجِبُه

كافور مولاه الخَصِيّ، كان يُدْعَى كافور بِغُرَّة.

أَوْلادُهُ

كان له من الولد ثمانية عشر ذكراً، وهم: عُمَر، ويَعْقُوب ـ وهو وَلِيُّ عهده ـ، وأبو بكر، وعبد اللّه، وأحمد، ويحيى ـ كان يحيى هذا، رحمه اللّه، لي صديقاً،

ومن جِهته تلقَّيْتُ أكثر أخبارهم؛ لم أرَ في الملوك ولا في السُّوقة مثله رحمة اللّه عليه؛ وما اسْتَجَزْتُ لفظة الصداقة مع أن الواجب لفظُ الخدمة، إلا لِما كان، رحمه اللّه، يكتب إليّ: أخي، وصديقي في بعض الأوقات، ووليِّي في بعضها؛ اجتمعتْ عِندي بخطِّه رقاعٌ كثيرة، خلَعَ عليَّ فيها فَضْلَه، وحلاني بما لم أكن استحقه ـ ومُوسَى، وإبراهيم، وإدريس، وعبد العزيز، وطَلْحَة، وإسحاق، ومُحمَّد، وعبد الواحد، وعُثْمَان، وعبد الحقّ، وعبد الرَّحْمٰن، وإسماعيل. وبنات.

قُضَاتُهُ

أبو مُحمَّد المالقي المتقدم الذكر. ثم عزله وولّى بعده عِيسَى بن عِمْران التَّازي[1]، من أهل رِباط تازا من أعمال مدينة فاس، من قبيلة يقال لها تَسُول، من البربر يرجعون إلى زناتة.

كان عِيسَى هذا من فضلاء أهل المغرب ونُبهائهم، وكان خطيباً مِصْقَعاً[2] وبليغاً لَسِناً[3] وشاعراً مُفلِقاً[4] مشارِكاً في كثير من العلوم. ونال في أيام أبي يَعْقُوب حُظْوَةً ومكانةً؛ كان يتكلم عن الوفود ويخطب في النوازل فيأتي بكل عجيبة. وكان مع هذا ذا مروءة تامة وتعصُّب لمن ينقطع إليه مُفرِط. أخبرني ابنه أبو عِمْرَان ـ قاضي الجماعة في وقتنا هذا ـ قال: سمعت أبي يقول وقد لامه بعضُ من يلوذ به في التنويه بأقوام ليست لهم سوابقُ ولا أقدار، رَفَعهم من الحضيض جاهُه، ونبَّههم بعد الخمول اعتناؤه: «ليس العجب ممن يأتي إليه رجلٌ نبيهُ القدر يرفعه، إنما العجب ممن يحيي الميت ويُنبِّه الخامل ويرفع الوضيع؛ فأما النبيه القدرِ فنباهتُه تكفيه».

وبلغ من إفراطه في التعصب أن قال يوماً: «ليس بحمايةٍ أن تحمي صاحبك وهو مُحِقّ؛ فإن الحق أظهرُ وأقوى من أن يُحْمَى؛ إنما الحماية أن تحميه وهو مُبْطل!» في أشباه لهذه الأخبار.

وكان له أولاد ما مِنهم إلّا من ولي القضاء؛ وهم عليّ، وكان عليٌّ هذا رجلاً صالحاً، ولي في حياة أبيه قضاءَ مدينة بجاية، ثم عُزل عنها وولي مدينة تِلِمْسان. وهو عندنا من المشهورين بالتصميم والتبتُّل[5] في دينه، وممن لا تأخذه هوادة في الحق.

---

(١) ترجمته في: بغية الملتمس: ٤٠٤.
(٢) خطيب مِصْقَع: بليغ مُتَفَنِّنٌ في مذاهب القول.
(٣) اللَّسِنُ: الفصيح البليغ.
(٤) المُفْلِقُ: الذي يأتي بما يُعجب في شعره.
(٥) التَّبَتُّلُ: الانقطاع إلى اللّه في العبادة.

ومن أولاده طَلْحَة، ولي قضاء تلمسان؛ وَيُوسُف، تركته قاضياً بمدينة فاس، بلغتْني وفاته وأنا بمكة في سنة ٦٢٠؛ وأبو عِمْران مُوسَى، قاضي الجماعة في وقتنا هذا، وسيأتي ذكره في موضعه إن شاء اللّه عزَّ وجلَّ.

ثم ولي بعد أبي موسى هذا رجلٌ اسمه حجَّاج بن إبراهيم التُّجِيبي، من أهل مدينة أغمات من أعمال مدينة مَرَّاكُش. كان حجَّاجٌ هذا رجلاً صالحاً يُعَدُّ في الزُّهاد المتبتِّلين، وكان له تبحُّرٌ في الفقه ومعرفةٌ بأصوله وبَصَرٌ بعلم الحديث، هذا مع نزاهة نفسٍ وطهارة عِرضٍ وتصميم في الحق؛ أفرط في ذلك حتى ثَقُلَتْ على كثير من وجوه الدولة وطأتُه، ونالوا منه عندَ أبي يَعْقُوب؛ فما زاده ذلك إلا حُبًّا وتقريباً، إلى أن مات ـ رحمه اللّه ـ في حياة أبي يَعْقُوب. بلغ من رقة قلبه وسرعة دَمْعته أنه دخل يوماً على أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب وقد بَلَّ لحيته ورداءه بدموعه؛ فلما مَثَل بين يديه زاد في البكاء، فسأله أمير المؤمنين عما أبكاه؛ فقال: يا أميرالمؤمنين، سألتك باللّه، أَلَا أَعْفَيتَني؟ قال: عزمتُ عليك لَتُخبِرَنِّي أولاً بسبب بكائك! قال: بَيْنا أنا قاعد في مجلس الحُكم إذ أُتِيتُ بشيخ سكرانَ كنت قد حَدَدْتُه مراراً، فكان من كلامي أن قلتُ له: يا شيخ، كيف تُحْشَر؟ فَفتح يديه وقال: هكذا... فواللّه ما ملكتُ دمعتي حين عرفتُ ما عَنَى بقوله؛ إنما عَرَّضَ لي بقول النبي ﷺ: «إن القاضيَ يُحْشَرُ مُطوَّقةً يداه إلى عُنقه؛ فإما أن يَحلَّه عدلُه أو يهوِي به جَورُه!» هذا معنى الحديث؛ فأسألك باللّه، ألا أعفيتَني؟ فوعده بذلك؛ فقال: عسى أن يكون في مقامي هذا! فقال له: لا أفعل حتى أجد عِوَضاً منك! فخرج من عنده، فما لبث إلا أياماً يسيرةً حتى مات، رحمة اللّه عليه!

ثم ولي بعده القضاءَ أبو جَعْفَر أحمد بن مَضَاء، من أهل مدينة قُرْطُبَة؛ فلم يزل أبو جَعْفَر هذا قاضياً إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يعقوب، وصدْراً من خلافة أبي يُوسُف المنصور رحمه اللّه.

فصـل

[دخول بني مردنيش في طاعة المُوحّدين]

ولما استوسق لأبي يَعْقُوب هذا الأمرُ، لم يزل مقيماً بمَرَّاكُش إلى أن كانت سنة ٥٦٧، فبدا له أن يعبر إلى جزيرة الأندلس، مُظهِراً قَصْدَ غزو الروم، ومُبْطِناً إتمام تملُّك الجزيرة والتغلُّبَ على ما في يد مُحمَّد بن سَعْد المعروف بـ«ابن مردنيش» منها. وكان يملك منها ابنُ سَعْد المذكورُ من أول أعمال مُرْسِيَة إلى آخر ما يملكه المسلمون اليوم من شرقيِّها ـ وقد تقدم تلخيص التعريف بِمُلكتهِ إياها ومن أين اتصلتْ إليه ـ فجمع أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب جموعاً عظيمةً من قبائل المُوحِّدين وغيرِهم من أصناف الجند، وسار حتى نزل مدينة سَبْتَة، فَبُني له بها منزل هو باقٍ هناك إلى اليوم. فأقام بها إلى أن تكاملت جموعه، ولحق به من كان تأخَّر عنه من العساكر؛ ثم عبر البحر وقصد مدينة إشْبِيلِيَّة، فنزلها، وجهَّز العساكر إلى مُحمَّد بن سَعْد.

وكان أخو أبي يَعْقُوب، عُثْمانُ بن عبد المُؤْمِن، والياً على مدينة أَغْرنَاطَة؛ فكتب إليه أن يقصد بالعساكر إلى مدينة مُرْسِيَة، دارِ مملكة مُحمَّد بن سَعْد؛ فخرج عُثْمان بالعساكر حتى نزل قريباً منها بموضع يُدعَى «الجلّاب»، وخرج إليه مُحمَّد بن سَعْد في جموعٍ عظيمةٍ أكثرها من الإفرنج؛ لأن ابن سَعْد كان مستعيناً بهم في حروبه؛ قد اتخذهم أجّناداً له وأنصاراً؛ وذلك حين أحسَّ باختلاف وجوه القُوّاد عليه، وتنكُّرِ أكثر الرعية له، فَقَتلَ من أولئك القواد الذين اتهمهم جماعةً بأنواعِ من القتل؛ بلغني أن منهم من بَنَى عليه في حائط وتركه حتى مات جوعاً وعطشاً، إلى غير هذا من ضروب القتل. واسْتَدْعَى النصارى كما ذكرنا، فجعلهم أجناداً له، وأقطعهم ما كان أولئك القوّاد يملكونه، وأخرج كثيراً من أهل مُرْسِيَة وأسكن النصارى دُورهم...

فزحف[1] كما ذكرنا بجيشه، ومعظمهم من الإفرنج؛ فالتقى هو والموحِّدون بالموضع المعروف بـ«الجلّاب»، على أربعة أميالٍ من مُرْسِيَة؛ فانهزم أصحاب مُحمَّد بن سعد انهزاماً قبيحاً، وقُتل من أعيان الروم جملة، ودخل مُحمَّد بن سَعْد

(١) أي: ابن مردنيش، محمد بن سعد.

مدينة مُرْسِيَة مستعدًا للحصار؛ فضايقه الموحِّدون، وما زالوا محاصرين له إلى أن مات وهو في الحصار حَتْفَ أنفِه. وسُتِرتْ وفاتُه إلى أن وَرَدَ أخوه يُوسُف بن سَعْد، الملقَّب بالرئيس، من بَلَنْسِيَة؛ وكان والياً عليها من جهة أخيه مُحمَّد؛ فاجتمع رأيُه ورأي أكابرِ ولد مُحمَّد بن سَعْد ـ بعد أن أتهَمُوا وأَنجدوا[١] وأخذوا في كل وجه من وجوه الحِيَل ـ على أن يُلقوا أيديَهم في يد أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب، ويُسلموا إليه البلاد، ففعلوا ذلك. وقيل: إن أبا عبد اللّه مُحمَّد بن سَعْد حين حضرتْه الوفاة، جمع بنيه ـ وكان له من الولد على عِلْمي ثمانية ذكور، وهم: هِلَال ـ يُكْنى: أبا القَمر، وهو أكبر ولده وإليه أوصى ـ وغانم، والزبير، وعزيز، ونصير، وبدر، وأرقم، وعسكر، وأصاغرُ لا عِلْم لي بأسمائهم، وبناتٌ تزوّج إحداهن أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب، وتزوَّج الأخرى أمير المؤمنين أبو يُوسُف يَعْقُوب بن يُوسُف ـ فكان فيما أوصاهم به أن قال: «يا بَنِيّ، إني أرى أمر هؤلاء القوم قد انتشر، وأتباعَهم قد كثروا، ودخلت البلاد في طاعتهم؛ وإني أظن أنه لا طاقة لكم بمقاومتهم؛ فسلِّموا إليهم الأمر اختياراً منكم، تحظَوْا بذلك عندهم، قبل أن ينزل بكم ما نزل بغيركم؛ وقد سمعتم ما فعلوا بالبلاد التي دخولها عَنْوَة!» ففعلوا ما أمرهم به؛ فاللّه أعلم أيُّ الأمرين كان.

* * *

وخرج أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب من إشْبِيليَّة قاصداً بلاد الأدفنش ـ لعنه اللّه ـ فنزل على مدينةٍ له عظيمة تُسمَّى «وَبْذَة»، وذلك أنه بلغه أن أعيان دولة الأدفنش وَوُجُوهَ أجناده في تلك المدينة. فأقام محاصراً له أشهراً، إلى أن اشتدّ عليهم الحصار وأرادوا تسليم البلد. أخبرني جماعة يكثر عددهم ممن أدركتُ من شيوخ أهل الأمر، أن أهل هذه المدينة لما بَرَّحَ بهم العطش أرسلوا إلى أمير المؤمنين يطلبون الأمان على أنفسهم، على أن يخرجوا له عن المدينة؛ فأبى ذلك عليهم، وأطمعه فيهم ما نُقل إليه من شدة عطشهم وكثرة من يموت منهم؛ فلما يئسوا مما عنده سُمع لهم في بعض الليالي لَغَطٌ[٢] عظيم وجلبةُ[٣] أصوات؛ وذلك أنهم أخرجوا أناجيلهم، واجتمع قِسِّيسوهم ورُهبانهم يَدْعُون وَيُؤمِّن[٤] باقيهم، فجاء مطر عظيم كأفواه القِرَب[٥]، ملأ

---

(١) أتهموا (في الأصل): أتوا تهامة، وهي مُنْخَفَضٌ من الأرض. أنجدوا (في الأصل): أتوا نجداً، وهي مُرْتَفَعٌ من الأرض. والمراد هنا: أنهم تدارسوا الأمر من جميع جوانبه.

(٢) لَغَطَ القوم لَغَطاً، وَلُغَاطاً: صَوَّتوا أصواتاً مختلفةً مُبهمةً لا تُفهم.

(٣) الجَلَبَةُ: الصِّياحُ والصَّخَبُ.

(٤) أمَّنوا على الدعاء: قالوا: آمين.

(٥) القِرَبُ: جمع القِرْبة: ظَرْفٌ من جلدٍ يُخرَزُ من جانب واحدٍ، يُستعمل لحفظ الماء.

ما كان عندهم من الصهاريج[١]، وشربوا وارتووا وتَقَوَّوا على المسلمين؛ فانصرف عنهم أمير المؤمنين راجعاً إلى إشبيليَّة، بعد أن هادَنَ الأدفنشَ ـ لعنه اللَّه ـ مدة سبع سنين.

ولم يزل أمير المؤمنين مقيماً بالأندلس بقية سنة سبعٍ، وثمانٍ، وتسعٍ، إلى أن رجع إلى مَرَّاكُش في آخر سنة ٥٦٩، وقد مَلَكَ الجزيرة بأسرها، ودانت له بجملتها، ولم يخرج عن طاعته شيء منها.

[الخارجون على طاعة المُوحِّدين بالمغرب]

وفي سنة ٧١ خرج إلى «سُوس» لحسم خلافٍ وقع هنالك بين بعض القبائل الذين بـ«دَرَن»، فتمَّ له ما أراد من إخماد الفتنة وجَمْعِ الكلمة وإطفاء النائرة[٢] وحَسْمِ الخلاف.

* * *

وفي صدر سنة ٧٣ رام بعض القبيلة المسماة بـ«غُمارَة» مفارقةَ الجماعة ونَزْعَ اليد من الطاعة؛ وكان رأسَهم في ذلك الذي إليه يرجعون، وعميدَهم الذي عليه يُعوِّلون، رجلٌ اسمه سَبُع بن حَيَّان. ووافقه على ذلك أخ له يُسمَّى مَرَزْدَغ. فدَعَوا إلى الفتنة، واجتمع عليهما خلقٌ كثير. والقبيلةُ المذكورة لا يكاد يحصرها عددٌ ولا يحدُّها حَزْر لكثرتها؛ مسافةُ بلادها طولاً وعرضاً نحوٌ من اثنتي عشرة مرحلة. فخرج إليهم أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب بنفسه؛ فَأَسْلَمَتْهُما جُموعُهُما، وتفرّق عَنْهُما من كان اجتمع عليهما، وأُخِذا قَبْضَ اليد؛ فَقُتِلا صبراً وصُلِبا؛ ثم رجع أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب إلى مَرَّاكُش.

* * *

وفي أول سنة ٧٥ خرج أبو يَعْقُوب من مَرَّاكُش قاصداً بلاد إفريقية؛ فقصد منها مدينة قَفْصَة؛ وكان قد قام بها رجل اسمه عليّ، يُعرف بابن الرَّنْد، وتَلَقَّبَ بـ«الناصر لدين النبيّ»؛ فحاصره أبو يَعْقُوب والموحدون إلى أن استنزلوه، وقطعوا دابر الخلاف وحسموا موادَّه، ورجعوا إلى مَرَّاكُش.

[صُلح ملك صِقِلِّيَّة]

وفي هذه السَّفرة صالحه ملكُ صِقِلِّيَةَ وأرسل إليه بالإتاوة، بعد أن خافه خوفاً شديداً؛ فقبل منه ما وَجَّه به إليه، وهادنَه على أن يحمل إليه في كلّ سنة مالاً اتَّفَقَا عليه. وبلغني أنه اتصلت إليه منه ذخائرُ لم يكن عندَ مَلِكٍ مثلُها؛ مما اشتهر منها حجرُ

---

(١) الصهاريج: أحواض كبيرة للمياه، الواحد: صِهْريج.

(٢) النائرة: العداوة والشحناء.

ياقوتٍ يُسمَّى الحافر ـ جعلوه في ما كلَّلوا به المُصحف، لا قيمة له[١]، على قَدْر استدارة حافر الفرس، هو في المُصحف إلى اليوم ـ مع أحجارٍ نفيسة.

[المصحف العثماني في المغرب]

وهذا المصحف الذي ذكرناه، وقع إليهم من نسخ عُثْمَان ـ رضي اللّه عنه ـ من خزائن بني أمية، يحملونه بين أيديهم أنَّى توجَّهوا، على ناقة حمراء عليها من الحلي النفيس وثياب الديباج الفاخرة ما يَعْدِل أموالاً طائلة. وقد جعلوا تحته بردعة من الديباج الأخضر يجعلونه عليها، وعن يمينه ويساره عَصَيانِ عليهما لواءان أخضران. وموضع الأسنّة منهما ذهبٌ شِبْهُ تُفَاحتين، وخلف الناقة بغلٌ مُحلًّى أيضاً، عليه مصحف آخر يقال: إنه بخط ابن تُومَرْت، دون مُصحف عُثْمَان في الجِرْم[٢]، مُحلًّى بفضةٍ مموَّهةٍ[٣] بالذهب؛ هذا كله بين يدي الخليفة منهم.

* * *

ورجع أمير المؤمنين أبو يعقوب إلى مَرَّاكُش من إفريقية، بعد أن لم يبق بجميع المغرب مُختلِفٌ عليهم ولا مُعاندٌ لهم، ودانت له جزيرة الأندلس بأسرها ـ كما ذكرنا ـ وكثرت في أيامه الأموالُ واتسع الخَراج.

[حسن معاملة المُوحِّدين لمن يغلبونهم من الملوك]

وكان ـ كما ذكرنا ـ سَخِيًّا جَواداً؛ بلغني أنه أعطى هِلَال بن مُحمَّد بن سَعْد المتقدم الذكر، صاحب شرقيّ الأندلس، اثني عشر ألف دينار في يوم واحد. ولهلال هذا معه أخبار عجيبة، من تقريبه إياه وإحسانهِ إليه وحُبه له؛ أخبرني بعضُ ولدِ هلال هذا، أنه سمع أباه يقول: رأيت في المنام في بعض الليالي كأنَّ أمير المؤمنين أبا يعقوب ناولني مفتاحاً؛ فلما أصبحتُ إذا رسوله يَسْتَحِثُّني[٤]، فركبت وأتيت القصر، فدخلت عليه وسلمت، فاستدناني حتى مسَّت ثيابي ثيابه، ثم أخرج إليّ من تحت بُرْنُسِه[٥] مِفتاحاً على النحو الذي رأيتُ في المنام، وقال: خذ إليك هذا المفتاح؛ فتهيبتُ أن أسأل عن شأن المفتاح؛ فقال لي ابتداءً: يا أبا القمر، إن عامل مُرْسِيَة أرسل إلينا في جملة ما أرسل صُندوقاً وجده ـ زَعَم ـ في بعض خزائنكم، لا يدري ما

---

(١) أي: فوق كلّ قيمة.
(٢) الجِرْمُ: الحَجْمُ.
(٣) مُمَوَّهَةٌ: مَطْلِيَّةٌ.
(٤) اسْتَحَثَّهُ: أعجله إعجالاً مُتَّصلاً، وعلى الشيء: حَضَّهُ.
(٥) البُرْنُسُ: القَلَنْسُوَة، أو كلّ ثوب رأسه منه، مُلتزقٌ به.

فيه؛ وهذا مفتاحه، ونحن لا ندري ما فيه! فقلت: هَلَّا أمر أمير المؤمنين أن يُفتح بين يديه! فقال: لو أردنا أن يُفتح بين أيدينا لم نُسلِّم إليك المفتاح! وأمر فَحُمل الصندوق إليَّ ففتحته، فإذا فيه حلى وذخائر من ذخائر أبي ما يُساوي أكثر من أربعين ألف دينار.

* * *

ولما تجهز أمير المؤمنين إلى غزو الروم، أمر العلماء أن يجمعوا أحاديث في الجهاد تُمْلَى[١] على الموحِّدين ليدرسوها ـ وهكذا جرت عادتهم إلى اليوم ـ فجمع العلماءُ ذلك وجاؤوا به إليه؛ فكان يمليه على الناس بنفسه؛ فكان كلُّ واحدٍ من الموحِّدين والسادة يجيء بلوحٍ يكتب فيه الإملاء؛ فجاء هلالٌ هذا المذكور يوماً ولا لَوْحَ معه؛ فأخرج القوم ألواحَهم؛ فقال له الوزير: أين لوحك يا أبا القمر؟ فخجل وافتتح يعتذر؛ فأخرج له أمير المؤمنين من تحت بُرْنُسِه لوحاً وناوله إياه، وقال: هذا لَوْحُه! فلما كان من الغد جاء ومعه لوحٌ غير الذي دفعه له أمير المؤمنين؛ فلما نظر إليه قال له: أين لوحك بالأمس يا أبا القمر؟ فقال: خَبَأته وأوصيتُ إذا متُّ أن يُجعل بين جِلدي وكفني! وأتبع ذلك بكاءً حتى أبكى بعضَ من كان في المجلس؛ فقال أمير المؤمنين: هذا المحبُّ الصادق! وأمر له بخيلٍ وأموالٍ وخِلعٍ، وَلِبنيه بمثل ذلك.

[اتساع الدولة وزيادة الخراج]

وكان الذي يُسهِّل عليه بذلَ الأموال ـ مع ما جُبِلَ عليه من ذلك ـ سَعَةُ الخراج[٢] وكثرةُ الوجوه التي يتحصَّل منها الأموال.

كان يرتفع إليه خراج إفريقية، وجملته في كل سنة وَقْرُ[٣] مائةٍ وخمسين بغلاً، هذا من إفريقية وحدها، خلا بَجَاية وأعمالها، وتِلِمسانَ وأعمالها، والمغربِ ـ وحدُّ عَمَلِ المغرب عندهم الذي يطلقون عليه هذا الاسم، من مدينة تُدعى رِبَاط تازا إلى مدينة تُدعى مِكْنَاسة الزَّيتون؛ طول هذه المسافة وعَرضها نحوٌ من سبعة مراحل، وهي أخصبُ رقعةٍ على الأرض فيما عَلِمْتُ، وأكثرُها أنهاراً مطردة، وأشجاراً ملتفة، وزروعاً وأعناباً ـ ومدينةِ سَلَا وأعمالها، وسَبْتَةَ وأعمالها ـ وأعمالُ سَبْتَة هذه في غاية السعة والضخامة؛ لأن بلاد غُمارة كلَّها ترجع إليها، وهي كما ذكرنا طولاً وعرضاً نحوٌ

---

(١) أَملى عليه الحديث ونحوه: قال له فكتب عنه.

(٢) الخَراج: ما يخرج من غَلَّة الأرض، أو الإتاوة تُؤخذ من أموال الناس، أو الجزية التي ضُرِبَت على رقاب أهل الذِّمَّة.

(٣) الوَقْرُ: الحِمْلُ أو الثِّقلُ.

من اثنتي عشرة مرحلة ـ وجزيرةِ الأندلس قاطبة؛ أولُ ذلك آخرُ بلادِ المسلمين مما يُتاخِم أرض الروم، وآخره أيضاً مما يتاخم أرض الروم من أعمال شِلْب؛ ومسافة ذلك طولاً وعرضاً نحوٌ من أربعٍ وعشرين مرحلة.

هذا كلُّه لا ينازعه إياه أحد ولا يمتنع عليه منه درهم، مضافاً إلى مَرَّاكُش وأعمالها؛ وأعمالُ مَرَّاكُش أيضاً في نهاية من السَّعة؛ لأن بالقرب منها قبائلَ ضخمةً وبلاداً كثيرة؛ فلم يرتفع لملك من الملوك ـ أعني ملوك المغرب ـ قبل أبي يَعْقُوب هذا وبعده، ما ارتفع إليه من الأموال.

وقد بلغني من جهة رجلٍ من أصحابنا كان يتولى بيوت الأموال، قال لي: وُجِدَتْ خرائطُ كثيرة مما كان يرتفع إلى أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب بختْمها... قال لي هذا القول في غُرة سنة ٦١١.

وفي أيام أبي يعقوب ورد علينا المغربَ أولُ من وَرَدَها من الغُزّ[١]، وذلك في آخر سنة ٧٤، وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبي يُوسُف.

ولم تزل أيام أبي يَعْقُوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم: كثرةَ خِصْبٍ، وانتشارَ أَمْنٍ، ودُرُور أرزاقٍ[٢]، واتساعَ معايش؛ لم ير أهلُ المغرب أياماً قطُّ مثلها؛ واستمر هذا صَدْراً من إمارة أبي يُوسُف.

[محاولة أبي يَعْقُوب فتح شَنْتَرِين، ووفاته]

ولما كانت سنة ٧٩ تجهز أبو يَعْقُوب للغزو، واستنفر أهلَ السهول والجبال من المصامدة والعرب وغيرِهم، وخرج بجيوشه قاصداً جزيرة الأندلس؛ فَعَبَر البحر بعساكره كما ذكرنا، وقصد مدينة إشْبِيليّة على عادته؛ إذ هي منزلُه ومنزل الأمراء من بنيه بالأندلس أيام كَوْنِهم بها؛ فأقام بها ريثما أصلح الناس شؤونهم وأخذوا أهبتهم؛ ثم خرج يقصد مدينة شَنْتَرِين ـ أعادها اللّه للمسلمين ـ. وهذه المدينة ـ أعني شَنْتَرين ـ بمغرب الأندلس؛ وهي من أمنع المدائن ـ وقد تقدم ذكرُها في أخبار الدولة اللمتونية ـ يملكها وَجهاتها مع بلاد كثيرة هنالك: ملكٌ من ملوك النصارى يُعرف بـ«ابن الريق» ـ لعنه اللّه ـ فخرج أمير المؤمنين ـ كما ذكرنا ـ في جيوشه حتى نزل عليها، فضايقها وأخذ في قطع ثمارها وإفساد زُرُوعها وشَنِّ الغارات على نواحيها. وكان ابن الريق ـ لعنه اللّه ـ حين سمع بحركة أبي يعقوب إليه وصحَّ عنده أنه

---

(١) الغُزُّ: طائفة من مماليك الترك المصريين.

(٢) دُرُورُ أرزاقٍ: يقال: دَرَّ الرزق دَرًّا: كَثُرَ.

يقصده، نظر في أمره، فلم ير له طاقةً بدفاعه ولا نهضةً لمقاومته؛ فلم يكن له همٌّ إلا أن جمع وجوه دولته وأعيان جنده وذوي الغَناء من قُواده وسائر أتباعه، ودخل بهم مدينةَ شَنْتَرين؛ واثقاً بِحصانَتها وشدّةِ مَنَعَتها؛ هذا بعد أن ملأها أقواتاً وسلاحاً وجميعَ ما يحتاج إليه، وجَلَّل أسوارَها مُقاتِلةً معهم الدَّرَقُ[١] والقِسِيُّ والحراب؛ إلى غير ذلك مما يحتاج إليه.

فنزل عليها أبو يَعْقُوب، فألفاها كما ذكرنا: قد استعدَّ أهلها بكل ما يظنونه نافعاً لهم ودافعاً عنهم؛ وهذه المدينة على نهر عظيم من أنهار الأندلس المشهورة، يسمى تاجُو؛ فبالغ أبو يَعْقُوب ـ كما ذكرنا ـ في التضييق عليها وانتساف معايشها وقَطْع الموادّ والمدد عنها؛ فما زاد ذلك أهلَها إلا صرامةً[٢] وشدةً وجلداً[٣]؛ فخاف المسلمون هجومَ البرد ـ وكان في آخر فصل الخريف ـ وخافوا أن يعظم النهر فلا يستطيعوا عُبورَه وينقطع عنهم المدد؛ فأشاروا على أمير المؤمنين بالرجوع إلى إشْبِيليَّة، فإذا كان وجهُ الزمان عادوا إليها أو بَعَثَ من يتسلمها. وصوَّروا له أنها في يده، لا يمنعه منها مانع. فقبل ذلك منهم ووافقهم عليه، وقال: نحن راحلون غداً إن شاء اللّه. ولم ينتشر هذا القول كل الانتشار، لأنه كان قاله في مجلس الخاصة؛ فكان أولَ من قوّض خباءه وأظهر الأخذ في أهبة الرحيل، أبو الحَسَن عليّ بن عبد اللّه بن عبد الرَّحْمٰن المعروف عندهم بـ«المَالَقِي» ـ وقد تقدم ذكر أبيه في قضاة عبد المُؤمِن ـ وكان أبو الحَسَن هذا خطيبَهم ومعتبراً عندهم، يُدْعَى خطيبَ الخلافة. وكان له حَظٌّ جيد من الفقه ومعرفةِ الحديث، وقسمٌ وافر من قرض الشعر وصناعة الكتابة. فلما رآه الناس قوّض خباءه قوّضوا أخبيتهم ثقةً به، لمكانه من الدولة ومعرفته بأخبارها؛ فعبر في تلك العشية أكثرُ العسكرِ النهرَ يريدون التقدم خشيةَ الزحام وحرصاً على أخذ جيِّدِ المواضع واختيار المنازل؛ ولم يبق إلا من كان بِقُرْبِ خباء أمير المؤمنين.

وبات الناس يعبرون الليل كلَّه وأميرُ المؤمنين لا علم له بذلك؛ فلما رأى الرومُ عبور العساكر وبلَغهم من جهة عيونهم الذين بالعسكر ما عزم عليه أبو يَعْقُوب والمسلمون من الرحيل، ورأوا انفضاضَ الأجناد وافتراقَ أكثر الجموع، خرجوا منتهزين للفرصة التي أمكنتْهم، في خيلٍ كثيفة؛ فحملوا على من يليهم من الناس، فانهزموا أمامهم، حتى بلغوا الخباء الذي فيه أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب؛ فَقُتِلَ على

---

(١) الدَّرَقُ: جمع الدَّرَقة: التُّرسُ من جلدٍ ليس فيه خشب.
(٢) الصرامة: القوة والمضيّ في الأمور، يقال: صَرُمَ فلان صرامةً، وصُرُومةً: كان جلداً ماضياً في أمره.
(٣) الجَلَدُ: القوة، أو الصبر على المكروه.

باب الخباء من أعيان الجند خلقٌ كثير، أكثرهم من أعيان الأندلس؛ وخُلِص إلى أبي يَعْقُوب فَطُعِنَ تحت سُرَّته طَعْنَةً مات منها بعد أيام يسيرة...

وتداركَ الناسُ فانهزم الروم راجعين إلى بلدهم بعد أن قضوا ما قضوا، وعُبِرَ بأمير المؤمنين النهر جريحاً، فجُعل في مِحَفَّةٍ[١] وسِيرَ به.

[عاقبة أبي الحَسَن المَالَقي الخطيب]

وسأل أميرُ المؤمنين: مَن كان السببَ في حركة الناس على هذا الوجه المؤدِّي إلى هذا الاختلال؟ فأُخبِرَ بما فعله أبو الحَسَن المَالَقيّ؛ فقال يتوعده: سيجني ثمرتَها إن شاء اللَّه! فلما بلغه ذلك هرب حتى دخل مدينة شَنْتَرين فارًا بنفسه على ملك الروم ابنِ الريق؛ فأحسنَ نُزُلَه وأكرم مثواه وأجرى عليه رزقاً واسعاً. ولم يزل عنده مُكرَماً إلى أن بدا له من سوء رأيه أن يكتب كتاباً إلى الموحِّدين يستعطفهم ويسأل مَن عَرَفه من أعيانهم الشفاعةَ له؛ وأدرج في ضمن ذلك فصلاً يذكر فيه ضعف المدينة وأنهم لو كانوا أقاموا عليها ليلة أخرى أخذوها، ويدلُّهم على بعض عَوراتها مما كان خفي عنهم؛ وقال لملك الروم ابنِ الريق: إني أحب أن أكتب كتاباً إلى عيالي وأولادي وأخبرَهم بسلامتي وأعلمهم إكرامَ الملك إياي وإحسانَه إليَّ وما أنا فيه من العافية، حتى تطمئن نفوسُهم؛ وأُريد أن توجه مع الذي يحمله مَن يَخفره[٢] إلى أول بلاد المسلمين؛ فأذِن له في ذلك وأجابه إليه؛ فكتب الكتاب...

وكان العِلج الموكَّل به الذي يقوم عليه ويأتيه بكل ما يحتاج إليه، يعرف لسان العرب ـ إلا أنه لم يكن يتكلم به ـ ويقرأ الخط العربي؛ فقام أبو الحَسَن المذكور لبعض حوائجه وترك الكتاب منشوراً، ولم يخطر له أن العلج يعرف شيئاً من لسان العرب ولا يقرأ الخط العربي؛ فلمح العلج الكتاب لمحةً، ووقف على الفصل المذكور وفهم مقصوده؛ فمضى حتى دخل على الملك وأخبره الخبر...

وختم أبو الحَسَن الكتاب ودفعه إلى بعض عبيده؛ فلما خرج العبد بالكتاب وفصل عن المدينة بنحوٍ من مرحلة، أُمر بالقبض عليه هناك وأُخذ الكتابُ منه؛ فلما أُتي بالكتاب فتحه وجمع المسلمين الذين بالمدينة وألقى إليهم الكتاب وأمرهم بقراءة ذلك الفصل المذكور؛ واستحضر أبا الحَسَن، وقال لترجمانه: قل له: ما حَمَلك على ما صنعتَ مع إكرامي لك وبِرّي بك؟ فكان من جوابه أن قال: إن برَّك بي وإكرامك

(١) المِحَفَّةُ: هَوْدَجٌ لا قُبَّةَ له.
(٢) يخفره: يحرسه.

إياي لا يمنعاني من النُّصح لأهل ديني والدلالةِ لهم على ما فيه مصلحتهم! فشاور ابنُ الريق ـ لعنه اللّه ـ قِسِّيسيه في أمره؛ فأشاروا عليه بإحراقه، فأحرقوه.

[وفاة الأمير أبي يَعْقُوب]

وأما ما كان من أمر أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب؛ فإنهم لما عبروا به النهر كما ذكرنا، أثقله الجُرْحُ واشتد عليه؛ فما ساروا به إلا ليلتين أو ثلاثاً حتى مات رحمه اللّه؛ فأخبرني من كان معهم في تلك السَّفرة أنه سُمِع النداءُ فيما بين العشاءَين في العسكر كله: الصلاةُ على الجنازة، جنازةِ رَجُلٍ! فَصلّى الناس قاطبةً على الجنازة لا يعرفون على من صَلّوا؛ ولم يعلم بذلك إلا خواصُّ أهلِ الدولة، وساروا به حتى بلغوا إشْبِيليَّة فنزلوها، فَصَبَّرُوه[1] وبعثوا به في تابوتٍ مع كافور الحاجب مولاه المُتقدِّم الذكر إلى تينملّ؛ فَدُفن هناك مع أبيه عبد المُؤْمِن وابن تُومَرْت.

وكانت وفاته يوم السبت قُبيل غروب الشمس لسبعٍ خلون من رجب الفرد سنة ٥٨٠.

أخبرني ابنه أبو زَكَرِيَّا يَحْيَىٰ ـ رحمةُ اللّه عليه ـ أنه كان قبل موته بأشهر يسيرة كثيراً ما يردّد هذا البيت: [من البسيط]

طَوَى الجَديدانِ ما قَدْ كُنْتُ أنشرُهُ وَأَنْكَرَتْني ذَواتُ الأعينِ النُّجُلِ![2]

---

(١) صَبَّر الجُثَّة: صنع بها ما يقيها الفساد بعض الوقت.

(٢) الجديدان: الليل والنهار. الأعين النجل: الواسعة.

ذكر ولاية أبي يُوسُف يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤْمِن(*)

هو يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن بن عليّ كما ذكرنا، يُكْنَى أبا يُوسُف، أُمُّه أم ولد رومية اسمها «ساحر». بُويع له في حياة أبيه بأمره بذلك. وكانت سنّه يوم صار إليه الأمر اثنتين وثلاثين سنة؛ فكانت مدة ولايته منذ وفاة أبيه إلى أن تُوفّي في شهر صفر الكائن في سنة ٥٩٥، ست عشرة سنة وثمانية أشهر وأياماً، وتُوفّي وله من العمر ثمانٍ وأربعون سنة وقد وَخَطَهُ[١] الشيب.

صِفَتُهُ

كان صافي السُّمْرَة جدًّا إلى الطول ما هو، جميلَ الوجه، أَعْيَنَ[٢] أَفْوَه[٣] أَقنى[٤]، شديدَ الكَحَل، مستدير اللحية، ضخم الأعضاء، جَهْوَرِيَّ الصوت، جَزْل الألفاظ[٥]، أصدق الناس لهجةً وأحسنهم حديثاً وأكثرهم إصابةً بالظن؛ كان لا يكاد يظنّ شيئاً إلا وقع كما ظنَّ، مجرِّباً للأمور، عارفاً بأصول الشرِّ والخير وفروعهما. ولي الوزارة أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعةً أفادته معرفةَ جزئياتِ الأمور؛ فدبَّرها بحسب ذلك، فجرتْ أموره على قريبٍ من الاستقامة والسداد، حسبما يقتضيه الزمان والإقليم.

أَوْلادُهُ

كان له من الولد: مُحمَّد ـ وليُّ عهده، وسيأتي ذكر مولده ووفاته ـ وإبراهيم، وعبد اللّه، وعبد العزيز، وأبو بَكْر، وزَكَرِيًّا، وإدريس، وعِيسَى، ومُوسَى، وصَالِح،

(*) ترجمته في الأعلام: ٨/ ٢٠٣؛ وفيات الأعيان: ٧/ ٣.

(١) وَخَطَ الشَّيْبُ فلاناً: فَشَا فيه.

(٢) الأعين: الواسع العينين.

(٣) الأفوه: الواسع الفم.

(٤) الأقنى: الذي ارتفعت قصبة أنفه، وضاق منخراه.

(٥) الجَزْلُ من الألفاظ: القويّ الفصيح الجامع.

وعُثْمَان، ويُونُس، وسَعْد، ومُسَاعِد، والحَسَن، والحُسَيْن؛ هؤلاء أولاده المخلَّفون بعده؛ ومات له في حياته عدةٌ من الولد، وله بنات فيهنّ كثرة.

وُزَرَاؤُهُ

أبو حَفْص، عُمَر بن أبي زَيْد الهنتاتي إلى أن مات.

ثم وَزَرَ له بعده [أبو يَحْيَى] أبو بَكْر بن عبد اللَّه بن أبي حَفْص عمر إينتي المتقدم الذكر، واستمرت وزارة أبي يحيى هذا إلى أن استشهد ـ رحمه اللَّه ـ ببلاد الروم على ما سيأتي بيانه إن شاء اللَّه؛ فاضطرب أمر الوزارة قليلاً. . .

ثم وقع اختيارهم على أبي عبد اللَّه مُحمَّد بن أبي بَكْر ابن الشيخ أبي حَفْص المتقدم الذكر؛ وأبو عبد اللَّه هذا هو الملقب عندهم بـ«الفيل»، هو ابن عم الوزير الشهيد [أبي يَحْيَى] المذكور آنفاً. فوزر أبو عبد اللَّه هذا أياماً يسيرةً، ثم ترك الوزارة مختاراً وهرب إلى بعض نواحي إشبِيليّة؛ فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهّد؛ فأرسلوا إليه من ردَّه؛ وأعْفَوْه من الوزارة.

ثم وَزَر له أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن مُوسَى بن يُوجّان الهَنْتاتي؛ فلم يزل عبد الرَّحْمٰن هذا وزيراً إلى أن مات أبو يُوسُف، وصدراً من إمارة ابنه أبي عبد اللَّه، ثم عُزِل عن الوزارة.

حُجَّابُهُ

عنبر الخَصِيّ مولاه؛ ثم رَيْحَان الخَصِيّ مولاه أيضاً، إلى أن مات، وحجب ابنه أبا عبد اللَّه، فلم يزل حاجباً له إلى أن مات رَيْحَان المذكور.

كُتَّابُهُ

أبو الفَضْل جَعْفَر المعروف بـ«ابن مَحْشُوّة»؛ كان من كتَّاب أبيه ـ حسبما تقدم ـ جمع أبو [الفضل] جَعْفرٌ هذا إلى براعة الكتابة سَعةَ الرواية وغزارةَ الحفظ وذكاءَ النفس؛ لم يزل كاتباً له إلى أن تُوفِّي، أعني أبا الفَضْل.

فكتب له بعده أبو عبد اللَّه مُحمَّد بن عبد الرَّحْمٰن بن عيَّاش من أهل بُرشانة، من أعمال المريّة من بلاد الأندلس. لم يزل أبو عبد اللَّه هذا كاتباً له ولابنه مُحمَّد ولابن ابنه يُوسُف. تركته حيًّا حين ارتحلت عن البلاد سنة ٦١٤، ثم اتصلت بي وفاته في شهور سنة ٦١٩ وأنا يومئذٍ بالبلاد المصرية.

هذان الكاتبان اللذان ذكرناهما، هما كاتبا الإنشاء خاصة.

وكتّاب الجيش: رجلٌ يعرف بـ«الكباشي»، ذهب عني اسمه؛ وقد كان يكتب قبله أبو الحَسَن بن مُغْنٍ. استمرت كتابة الكُباشي هذا في ديوان الجيش إلى أن مات أمير المؤمنين أبو يُوسُف.

ولم يكتب لهم منذ قام أمرهم ـ أعني من كتبة الإنشاء ـ مَنْ عرف طريقتهم وصبَّ في قالبِهم وجرى على مَهْيَعِهم وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد اللّه بن عَيَّاش هذا؛ فإن القوم لهم طريقة تُخالف طريقة الكتاب. ثم جرى الكُتاب بعده على أسلوبه، وسلكوا مَسْلَكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة.

قضاته

أبو جَعْفَر أحمد بن مَضَاء المتقدم الذكر إلى أن مات. وولي بعده أبو عَبْد اللّه مُحمَّد بن مَرْوَان، من أهل مدينة وَهْرَان؛ ثم عزله وَولّى بعده أبا القَاسِم أحمد بن مُحمَّد، رجلاً من ولد بَقِيِّ بن مَخْلَد الفقيه المُحدِّث الذي يَرْوي عن أحمد بن حَنْبَل[١]. وقد تقدم ذكرُ بَقِيٍّ هذا وطرفٌ من أخباره في صدر الدولة الأموية في أخبار الأمير مُحمَّد بن عبد الرَّحْمٰن بن الحَكَم بن هِشَام بن عبد الرَّحْمٰن بن مُعَاوية الداخل بالأندلس. لم يزل أبو القَاسِم هذا قاضياً إلى أن تُوفِّي أمير المؤمنين أبو يُوسُف، وشيئاً من أيام ابنه مُحمَّد.

تلخيص التعريف بخبر بيعته

ولما مات أبو يَعْقُوب ـ كما ذكرنا ـ على مراحل من مدينة شَنْتَرِين، سُتِرَت وفاته إلى أن بلغوا إشْبِيليَّة، وهم في كل يومٍ يُصبحون يمشون بين يدي الدابة التي عليها المِحَفَّة مشاةً على أرجلهم كما جرت العادة؛ ثم يركبون والمِحَفَّةُ مسدولٌ عليها سترٌ أخضر؛ إلى أن بلغوا إشْبِيليَّة كما ذكرنا؛ فخرج الإذن من أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب ـ زعموا ـ بتجديد البيعة لابنه أبي يُوسُف، فبايعه المصامدة والناسُ عامة من جميع الأصناف.

وكان الذي سعى في بيعته وقام بها ورغَّب فيها وتولى كِبْرَ أمرها، ابنُ عَمّه أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن عُمَر بن عبد المُؤْمِن؛ فتمَّ له الأمر وبايعه الناس، يحسبون ذلك بإذن أبيه. فلما فرغ مما أراده من ذلك وتهيأ له، أعلن وفاة أبيه عند خواصِّ الدولة؛ ولم تجر عادتهم بإعلان موت خلفائهم عند العامة إلى هَلُمَّ.

وكان له من إخوته وعمومته منافسون لا يرونه أهلاً للإمارة؛ لما كانوا يعرفون

---

(١) هو أبو عبد اللّه، أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي: إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. توفي سنة ٢٤١هـ/ ٨٥٥م. (الأعلام، الزركلي: ١/ ٢٠٣).

من سوء صِبَاه؛ فلقي منهم شدةً ـ على ما سيأتي بيانه ـ وكانت هذه البيعة العامة ـ كما ذكرنا ـ في سنة ٥٨٠.

ولما استوسَق أمره ـ على ما تقدم ـ عبر البحر بعساكره وسار حتى نزل مدينة سَلَا، وبها تمَّتْ بيعته واستجاب له من كان تَلكَّأ عليه من أعمامه من ولد عبد المُؤمِن، بعد ما مَلأ أيديهم أموالاً وأقطعهم الأقطاع الواسعة.

[بنيان مدينة الرِّباط]

ثم شرع في بنيان المدينة العُظمى التي على ساحل البحر والنهر من العُدْوة التي تلي مَرَّاكُش. وكان أبو يَعْقُوب ـ رحمه اللّه ـ هو الذي اختطّها ورسم حدودَها وابتدأ في بنيانها، فعاقه الموت المحتوم عن إتمامها؛ فشرع أبو يُوسُف ـ كما ذكرنا ـ في بنيانها إلى أن أتم سورها، وبنى فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفِناء جدًّا، لا أعلم في مساجد المغرب أكبرَ منه. وعمل له مِئْذَنةً في نهاية العُلُوّ، على هيئة مَنَار الإسكندرية، يُصْعَدُ فيه بغير دَرَج، تَصْعد الدوابُّ بالطين والآجُرّ والجِصّ وجميع ما يُحتاج إليه إلى أعلاها. ولم يتمّ هذا المسجد إلى اليوم؛ لأن العمل ارتفع عنه بموت أبي يُوسُف؛ ولم يعمل فيه مُحمَّدٌ ولا يُوسُف شيئاً. وأما المدينة فتمَّت في حياة أبي يُوسُف وكملت أسوارها وأبوابها وَعُمِّر كثيرٌ منها. وهي مدينة كبيرة جدًّا، تجيء في طولها نحواً من فرسخ، وهي قليلة العرض.

ثم خرج بعد أن رَتَّب أشغال هذه المدينة وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر في أمر نفقاتها وما يُصلحها؛ فلم يزل العمل فيها وفي مسجدها المذكور طول مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤، وسار هو حتى نزل مَرَّاكُش.

[طمع بني غانية في التغلب على إفريقية]

وفي هذه السنة ـ أعني سنة ٥٨٠ـ خرج المَيُورقيون بنو ابن غانية من جزيرة مَيُورقة قاصدين مدينة بَجَاية، فملكوها وأخرجوا من بها من الموحِّدين؛ وذلك لِستٍّ خلون من شعبان من السنة المذكورة؛ وهذا أول اختلال وقع في دولة المصامدة، لم يزل أثره باقياً إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٦٢١.

[التعريف ببني غانية ودار مُلكهم]

وتلخيص خبر هؤلاء القوم ـ أعني بني غانية ـ أن أمير المسلمين علي بن يُوسُف بن تَاشُفِين، وجَّه إلى الأندلس برجلين؛ اسم أحدهما يَحْيَى، والآخر مُحمَّد، ابني عليّ، من قبيلة مسوفة، يعرفان بـ«ابنيْ غانية»، وهي أمهما. فأما يَحْيَى منهما،

وهو الأكبر، فكان حسنة من حسنات الدهر، اجتمع له من المناقب ما افترق في كثير من الناس؛ فمنها أنه كان رجلاً صالحاً شديدَ الخوف للّه ـ عزَّ وجلَّ ـ والتعظيم له والاحترام للصالحين؛ هذا مع علوّ قدمٍ في الفقه واتساع روايةٍ للحديث. وكان مع هذا شجاعاً فارساً، إذا ركب عُدَّ وحده بخمسمائة فارس. وكان عليُّ بن يُوسُف يُعِدُّه للعظائم ويستدفع به المهمات، وأصلح اللّه على يديه كثيراً من جزيرة الأندلس، ودفع به عن المسلمين غير مرة مكارهَ قد كانت نزلتْ بهم. كان أمير المسلمين ولّاه مدينة بَلَنْسِيَة، ثم عزله عنها وولّاه قُرْطُبة؛ فلم يزل بها والياً إلى أن مات ـ رحمة اللّه عليه ـ أول الفتنة الكائنة على المرابطين. لا أعلم له عقباً.

[مُحمَّد بن غَانِيَة]

وكان أخوه مُحمَّد والياً من قِبله على بعض أعمال قُرْطُبَة، فلما مات اضطرب أمر مُحمَّد هذا، وبقي يجول في بلاد الأندلس والفتنةُ تتزيّد، ودعوةُ المصامدة تنتشر. فلما اشتد خوفُ مُحمَّدٍ هذا أتى مدينة دَانِيَة فعبر منها إلى جزيرة مَيُورقة في حشمه وأهل بيته، فملكها والجزيرتين اللتين حولها: مُنَرقة، ويابسة. ويقال: إن أمير المسلمين عليّ بن يُوسُف نفاه إليها على طريق السجن بها، فاللّه أعلم.

وهذه الجزيرة ـ أعني مَيُورقة ـ أخصب الجزر أرضاً، وأعدلُها هواءً، وأصفاها جوًّا؛ طولها وعرضها نحو من ثلاثين فرسخاً، اتفق أهلها على أنهم لم يروا فيها شيئاً من الهوام المؤذية قط منذ عمرت، من ذئبٍ أو سَبُعٍ أو حيَّةٍ أو عقرب، إلى غير ذلك مما يُخشى ضرره. ويجاورها بالقرب منها جزيرتانِ تقربان منها في الخصب، تسمى إحداهما مُنُرقة، والأخرى يابسة، وقد تقدم ذكرهما.

. . . فاستقل مُحمَّد بمملكة هذه الجزر، وضَبَطها لنفسه، وأقام فيها جارياً على أمر لَمتُونَة الأول: يدعو لبني العبَّاس. وكان له من الولد: عبدُ اللّه، وإسحاق، والزُّبَيْر، وطَلْحَة؛ وبنات.

فعهد في حياته إلى أكبر ولده، عبد اللّه؛ فنفس[1] ذلك عليه أخوه إسحاق، ودخل عليه في جماعة من الجند وَعَبيدٍ له فقتله ـ قيل: في حياة أبيه، وقيل: بعد وفاته ـ وتُوفّي عبد اللّه المذكور.

[إسحاق بن مُحمَّد]

واستقل أبو إبراهيم بالملك استقلالاً حسناً، وحسنت حاله، وكثر الداخلون عليه

---

(١) نفس الشيء، وبه، على فلان: حسده عليه، فلم يره أهلاً له.

بجزيرة مَيورقة مِن فَلِّ لَمْتُونَة وبقاياهم؛ فكان يُحْسِن إليهم وَيَصِلُهم حسب طاقته.

وأقبل على الغزو، وصَرَف عنايته إليه؛ فلم يكن له همٌّ غيره؛ فكان له في كلّ سنة سَفْرَتان إلى بلاد الروم، يغنم ويسبي وينكي[١] في العدو أشدّ نكاية، إلى أن امتلأت أيدي أصحابه أموالاً؛ فقوِي بذلك أمره، وتشبَّه بالملوك. ولم يزل هذه حالُه إلى أن تُوفِّي في سنة ٧٩، وفي أولها وفي آخر أيام أبي يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤمِن.

وكان يُراسل المُوحِّدين ويهاديهم ويهادِنهم ويختصُّهم من كلّ ما يَسْبي ويغنم بنفيسه وجيِّده؛ يشغلهم بذلك عنه، مع احتقارهم لأمر تلك الجزيرة، وقلة التفاتهم إليها. فلما كان في شهور سنة ٥٧٨ والوا إليه الكتب يدعونه إلى الدخول في طاعتهم والدعاء لهم على المنابر، ويَتوعَّدونه على تَرْك ذلك؛ فوعدهم ذلك واستشار وُجوهَ أصحابه، فاختلفوا عليه؛ فمن مُشيرٍ عليه بالامتناع بمكانه، وحاضٍّ له على الدخول فيما دعوه إليه؛ فلما رأى اختلافهم أرجأ الأمر إلى أن ينظر...

وخرج إلى بلاد الروم غازياً، فاستشهد ـ رحمه اللّه ـ هناك؛ وقيل: إنه طُعِنَ طعنةً في حلقه لم يمت منها مكانه وإنما جِيء به حيًّا حتى أُدخل قصره فمات فيه، فاللّه أعلم[٢].

وكان له من الولد: عليّ ـ وهو أكبر ولده والقائمُ بأمره من بعده ـ [وعبد اللّه] ويَحْيى، وأبو بَكْر، وسير، وتَاشُفِين، ومُحمَّد، والمنصور، وإبراهيم؛ تُوفّي إبراهيم هذا بدمشق حين كان نازلاً بها على السلطان الملك العادل.

[علي بن إسحاق]

ولما تُوفِّي أبو إبراهيم إسحاق بن مُحمَّد المذكور، قام بالأمر من بعده ابنه عليٌّ بعهد أبيه إليه، وخرج بأسطول مَيورقة إلى العُدْوَة، وقصد مدينة بَجَاية حين راسله جماعةٌ من أعيانها ـ على ما يقال ـ يَدْعُونه إلى أن يُملِّكوه، ولولا ذلك لم يجسر على الخروج. ومما جَرَّأه أيضاً كوْنُ الموحدين بالأندلس، وسماعُه خبر موت أبي يَعْقُوب واشتغالهم ببيعة أبي يُوسُف، وظن أن الأمر سيضطرب وأن الخلاف سينشأ، فكان هذا أيضاً مما أعانه على الخروج. ولولا هذه الأسباب التي ذكرنا لم يجسر على الخروج...

فقصد ساحلَ بَجَاية فنزل به، فقاتله أهلها قتالاً غير كثير، ثم دخلها؛ وكان

---

(١) نَكَى العَدُوَّ، وفيه نِكايةً: أوقع فيه، أو هزمه وغلبه.

(٢) في وفيات الأعيان (٧/ ١٨): توفي سنة ٥٨٠هـ/ ١١٩٥م.

دخوله إياها ـ كما ذكرنا ـ يوم الاثنين لِستٍّ خلون من شعبان من السنة المذكورة.

[استطراد عن انتقاض العرب بإفريقية على المُوحِّدين]

وكان فيها إذ دخلها، أبو مُوسَى عِيسَى بن عبد المُؤمِن؛ لم يكن والياً عليها وإنما كان الوالي عليها أبو الربيع سُلَيْمان بن عبد اللَّه بن عبد المُؤمِن، وكان أبو مُوسَى مارًا بها حين رجع من إفريقية، وكان والياً عليها هو وأخوه الحسن من قِبَل أخيهما أبي يَعْقُوب، فظهر من العرب إفساد ببعض نواحي إفريقية، فخرج أبو مُوسَى هذا وأخوه أبو عليّ بجيشٍ من المصامدة ومن انضاف إليهم من العرب وسائر الجند، فالتقَوا هم وأولئك العرب المفسدون؛ فانهزم جند إفريقية عنهما وأخذتهما العرب أسيرين، فأقاما عندهم، وانتهى الخبر إلى أبي يَعْقُوب، فأرسل إلى أولئك العرب؛ فطلبوا مالاً اَشتطُّوا[١] فيه غاية الاشتطاط. ثم إن الأمر تَقرر بينهم وبين الموحدين على ستة وثلاثين ألف مثقال، فلما أُخبر بذلك أبو يَعْقُوب استكثر المال وقال: هذه أيضاً مَضرَّة أخرى؛ إن أعطيناهم مثل هذا المال تَقوَّوْا به على ما يريدونه من الفساد! ثم اتفق رأيُهم على أن يضربوا لهم دنانير من الصُّفر مموَّهة[٢]، ففعلوا ذلك وأرسلوا بها إليهم؛ فأطلقوا أبا علي وأبا مُوسَى ومن كان معهما من خَدَمِهما وحاشيتهما؛ فهذا ما أوجب كونَ أبي مُوسَى بِبَجاية، فخرج من أَسر العرب إلى أسر المُيُورقيّين!.

[رجع الحديث عن بني غانية في بَجَاية]

فدخل عليّ بن إسحاق ـ كما ذكرنا ـ بَجَاية في اليوم المؤرّخ، وأقام بها سبعة أيام صلّى فيها الجمعة فخطب ودعا لبني العبَّاس، ثم للإمام أبي العبَّاس أحمد الناصر منهم، وكان خطيبه الفقيه الإمام المحدِّث المتقن أبو مُحمَّد عبد الحقّ بن عبد الرَّحْمٰن الأزديّ الإشبيليّ[٣] ـ مؤلف كتاب «الأحكام» وغيره من التآليف ـ فأحنق ذلك عليه أبا يُوسُف يَعْقُوب أمير المؤمنين، ورام سَفْكَ دمه، فعصمه اللَّه منه، وتوفاه حتف أنفه وفوق فراشه!

وخرج علي بن إسحاق من بَجَاية بعد أن أسس أموره فيها، وسار حتى نزل على قلعة بني حمَّاد، فملكها وملك جميع تلك النواحي؛ فانتهى ذلك إلى أمير المؤمنين

---

(١) اشْتَطَّ في الأمر: تجاوز الحَدَّ فيه.

(٢) الصُّفْرُ: النحاس. مُمَوَّهَةٌ: مطلية.

(٣) ذكره الضبي في «بغية الملتمس»، فقال: «فقيه، مُحدِّث، مشهور، حافظ، زاهد، فاضلٌ، أديب، شاعر». ولم يذكر تاريخ وفاته.

يَعْقُوب، فخرج بالموحدين قاصداً مدينة بَجَاية، فلما سمع عليّ بقدومه خرج له عنها وقصد بلاد الجريد.

[استرجاع بجاية من يد المَيُورقيِّين]

ونزل أمير المؤمنين بالقرب من بَجَاية، فتلقاه أهلها، فلقيهم منشرحَ الصدر ظاهرَ البِشر[1]، وقال لهم من القول ما بسط به نفوسهم وردَّ إليهم نافرَ أنسهم، وقد كانوا يظنون غير ذلك، فخرجوا من عنده متعجبين مما رأوا منه وسمعوا...

واستعمل على بَجَاية من أعيان المُوحِّدين رجلاً اسمه مُحمَّد بن أبي سعيد الجِنْفِيسيّ؛ ثم سار حتى نزل مدينة تُونُس، فجهز جيشاً عظيماً أمَّر عليهم رجلاً من ولد عُمَر بن عبد المُؤمِن اسمه يَعْقُوب، وذلك لِمَا كانوا يرونه في ملحمة كانت عندهم من أنهم سَيُهزَمون مع رجل اسمه يَعْقُوب، بموضع يُعرف بـ«وطا عمره». فسار يَعْقُوب هذا بالجيش المذكور، وأقام هو في تُونُس؛ فكانت الهزيمة على يَعْقُوب بن عُمَر كما ذُكر. وذلك أن الموحِّدين التقوا هم وأصحاب عليّ بن غانية، فانهزم الموحِّدون انهزاماً قبيحاً، واتَّبعتْهم العرب والبربر يقتلونهم في كل وجه. وهلك أكثرهم عطشاً، ورجع بقيتهم إلى تُونُس حيث أمير المؤمنين. فلمَّ شَعَثهم، وجَبَر ما وَهَى من أحوالهم، وخرج هو بنفسه حتى لقي عليّ بن غانية بموضع يُعرف بـ«الحامة»، حامة دُقْيُوس؛ فما وقف أصحابُ عليٍّ إلا يسيراً حتى انكشفوا عنه، وأَبلَى هو عذراً فَأُثْخِن جِراحاً[2]، وخرج فارًا بنفسه فمات في خيمة لعجوز أعرابية.

وكان حين خرج من مَيُورقة خرج معه من إخوته: عبد اللّه، ويَحْيَى، وأبو بَكْر، وسِير؛ فبقي هؤلاء المذكورون بعد موت أخيهم على من كان معهم من أصحابهم؛ ثم رأوا أن يقدموا عليهم يَحْيَى لما رأوا من شهامته وشجاعة نفسه؛ فقدّموه، ثم لحقوا بالصحراء فكانوا بها مع العرب الكائنين هناك إلى أن رجع أمير المؤمنين من هذا الوجه.

[استرجاع قَفْصَة]

وفي هذه السَّفرة انتقضت عليهم أيضاً مدينة قَفْصَة، ونزَع أهلها أيديهم من طاعتهم ودَعَوا للمَيُورقيِّين؛ فنزل عليها أمير المؤمنين أبو يُوسُف فحاصرها أشدَّ الحصار؛ ثم دخلها

---

(١) البِشْرُ: الفَرَحُ.

(٢) أَثخن في الأمر: بالغ فيه، وأثخن في العدو: بالغ في قتاله، ومنه: أثخنه الهم والمرض والجرح.

عَنوةً فقتل أهلها قتلاً ذريعاً؛ بلغني أنه قَتل أكثرهم ذبحاً؛ وأمر بأسوارها فَهُدّت.

[إبراهيم الزُّويليّ الكاتب]

وفي ذلك يقول رجل من أصحابنا من الكتّاب، اسمه إبراهيم، يُعرف عندنا بالزّويليّ، في قصيدة طويلة له يمدح بها أمير المؤمنين أبا يُوسُف ويذكر شأن قَفْصَة ورَمْيهم إياها بحجارة المنجنيق: [من البسيط]

سَائلْ بِقَفْصَةَ هَلْ كانَ الشَّقيُّ لها   بَعْلاً وَكانتْ له حَمَّالةَ الحطبِ[1]
تَبَّتْ يَدَا كافرٍ باللَّه ألهبَها   فَكَانَ كَالكَافرِ الأشقَى أبي لهبِ[2]

وفيها يقول:

لمَّا زَنَت وَهي تَحتَ الأمرِ مُحْصَنةٌ   حَصَبْتُمُوها اتِّباعَ الشَّرْعِ بالحَصَبِ[3]

أنشدني ـ رحمه اللَّه ـ هذه القصيدة بلفظه من أولها إلى آخرها؛ فلما انتهى إلى هذا البيت «لما زنت...» غلبني الضحك لِمَا سبق إلى خاطري من سوءِ معناه؛ فسترتُ وجهي، فقال لي: مالك؟ فلم أملك أن قهقهت! فتغير لي؛ فلما خِفْتُ غضبه أخبرته بما سبق إلى خاطري، فَسبَّني وقال لي: أنت واللَّهِ شيطانٌ سَيِّءُ القريحة، غالبٌ على طباعك اللهو!...

واستمر في إنشاده حتى أتم القصيدة.

وأبو إسحاق الزويليُّ هذا من شيوخ الكتاب وظرفاء الشعراء، جمعتني وإياه مجالسُ عند السيد الأجلّ أبي زَكَريًا يَحْيَى بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن، شاهدت فيها من ظَرْفِهِ[4] وغزارة بديهته ما قضيتُ منه العجب.

[رجع الحديث عن بني غانية]

ولما فرغ أبو يُوسُف من أمر إفريقية، كرَّ راجعاً إلى المغرب.

ولم يزل يَحْيَى بن غَانِية قائماً بما كان يقوم به أخوه من تدبير الأمور؛ ورجع منهم عبد اللَّه خاصة إلى جزيرة مَيُورقة، فألفاها قد انتقضت عليهم، ودُعِيَ فيها لِلمُوحِّدين؛

---

(١) الشَّقِيُّ: أي ابن غانية.
(٢) تَبَّ فلان: هلك وخسر، يقال في الدعاء: تَبَّت يده، وتبًا له. وفي البيتين السابقين اقتباس من قوله تعالى: ﴿تَبَّت يَدا أَبِي لَهَبٍ وتَبّ... وامرأته حَمَّالةَ الحَطَب﴾ [المسد: ١، ٤].
(٣) زنت: ارتكبت الفاحشة. المحصنة: المتزوجة. حصبه حَصْباً: رماه بالحصباء، وهي صغار الحجارة. الحَصَبُ: صغار الحجارة أيضاً.
(٤) الظَّرْفُ: في الوجه: الحُسن، وفي القلب: الذكاء، وفي اللسان: البلاغة.

فعل ذلك أخوهم أبو عبد اللّه مُحمَّد بن إسحاق. فلما قدم عبد اللّه قام معه عِلْجٌ من عُلُوج أبيه يُسمَّى نجاحاً؛ كان نجاحٌ هذا لم ينقض عهداً ولا نزع يداً من طاعة؛ وكان مُتحصِّناً في قلعةٍ ومعه جماعة على رأيه من الموالي والجند. فلما قدم عبد اللّه ـ كما ذكرنا ـ تلقَّوه، وانضاف إليهم خلقٌ من بوادي الجزيرة من الفلاحين ورُعاة الغنم؛ فَنَهَد[١] بهم عبد اللّه إلى المدينة، فلم يدفعه عنها أحد ولا امتنع عليه من أهلها ممتنع؛ ففتحوا له الأبواب، ودخلها بمن معه؛ وأخرج أخاه مُحمَّداً ونفاه إلى الأندلس؛ فحظي مُحمَّد هذا عند المصامدة حُظوةً عظيمةً، وولَّوه مدينة دَانِيَة، فلم يزل والياً عليها حتى مات.

واستقر عبد اللّه بِمَيُورْقَة، فضبط أمرها وجرى في الغزو وإخافة العدوّ على سَنَنِ[٢] أبيه؛ فلم يزل كذلك إلى أن دخلها عليه المُوحِّدون في سنة ٥٩٩ على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه.

ولم يزل أمر يَحْيَى بإفريقية يَنْبُه تارةً ويَخمُل أخرى؛ وله أخبارٌ يطول شرحها ويخرج عن الغرض بسطها.

[اختلاف بني عبد المُؤْمِن]

وحين كان أمير المؤمنين أبو يُوسُف غائباً في هذا الوجه الذي ذكرنا، طمع في الأمر أخوه أبو حَفْص عُمَرُ المتلقّب بـ«الرشيد»، وعمُّه سُلَيْمان بن عبد المُؤْمِن؛ وكان أحدهما بشرقيّ الأندلس بمدينة مُرْسِيَة، والآخر بـ«تادلا» من بلاد صَنْهَاجَة.

فأما أبو الربيع سُلَيْمان فَسوَّلت[٣] له نفسه وزَيَّن له سوءُ رأيه أن يجمع على نفسه قبائل صَنْهَاجَة ليقوموا بدعوته، وصرَّح بذلك ودعا أشياخهم فألقى إليهم ما أراد؛ فلم يتفق له من ذلك أكثرُ من أن تَشعَّثتْ[٤] عليه البلاد وانتشرت عنه هذه الأُشْنُوعَة القبيحة، وبلغ الخبر أمير المؤمنين.

وأما عُمَر، فكان قد بدأ من ذلك بتنقُّص أمير المؤمنين أبي يُوسُف على رؤوس الأشهاد[٥]، تعريضاً[٦] مرةً وتصريحاً تارةً، وإلقاء ذلك إلى خواصّهِ ليُلقوه إلى وجوه

(١) نَهَدَ فلان: نَهَضَ ومضى، وَنَهَدَ لِعَدُوّه أو إلى عَدُوّه نَهْداً، وَنَهَداً: صَمَدَ له وشَرَعَ في قتاله.
(٢) السَّنَنُ: الطريقة أو المنهج.
(٣) سَوَّلَتْ له نفسه الأمر: حَبَّبَتْهُ إليه، وسَهَّلَتْهُ له، وأَغْرَتْهُ به.
(٤) تَشَعَّثَتْ: تفرّقت.
(٥) الأشهاد: جمع الشاهد: الذي يؤدي الشهادة، أو الدليل، وَتنقُّصه على رؤوس الأشهاد: أي جَهْراً وعلانيةً.
(٦) عَرَّضَ بالرجل، وله: قال فيه قولاً يعيبه، وعَرَّضَ له بالقول: لم يُبيِّنه ولم يُصرِّح به.

الأندلس؛ وانتهى أن قَتل قاضيَ مُرْسِيَة وخطيبَها المعروفَ بـ«ابن أبي جَمْرَة»، وقيل: إنه وَكَزه بِرِئَاس السيف[١] في صدره وَكْزةً مات منها بعد أيام.

فاستحثتْ هذه الأخبارُ أميرَ المؤمنين وأزعجته، فَعَجِلَ من بَجَاية إلى فاس سبعَ عشرةَ مرحلة؛ وهذا نهاية ما يكون من سرعة السير لمثله. فلما سمع بقدومه أبو الربيع سُلَيْمان وعُمَر المذكوران، خرجا يلتقيانه؛ فعبر عُمَر البحر. وجاء سُلَيْمان بمن معه من تادلا للقائه أيضاً؛ فأما عُمَر فلقيه بالقرب من مدينة مِكْنَاسَة، فلما رآه نزل عن دابته على العادة ليسلم عليه، فلما قَرُبَ منه لم تَذُرْ بينهما كلمتان حتى أمر بالقبض عليه وتقييده، وحُمل بعد التقييد إلى مدينة سَلَا؛ ولقيه سُلَيْمان عمُّه، ففعل به مثل ذلك؛ وسار حتى نزل مدينة سَلَا. وفَصَل عنها بعد أن وكَّل بهما من يقوم عليهما، وأثقلهما بالحديد؛ وسار حتى بلغ مَرَّاكُش، فكتب إلى القائم عليهما بقتلهما وتكفينهما والصلاة عليهما ودفْنهما؛ فقتلهما صَبْراً، ودفنهما، وكتب يُعلمه بذلك؛ فبلغني أنه قال له: بنيتُ قبريهما بالكدان والرخام؛ وجعل يذكر حُسْنَهما، فكتب إليه: ما لنا ولدفن الجبابرة، إنما هما رجلان من المسلمين، فادفنهما كيف يُدْفَنُ عامة المسلمين.

وبعد قَتْلِه هذين الرجلين هابه بقيةُ القرابة وأُشربت قلوبُهم خوفه[٢]، بَعْدَ أن كانوا متهاوِنين بأمره مُحتقرين له؛ لأشياء كانت تظهر منه في صِباه تُوجِبُ ذلك. وكان قَتْلُه هذين الرجلين في سنة ٥٨٣، وأظهر بعد ذلك زُهداً وتقشُّفاً وخشونةَ ملبسٍ ومأكلٍ.

وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهلِ علم الحديث صِيتٌ، وقامت لهم سوقٌ، وعظمت مكانَتُهُم منه ومن الناس. ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل من يقبل صِلَته منهم بالصِّلات الجزيلة.

[دعوة أبي يُوسُف إلى الأخذ بالكتاب والسُّنَّة]

وفي أيامه انقطع علم الفروع، وخافه الفقهاء، وأمر بإحراق كتب المذهب بعد أن يجرِّد ما فيها من حديث رسول اللَّه ﷺ والقرآن، ففعل ذلك، فأحرق منها جملة في سائر البلاد، كمدوَّنة سَحْنُون[٣]، وكتابِ ابن يُونُس[٤]، ونوادر أبي

---

(١) رِئاس السيف: مقبضه، أو قائمه.

(٢) أُشرب قلبه خوف فلان: أي خالط الخوف قلبه، ـ أو حَلَّ الخوف مَحلَّ الشراب.

(٣) هو عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي، المُلقَّب بـ «سحنون»: قاضٍ، فقيه، زاهِد. ولي القضاء في القيروان، وتوفي فيها سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٤م. (تاريخ قضاة الأندلس، النباهي: ٢٨).

(٤) ابن يونس: لعله أبو المظفر، عبيد اللَّه بن يونس الأزجي البغدادي، صاحب كتاب «أصول الدين والمقالات»، المتوفى سنة ٥٩٣هـ/ ١١٩٧م.

زَيْد[١] ومختصره، وكتابِ التهذيب للبراذعي[٢]، وواضحةِ ابن حبيب[٣]، وما جانَسَ هذه الكتبَ وَنَحَا نحوَها. لقد شهدتُ منها وأنا يومئذٍ بمدينة فاس، يُؤْتَى منها بالأحمال فَتُوضَعُ وَيُطْلَقُ فيها النار. وتقدَّم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتَوَعَّد على ذلك بالعقوبة الشديدة. وأمر جماعةً مِمَّن كان عنده من العلماء المحدِّثين بجمع أحاديث من المصنفات العشرة: (الصحيحين[٤]، والترمذي[٥]، والموطّأ[٦]، وسُنن أبي داود[٧]، وسُنن النَّسائي[٨]، وسنن البَزَّار[٩]، ومسند ابن شَيبة[١٠]، وسنن الدَّارقُطني[١١]، وسنن

---

(١) هو أبو زيد، سعيد بن أوس بن ثابت الأنصاري: إمام في اللغة والأدب، من أهل البصرة. كان يرى رأي القدرية. توفي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م. من آثاره: «النوادر في اللغة. (وفيات الأعيان: ٢/ ٣٧٨.

(٢) التهذيب: كتاب ألَّفه خلف بن أبي القاسم بن سليمان الأزدي البراذعي القيرواني في اختصار «مدونة» أبي عبد اللّٰه المالكي، في فروع المالكية. (معجم المؤلفين، كحالة: ٤/ ١٠٦؛ كشف الظنون، حاجي خليفة: ١٦٤٤).

(٣) هو أبو مروان، عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي الإلبيري القرطبي: عالم، فقيه، من أهل طليطلة. توفي سنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٣م. (تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي: ٢٦٩؛ بغية الملتمس، الضبي: ٣٧٧).

(٤) الصحيحان: هما صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وقد مَرَّ الحديث عنهما آنفاً.

(٥) الترمذي: هو أبو عيسى، محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي الترمذي: إمام، حافظ، من أهل ترمذ. تتلمذ للبخاري، وشاركه في بعض شيوخه. توفي سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م. (الأعلام، الزركلي: ٦/ ٣٢٢).

(٦) المُوَطَّأ: هو كتاب في الحديث النبوي، ألفه الإمام مالك بن أنس، المُتوفَّى سنة ١٧٩هـ/ ٧٩٦م. (كشف الظنون، حاجي خليفة: ١٩٠٧).

(٧) أبو داود: هو سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي السجستاني: إمام أهل الحديث في زمانه. أصله من سجستان، وتوفي في البصرة سنة ٢٧٥هـ/ ٨٨٩م. من آثاره كتاب «السنن». (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٩/ ٥٥).

(٨) النسائي: هو أبو عبد الرحمن، أحمد بن علي بن شعيب النسائي: شيخ الإسلام، القاضي، الحافظ. أصله من «نسا» بخراسان، وتوفي سنة ٣٠٣هـ/ ٩١٥م. من آثاره: «السنن الكبرى» في الحديث. (شذرات الذهب، ابن العماد: ٢/ ٢٣٩).

(٩) البَزَّارُ: هو أبو بكر، أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزَّار: حافظ، من العلماء بالحديث، من أهل البصرة. توفي سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٥م. من آثاره: مسند ضخم سمَّاه «البحر الزاخر». (شذرات الذهب، ابن العماد: ٢/ ٣٠٩).

(١٠) ابن شيبة: هو أبو يوسف، يعقوب بن شيبة بن الصلت السدوسي البصري: من كبار علماء الحديث. توفي سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م. من آثاره: «المسند الكبير». (الأعلام، الزركلي: ٨/ ١٩٩).

(١١) الدارقطني: هو أبو الحسن، علي بن عمر بن أحمد بن مهدي الدارقطني الشافعي: إمام عصره=

البَيْهَقي[١]) في الصلاة وما يتعلق بها، على نحو الأحاديث التي جمعها مُحمَّد بن تُومَرْت في الطهارة؛ فأجابوه إلى ذلك، وجمعوا ما أمرهم بجمعه؛ فكان يُمليه بنفسه على الناس ويأخذهم بحفظه؛ وانتشر هذا المجموع في جميع المغرب، وحفظه الناس من العوامّ والخاصة. فكان يجعل لمن حفظه الجُعلَ السَّنِيَّ من الكُسَا والأموال. وكان قَصْدُه في الجملة مَحْوَ مذهب مَالِك وإزالته من المغرب مرة واحدة، وحَمْلَ الناس على الظاهر من القرآن والحديث. وهذا المقصد بعينه كان مقصدَ أبيه وجدِّه، إلا أنهما لم يُظهراه، وأظهره يَعْقُوب هذا. يشهد لذلك عندي ما أخبرني غيرُ واحدٍ ممن لقي الحافظ أبا بَكْر بن الجدّ، أنه أخبرهم قال: لما دخلتُ على أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب أولَ دَخْلة دخلتُها عليه، وجدت بين يديه كتاب ابن يُونُس، فقال لي: يا أبا بَكْر، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أُحدثت في دين اللّه؛ أرأيت يا أبا بَكْر، المسألة فيها أربعةُ أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا؛ فأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيُّها يجب أن يأخذ به المقلِّد؟ فافتتحت أبيِّن له ما أشكل عليه من ذلك؛ فقال لي وقطَع كلامي: يا أبا بَكْر، ليس إلّا هذا؛ وأشار إلى المصحف؛ أو هذا؛ وأشار إلى كتاب سُنن أبي داود، وكان عن يمينه؛ أو السيف! فظهرَ في أيام يَعْقُوب هذا ما خفي في أيام أبيه وجدِّه؛ ونال عنده طلبةُ العلم ـ أعني علم الحديث ـ ما لم ينالوا في أيام أبيه وجدِّه؛ وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة المُوحِّدين يُسمعهم ـ وقد بلغه حَسَدُهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخَلْوته بهم دونهم ـ يا معشر المُوحِّدين، أنتم قبائل؛ فمن نابه منكم أمرٌ فزِعَ إلى قبيلته؛ وهؤلاء ـ يعني الطلبة ـ لا قَبِيلَ لهم إلّا أنا؛ فمهما نابهم أمرٌ فأنا مَلْجَؤُهم، وإليَّ فَزَعُهم، وإليَّ ينتسبون! فعظم منذ ذلك اليوم أمرُهم، وبالغ الموحِّدون في برِّهم وإكرامهم.

[استرجاع مدينة شِلْب]

ولما كان في سنة ٥٨٥، قصد بِطْرُو بن الرّيق ـ لعنه اللّه ـ مدينة شِلْب، من جزيرة الأندلس؛ فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنجُ بالبُطْس والشواني[٢]؛

= في الحديث، وأوّل من صنَّف القراءات، وعقد لها أبواباً. توفي في بغداد سنة ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م. من آثاره: كتاب «السنن». (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٢/ ٣٤).

(١) البَيْهَقِيُّ: هو أبو بكر، أحمد بن الحسين بن علي البيهقي: من كبار أئمة الحديث. تنقل في البلاد، وتوفي بنيسابور سنة ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦م. من آثاره: «السنن الكبرى». (شذرات الذهب، ابن العماد: ٣/ ٣٠٤).

(٢) الشواني: جمع الشونة: سفينة حربية قديمة.

وكان قد وجّه إليهم يستدعيهم إلى أن يعينوه، على أن يجعل لهم سَبْيَ البلد، وله هو المدينة خاصة؛ ففعلوا ذلك، ونزلوا عليها من البر والبحر؛ فملكوها وسَبَوْا أهلها؛ وملك ابنُ الريق ـ لعنه اللَّه ـ البلد.

وتجهز أميرُ المؤمنين في جيوشٍ عظيمةٍ، وسار حتى عبر البحر؛ ولم يكن له همٌّ إلا مدينة شِلْب المذكورة، فنزل عليها؛ فلم تُطق الرومُ دفاعه، وخرجوا عنها وعمَّا كانوا قد ملكوه من أعمالها؛ ولم يكفه ذلك حتى أخذ حصناً من حصونهم عظيماً يقال له: «طُرُش»؛ ورجع إلى مَرَّاكُش.

[طامعٌ آخر من بني عبد المُؤْمِن]

وبعد رجوعه مرض مرضاً شديداً خِيفَ عليه منه؛ وكان قد وَلَّى أخاه أبا يَحْيَى، الأندلس، فجعل يتلكأ في خروجه ويبطىء تَربُّصاً به وطمعاً في وفاته؛ وكلما أفاق هو سأل: هل عبر أبو يَحْيَى أم لا؟ فلما بلغ أبا يَحْيَى استحثاثه إياه، أسرع إلى العبور وهو لا يشكّ أن أول ما يَرِد عليه خبرُ وفاته؛ فاستمال أشياخ الجزيرة ودعاهم إلى نفسه، وقال: ما تركتُ أمير المؤمنين إلَّا هامَةَ[1] اليوم أو غد، وليس لها غيري! فجعل أشياخُ الجزيرة يُحيل بعضهم على بعض، وأهلُ بلَدٍ على أهل بلد؛ حتى بلغ مُرْسِيَة؛ وكتبوا بذلك مساطيرَ خوفاً على أنفسهم.

وأفاق أمير المؤمنين من مرضه، وأشار عليه الأطباء بالسفر، فخرج قاصداً مدينة فاس، يُحْمَل في مِحَفَّةٍ على بغلين؛ وبلغه أمرُ أبي يَحْيَى المذكور، وجاءته كتبُ أهل الأندلس والمساطيرُ التي كتبوها.

ولما سمع أبو يَحْيَى بحركته، جاء معتذراً إليه حتى عبر البحر، فلقيه بمدينة سَلَا؛ فلما وقعت عَيْنُه عليه قال لمن عنده: هذا الشقيُّ قد جاء! وأمر به فَقُيِّد، ووجَّه إلى أشياخ الأندلس فحضروا وأدَّوا شهاداتهم؛ وأمر به فَأُحْضِر وقال: إنما أقتلك بقوله ﷺ: «إذا بُويع خليفتان بأرضٍ فاقتلوا الآخِرَ منهما»! وأمر به فَضُرِبَت عُنقُه؛ تولَّى قَتْلَه أخوه لأبيه عبد الرَّحْمٰن بن يُوسُف؛ وذلك بمحضرٍ من الناس، وأمر به فَكُفِّن ودُفِنَ؛ وأقبل على القرابة فنال منهم بلسانه وأخذ منهم أخذاً شديداً، وأمر

---

(١) الهامة: طائر صغير يألف المقابر، وقيل: هو طائر زُعِمَ أنه يخرج من هامة القتيل ـ أي رأسه ـ ويقول: اسقوني اسقوني، حتى يؤخذ بثأره، ويقال له: الصَّدى. وقوله: «إلّا هامة اليوم أو غد»، أي: يموت اليوم أو غداً. ومنه قول كُثيِّر بن عبد الرحمن:

وكـلّ خـلـيـلٍ رَاءَنـي فـهـو قـائـلٌ ... مِـنَ اجْـلِـكِ هـذا هَـامـةُ الـيَـوْمِ أو غَـدِ

(ديوان كثير: ١١٦).

بإخراجهم على أسوإ حال، حُفاةً عُراة الرؤوس؛ فخرجوا وكلٌّ واحدٍ منهم لا يشك أنه مقتول!

ولم يزل أمرُ القرابة من يومئذٍ في خمول وهلُمّ، وقد كانوا قبل ذلك لا فرق بين أحدهم وبين الخليفة سوى نفوذِ العلامة؛ فكان جملةُ من قتَل يعقوبُ: أخويه وعمّه!

[وقعة الأرك]

ولما كان في سنة ٩٠ انتقض ما بينه وبين الأدفنش ـ لعنه اللّه ـ من العهد؛ فخرجت خيلُ الأدفنش تدوس البلاد وتجوس خلالها؛ إلى أن كثر عَيْثُها[١] بالأندلس.

وتجهّز أمير المؤمنين وأخذ في العبور، فعبر البحر في جمادى الآخرة من سنة ٥٩١ بجموعٍ عظيمةٍ، ونزل مدينة إشْبيليَّة، فلم يُقم بها إلا يسيراً ريثما اعترض الجندَ وقسم الأموالَ، وخرج يقصد بلاد الروم.

وسمع الأدفنش ـ لعنه اللّه ـ بقصده، فتجهز هو أيضاً في جموعٍ ضخمةٍ؛ والتقوا بموضع يُعرف بـ«فَحْصِ الحديد»؛ وكان الأدفنش قد جمع جموعاً لَمْ يجتمع له مثلها قط[٢]؛ فلما تراءى الجمعان اشتد خوف المُوحّدين وساءت ظنونهم؛ لما رأوا من كثرة عدوهم؛ وأميرُ المؤمنين في ذلك كلّه لا مُستنَدَ له إلا الدعاء والاستعانة بكل من يظنّ عنده خيراً من الصالحين.

فلما كان يوم الأربعاء وهو الثالث من شعبان[٣] من هذه السنة المذكورة، التقى المسلمون وعدوُّهم؛ فأنزل اللّه على الموحّدين نصره، وأفرغ عليهم صبره، ومنحهم أكتافَ الروم؛ وكانت الدائرة على الأدفنش ـ لعنه اللّه ـ وأصحابه؛ ولم ينجُ إلا هو في نحوٍ من ثلاثين من وجوه قواده؛ واستشهد من المسلمين جماعة من أعيان المُوحّدين وغيرهم، منهم الوزير أبو يَحْيَى [أبو بَكْر] بن عبد اللّه بن الشيخ أبي حَفْص المتقدم الذكر في وزراء أبي يُوسُف.

وخرج أمير المؤمنين بنفسه حتى أتى قلعة رباح، وقد انجلى عنها أهلُها، فدخلها، وأمر بكنيستها فَغُيِّرت مسجداً؛ فصلى فيها المسلمون؛ واستولى على ما

---

(١) العَيْثُ: الفساد.

(٢) ذكر الضبي في (بغية الملتمس: ٤٥) أن عسكر الأدفنش «كان ينيف على خمسة وعشرين ألف فارس، ومائتي ألف راجل، وكان معه جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لاشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم، وأعدُّوا لذلك أموالاً، فهزمهم اللّه تعالى، واستوعب القتل أكثرهم».

(٣) في وفيات الأعيان (٧/٨): أنّ الوقعة كانت يوم الخميس التاسع من شعبان سنة إحدى وتسعين وخمسمائة.

حول طُلَيْطُلَة من الحصون؛ ثم رجع إلى مدينة إشْبِيليَّة منصوراً مفتوحاً عليه[١].

وكانت هذه الهزيمة أُختاً لهزيمة الزَّلاقة، المتقدم ذكرُها في مدة يُوسُف بن تَاشُفِين أمير المرابطين.

وأقام أمير المؤمنين بإشْبِيليَّة بقية سنة ٥٩١، وقصد بلاد الروم في السنة الثانية، فنزل على مدينة طُلَيْطُلَة بعساكره؛ فقطع أشجارها، وانْتَزَفَ[٢] معايشها، وغوَّر مياهَها، وأنكى في الروم أشدَّ نكاية.

ثم عاد في السنة الثالثة أيضاً، وتوغل بلادَ الروم، ووصل إلى مواضع لم يصل إليها ملكٌ من ملوك المسلمين قطّ؛ ورجع إلى مدينة إشْبِيليَّة، فأرسل الأدفنش إليه ـ لعنه اللّٰه ـ يسأله المهادنة، فهادنه إلى عشر سنين، فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتَّب فيها من يقوم بحمايتها، وقصد مدينة مَرَّاكُش، وذلك في سنة ٥٩٤.

[عزم أبي يُوسُف على قَصْد مصر، ووفاته]

فبلغني عن غير واحدٍ أنه صرّح للموحِّدين بالرحلة إلى المشرق، وجعل يَذكر البلاد المصرية وما فيها من المَنَاكِر والبِدع[٣]، ويقول: نحن إن شاء اللّٰه مُطهِّروها؛ ولم يزل هذا عَزْمَه إلى أن مات ـ رحمه اللّٰه ـ في صدر سنة ٥٩٥ ـ كما ذُكر ـ ودفن بـ«تينملّ» مع آبائه[٤].

[شيء من سيرته]

وكان في جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل، مُتحرِّياً له بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمةُ التي هو فيها؛ كان في أول أمره أراد الجَرْيَ على سُنن الخلفاء الأُوَل...

---

(١) ذكر ابن خلكان ما غنمه المسلمون من الفرنجة في تلك الوقعة فقال: «غنم المسلمون أموالهم، حتى قيل: إن الذي حصل لبيت المال من دروعهم ستون ألف درع. وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يُحصر لها عدد، ولم يُسمع في بلاد الأندلس بِكَسْرَةٍ مثلها».

(٢) انتزف الشيءَ: أفناه.

(٣) البِدَعُ: جمع البدعة: ما استُحْدِث في الدين وغيره.

(٤) في وفيات الأعيان: «اختلفت الروايات في أمره، فمن الناس من يقول: إنه ترك ما كان فيه وتجرَّد وساح في الأرض حتى انتهى إلى بلاد المشرق، وهو مُستخفٍ لا يُعرف، ومات خاملاً. ومنهم من يقول: إنه لما رجع إلى مراكش، توفي في غرّة جمادى الأولى، وقيل: في شهر ربيع الآخر، في سابع عَشَرِه، وقيل: في غرّة صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة. وقيل: إنه مات بمدينة سلا، واللّٰه أعلم».

فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه في الصلوات الخمس؛ لم يزل على ذلك مستمراً أشهراً، إلى أن أبطأ يوماً عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت، وقعد الناس ينتظرونه؛ فخرج عليهم فصلّى ثم أوسعهم لوماً وتأنيباً، وقال: ما أرى صلاتَكم إلا لنا، وإلا فما مَنَعكم عن أن تقدّموا رجلاً منكم فيُصلي بكم؟ أليس قد قدّم أصحابُ رسول الله ﷺ عَبْدَ الرَّحْمٰن بن عَوْفٍ[1] حين دخل وقت الصلاة وهو غائب؟ أما لَكُمْ بهم أسوةٌ وهم الأئمة المتَّبعون والهداة المهتدون؟ فكان ذلك سبباً لقطعه الإمامة.

وكان يقعد للناس عامةً، لا يُحْجَبُ عنه أحدٌ من صغير ولا كبير؛ حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم، فقضى بينهما؛ وأمر الوزيرَ أبا يَحْيَى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما؛ وقال لهما: أما كان في البلد حُكام قد نُصبوا لمثل هذا؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفّذها غيره.

ولما ولّى أبا القَاسِم بن بَقِيٍّ المتقدم الذكر، كان فيما اشترط عليه أن يكون قعوده بحيث يَسمع حُكْمَهُ في جميع القَضايا؛ فكان يقعد في موضعٍ بينه وبين أمير المؤمنين سِترٌ من ألواح.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحَضَر في كل شهر مرّتين، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحُكامهم.

وكان إذا وَفَد عليه أهلُ بلد فأوّل ما يسألهم عن عُمالهم وقُضاتهم ووُلاتهم؛ فإذا أثنوا خيراً قال: اعلموا أنكم مَسْؤُولون عن هذه الشهادة يوم القيامة؛ فلا يقولَنَّ امرؤٌ منكم إلا حقًّا. وربما تلا في بعض المجالس ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥].

ولما خرج إلى الغزوة الثانية سنة ٩٢ـ وهي الغزوة التي كانت بعد الوقعة الكبرى التي أذل اللّه فيها الأدفنش وجموعَه وأعز الإسلام وأنصاره ـ كتب قبل خروجه إلى جميع البلاد بالبحث عن الصالحين والمنتمين إلى الخير وحَمْلهم إليه؛ فاجتمعت له منهم جماعة كبيرة كان يجعلهم كلما سار بين يديه، فإذا نظر إليهم قال لمن عنده: هؤلاء الجند لا هؤلاء! ويشير إلى العسكر؛ فكان في ذلك شبيهاً بما حُكِيَ

---

(١) هو أبو محمد، عبد الرحمن بن عوف الزهري القرشي: صحابي جليل، وأحد العشرة المُبَشَّرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب الشورى. توفي سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٣٢١).

عن قُتَيْبَة بن مُسْلِم[١] والي خُراسان حين لَقِيَ التركَ وكان في جيشه أبو عبد اللّه مُحمَّد بن واسع؛ فجعل يُكثر السؤالَ عنه، فأُخْبِرَ أنه في ناحية من الجيش مُتَّكِئاً على سِيَةِ قَوسه[٢] رافعاً إصبعه إلى السماء يُنَضْنِضُ[٣] بها؛ فقال قُتَيْبَةُ: لَإِصْبَعُهُ تلك أَحَبُّ إليَّ من عشرة آلاف سيف!

ولما رجع أمير المؤمنين أبو يُوسُف من وجهه هذا، أمر لهؤلاء القوم بأموالٍ عظيمةٍ، فقبل منهم من رأى القبول، ورَدَّ مَن رأى الردّ؛ فتساوى عنده ـ رضي اللّه عنه ـ الفريقان، وقال: لكلٍّ مذهب؛ ولم يزد هؤلاء ردُّهم ولا نقص أولئك قبولُهم.

وكان كثيرَ الصدقة؛ بلغني أنه تصدّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة ـ أعني التي كانت فيها الوقعة الكبرى ـ بأربعين ألف دينار، خرج منها للعامّة نحوٌ من نصفها، والباقي في القرابة؛ أدركتُهم وقد قسموا مدينة مَرَّاكُش أرباعاً، وجعلوا في كل رُبع أمناء معهم أموالٌ يتحرَّون بها المساتير وأربابَ البيوتات. وكان كلما دخلت السنةُ يأمر أن يُكتب له الأيتام المنقطعون، فَيُجمعون إلى موضع قريبٍ من قصره، فَيُخْتَنُون[٤] ويأمر لكل صبيٍّ منهم بمثقال وثوبٍ ورغيف ورُمانة. وربما زاد على المثقال درهمين جديدين؛ هذا كلُّه شهدتُه لا أنقله عن أحد من الناس.

وبنى بمدينة مَرَّاكُش بيمارستاناً ما أظنّ أنّ في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تَخَيَّر ساحةً فسيحةً بأعدل[٥] موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه؛ فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكَمة ما زاد على الاقتراح؛ وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشموماتِ والمأكولات، وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادةً على أربع بِرَكٍ في وسطه، إحداها رخام أبيض؛ ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكَتّان والحرير والأديم وغيرِه بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت. وأجرَى له ثلاثين ديناراً في كل يوم برسم الطعام وما يُنْفَقُ عليه خاصة، خارجاً عما جَلَب إليه من الأدوية. وأقام فيه من الصيادِلة لعمل الأشرِبة والأدهان والأكحال؛ وأعدَّ فيه للمرضى ثيابَ ليل ونهار للنوم، من جهاز

---

(١) هو أبو حفص، قتيبة بن مسلم بن عمرو بن الحصين الباهلي: أمير، فاتح، نشأ في دولة الأمويين المروانية، وتوفي سنة ٩٦هـ/ ٧١٥م. (وفيات الأعيان، ابن خلكان: ٤/ ٨٦).
(٢) السِّيَةُ من القوس: ما عُطِفَ من طَرَفَيْها، وهما سِيَتان.
(٣) نَضْنَضَ الشيءَ: أقلقه وَحرّكه.
(٤) ختن الصَّبِيَّ خَتْناً، وختَاناً: قطع قُلْفَتَهُ، وهي زائدة لحمية على رأس ذَكَرِه.
(٥) أعدل موضع: أحسن موضعٍ وأفضله.

الصيف والشتاء؛ فإذا نَقَهَ المريضُ[١] فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمالٍ يعيش به ريثما يستقلّ[٢]، وإن كان غنيًا دُفِعَ إليه مالُه وتُرِكَ وسَبَبه، ولم يَقْصِرْه على الفقراء دون الأغنياء، بل كلُّ مَنْ مَرِضَ بِمَرَّاكُش من غريبٍ حُمِلَ إليه وعُولِجَ إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعةٍ بعد صلاته يركب ويدخله، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتٍ أهلِ بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القَوَمَةُ[٣] عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج؛ لم يزل مستمرًا على هذا إلى أن مات رحمه الله.

[مماليك الغُزّ المصريون في المغرب]

وفي أول ولايته ـ إما سنة ٨٣ أو ٨٢ـ وَرَد علينا البلادَ الغُزُّ[٤] من مصر؛ وكان فيمن وَرَد علينا مملوكٌ يُسَمَّى «قَرَاقُش»، ذَكروا أنه كان مملوكاً لتقيّ الدين ابن أخي الملك الناصر، ورجل يسمى «شَعْبَان»، ذكروا أنه من أمراء الغُزّ، ومن أجناد المصريين رجلٌ يُعرف بالقاضي عِمَاد الدين، في آخرين. فأَحْسَنَ نُزُلَهم، وبالغَ في تكرمتهم، وجعل لهم مزيةً ظاهرة على الموحِّدين؛ وذلك أن المُوحِّدين يأخذون الجامكيةَ ثلاثَ مراتٍ في كلّ سنة، في كلّ أربعة أشهر مرة؛ وجامكيةُ الغزّ مستمرةٌ في كلّ شهر لا تختلّ، وقال: الفرق بين هؤلاء وبين المُوحِّدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم في البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية، والمُوحِّدون لهم الأقطاع والأموال المتأصّلة[٥]. هذا مع أنه أقطع أعيانَهم أقطاعاً كأقطاع المُوحِّدين أو أوسع؛ أقطعَ رجلاً منهم فيما أعرف، من أهل إرْبَل، يُعرف بـ«أحمد الحاجب»، مواضعَ ليس لأحد من قرابته مثلُها؛ وأقطع شَعْبَانَ المذكور بالأندلس قرًى كثيرةً تغلُّ[٦] في كلّ سنة نحواً من تسعة آلاف دينار، هذا خارجاً عن جامكيتهم الكثيرة التي ليس لأحدٍ من الأجناد غيرِهم مثلُها.

ولم يرِد المغربَ من هذه الطائفة ـ أعني الغُزّ ـ ألطفُ حِسًا ولا أزكى نفساً ولا أحسنُ محاضرةً ولا أطْيَبُ عِشرة من شَعْبَانَ هذا المذكور؛ ما لقيتُه إلا استنشدني أو أنشدني.

---

(١) نَقَهَ المريض: بَرأ وأفاق وهو قريب عهدٍ بالمرض، لم يرجع إليه كمال صِحّته وقُوّته.
(٢) استقل الرجل: انفرد بتدبير أمره.
(٣) القَوَمَةُ: جمع قائم: من قام على أهله: تَولّى أمرهم، وقام بنفقاتهم.
(٤) الغُزّ: جنس من التُرك، تعود أُصولهم إلى أقصى بلاد الشرق، على تخوم الصين. دخلوا بلاد المسلمين أسارى أو مماليك، ثم علا شأنهم في الحياة المدنية والعسكرية، فكان منهم القواد والوزراء والولاة. ومن هؤلاء الغُزّ كان أحمد بن طولون سلطان مصر في القرن الثالث.
(٥) الأموال المتأصلة: الثابتة، الدائمة.
(٦) أَغلّت الضيعة: أعطت الغَلّة، وهي الدَّخل الذي يُحصّله صاحبها من زُروعها وثمارها وخيراتها.

أنشدته يوماً لشاعرٍ من أصحابنا من أهل إشْبِيلِيَّة: [من البسيط]

وَقائِلٍ: فِيمَ لم تَهْجَعْ؟ فَقُلْتُ لَهُ كَيْفَ الهُجوعُ لِطَرْفٍ نَافرِ الوَسَنِ[1]

لم تَدْرِ أَنَّ الكَرَى المَمْنُوعَ عَنْ بَصَرِي هِيَ السِّنَاتُ التي في مُقْلَتَيْ حَسَنِ![2]

فضحك وقال: لقد حَوَّم[3] هذا الشاعر وما وَرَد، وَرَفْرَفَ فما طار، وأراد غايةً فوقع دونها؛ ولِلَّه مَنْ أثار هذا المعنى بأوجز لفظٍ وأسهل مأخذٍ وأيسر كلفةٍ حيث يقول: [من الطويل]

أَعِيدُوا صَبَاحِي فَهْوَ عِنْدَ الكَوَاعِبِ وَرُدُّوا رُقادي فَهْوَ لَحْظُ الحبَائبِ[4]

قلت: هو أبو الطيب. قال لي: نعم، هو الطيب أبو الطيب.

وأنشدتُه يوماً ـ وقد جرى ذِكْر التجنيس اللفظي[5]، فأنشد هو منه وأكثر ـ: [من الطويل]

إذا صَالَ ذو وُدٍّ بِوِدِّ صَدِيقِهِ فَيا أَيُّها الخِلُّ المُصاحِبُ لي صُلْ بي[6]

فَإِنِّيَ مِثْلُ الماءِ لِيناً لِصَاحِبي وَنَاهِيكَ لِلأعداءِ مِنْ رَجُلٍ صُلْبِ!

فاستحسنهما وكتبهما عنده، وقال لي رحمه اللَّه: لك عليَّ بهذين البيتين حق؛ فما وافقني شيءٌ من الشعر في هذا المعنى ولا في غيرِه ولا وقع مني موقعهما.

وفي الجملة كان له شغف بالآداب شديد، وكان يَقْرِض شيئاً من الشعر، وربما ندَرَتْ له الأبياتُ الجيدة؛ سألته أن يكتب لي شيئاً من شعره أو يُنشدنيه، فأبى عليَّ كلَّ الإباء، وحلف لا يفعل...

[أبو يُوسُف وعقيدة العامة في ابن تُومَرْت]

وخرج أمير المؤمنين أبو يُوسُف إلى تِينملّ للزيارة ومعه هؤلاء الغُزُّ المذكورون، فقعدوا تحت شجرة خرُّوب مقابلةٍ للمسجد؛ وقد كان ابن تُومَرْت قال لأصحابه فيما قال لهم وَوَعَدهُم به: لِيُبصرنَّ منكم مَن طالت حياتُه أمراءَ أهلِ مصرَ مستظلِّين بهذه الشجرةِ قاعدين تحتها! فلما جلس الغُزُّ على الصفة المتقدمة تحتها كان ذلك اليومُ في

(١) هَجَعَ فلان هُجوعاً: نام. نافرٌ: شاردٌ، مُهاجرٌ. الوَسَنُ: النُّعاس.
(٢) الكَرَى: النُّعاس، أو النوم. السِّنَاتُ: جمع السِّنَة: النُّعاس.
(٣) حَوَّم حول الشيء، وعليه ـ حوماً، وحوماناً: دار، وحوَّم في الأمر: استدام النظر فيه.
(٤) الكواعب: جمع الكاعب: الشابة التي نَهَدَ ثديها، أي ارتفع وبرز.
(٥) التجنيس اللفظي: الجناس: من فنون البديع البلاغية، يقوم على اتفاق الكلمتين في كلّ الحروف، أو أكثرها، مع اختلاف المعنى.
(٦) صال عليه صولاً، وصولاناً: سطا عليه ليقهره.

تينملّ يوماً عظيماً؛ اتصل التكبير من كل جهة، وجاء النساء يُوَلوِلْن ويَضْرِبْنَ بالدُّفوف، وَيَقُلْنَ ما معناه بلسانهم: صَدَقَ مولانا المهدي! نشهد أنه الإمام حقًّا!

فأخبرني من رأى أميرَ المؤمنين أبا يُوسف حين رأى ذلك يتبسمُ استخفافاً لعقولهن؛ لأنه لا يرى شيئاً من هذا كلّه، وكان لا يرى رأيهم في ابن تُومَرْت؛ فاللَّه أعلم.

أخبرني الشيخ الصالحُ أبو العبّاس أحمد بن إبراهيم بن مُطرِّف المَرِيّ ونحن بحِجْر الكعبة قال: قال لي أمير المؤمنين أبو يُوسُف: يا أبا العباس، اْشهد لي بين يدي اللَّه عزَّ وجلَّ أني لا أقول بالعِصْمَة ـ يعني عصمة ابن تُومَرْت ـ قال: وقال لي يوماً وقد استأذنته في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس، أين الإمام...؟ أين الإمام...؟

أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جَيّان من جزيرة الأندلس، يُسمَّى أبا بَكْر بن هانىء، مشهور البيت هناك؛ لقيتُه وقد عَلَتْ سِنُّه فرويت عنه، قال لي: لما رجع أمير المؤمنين من غزوة الأرَك ـ وهي التي أوقع فيها بالأدفنش وأصحابه ـ خرجنا نتلقّاه؛ فقدَّمني أهلُ البلد لتكليمه، فرُفِعْتُ إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته ووُلاته وعُمَّاله ـ على ما جرت عادته ـ فلما فرغتُ من جوابه، سألني كيف حالي في نفسي؛ فتشكرتُ له ودعوتُ بطول بقائه؛ ثم قال لي: ما قرأت من العلم؟ قلت: قرأتُ تواليفَ الإمام ـ أعني ابن تُومَرْت ـ فنظر إليّ نظرة المُغْضَب، وقال: ما هكذا يقول الطالب! إنما حُكمك أن تقول: قرأتُ كتاب اللَّه، وقرأت شيئاً من السُّنَّة؛ ثم بعد هذا قل ما شئت. في أضرابٍ[1] لهذه الحكايات لو أوردناها لطال بها هذا التلخيص.

[اهتمامه بالتشييد والبناء]

وكان عند رجوعه من السَّفرة التي استنقذ فيها مدينة شِلْب من أيدي الروم على ما تقدَّم، أمر أن يُبْنَى له على النهر الأعظم، نهر إشْبِيلِيَّة، حِصْنٌ؛ وأن تُبْنَى له في ذلك الحصن قُصورٌ وقِبَابٌ، جارياً في ذلك على عادته من حُبِّ البناء وإيثار التشييد ـ فإنه كان مُهتمًّا بالبناء، وفي طول أيامه لم يخلُ من قصرٍ يَسْتَجِدُّه أو مدينة يَعْمُرُها؛ زاد في مدينة مَرَّاكُش في أيامه زيادةً كثيرةً يطولُ تفصيلها ـ فَتمَّتْ له هذه القصور المذكورة على ما أراد وفوقه؛ وسَمَّى ذلك الحِصْنَ «حِصْنَ الفَرَج».

(١) أضراب: جمع ضَرْب: المِثْلُ والشَّكْلُ.

[عَليّ بن حَزْمُون الشاعر(*)]

ولما رجع من غزوته العظمى ـ المتقدم ذكرها ـ في سنة ٥٩١، جلس للوفود في قُبَّةٍ من تلك القِباب مشرفةٍ على النهر الأعظم، وأذن فدخلوا عليه على طبقاتهم ومراتبهم؛ وأنشده الشعراء؛ فَمِمَّن أنشده في ذلك اليوم صديقٌ لي من أهل مُرْسِيَة اسمه عليُّ بن حَزْمُون، أنشده قصيدةً في عَرُوضٍ يُسَمَّى الخَبَبُ كان يقترحه على الشعراء، فوقعت القصيدة من أمير المؤمنين ومن الحاضرين موقع استحسان، أولها:

[من الخبب أو المُحدث]

حَيَّتْكَ مُعَطَّرةَ النَّفَسِ ... نَفَحاتُ الفَتْحِ بِأَنْدَلُسِ

فَذَرِ الكُفَّارَ وَمَأْتَمَهُمْ ... إنَّ الإسلامَ لَفي عُرُسِ (١)

أإمامَ الحقِّ وَناصِرَهُ ... طَهَّرْتَ الأَرْضَ مِنَ الدَّنَسِ (٢)

وَمَلأتَ قُلوبَ الناسِ هُدًى ... فَدَنَا التوفيقُ لِمُلْتَمِسِ (٣)

وَرَفَعْتَ مَنارَ الدينِ عَلى ... عَمَدٍ شُمٍّ وَعَلى أُسُسِ (٤)

وَصَدَعْتَ رِداءَ الكُفْرِ كَما ... صَدَعَ الدَّيْجورُ سَنَا قَبَسِ (٥)

لاقيتَ جُمُوعَهُمو فَغَدَوْا ... فرصاً في قبضةِ مُفْتَرِسِ (٦)

جاؤوكَ تَضيقُ الأرضُ بِهِمْ ... عَدداً لم يُحْصَ ولم يُقَسِ

خَرَجُوا بَطَراً ورِئاءَ النا ... سِ لِيَخْتَلِسوا مع مُخْتَلِسِ (٧)

وَمَضَيْتَ لأمرِ اللّهِ عَلى ... ثِقَةٍ بِاللّهِ وَلَمْ تَخِسِ (٨)

فَأَناخَ الموتُ كَلاكِلَهُ ... بِظُبَاكَ على بَشَرٍ رَجِسِ (٩)

(*) ترجمته في: الأعلام: ٤/ ٢٧١.

(١) ذَرِ الكُفَّار: اتركهم.

(٢) الدَّنَسُ: الوَسَخُ، القَذَرُ.

(٣) الملتمس: من التمس الشيءَ: طلبه.

(٤) عَمَدٌ شُمٌّ: عظيمة الارتفاع.

(٥) صدع الشيءَ: شَقَّهُ. الديجور: الظلمة. السَّنا: الضياء أو اللمعان. القبس: النار، أو الشعلة منها.

(٦) المفترس: من افترس فريسته: صادها وقتلها.

(٧) البَطَرُ: الغُلُوُّ في المَرَح والزَّهْو. رئاء الناس: أي ليراهم الناس على حالٍ، وهم على نقيضه. اختلس الشيءَ: استلبه في نُهْزَةٍ وَمُخاتلة.

(٨) خاس فلانٌ: ذَلَّ، وخاس العَهْدَ: نقضه وخانه.

(٩) أناخ: نزل أو أقام. الكلاكل: جمع الكلكل: الصدر. الظُّبَى: جمع الظُّبة: حَدُّ السيف. البَشَرُ: جمع البَشْرَة: ظاهر الجِلْد. والبَشَرُ: النَّاس. الرِّجِسُ: القَذِرُ.

وَتَساوَى القاعُ بِهَامِهِم الرُّبْضُ مع الحَرِبِ الضَرِسِ[1]
سُقِيَتْ بِنَجِيعِهِمُو أَكَمٌ وَطِئُوا مِنْهُنَّ على دَهَسِ[2]
فَأُولئكَ حِزْبُ الكُفْرِ أَلا إنَّ الكُفارَ لَفي نكسِ[3]
أَذْوِي الصُّلْبانِ وَراءكُمو خَيْلُ المَلِكِ الخَبِرِ النَّدُسِ[4]
لَوْ أنّ البَحْرَ تَناولَهُ جُرَعاً وَطِئَتْهُ على يَبَسِ[5]
وَلَوَ آنّ الصُّمّ تُراجِمُها أَضْحَتْ كُحلَ المُقَلِ النُّعسِ[6]
مَلأ التوحيدُ أعِنَّتَها وأغارَ بِها رُوحُ القُدُسِ[7]
نَهَضَتْ فَمضَتْ فَقَضَتْ أَمَلاً أنسى عَتَبَ الدنيا فَنُسِي
جاسَتْ جَنَباتِ الكفرِ فَلَمْ تَتْرُكْ لَهُمو ما لم تَجُسِ[8]
لم يَبْقَ بِها مَثْوَى رَجُلٍ إلّا وَعليْهِ شَذَى فَرَسِ[9]
لحقوا بِقُرون الشُّمّ فلا سُقْيَا لِطُلولهِمو الدُّرُسِ[10]
إنْ كانَ نَجَا أذْفُنشُهُمو فإلى عَيْشٍ نَكِدٍ تَعِسِ
نَظَرَ المَلِكُ الأعلى فرأى مَلِكاً ما بين قَناً وقِسِي[11]

(١) الهام: الرؤوس، الواحدة: هامة. الرُّبْضُ: العاجز، لا ينهض للحاجات أو الأسفار أو الغزوات والحروب. الحَرِبُ من الرجال: المُتمرّس بالحَرْب، المُجَرّبُ لها. الضَّرِسُ: الذي ضَرَّسَتْهُ الحروب: أي جَرَّبَتْهُ وأحكمته.
(٢) النَّجِيعُ: دم الجَوْف. الأكم: جمع الأكمة: التَّلُّ. الدَّهَسُ: من دَهِسَ المكان دَهَساً: لان وسهل، وليس هو برملٍ ولا ترابٍ ولا طين.
(٣) النكس: من نكس الشيءَ: قلبه وجعل أعلاه أسفله، أو من نَكَس رأسه: طأطأه من خِزْيٍ ونحوه.
(٤) النَّدُس: الفَطِنُ، الكَيِّسُ، أو الذي يخالط الناس من دون أن يُثقل عليهم.
(٥) الجُرَعُ: جمع الجُرْعَة: الحَسْوَةُ من الماء ونحوه، مِلْءُ الفم.
(٦) الصُّمُّ: الصخور الملساء الضخمة. تُراجمها: تُراميها.
(٧) روح القدس: جبريل عليه السلام.
(٨) جَاسَ جَوْساً وَجَوَسَاناً: تَرَدَّد، يقال: جاسوا خلال الديار: تَرَدَّدُوا بينها بالإفساد، وطلبوا ما فيها. وجاس الشيءَ: طلبه بالاستقصاء.
(٩) المَثْوَى: المقام. الشَّذَى: قوة الرائحة.
(١٠) الطُّلول: جمع الطلل: ما بقي شاخصاً من آثار الديار. الدُّرُسُ: الزائلة، المَمْحُوَّة، يقال: درس الطَّلل: زال وامَّحى وعفا أثره.
(١١) القنا: الرماح. القِسِيّ: جمع القوس.

كالصُّبحِ توشَّحَ رَوْنَقَه كالطُّور بنورِ اللَّه كُسِي[١]
فَمَضَى لم يُلْوِ على أحدٍ وَرَمَى بالدِّرْعِ وَبالتُّرُسِ[٢]
لِصَليلِ الهِندِ بِمَفْرِقِهِ لا يَسْمَعُ صَلْصَلَةَ الجَرَسِ[٣]
سَهِرَ المَوتورُ وأرَّقَهُ تَذْكارُ المُنصُلِ والمَرَسِ[٤]
وبُكاءُ عقائِلَ هاتِفَةٍ كالوُرْقِ يَنُحْنَ مع الغَلَسِ[٥]
بَرَزَتْ وكأنَّ ذوائبَها أذنابُ رَوامِحَةٍ شُمُسِ[٦]
تَرنُو كظِباءِ الرَّمْلِ على وجَلٍ لِضَراغِمَةٍ شُرُسِ[٧]
قَدْ كُنَّ مَهَا أُنُسٍ فَغَدَتْ تحتَ الراياتِ بلا أَنَسِ[٨]
إنَّ الأيامَ قَدِ ازدهرتْ كالروضِ يَرُوق لِمُغْتَرِسِ[٩]
وَتَناسَقَتِ الآمالُ لنا كالثَّغْرِ تنظَّمَ في لَعَسِ[١٠]
وتلألأ نورُ الحقِّ على الـ أثَرِ المهديَّةِ فاْقتَبِسِ
أجزيرةَ أندلسٍ اعْتَصِمي بإمامِ الأمةِ واحترسي
أَرْعاكِ حِراسَتَه مَلِكٌ جبريلُ له أحدُ الحَرَسِ
حَكَمَتْ أسيافُكَ سيِّدَنا في كلِّ مُصِرِّ الكُفْرِ مُسِي[١١]
وَمَضَتْ في الرومِ مَضارِبُها وكذلك تفعلُ في الفُرُسِ

---

(١) تَوشَّح الشيءَ: لَبِسهُ، أو تَغطَّى به.
(٢) لم يُلْوِ على أحد: لم يَمِلْ أو يَعْطِف.
(٣) الصَّليل: الصوت. الهند: أي السيف المصنوع في الهند. صلصلة الجرس: صوته.
(٤) الموتور: الذي أُصيب بقريبه أو حميمه. أرَّقَهُ: منعه النوم. المُنْصُل: السيف. المَرَسُ: الحبال، مفرده: مَرَسَة.
(٥) العقائل: جمع العقيلة: السَّيِّدة المُخدَّرة، أو الزوجة الكريمة. الوُرْقُ: الحمائم، الواحدة: ورقاء. الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح.
(٦) شُمُسٌ: جمع شَمُوس: النَّفُور العَسِرُ الصحبة، يقال: شَمَسَ فلان: تأبَّى واسْتَعْصَى، وشَمَسَت الدابة: جَمَحَتْ ونَفَرتْ.
(٧) ترنو: تُديم النظر مع سكون طَرْفٍ. الوَجَلُ: الخوف. الضراغمة: الأسود. شُرُس: جمع أشرس: سَيِّىء الخُلُق شديد الخلاف.
(٨) المها: جمع مهاة: البقرة الوحشية، والمراد هنا المرأة التي يُؤنس بها.
(٩) يَرُوق له: يعجبه. المغترس: الذي يغرس الأشجار: يزرعها في الأرض.
(١٠) تناسقت: انتظمت. اللَّعَسُ: سُمْرَةٌ في الشَّفة مُسْتَحْسَنَة.
(١١) مُسي: أي مُسِيء.

لا يُــخــلــف ربّــك مَــوْعِــدَهُ   دَوَّخْ أقــطــارَهُــمُــو ودُسِ![1]

أوردتها على تَواليها وإن كان فيها طول، لغرابة عَرُوضها، وجَودة أكثرِ أبياتها؛ أنشدَنيها مُنْشِئُها المذكور من لفظه، ثم أعدتُها عليه بلفظي آخر مرة لقيتُه بمدينة مُرْسِيَة في سنة ٦١٤.

ولِعليّ بن حَزمُون هذا قدمٌ في الآداب، واتساعٌ في أنواع الشعر، ركب طريقةَ أبي عبد اللّه بن حجّاج البَغدادي[2] ـ سامحه اللّه وغفر له ـ فأربى فيها عليه؛ وذلك أنه لم يَدَعْ موشحةً تجري على ألسنة الناس بتلك البلاد إلا عمل في عَروضها ورَوِيِّها موشحةً على الطريقة المذكورة؛ وله مع هذا في الهجاء يدٌ لا تُطاوَل، غير أنه يُفحش في كثير منه؛ فمن أحسن ما أحفظ له من ذلك وأَسْلَمهُ من الفحش والإقذاع[3]، أبيات ركب فيها طريقة الحُطيئة[4]: ابتدأ يهجو نفسه، ثم استطرد يهجو رجلاً من أعيان قُواد الأندلس يقال له: مُحمَّد بن عِيسَى، مشهور النَّجْدَة عندهم. والأبيات: [من الطويل]

تَأَمَّلْتُ في المرآةِ وَجْهي فَخِلْتُهُ   كَوَجْهِ عَجُوزٍ قَدْ أشارَتْ إلى اللَّهوِ
كأَنَّ على الأَزْرَارِ مِنِّيَ عَوْرَةً   تُنادي الوَرَى: غُضُّوا ولا تَنْظُروا نَحْوِي[5]
فَلوْ كُنْتُ مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ لَم أَكُنْ   مِنَ الرائقِ الباهي وَلا الطيِّبِ الحُلْوِ[6]
وأقبَحُ مِنْ مَرْآيَ بَطْني فإنَّه   يُقَرْقِرُ مِثْلَ الرَّعْدِ قَرْقَرَ في الجوِّ[7]
وإلّا كَقَلْبِ بين جَنْبَيْ مُحمَّدٍ   سَليلِ ابنِ عيسَى حِينَ فَرَّ وَلَمْ يُلْوِ[8]
يَوَدُّ بِأَنْ لو كانَ في بَطْنِ أمِّهِ   جَنيناً ولم يَسْمَعْ حَديثاً عنِ الغَزْوِ

---

(١) دَوِّخَ الأقطار: أخضعها وأذلّها. داس المكان: وَطِئَهُ.

(٢) هو أبو عبد اللّه، حسين بن أحمد بن محمد بن الحجّاج البغدادي: شاعر، من كُتّاب العصر البويهي، غلب عليه الغزل والسُّفه في شعره. توفي سنة ٣٩١هـ/ ١٠٠١م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٨/ ١٤).

(٣) الإقذاع: الشَّتْم بكلام قبيح.

(٤) الحُطيئة: هو أبو مليكة، جرول بن أوس بن مالك العبسي: شاعر، مقدمٌ، فصيح، مخضرم. وكان هجّاءً عنيفاً، هجا أُمّه وأباه ونفسه. وتوفي نحو سنة ٤٥هـ/ نحو ٦٦٥م. (الأغاني، الأصفهاني: ٢/ ١٣٠).

(٥) العَوْرَةُ: الخلل أو العيب في الشيء، أو كلّ ما يستره الإنسان من جسده استنكافاً أو حياءً.

(٦) الرّائِقُ: المُعجب.

(٧) قَرْقَرَ بَطْنُه: صَوَّتَ من جوع أو غيره.

(٨) لم يُلْوِ: لم يعطف أو لم يَمِلْ.

ثَقِيلٌ وَلَكِنْ عَقْلُه مِثْلُ رِيشَةٍ   تَطِيرُ بها الأرواحُ في مَهْمَهٍ دَوِّي[١]
تَميلُ بِشِدْقَيْهِ إلى الأرضِ لِحيةٌ   تَظُنُّ بها ماءً يُفَرَّغُ من دَلْوِ[٢]
وَقَدْ حَدَّثوا عنهُ بِكُلِّ نَقِيصةٍ   وَلكِنَّ مِثْلي لا يُسَرِّي ولا يَرْوِي

وله في هذا المعنى أحسنُ من هذا كثيراً إلا أنه أقذع فيه؛ فلذلك لم أودعه هذه الأوراق؛ لأني لا أستجيز أن يُنقل مثلُ هذا عنّي.

ونال ابنُ حَزْمُون هذا عند قُضاة المغرب وعُماله وَوُلاتِه جاهاً وثروةً؛ كل ذلك خوفاً من لسانه وحذراً من هجائه. ولا أعلم في جميع بلاد المغرب بلداً إلّا وأهاجي هذا الرجل تُحْفَظُ فيه وتُدرس؛ أسأل اللّه له المسامحةَ ولجميعِ إخواننا من المسلمين.

[مُحمَّد بن عَبْد رَبِّه الكاتب حفيد صاحب العِقْد[٣]]

وأمَر أميرُ المؤمنين بعرض الجند في هذا اليوم[٤] في السلاح التام؛ فلما انتشروا بين يديه وأعجبه ما رأى من حُسن هَيْآتِهم، قام فصلّى ركعتين شكراً للّه عزَّ وجلَّ؛ واتفق إثْر فَراغه من ذلك الركوع أن جاءت سحابةٌ فأمطرت مطراً جَوْداً[٥] حتى ابتلّ الناس؛ فقال في ذلك صديق لي من الكُتَّاب اسمه مُحمَّد بن عبد رَبِّه، أصله من الجزيرة الخضراء، كان يكتب لأبي الربيع سُلَيمان بن عبد اللّه بن عبد المُؤمِن[٦]، وكان مُختصًا به: [من البسيط]

بَادي الكَرامةِ بَلْ بادي الكَرامات   قَدْ شَفَّعَ اللّهُ آياتٍ بآياتِ[٧]
يا لَيْتَ شِعْرِيَ ما شيءٌ دَعَوْتَ بهِ   قَبْلَ السلامِ ومِنْ بَعْدِ التَّحِيَّاتِ
شيء تأثَّرَ عَنْهُ الجَوُّ فاتَّصَلَتْ   مِنَ السحائبِ راياتٌ براياتِ

---

(١) الأرواح: الرياح. المهمه: المفازة البعيدة. دَوِّيٌّ: نسبة إلى الدَّوِيَّة: الفلاة الواسعة.

(٢) الشِّدْقُ: جانب الفم مِمَّا تحت الخَدّ. أَفْرَغَ الدَّلْوَ ونحوه: أخلاه مِمَّا فيه.

(٣) صاحب العقد: هو أحمد بن محمد بن عبد ربِّه بن حبيب بن حدير بن سالم: إمامٌ، أديب، من أهل قرطبة. توفي سنة ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م. من آثاره: كتاب «العقد الفريد». (تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي: ٣٨؛ بغية الملتمس، الضبي: ١٤٨).

(٤) أي: يوم عودته من وقعة الأرك سنة ٤٩١هـ.

(٥) مَطَرٌ جَوْدٌ: غزير لا مَطَرَ فَوْقَهُ.

(٦) من أمراء بني عبد المؤمن، كان يلي مدينة سجلماسة وأعمالها، وكان يُتقن العربيّة والبربرية. توفي سنة ٦٠٤هـ/ ١٢٠٧م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ١٢٨).

(٧) الكرامة: الأمر الخارق للعادة، غير المقرون بالتَّحدِّي ودعوى النبوة، يظهره اللّه سبحانه وتعالى على أيدي أوليائه.

مِنْ كلِّ وَطْفَاءَ لِفَّاءِ الرَّبابِ هَمَتْ ... ماءً نَقِيًّا على زُغْفٍ نَقِيَّاتِ[١]
قُلْ كَيْفَ لا يَفْتَحُ اللَّهُ البِلادَ وَقَدْ ... تَفَتَّحَتْ لكَ أبوابُ السَّماواتِ

فاشتهر من يومئذٍ أبو عبد اللَّه هذا وعُرِفَ مكانُه وَنَبُهَ قَدْرُه؛ وله! إحسانٌ كثيرٌ وقَدَمٌ راسخةٌ في صِنَاعتَي النظمِ والنثرِ، مع تحقُّقٍ بشيءٍ من أجزاء الفلسفة من علوم التعاليم وعلم المنطق؛ أنشدني ـ رحمه اللَّه ـ من شعره: **[من الكامل]**

قِفْ بالقِبَابِ وأينَ ذاكَ الموقفُ ... وَاسْأَلْهُمْ بِمَأَمِّهِمْ أَنْ يَعْطِفوا[٢]
وانْشُدْ فُؤادَكَ إنْ عَرَفْتَ مَكانَهُ ... بَيْنَ القِبَابِ وما إخالُكَ تَعْرِفُ
عِنْدَ التي رَمَتِ الجِمارَ غُدَيَّةً ... وَبنانُها بِدَمِ القُلوبِ مُطَرَّفُ[٣]
نَفْسي الفِدَاءُ لها وإنْ لم تُبْقِ لي ... نَفْساً تُذَكِّرني بها وتُعَرِّفُ

وهي قصيدة طويلة لم يُبقِ تَقادُمُ العهد [منها] على خاطري سوى ما أوردتُه.

وأنشدته ـ رحمه اللَّه ـ يوماً ونحن في قُبَّةٍ على شاطىء نهرٍ وقد أخذ المطر في الإنسكاب، بيتين أحفظهما لشاعرٍ قديم: **[من المنسرح]**

حَاكَت يمينُ الرِّياحِ مُحْكَمَةً ... في نَهَرٍ وَاضِحِ الأَسَارِيرِ[٤]
فَكُلَّما ضَعَّفَتْ بهِ حَلَقاً ... قامَ لها القَطْرُ بالمَسامِيرِ[٥]

فاستحسنهما وقال لي: ذكَّرتني هذا المعنى؛ وأنشدني فيه لنفسه أبياتاً ما سمعت بمثلها؛ هذا على إكثار الناس في هذا المعنى وَتَوارُدِهم[٦] عليه حتى صار أَخْلَقَ[٧] من الليل والنهار من كثرة تكراره على الأسماع، فلا يَتَخَلَّص منه إلَّا من لَطُفَ حِسُّه وجاد طَبْعُه وحَسُن مَيْزُه[٨]؛ والأبيات: **[من البسيط]**

---

(١) الوَطْفَاءُ: السحابة المُمطرة تَدلَّت ذُيولها، من وَطِفَ المطر وطفاً: انهمر. اللفَّاءُ (في الأصل): الروضة الملتفة الأغصان، أو المرأة الكثيرة لحم الفخذين، استعارها للسحابة. الرَّبابُ: السحاب الأبيض. هَمَتْ: انصبَّ ماؤها.

(٢) أَمَّ المكان، وإليه: قصده، والمَأَمُّ: المكان أو الموضع الذي يُؤَمُّ: يُقْصَدُ أو يُزَارُ.

(٣) الجمار: الحصوات التي تُرْمَى بِمِنًى بعد الإفاضة من عرفات، في أيام الحجّ. مُطَرَّفُ: مُخَضَّبٌ، مُزَيَّنٌ.

(٤) الأسارير: خطوط في الوجه أو الكف أو الجبهة، أو هي محاسن الوجه، استعارها للنهر.

(٥) القَطْرُ: المطر.

(٦) وَارَدَ الشاعر غيره مُواردة: اتَّفَقَ معه في مَعْنًى واحدٍ يَرِدُ بلفظٍ واحد من غير أَخْذٍ ولا سماع.

(٧) أخلق من الليل والنهار: أكثر منهما خَلَقاً: أي أكثر بِلًى.

(٨) المَيْزُ: من ماز الشيءَ مَيْزاً: عزله وفرزه. والمَيْزُ أيضاً: الرفعة.

بَيْنَ الرِّياضِ وَبَيْنَ الجَوِّ مُعْتَرَكٌ ... بِيضٌ مِنَ البَرْقِ أو سُمْرٌ مِنَ السُّمرِ(١)

إن أوْترتْ قَوْسَها كفُّ السماءِ رَمَتْ ... نَبْلاً من الماءِ في زَغْفٍ مِنَ الغُدُرِ(٢)

لأجْلِ ذاكَ إذا هَبَّتْ طَلائعُها ... تَدرَّع النهرُ واهتَزتْ قَنَا الشجرِ(٣)

فانظر ـ حفظك اللّه ـ إلى حسن توطئته لهذا المعنى وقوةِ تخلّصه إلى هذا التشبيه بأحسن لفظٍ وأسهله على السمع والنطق.

واستأذنت عليه يوماً وهو في مجلسٍ له؛ فلم ير ـ رحمه اللّه ـ أن يحجبني؛ فاسترفع ما كان لديه وأذن لي؛ فدخلت؛ فتلقّاني أحسن لقاء، وأخذ يحدّثني؛ وفهمت أنه مُسْتَحٍ خَجِلٌ إذ عَرَف أني تفطَّنتُ لبعض الأمر، فأنشدته رافعاً عنه كلفةَ الخجل لبعض الشعراء: [من الطويل]

أَدِرْها فما التَّحْريمُ فيها لِذَاتِها ... وَلَكِنْ لأسبابٍ تَضمَّنَها السُّكْرُ

إذا لم يَكُنْ سُكْرٌ يَزِلُ به الفَتَى ... فَسيَّانِ ماءٌ في الزُّجاجةِ أوْ خَمْرُ!

فطرب ـ نضَّر اللّه وجهه ـ وعاودَه أنسُه وانبسط، ثم سكت عني ساعةً واستدعى الدواة وكتب بَديهاً في قريب من المعنى الذي أنشدته فيه: [من البسيط]

ما ضَرَّتِ الخمرُ لَوْلَا الشَّرْعُ يَشربُها ... قَوْمٌ حَديثُهُمو هَمْسُ التَّسابِيحِ(٤)

لَيْسوا بِرُعشٍ إذا أدَّوْا فُرُوضَهُمو ... عِنْدَ القِيامِ ولا مِيلٍ مَراجِيحِ(٥)

بَيْتٌ كَبَيْتٍ وفيه شَادِنٌ سَدِنٌ ... مَزْجُ الكُؤوسِ به وَقْدُ المصابيحِ(٦)

وأنشدني بعد هذا لنفسه، في هذا المجلس، من قديم شعره، مقطوعةً سينيةً لم أسمع بأحسن منها؛ لم يبق على خاطري منها سوى آخر بيت فيها، وهو: [من الطويل]

وَلكِنَّ قَوماً لا يغيبُ نَهارُهم ... إذا غَرَبَتْ شَمْسٌ يُديرونها شَمْسَا

---

(١) المُعْتَرَكُ: موضع الاعتراك. البيض: السيوف. السُّمْرُ: الرماح.

(٢) أوتر القوس: جعل لها وتراً، أو شَدَّ وترها. الزَّغْفُ: السحابُ الذي أراق ماءَه، وهو يُجلِّل السماء. ويقال: زغفت البئر، أو زغف النهر: كثر ماؤه. الغُدُرُ: جمع الغدير: النهر الصغير.

(٣) تَدَرَّعَ: لَبِسَ الدِّرْع.

(٤) التسابيح: اسم جمع، من سَبَّح الإنسان، أي قال: سُبْحَانَ اللّه، وغالباً ما ينطق بها بصوتٍ خافت.

(٥) المِيلُ: جمع الأميل: الذي تميل به فرسه عند الركوب، لِقلَّة خبْرَتِهِ. المراجيح: جمع المرجاح: الذي يَترجَّح في سَيْره، أي يَتهزَّزُ ويَتحرَّكُ.

(٦) الشادن: ولد الظبية. السَّدِنُ: الخادم، أو الشَّحِمُ. وَقْدُ المصابيح: إشعالها.

وله ـ رحمه اللَّه ـ رحلة إلى مصر لقي فيها ابنَ سناء الملك[١] وأخذ عنه من شعره، وهو أولُ من سمعتُ يذكره عندنا ويَرْوِي شِعْرَه.

ولأبي عبد اللَّه هذا اتساعٌ في صناعة الشعر، إلا أنه نَحَلَ كثيراً من شعره السيدَ الأجلَّ أبا الربيع سُلَيْمان بن عبد اللَّه بن عبد المُؤمِن أيام كتابته له، ولم يَدَّعِ بعد ذلك في شيءٍ مما نَحَلَهُ إياه من شعره، ولا ذَكَر أنه له؛ فكان أكثر شعرِهِ يُنشد لأبي الربيع وترويه الرُّواة له. عرفتُ ذلك بعد مفارقته إياه؛ لأني فقدت شِعرَ السيد أبي الربيع واختلف عليَّ كلامه، ورأيت بخطه أشعاراً نازلةً عن رتبة الشعر جدًّا؛ فعلمتُ أن ذلك الأول ليس من نَسْجِه!

وأخبرني ابن عبد رَبِّه هذا قال: دخلت على السيد أبي الربيع وهو في قُبَّةٍ له وقد دخلت عليه الشمس من كُوَى[٢] صِغَارٍ في أعلاها، فلما رأيت ذلك المنظر أعجبني وقلت بَديهاً: [من الكامل]

لَمَّا رَأَتْهُ الشمسُ يفعلُ فِعْلَها ... في العَالمين مُقاسِماً ومُسَاهِماً[٣]

خَافَتْ تَوَالي الجُودِ يُنْفِدُ مالَهُ ... نَثَرتْ عَليْه دَنانِراً وَدَراهِماً![٤]

فحذف الياء من «دنانير»، وهذا جائز، كما قال الأول:

تضلُّ به أمْناً وفيه العَصَافِرُ

[أبو جَعْفَر الْحِمْيَرِيّ المُؤَدِّب[*]]

ومما يتعلق بأخبار أبي يُوسُف ـ رحمه اللَّه ـ ما أخبرني شيخي وأستاذي أبو جَعْفَر أحمد بن مُحمَّد بن يَحْيى الْحِمْيَرِيّ ـ رحمه اللَّه ـ أيام قراءتي عليه بِقُرْطُبَة سنة ٦٠٦، وذلك أنَّا بلغنا عليه في الحماسة إلى مقطوعة ابن زَيَّابَةَ التَّيْمِيّ[٥] التي أوّلُها: [من السريع]

---

(١) هو أبو القاسم، هبة اللَّه بن جعفر بن سناء الملك، المعروف بالقاضي السعيد: شاعر، من النبلاء. ولد بمصر، وتوفي فيها سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١٢م. (الأعلام، الزركلي: ٨/ ٧١).

(٢) الكُوَى: جمع الكوة: الفَتْحَةُ الصغيرة، أو الثقب في حائط ونحوه.

(٣) المُقَاسِمُ: اسم فاعل من: تقاسم القوم الشيءَ بينهم: اقتسموه، أو من تقاسموا: تحالفوا. المُسَاهِمُ: اسم فاعل من: ساهم فلان فلاناً: قاسمه، أي أخذ نصيباً معه، أو قارعه وغالبه.

(٤) الجُود: العطاء والكرم. ينفد ماله: يفنيه.

(*) ترجمته في: الأعلام: ١/ ٢١٧.

(٥) هو عمرو بن لأي، المعروف بابن زَيَّابة، من بني تيم اللات بن ثعلبة: شاعر جاهلي، اشتهر بنسبته إلى أمه «زَيَّابة». (الأعلام، الزركلي: ٥/ ٨٤).

يـا لَـهْـفَ زَيَّـابَـةَ لِـلْـحَـارِثِ الـ ـصَّـابِـحِ فَـالـغَـانـمِ فـالآيِـبِ[١]

فلما انتهينا منها إلى قوله:

والـلَّـه لَـوْ لَاقَـيْـتُـه خَـالـيـاً لآبَ سَـيْـفَـانـا مـع الـغَـالـبِ!

قال لنا[٢]: أحدِّثكم بأعجبِ ما اتفق لي في هذا البيت؛ وذلك أن أمير المؤمنين أبا يُوسُف ـ رحمه اللَّه ـ لما فَصَل عن قُرْطُبَة مُتوجهاً إلى لقاء الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ قال لي ولدي عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين: يا أبتِ، رأيت البارحة أميرَ المؤمنين داخلاً قُرْطُبَة وقد رجع من السفر وهو مُتقلِّدٌ بسيفين! فقلت: يا بُنيَّ، لئن صدقت رؤياك هذه لَيَهْزِمَنَّ الأدفُنْشَ لعنه اللَّه! وخطر لي هذا البيت:

والـلَّـه لَـوْ لَاقَـيْـتُـه خَـالـيـاً لآبَ سَـيْـفَـانـا مـع الـغـالـبِ

فصدقت الرؤيا والتعبير.

وأبو جَعْفَر هذا المذكور، آخرُ من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس. لزمتُه نحواً من سنتين، فما رأيت أرْوَى لشعرٍ قديم ولا حديثٍ، ولا أذكَرَ بحكايةٍ تتعلق بأدبٍ أو مثلٍ سائرٍ أو بيتٍ نادرٍ أو سَجْعةٍ مُسْتَحسَنةٍ منه، رضي اللَّه عنه وجازاه عنَّا خَيْراً. أدرك جِلّةً من مشايخ الأندلس فأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والآداب، وأعانه على ذلك طولُ عمره وصدق محبته وإفراط شغفه بالعلم. قال لي ولده عصام ـ وقد رأيتُ عنده نسخةً من شعر أبي الطيِّب قُرِئَتْ عليَّ أو أكثرُها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له ـ: لقد كتبتَها من أصلٍ صحيح وتحرَّزتَ[٣] في نقلها. فقال لي: ما يمكن أن يكون في الدنيا أصلٌ أصحُ من الأصلِ الذي كتبتُ منه! فقلت له: أين وجدتَه؟ قال: هو موجود الآن بين أيدينا وعندنا! وكنَّا في المسجد في زاوية، فقلت له: أين هو؟ فقال لي: عن يمينك! فعلمت أنه يريد الشيخ، فقلت: ما على يميني إلا الأستاذ! فقال لي: هو أصلي، وبإملائه كَتبْتُ؛ كان يُملي عليَّ من حفظه! فجعلت أتعجب. فسمع الأستاذ حديثنا؛ فالتفت إلينا وقال: فِيمَ أنتما؟ فأخبره ولدُه الخبر، فلما رأى تَعجّبي قال: بعيداً أن تُفلحوا! يَعجَبُ أحدُكم من حِفْظِ ديوان المتنبي! واللَّه لقد أدركتُ أقواماً لا يَعُدّون مَنْ حَفظ كتاب سيبويه[٤] حافظاً ولا يرونه مُجتهداً!

---

(١) الآيب: العائد.

(٢) يعني أبا جعفر الحميري.

(٣) تَحرَّز في النَّقْلِ: تَوَقَّى.

(٤) هو أبو بِشْر، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي، المُلقَّب بـ «سيبويه»: إمام النحاة، وأول من بسط علم النحو في مُصنَّفٍ عرف بـ «الكتاب»، لم يصنع قبله ولا بعده مثله. توفي سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ١٢/ ١٩٥).

تُوفِّي أبو جَعْفَر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ وقد كَمُلَتْ له سِتٌّ وتسعون سنة؛ لم يبقَ في الأندلس أعلى روايةً منه في كُلِّ ما يُرْوَى، ولم أرَ قبله ولا بعده ـ مع اتساع علمه وشدة تمييزه وحُسنِ اختياره ومعرفته بعللِ هذه الصناعة ـ أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رُجوعاً إلى الحق. كنت أُنشده من شعري على ركاكته[١] وكثرة تكلّفه وبُعده من الجودة أبياتاً لا أَعُدُّها شيئاً؛ يحملني على إنشادها إياه فَرْطُ استدعائه ذلك مني؛ فيلهج[٢] بها ويشتد استحسانه لها، وربما درسها فحفظها.

أنشدتُه يوماً ـ وقد استدعى مني ذلك على عادته ـ بيتين ارتجلتُهما في شاب كان يقرأ معنا كان شديدَ العِفَّة ـ رحمه اللّه ـ مع حسنِ رائعٍ وظَرْفٍ ناصعٍ، كان اسمه «فَتْحاً» وهما: [من المجتث]

يا مَنْ لَهُ عَنْ كِنَاسٍ ... مِنَ المُتَيَّمِ قَلْبُهْ[٣]
ما أنتَ كَٱسْمِكَ فتحٌ ... وَإنَّما أنتَ قَلْبُهْ

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له: هذا واللّه الشعر، لا ما تُصدِّعُني به طُولَ نهارك؛ إن كنتَ تقول مثل هذا وإلّا فاسْكُت! فلما كان من الغد قال لي رحمه اللّه: أعلمتَ ما صَنَع عصامٌ أمس؟ قلت: لا؛ قال: كان كما قالوا في المثل: «سكت أَلْفاً...»؛ لم يزل أمس يُعْمِل فكرته، فبعد الجهد الشديد أَخَذ معنى بَيْتَيْكَ فسلبه رُوحَهُ وأعدمه رَوْنقَهُ ومَسَخَهُ[٤] جُملةً فقال: [من المجتث]

سَبَى فُؤادِيَ خِشْفٌ ... فَقُوَّتي اليَوْمَ ضَعْفُ[٥]
سَمَّوْهُ فَتْحاً مَجَازاً ... وَفي الحقيقةِ حَتْفُ![٦]

ما زاد فيه أكثرَ من المجاز والحقيقة؛ فقلت أنا: هذا واللّه أحسنُ من شعري! فَتغيَّر لي وقال: يا بُنيّ، دَعْ عنك هذه العادة؛ فإنَّ أسوأ ما تَخَلَّقَ به الإنسانُ: المَلَقُ[٧] وتزيين الباطل، سِيَّما إذا أضاف إلى ذلك الحَلِفَ الكاذب. واللّه إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء، وإلّا فقد اختلَّ مَيْزُك وساءَ اختيارُك، وما أظن هذا هكذا.

---

(١) الركاكة: الضعف.
(٢) لَهِجَ بالشيء لَهَجاً: أُولِعَ به فثابر عليه واعتاده.
(٣) الكِنَاسُ: مَوْلِجٌ في الشجر يأوي إليه الظبي لِيَسْتَتِر.
(٤) مَسَخَ الشيءَ: حَوَّل صورته إلى أُخرى أقبح منها.
(٥) سَبَى: أَسَرَ. الخِشْفُ: ولد الظبية أول ما يُولَد.
(٦) الحَتْفُ: الموت، الهلاك.
(٧) المَلَقُ: التَّوَدُّدُ بكلامٍ لطيفٍ، والتَّضرُّع فَوْقَ ما ينبغي.

وسمعته ـ من شدّة إنصافه رحمه اللّه ـ يستحسن بيتين هجاه بهما صاحبُنا عليٌّ بن خَرُوف رحمه اللّه[١]؛ وذلك أن الأستاذ ـ رحمه اللّه وعفا عنه ـ كان يُلقَّبُ بـ«الوَزَغِيّ»، وكان عنده شابٌّ يقرأ عليه يلقب بـ«الغُرْنُوق» ـ وهو اسم عندهم للكُركيِّ، والفصيح فيه غِرْنيق[٢] ـ فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالميل إلى ذلك الشاب؛ وذلك خلقٌ قد أعاذه اللّه منه ونزَّهه بفضله عنه؛ فقال ابن خروف في ذلك، سامحه اللّه: [من الوافر]

أَحَقًّا سامَّ أَبْرَصَ ما سَمِعْنَا بِأَنَّكَ قَدْ تَعَشَّقْتَ ابْنَ مَاءِ[٣]
وَكَيْفَ وَأَنتَ في الحِيطانِ تَمْشي وَذَاكَ يَطِيرُ في جَوِّ السَّماءِ!

فأبعده الأستاذ ـ رحمه اللّه ـ وأنهى خبره إلى القاضي أبي الوليد بن رُشْد، فأوجعه ضرباً؛ وامتنع الأستاذ من قراءته عليه؛ فحرمه اللّه بهذين البيتين فوائد علمه، وأبعده عن مَرِيع جَنابه[٤]، وولّاه الأستاذ خُطَّته، وألقى حَبْلَه على غاربِهِ[٥]؛ فلم يفلح ابن خَرُوف بعدها، ولا حصل على شيء من العلم؛ وإنما كان يعتمد فيما يأتي به على طَبْعِه خاصةً.

وقد امتدَّ بنا عنان القول إلى ما لا حاجة لنا بأكثره؛ رغبةً في تنشيط الطالب وإيثاراً للإحماض[٦]؛ ولنرجع الآن إلى ما قطعنا:

[اليهود في عهد أبي يُوسُف]

وفي آخر أيام أبي يُوسُف أمر أن يُميَّز اليهود الذين بالمغرب بلباسٍ يختصون به دون غيرهم؛ وذلك ثيابٌ كُحلية وأكمام مفرطة السَّعة تصل إلى قريبٍ من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتاتٌ على أشنع صورة كأنها البراديع[٧] تبلغ إلى تحت آذانهم؛ فشاع هذا الزِّي في جميع يهود المغرب؛ ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام

---

(١) هو أبو الحسن، علي بن محمد القيسي القرطبي، المعروف بابن خروف: شاعر من أهل قرطبة. توفي سنة ٦٠٤هـ/١٢٠٨م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ٢٣٠).
(٢) كذا يقول المؤلف، واللفظان فصيحان، يستخدمان في كلام العرب.
(٣) سَام أبرص: الوَزَغَةُ.
(٤) المَرِيعُ: الخصيب المُكْلِيء. الجَنَابُ: الناحية، ويقال: أنا في جناب فلان: أي في كَنَفِهِ ورعايته.
(٥) الغارب: الكاهل، ويقال للإنسان: حبلك على غاربك: أي اذهب حيث شئت.
(٦) الإحماض: يقال: أحمض القوم إحماضاً: أفاضوا فيما يُؤنسهم من الحديث والكلام.
(٧) البراديع والبرادع: جمع البردعة: ما يُوضع على الحمار أو البغل لِيُرْكَب عليه، كالسرج للفرس.

ابنه أبي عبد اللَّه، إلى أن غيَّره أبو عبد اللَّه المذكور، بعد أن توسَّلوا إليه بكل وسيلةٍ، واستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم. فأمرهم أبو عبد اللَّه بلبسان ثيابٍ صُفْر وعمائم صُفْر؛ فهم على هذا الزيّ إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ ـ وإنما حملَ أبا يُوسُف على ما صنعه من إفرادهم بهذا الزِّيِّ وتمييزه إياهم به، شَكُّه في إسلامهم؛ وكان يقول: لو صحَّ عندي إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أَنكِحَتهم وسائرِ أمورهم، ولو صَحَّ عندي كُفْرُهم لقتلتُ رجالهم وسبيت ذَرارِيَهُم[١] وجعلت أموالهم فَيْئاً[٢] للمسلمين؛ ولكني مُتردِّد في أمرهم.

ولم تنعقد عندنا ذِمَّةٌ ليهوديٍّ ولا نصرانيّ منذ قام أمر المصامدة، ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعةٌ ولا كنيسة؛ إنما اليهود عندنا يُظهرون الإسلام ويُصلّون في المساجد ويُقْرِئون أولادهم القرآن؛ جارِين على مِلّتنا وسُنَّتِنا، واللَّه أعلم بما تُكِنُّ[٣] صدورهم وتحويه بيوتهم.

[محنة أبي الوليد بن رُشْد]

وفي أيامه نالت أبا الوليد مُحمَّد بن أحمد بن رُشْد ـ المقدم الذكر ـ محنةٌ شديدةٌ؛ وكان لها سببان: جَليٌّ وخَفيٌّ؛ فأما سببها الخفيُّ، وهو أكبر أسبابها، فإن الحكيم أبا الوليد ـ رحمه اللَّه ـ أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطاطاليس صاحب كتاب المنطق، فَهذّبه وبَسَط أغراضه وزاد فيه ما رآه لائقاً به، فقال في هذا الكتاب عند ذكره الزرافة وكيف تتولد وبأي أرض تنشأ: «وقد رأيتُها عند ملك البربر...» جارياً في ذلك على طريقة العلماء في الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم، غير مُلتفِت إلى ما يتعاطاه خَدَمةُ الملوك ومُتَحيِّلو الكُتَّاب من الإطراء والتقريظ[٤]، وما جانس هذه الطرق؛ فكان هذا مما أحْنَقهم[٥] عليه غير أنهم لم يظهروا ذلك. وفي الجملة فإنها كانت من أبي الوليد غفلة؛ فقد قال القائل: «رحم اللَّه من عَرَف زمانَه فَمانَه[٦]، وميَّزَ مكانَه فَكانَه!» وما أحسن ما قال الأول: [من الطويل]

وَأَنْزَلَني طُولُ النَّوى دارَ غُرْبةٍ إذا شِئْتُ لَاقَيْتُ الذي لا أُشَاكِلُه[٧]

(١) الذَّراري: النساء.
(٢) الفَيْءُ: الخراج، أو الغنيمة تُنال بلا قتال.
(٣) تكنُّ: تخفي، تستر.
(٤) التقريظ: المديح والثناء.
(٥) أحنقهم عليه: أغضبهم أو أسخطهم.
(٦) مانه مَوْناً: احتمل مؤونته، وقام بكفايته.
(٧) النَّوَى: البُعْدُ.

فَحامَقْتُهُ حَتَّى يُقالَ سَجِيَّةٌ وَلَوْ كانَ ذا عَقْلٍ لَكُنْتُ أُعاقِلُه![1]

واستمرَّ الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما في النفوس. ثم إنّ قوماً ممن يُناوئه من أهل قُرْطُبَة ويَدَّعي معه الكفاءة في البيت وشرفِ السلف، سَعَوْا به عند أبي يُوسُف؛ ووجدوا إلى ذلك طريقاً، بأن أخذوا بعضَ تلك التلاخيص التي كان يكتبها، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدَّم: «فقد ظهر أن الزُّهرة أحدُ الآلهة...»، فأوقفوا أبا يُوسُف على هذه الكلمة؛ فاستدعاه بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة وهم بمدينة قُرْطُبَة، فلما حضر أبو الوليد ـ رحمه اللَّه ـ قال له بعد أن نبذ[2] إليه الأوراق: أَخَطُّك هذا؟ فأنكر! فقال أمير المؤمنين: لعن اللَّه كاتبَ هذا الخط! وأمر الحاضرين بلعنه؛ ثم أمر بإخراجه على حالٍ سَيِّئةٍ وإبعاده وإبعاد من يتكلم في شيء من هذه العلوم. وَكُتِبَت عنه الكتب إلى البلاد بالتقدّم إلى الناس في ترك هذه العلوم جملةً واحدةً، وبإحراق كتب الفلسفة كلّها، إلّا ما كان من الطبّ والحساب، وما يُتَوصَّلُ به من علمِ النجوم إلى معرفة أوقاتِ الليل والنهار، وأخذِ سمتِ القِبْلَة. فانتشرت هذه الكتب في سائر البلاد وعُمِلَ بِمُقتضاها.

ثم لما رجع إلى مَرَّاكُش، نزع عن ذلك كله، وجَنح إلى تعلم الفلسفة، وأرسل يستدعي أبا الوليد من الأندلس إلى مَرَّاكُش للإحسان إليه والعفو عنه. فحضر أبو الوليد ـ رحمه اللَّه ـ إلى مَرَّاكُش، فمرض بها مرضه الذي مات منه، رحمه اللَّه؛ وكانت وفاته بها في آخر سنة ٥٩٤ وقد ناهز الثمانين، رحمه اللَّه.

ثم تُوفي أمير المؤمنين أبو يُوسُف بعد هذا التاريخ بيسير، وكانت وفاته ـ كما ذكرنا ـ في غُرّة صفر الكائن في سنة ٥٩٥.

---

(١) تحامق: تظاهر بالحماقة.

(٢) نبذ إليه الأوراق: طَرَحَها.

ذكر ولاية
أبي عبد اللّه مُحمَّد بن أبي يُوسُف
أمير المؤمنين

أبو عبد اللّه هذا هو مُحمَّد بن يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن بن عليّ، أمه أمُّ ولدٍ اسمها «زَهر»، رومية. بُويع له بعهد أبيه إليه في سنة ٥٩٥ بعد وفاة أبيه. وقد كان أبوه أمر ببيعته في سنة ٨٦ وسِنُّه إذ ذاك عشر سنين إلّا أشهراً. وكان مولده في آخر سنة ٥٧٦، ولم يزل مُرشَّحاً للخلافة معروفاً بها إلى أن مات أبوه واستقل بالأمر في التاريخ المذكور، وسنُّه يوم بُويع له البيعة الكبرى العامة، سبع عشرة سنة وأشهر. وكانت وفاته لعشرٍ خلون من شعبان سنة ٦١٠؛ فكانت مدة ولايته ستّ عشرة سنة إلا أشهراً.

صِفَاتُه

أبيض، أشقر شعر اللحية، أشهل العينين[١]، أسِيل الخدين[٢]، حسن القامة، كثير الإطراق[٣]، شديد الصمت، بعيد الغَوْر[٤] ـ كان أكبر أسباب صمته لثغاً[٥] كان بلسانه ـ حليماً، شجاعاً، عفيفاً عن الدماء، قليل الخوض فيما لا يعنيه جدًا، إلا أنه كان يُبخّل أولادَه.

[أولاده]

كان قليلَ الولد جدًا، لا أعلم له من الولد سوى يُوسُف وليّ عهده، ويَحْيَى، وإسحاق. تُوفّي يحيى في حياته بإشْبِيليَّة سنة ٦٠٨. وبلغني عن جماعة من الحَشَم أنه كان رَشَّح يَحْيَى هذا لولاية العهد؛ وله بنات.

(١) أشهل العينين: في عينيه شُهْلَة، وهي أن يَشُوبَ إنسان العين حُمْرَةٌ.
(٢) أسيل الخدين: ناعمهما.
(٣) الإطراق: السُّكوت، أو غضّ البصر.
(٤) بعيد الغور: داهية، مُحنَّك.
(٥) اللَّثْغُ: أن يتحول اللسان من حرفٍ إلى حرف غيره، كأن يجعل السين ثاءً، والراء غيناً.

وُزَرَاؤُه

أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن مُوسَى بن يُوجَّان، وزير أبيه.

ثم عزله بعد مُدَّةٍ يسيرةٍ، وولَّى بعده أخاه إبراهيم ابن أمير المؤمنين أبي يُوسُف...

[صلة المؤلف بإبراهيم بن أبي يُوسُف]

...وهو خير ولده وأجدرُهم بالأمر لو كانت الأمور جاريةً على إيثار الحق واطِّراح الهوى؛ لا أعلم فيهم أنجبَ منه. كان لي ـ رحمه اللّه ـ مُحِبًا وبي حَفِيًا[1]؛ وصلتْ إليَّ منه أموال وخلع جمةٌ غَيْرَ مرّةٍ. لم أعرفه أيام وزارته، لأني كنت إذ ذاك حديث السنِّ جدًا ما ناهزت[2] الاحتلام، وإنما كانت معرفتي إياه حين وَلُّوه إشْبِيليَّة في سنة ٦٠٥، من جهة رجلٍ من أصحابنا من الكُتَّاب اسمه مُحمَّد بن الفَضْل ـ جازاه اللّه عني خيراً ـ هو الذي أوصلني إليه؛ أنشدته أولَ يومٍ لقيتُه قصيدةً مدحته بها، أولها: [من الكامل]

لَكُمو على هذا الوَرَى التَّقْدِيمُ ... وَعَلَيْهمو التَّفْويضُ والتسليمُ[3]
اللّه أَعْلاكُمْ وَأَعْلَى أَمْرَهُ ... بِكُمو وأنفُ الحاسِدين رَغِيمُ[4]
أَحْيَيْتُمو المَنْصُورَ فهو كأنه ... لم تَفْتَقِدْهُ مَعالمٌ وعُلومُ[5]
وَمَحابرٌ وَمَنابرٌ وَمَحارِبٌ ... وَحِمًى يُحَاطُ وأَرْمَلٌ ويتيمُ[6]

إلى أن أقول فيها في ذكر ولايته إشْبِيليَّة:

فَكأنما حِمْصٌ جَمالاً سَارَةٌ ... وَكَأنَّ إبراهيمَ إبراهيمُ[7]
وَأَرَى طُلَيْطُلَةَ كَهَاجَرَ إثْرَها ... سَيَزُفُّها الأدفُنْشُ وَهْوَ ذَمِيمُ[8]

---

(١) الحَفِيّ: اللطيف الرقيق. قال تعالى: ﴿إِنَّهُ كانَ بِي حَفِيًا﴾ [مريم: ٤٧].

(٢) ناهز الأمر: داناه وقاربه.

(٣) فَوَّضَ الأمر إليه تَفْويضاً: جعل له التَّصرُّف فيه.

(٤) الرغيم: الذليل، المُكْرَهُ.

(٥) المعالم: جمع المعلم: من كل شيء: مَظِنَّتُه، والمعلم أيضاً: العُلَّامة: ما يُستدل به على الطريق من أثر.

(٦) المحابر: جمع المحبرة: وعاء الحبر. المحارب: مواضع الحرب. يُحاطُ: يُذاد عنه، يُحْمَى.

(٧) حمص: هي إشبيلية على التشبيه. سارة: هي زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام. إبراهيم (الأول): ممدوحه. وإبراهيم (الثاني): النبي إبراهيم الخليل عليه السلام.

(٨) هاجر: هي زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام الثانية.

أقول فيها:

يَـذَرُ الـصَّـلـيـبَ صَـغِـيـرَه وَكَـبِـيـرَه فـيـهـا جُـذَاذاً والـعُـلـوجُ جـثُـومُ[١]
ويُـحـرِّقُ الأعـداءَ فـيـمـا أضـرمـتْ وَيَجُوبُ نارَ الحربِ وَهْي جَحِيمُ[٢]

لم يبق على خاطري منها لتقادم عهدها وقلة اعتنائي بها سوى هذه الأبيات التي أوردتُها؛ فاستحسنها ـ رحمه اللّه ـ وبالغ في الثناء عليها، تفضُّلاً منه وسُؤدداً، وجَرْياً على سنن الأجواد؛ هذا مع ركاكتها وقلّةِ انطباعها وظهور تكلُّفها.

ثم عَلَتْ حالي عنده بعد ذلك ـ نَضَّر اللّه وجهه ـ إلى أن كان يقول لي في أكثر الأوقات: واللّه إني لأشتاقك إذا غبتَ عني أشدَّ الشوق وأصدقه! ثم لم تزل حالي معه على هذا إلى أن فارقته ـ رحمة اللّه عليه ـ وهو والٍ على إشْبِيليَّة ولايتَه الثانية.

وكان توديعي إياه ـ قدّس اللّه روحه ـ آخر يوم من ذي الحجة سنة ٦١٣، ثم اتصلت بي وفاته وأنا بصعيد مصر سنة ٦١٧.

لم أر في العلماء بعلم الأثر المتفرغين لذلك أنْقَلَ منه للأثر؛ كان يذهب مذهب أبيه في الظاهرية.

* * *

...ثم عزله أبو عبد اللّه وولّى بعده أبا عبد اللّه مُحمَّد بن عليّ بن أبي عِمْرَان الضرير، جدّ يُوسُف بن عبد المُؤمِن لأُمّه؛ وكناه أبا يَحْيَى؛ فكان أبو عبد اللّه الوزير هذا من أحسن الوزراء سيرةً وسريرةً، وكان يحضّه على فعل الخير بجهده، ونَشْر العدل حسب طاقته، والإحسان إلى الرعية والأجناد. رأى الناسُ في أيام وزارته من الخِصْب وسعَة الأرزاق وكثرة العطاء مثلَ الذي رأوا في أيام أبي يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤمِن أو قريباً منه.

ثم عزله وَولّى بعده أبا سَعيد عُثْمَان بن عبد اللّه بن إبراهيم بن جَامِع...

[أولية الوزير أبي سَعِيد بن جَامِع]

...كان إبراهيم بن جامع جدُّ هذا الوزير من جملة أصحاب ابن تُومَرْت، صحبه من مَرَّاكُش؛ وكان أصله من الأندلس؛ آباؤه من أهل مدينة طُلَيْطُلَة، ونشأ هو ـ أعني إبراهيم ـ بساحل مدينة شَرِيش على البحر الأعظم، بضيعةٍ تُسمَّى رُوطَة، وبها مسجد مشهور بالفضل يزوره أهل الأندلس قاطبةً في كل سنة. ثم انتقل إبراهيم هذا

---

(١) يذر الصليب: يتركه. الجُذاذ: المُقطَّع المُكسَّر. جُثوم: من جثم فلان: لَصَقَ بالأرض.
(٢) أضرمت: أشعلت. جحيم: شديدة الاشتعال والتأجُّج.

إلى العُدْوَة، وكان يحاول صنعة النحاس؛ فتعرَّف بابن تُومَرْت، فكان من أصحابه، فهو معدود فيهم. ووُلد له أولادٌ نالوا في الدولة حظوةً وجاهاً مُتّسعاً؛ فمن أولاده أبو العلاء إدريس وزير أبي يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤْمِن، وقد تَقدَّم ذكره. وأبو هذا الوزير المتقدم الذكر، اسمه عبد اللّه، كان يتولّى في إمارة أبي يَعْقُوب مدينة سَبْتَة وجهاتها، وزيادة على ذلك ولاية الأسطول في جميع بلادهم. فلم يزل كذلك إلى أن مات ـ أظن أمير المؤمنين أبا يَعْقُوب قتله! ـ وترك من الولد: يُوسُف، والحُسَيْن، وعُثْمَانَ الوزيرَ هذا المذكور، وَيَحْيَى؛ وبنات.

. . .فاستمرت وزارة أبي سَعِيد هذا إلى أن تُوفِّي أمير المؤمنين أبو عبد اللّه؛ ووزر بعده لابنه أبي يَعْقُوب إلى حينَ ارتحلتُ من البلاد ـ وهو سنة ٦١٤ـ. ثم اتصل بي في شهور سنة ٦١٧ أن أبا يَعْقُوب عزله ووَلّى من سيأتي ذكره بعد هذا إن شاء اللّه عزّ وجلّ.

حُجَّابُه

رَيْحَان الخَصِيّ، وَيُدْعَى «رَيْحَان بِيَنْك»، حَجَبه رَيْحَان هذا إلى أن مات.

ثم حَجَبهُ بعده مُبَشِّرٌ الخَصِيّ، يُدْعَى «مُبشِّر وَلدِي». فلم يزل مُبَشِّرٌ هذا حاجباً له إلى أن تُوفِّي أمير المؤمنين أبو عبد اللّه، رحمه اللّه.

كُتَّابُه

أبو عبد اللّه مُحمَّد بن عبد الرَّحْمٰن بن عيَّاش المتقدم الذكر في كُتَّاب أبيه.

وأبو الحَسَن عليّ بن عيَّاش بن عبد المَلِك بن عيَّاش المتقدم ذكر أبيه في كُتَّاب عبد المُؤْمِن وأبي يَعْقُوب.

وأبو عبد اللّه مُحمَّد بن يَخْلُفْتَن بن أحمد الفازازي؛ ذَكَرهُ اللّه فيمن عنده، وَقَرَّب مُطالعتي تلك الغُرّةَ الميمونة، وسماعي تلك الألفاظَ الحلوة، واستمتاعي بتلك الشمائل الشريفة؛ فما أشدَّ شوقي إلى تقبيل يديه!

هؤلاء كتبة الإنشاء. وكتّاب الجيش: أبو الحجَّاج يُوسُف المُرَاني (بتخفيف الراء وضم الميم) من أهل مدينة شَرِيش من جزيرة الأندلس.

ثم بعده أبو جَعْفَر أحمد بن مَنِيع إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٦٢١.

قُضَاتُه

أبو القاسم أحمد [بن مُحمَّد] بن بَقِيّ قاضي أبيه.

ثم عزله وولّى أبا عبد اللّه مُحمَّد بن مَرْوَان الذي كان أبوه قد عزله؛ فلم يزل قاضياً إلى أن مات.

وولّى بعده رجلاً من أهل مدينة فاس، اسمه مُحمَّد بن عبد اللّه بن طَاهِر، يَدَّعي أنه من ولد الحُسَيْن بن عليّ بن أبي طَالِب[1]. كان قبل اتصاله بهم يَنْتَحِلِ طريقةَ الوعظ ويَتصوَّف، لم يزل هذا دأبه ولا بَرِح معروفاً به. وكان له مع هذا حَظٌّ جيدٌ من معرفة أصول الفقه وأصول الدين وشيء من الخلاف. اتصل بأمير المؤمنين أبي يُوسُف شهور سنة ٥٨٧، فحظي عنده وكانت له منه منزلة. سمعت أبا عبد اللّه الحسيني هذا يقول وأنا عنده في بيته: جملةُ ما وصل إليّ من أمير المؤمنين أبي يُوسُف منذ عرفتُه إلى أن مات، تسعةَ عشر ألف دينار، خارجاً عن الخلع والمراكب والأقطاع.

لم يزل أبو عبد اللّه هذا قاضياً إلى أن مات بالأندلس في شهور سنة ٦٠٨، وكانت ولايته في شهور سنة ٦٠١.

ثم ولّى بعده أبا عِمْرَان مُوسَى بن عِيسَى بن عِمْرَان؛ كان أبوه من قضاة أبي يَعْقُوب؛ فاستمرَّت ولاية أبي عِمْرَان هذا إلى هذا الوقت ـ وهو سنة ٦٢١ـ لم يبلغني عزلُه ولا وفاته. وأبو عِمْرَان هذا لي صديق، لم أر صديقاً لم تُغيِّره الولايةُ غَيْرَه، ولم يزل يُعاملني بما كان يُعاملني به قبل ذلك، لم ينقصني شيئاً من بِرِّه. ما لقيتُه قطّ في مَرْكَبِه إلا سَلَّم عليّ مبتدئاً وجدّد لي بِرّا؛ جزاه اللّه عني أفضل الجزاء، وعَمَّ بذلك سائر إخواني!

[أعمال أبي عبد اللّه بن أبي يُوسُف]

ولما تمّت بيعة أبي عبد اللّه العامة كما ذكرنا ـ وكان الذي تولّاها وقام بأمرها من القرابة: أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن عُمَر بن عبد المُؤْمِن، وهو الذي قام ببيعة أبيه؛ ومن المُوحِّدين: أبو زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن مُوسَى وزير أبيه، وأبو مُحمَّد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حَفْص ـ وهو الذي ولّاه مُحمَّدٌ بعد هذا أمر إفريقية ـ كان أول شيء شرع فيه تجهيز الجيوش إلى إفريقية؛ وذلك أن يَحْيَى بن إسحاق بن غَانِية المتقدم الذكر، كان استولى على أكثر بلادها أيام اشتغل المُوحِّدون عنه بغزو الروم؛ فأول جيش جَهَّز [أبو عبد اللّه] من المُوحِّدين، الجيش الذي استعمَل عليه السيدَ أبا الحَسَن عليّ بن عُمَر بن عبد المُؤْمِن؛ لم أر لهم جيشاً أضخم منه ولا أكثر منه سلاحاً ولا

(١) هو أبو عبد اللّه، السبط، الشهيد، ابن فاطمة الزهراء، الهاشمي، العدناني، القرشي، المتوفى سنة ٦١هـ/ ٦٨٠م.

أحسن عُدَّةً. وكان فيه من أعيان المُوحِّدين وأشياخهم جملةٌ وافرةٌ. فسار أبو الحَسَن هذا بجيشه المذكور حتى التقى هو والمَيُورْقِيُّون فيما بين بجَاية وقسطنطينة، وبالقرب من قسطنطينة؛ فانهزم المُوحِّدون أصحابُ أبي الحَسَن المذكور، ورجع أبو الحَسَن إلى بجَاية على حالةٍ سيئة.

وجهَّز بعد هذا الجيش جيشاً على مثاله، وأمَّر عليهم من المُوحِّدين أبا زَيْد عبد الرَّحْمٰن بن مُوسَى الوزير؛ فسار بالجيش حتى بلغ قسطنطينةَ المغرب.

[دخول المُوحِّدين جزيرة مَيُورْقَة]

ثم استعمل أمير المؤمنين أبو عبد اللّٰه على إفريقية وأعمالها، السيدَ الأجلَّ أبا زَيْد عبدَ الرَّحْمٰن بن عبد المُؤْمِن، وخرج هو في سنة ٥٩٧ إلى تينملَّ لزيارة قبر أبيه أبي يُوسُف، وزيارة ضريحِ آبائه وابن تُومَرْت. ثم رجع إلى مَرَّاكُش، وأقام إلى أول سنة ٦٠٩، فتجهز بجيوشٍ ضخمةٍ حتى أتى مدينة فاس ونزل بها، وأشاع أنه يقصد إفريقية ـ هذا بعد أن بلغه أن المَيُورقي استولى على مدينة تُونس، وقبض على الوالي عليها عبد الرَّحْمٰن ـ فأقام بفاس ثلاثة أشهر وأياماً، وبَدَا لهُ أن يبعث بَعثاً إلى جزيرة مَيُورْقَة، ليستأصل شأفةَ[١] بني غانية ويقطع دابرَهم[٢]؛ فعمر الأسطول والطرائد فيها الخيل والرجال، واستعمل على الأسطول عمَّه أبا العلاء إدريس بن يُوسُف بن عبد المُؤْمِن، وعلى الجيش أبا سَعِيد عُثْمَان بن أبي حَفْص من أشياخ المُوحِّدين؛ فقصد الجزيرة هذان الرجلان ففتحاها عَنْوَةً، وقتلا عبدَ اللّٰه بن إسحاق بن غَانِية الأميرَ عليها؛ وكان الذي قتله رجلٌ من الأكراد يقال له عُمَر المقدَّم؛ وذلك أنه حين نازله القومُ خرج على باب من أبواب المدينة سَكْرَان، فَكَبَتْ به فَرَسُهُ، فضربه هذا المذكور بسيفه حتى مات؛ وقيل: إنه قتله بسيف نفسه.

وكان دخولهما مَيُورْقَة وقتلهما أميرَها المذكور في شهر ذي الحجّة من سنة ٥٩٩، فانتهبا أمواله، وسَبيا حُرَمه، ودخلا بهم مدينة مَرَّاكُش على الجمال في هيئة الأسارى. فأما النساء فَدُخِلَ بهن ليلاً فَجُعلن في بعض الخانات إلى أن نَفذَ الأمرُ بالمنِّ عليهن وإطلاقهن، وتزويجِ من تحتاج إلى التزويج منهن وتجهيزِها بمالٍ. وأما الرجال فلم يزالوا في الحبس إلى أن منَّ عليهم بعد أن ضمنهم أكابرُهم واتُّخذوا أجناداً فهم كذلك إلى اليوم.

وبلغني أن المُتولِّين لفتحها انتهبوا منها أموالاً عظيمةً وذخائرَ نفيسةً.

---

(١) يستأصل شأفتهم: يزيلهم من أصلهم.
(٢) يقطع دابرهم: يُفنيهم عن آخرهم.

ثم رجع أمير المؤمنين أبو عبد اللّٰه إلى مَرَّاكُش، وبها اتصل به خبر فتح مَيُورْقَة؛ وكان رجوعه إلى مَرَّاكُش في ذي القعدة من السنة المذكورة.

[عبد الرَّحْمٰن الجزوليّ الثائر]

وقد كان قبل هذا في سنة ٩٧، قام بِسُوس رجلٌ من جَزُولة اسمه عبد الرَّحْمٰن، يُعْرَفُ عندهم بما معناه بلسانهم «ابن الجزارة» فدعا إلى نفسه؛ واجتمع إليه خلق كثير. واشتد خوف المُوحِّدين منه، فلم يزالوا يجهزون إليه العساكر بعد العساكر، وفي كل ذلك يهزمهم؛ إلى أن بعثوا بعثاً من المُوحِّدين والغُزّ وأصناف الجند، بعد أن تقدموا إلى المصامدة والمجاورين للبلاد التي كان فيها؛ وقالوا: إنما يَقْوَى هذا الرجل بِتَغافُلكم عنه، ومُسامحتكم إياه، ولو شئتم لم يبق بالبلاد يوماً واحداً! فتحركوا عند ذلك وأظهروا الحمِيَّة، والتَقَوْا هُمْ وأصحاب عبد الرَّحْمٰن المذكور ـ وكان يُدْعَى «أبا قَصَبة» ـ فأسلمته جموعه، وقُتِلَ وسِيرَ برأسه إلى مَرَّاكُش؛ فكتب إليَّ بعضُ إخواني، وهو إذ ذاك صبيٌّ صغير كان مع أبيه بِسُوس ـ وكان أبوه من العمال، من أهل جزيرة الأندلس من ناحية بَلَنْسِيَة ـ يخبرني بهذا الفتح قبل وصوله إليَّ من جهة كتّاب المُوحِّدين المُتولِّين له، رسالة أولها:

«كُتِبَ من منزل سُوس وقد تبلَّج[1] فجرُ الفتح فأسفَر، وقال فريق الضلال وَشِيعتُه أين المفَرّ؟ وقد ألقى النصرُ جِرَانَه[2]، وأعزَّ اللّٰه حِزْبَه المؤيَّدَ وأعوانَه؛ وشَرْحُ الحالِ على غاية الإيجاز، لأجل الاستعجال في إنهاء هذه البشائر والانحفاز[3]، أن الناكثين النابذين للعروة الوُثْقَى، المُتمسِّكين بالسبب الأَشْقَى، حاصَرَهم المُوحِّدون ـ أنجدهم اللّٰه ـ أشدَّ الحصار، وقَطَعوا عنهم موادَّ المعايش وزَرَافات[4] الأنصار؛ ولسانُ التأييد يتلو علينا بالعشِيِّ والإشراق. ما يَنْظُرُ هؤلاءِ إلا صَيْحةً واحدةً ما لَها مِن فَوَاق[5]. ولِحِينِ ما أَخَذ المُوحِّدون ـ أنجدهم اللّٰه ـ في حسم دائهم العُضال، وجرَّدوا لهم من عَزَماتهم الصادقة ما هو أمضى من النصال، طاحوا مُجدَّلين بالحضيض[6]، وملأ جثمانُهم الفضاءَ العريض، وخيَّبَ اللّٰه ظنونهم الكاذبة وآمالهم،

---

(١) تَبلَّجَ الفجر: أسفر وأنار وَوَضح.
(٢) الجِرَانُ: باطن العُنق من البعير وغيره.
(٣) الانحفاز: التَّهَيُّؤ والإسراع في إمضاء الأمر.
(٤) الزرافات: جمع الزرافة: الجماعة من الناس.
(٥) الفَوَاقُ: (بفتح الفاء): الوقت بين الحلبتين، والفُوَاق: (بضم الفاء): اسم من أفاق العليل أو السكران، أو ما يأخذ المحتضر عند النزع.
(٦) طاحوا: هلكوا. مُجَدَّلُون: صَرْعَى. الحضيض: ما سَفُلَ من الأرض.

وصيَّرهم إلى أُمِّهم الهاويةِ فكانت أَولى بهم؛ ذلك بأنهم اتَّبعوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وكرِهوا رضوانَه فأحبط[١] أعمالهم؛ وأمكن اللَّهُ من رأسِ ضَلَالهم المدعوُّ بأبي قَصَبة، فقهره الحزبُ المنصور وغلَبَه، وحَزَّ الحسامُ منه قُنَّةً[٢] ورقبة...».

* * *

إنما أوردت هذه الرسالة ها هنا لغرابة شأن من وَرَدَتْ عليَّ منه؛ وذلك أنه كان حين كتب بها إليّ لم يحتلم بعد!

[فتح جزرة مُنرقة]

ومع اتصال هذا الفتح بهم، اتصل معه فتحُ جزيرة مُنرقة؛ كان فيها من أصحاب ابن غَانِية رجلٌ اسمه الزُّبير بن نَجاح؛ دخلوها عليه فقتلوه ووجَّهوا برأسه إلى مَرَّاكُش، فهو معلّق بها مع رأس أبي قَصَبَة المذكور.

[محاربة يَحْيَى بن غَانِية بإفريقية]

ولما كانت سنة ٦٠١، تجهز أمير المؤمنين أبو عبد اللَّه في جيوشٍ عظيمةٍ، وقصد بلاد إفريقية؛ وقد كان المَيورقيّ يَحْيَى بن غَانِية قد استولى عليها، خلا قسطنطينة وبَجَاية؛ هيَّأ له ذلك غفلةُ المُوحِّدين عنه، واشتغال أمير المؤمنين أبي يُوسُف بغزو الروم بالأندلس على ما قدمناه.

فسار أبو عبد اللَّه حتى نزل بلاد إفريقية؛ فما استعصى عليه بلد من بلادها خلا المهدية، مهدية بني عُبيد؛ فإنه أقام عليها أربعة أشهر قبل أن دخلها؛ أوجب ذلك ما قدَّمنا من شدة مَنَعَتِها ـ وكان يَحْيَى بن غَانِية قد ولَّى فيها ابن عمه لَحًّا، أبا الحَسَن عليَّ بن مُحمَّد بن غَانِية ـ فلما طال عليه الحصار سلَّم البلدَ وخرج بنفسه يقصد ابنَ عَمِّه. ثم بدا له أن يَرجع إلى المُوحِّدين، فأرسل إليهم فتلقَّوه أحسن لقاء، ووصلوه من الصِّلات النفيسة بما لا قيمةَ له[٣]، ولا يصل بمثله إلا الخلفاء، وبعد هذا نزع إليهم أخو يَحْيَى بن غَانِية، سيرُ بن إسحاق بن مُحمَّد؛ فأكرموا نُزُله وأقطعوه الأقطاع الواسعة بعد أن ملأوا يديه أموالاً.

ولم يزل أبو عبد اللَّه أمير المؤمنين مقيماً بإفريقية يُصلح ما أفسده ابن غَانِية،

---

(١) أحبط أعمالهم: أبطلها.

(٢) القُنَّةُ: قُنَّةُ كُلّ شيءٍ: أعلاه.

(٣) أي: لا يساويه شيء لنفاسته أو كثرته.

إلى أن تمَّ له ما أراد من ذلك. وبلغني أن جملة ما أنفق في هذه السفرة مائة وعشرون حِملاً ذهباً.

ثم رجع إلى مَرَّاكُش دار الملك، بعد أن ترك بإفريقية من المُوحِّدين وأصناف الجند من يقوم بحمايتها ويذود عنها مَن رامها. واستعمل عليها من أشياخ المُوحِّدين أبا مُحمَّد عبدَ الواحد ابنَ الشيخ أبي حَفْص عُمرَ إينْتي، فأقام بِمَرَّاكُش.

[انتقاض الهدنة بين المُوَحِّدين والفرنجة]

وكان رجوعه إليها في شهور سنة ٦٠٤، فأقام بها ـ كما ذُكر ـ إلى أول سنة ٦٠٧، فانتقض ما بينه وبين الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ من المهادنة، وبَدَا له أن يقصد بلاد الروم للغزو؛ فخرج بالجيوش حتى عبر البحر؛ وكان عبوره في شهر ذي القعدة من سنة ٧ المذكورة، فسار حتى نزل إشبِيليَّة على عادة من سلف قَبله؛ فأقام بها بقية السنة المذكورة.

[فتح شَلْبَتِرَّة]

وتحرك في أول سنة ٨ فقصد بلاد الروم؛ فنزل على قلعة عظيمة لهم في غاية المَنَعة تُدعى شَلْبَتِرَّة ـ معناه بلسان العرب: الأرض البيضاء، إلَّا أن فيه تقديماً وتأخيراً كما جرت العادة في لسان العجم ـ ففتحها بعد حصارٍ وتضييقٍ عليها شديد. وكان أبوه قد نزل عليها قبل ذلك فحاصرها أياماً يسيرةً ثم تركها شفقةً على المسلمين وخوفاً عليهم. فراع فتحُ هذه القلعة الروم، وخامرهم الرعب[١]؛ وخرج الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ إلى قاصية بلاد الروم مستنفراً من أجابه من عظماء الروم وفرسانهم وذوي النجدة[٢] منهم؛ فاجتمعت له جموعٌ عظيمةٌ من الجزيرة نفسها ومن السام، حتى بلغ نفيرُه[٣] إلى القسطنطينية، وجاء معه صاحب بلاد أرْغُن المعروفَ بـ«البرشنوني» لعنه اللَّه!

[أشهر الإمارات الإسبانية في ذلك العهد]

وذلك أن جزيرة الأندلس يملك جهاتها الأربعَ أربعةُ ملوك من الروم:

إحدى الجهات تسمى أرغون ـ وهي التي ذكرنا ـ وهي شرقيُّ الجزيرة مما يقابل الجنوب منها.

---

(١) خامرهم الرعب: خالطهم ومازجهم.

(٢) النجدة: الشجاعة في القتال، أو سرعة الإغاثة.

(٣) النفير: القوم ينفرون للقتال.

والجهة الأخرى ـ وهي المملكة الكبرى ـ بلاد تُسَمَّى بلاد قَشتال، يملكها الأدفنش لعنه اللَّه؛ وَحدُّ هذه الجهة فيما بين الجنوب والشمال، أمْيَل إلى الجنوب قليلاً.

والجهة الأخرى تُسَمَّى ليون، فهو أول الحد الشماليّ المغربيّ، يملكها رجل يدعى بالبَبُوج؛ ومعنى هذا الاسم بالعربية: الكثير اللُّعاب!

والجهة الأخرى في الشمال مما يلي البحر الأعظم، بحر أقيانس، يملكها رجل يعرف بابن الريق، وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب.

والجزيرة بأسرها، أعني جزيرة الأندلس، تُسَمَّى في قديم الدهر عند الروم جزيرة أشبانية.

* * *

وبعد رجوع أمير المؤمنين أبي عبد اللَّه من هذا الفتح المتقدم الذكر إلى إشْبِيليّة، استنفر الناس من أقاصي البلاد، فاجتمعت له جموعٌ كثيفةٌ، وخرج من إشْبِيليّة في أول سنة ٦٠٩، فسار حتى نزل مدينة جَيَّان؛ فأقام بها ينظر في أمره ويعبىء عساكره. وخرج الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ من مدينة طُلَيْطُلَة في جموعٍ ضخمةٍ، حتى نزل على قلعة رباح ـ وهي كانت للمسلمين، افتتحها المنصور أبو يُوسُف في الوقعة الكبرى ـ فَسَلّمها إليه المسلمون الذين بها، بعد أن أمّنهم على أنفسهم؛ فرجع عن الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ بهذا السبب من الروم جموعٌ كثيرة، حين منعهم من قتل المسلمين الذين كانوا بالقلعة المذكورة، وقالوا: إنما جئتَ بنا لتفتتح بنا البلاد وتمنعنا من الغزو وقتل المسلمين! ما لنا في صحبتك من حاجةٍ على هذا الوجه!

[وقعة العقاب وهزيمة المسلمين]

وخرج أمير المؤمنين من مدينة جيَّان، فالتقى هو والأدفنش بموضع يُعرف بـ«العقاب»، بالقرب من حصن يدعى حصن سالم؛ فعبأ الأدفنش جيوشه ورتّب أصحابه، ودَهَم المسلمين وهم على غير أهبة؛ فانهزموا، وقُتِلَ من المُوحِّدين خلقٌ كثير.

وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلافُ قلوب المُوحِّدين؛ وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يُوسُف يَعْقُوب يأخذون العطاء في كل أربعة أشهر، لا يخلّ ذلك من أمرهم؛ فأبطأ في مدة أبي عبد اللَّه هذا عنهم العطاء، وخصوصاً في هذه السَّفرة، فنسبوا ذلك إلى الوزراء؛ وخرجوا وهم كارهون؛ فبلغني عن جماعة منهم أنهم لم يَسُلُّوا سيفاً ولا شرعوا رمحاً ولا أخذوا في شيء من أهبة القتال؛ بل انهزموا لأول حملة الإفرنج

عليهم قاصدين لذلك. وثبت أبو عبد اللّه هذا في ذلك اليوم ثباتاً لم يُرَ لملكٍ قبله، ولولا ثباته هذا لاستُؤْصِلت تلك الجموع كلُّها قتلاً وأسراً!

ثم رجع من هذا الوجه إلى إشْبِيليَّة، وأقام بها إلى شهر رمضان من هذه السنة، ثم عبر البحر قاصداً مدينة مَرَّاكُش...

وكانت هذه الهزيمة الكبرى على المسلمين، يوم الاثنين منتصف صفر الكائن في سنة ٦٠٩.

وفصل الأدفنش ـ لعنه اللّه ـ عن هذا الموضع بعد أن امتلأت يداه وأيدي أصحابه أموالاً وأمتعةً من متاع المسلمين؛ فقصد مَدينتَيْ بَيَّاسة وأُبذَة؛ فأما بياسة فوجدها أو أكثرها خالية، فحرّق أدورها وخرَّب مسجدها الأعظم؛ ونزل على أُبذة وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كثير من المنهزمة وأهلِ بياسة وأهلِ البلد نفسه؛ فأقام عليها ثلاثة عشر يوماً، ثم دخلها عَنوةً فقتل وسَبَى وغنم؛ وفصَل هو وأصحابه من السَّبْي من النساء والصبيان بما ملأوا به بلادَ الروم قاطبةً؛ فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة!

[وفاة الناصر مُحمَّد]

ولم يزل أمير المؤمنين أبو عبد اللّه مقيماً بِمَرَّاكُش بقية سنة ٩ وأشهراً من سنة ١٠ إلى أن تُوفِّي في شهر شعبان كما قدمنا؛ واختلف علينا في سبب وفاته[١]؛ فأصحُّ ما بلغني أنه أصابته سَكْتَةٌ من وَرَمٍ في دماغه؛ وذلك يوم الجمعة لخمسٍ خلون من شعبان؛ فأقام ساكتاً لا يتكلم يومَ السبت والأحد والاثنين والثلاثاء؛ وأشار عليه الأطباء بالفَصْد فأبى ذلك؛ وتُوفِّي يوم الأربعاء لعشرٍ خلون من شهر شعبان من سنة ٦١٠، ودفن يوم الخميس؛ صلَّى عليه خاصةُ الحشَم!

(١) في وفيات الأعيان نقلاً عن بعض المغاربة: أن الناصر أبا عبد اللّه أوصى عبيده الذين يحرسون بستانه في مراكش بِقَتْلِ من ظهر لهم بالليل فيه، ثم أراد أن يختبر طاعتهم، فتنكر وجعل يمشي في البستان ليلاً. وعندما رأوه طعنوه برماحهم، فجعل يقول: أنا الخليفة! أنا الخليفة، فلم يتأكدوا من ذلك حتى هلك.

ذكر ولاية أبي يَعْقُوب يُوسُف بن مُحمَّد

هو يُوسُف بن مُحمَّد بن يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤْمِن بن عليّ[1]، أمُّه أم ولد رومية اسمها «قمر»، تُلقَّب «حكيمة». كانت ولادته في صدر شوّال من سنة ٥٩٤؛ قبل وفاة جدّه أبي يُوسُف بأربعة أشهر.

بُويع له وسِنُّه يومئذٍ ستَّ عشرة سنة، لا أعلم له ولداً لحداثة سنّه؛ ثم اتصل بي في شهور سنة ٦٢١ أن يُوسُف هذا تُوفِّي في أحد الشهرين من شوّال أو ذي القعدة سنة ٢٠، فكانت مدة ولايته من يوم بُويع له ـ وذلك لأحد عشر يوماً خلت من شعبان من سنة ٦١٠ـ إلى أن تُوفِّي كما ذُكر في التاريخ المذكور، عشرة أعوام وشهرين.

صِفَتُهُ

كان صافي السمرة، مستديرَ الوجه، شديدَ الكَحَل، يُشبِّهونه بِجدِّه أبي يُوسُف في أكثر خَلْقِه وخُلُقِه.

وُزَرَاؤُه

أبو سَعِيد ـ المتقدم الذكر ـ وزير أبيه؛ استمرت وزارته إلى آخر سنة ٦١٥.

ثم عزله وولّى بعده رجلاً اسمه زَكَرِيَّا بن يَحْيَى بن أبي إبراهيم إسماعيل الهَزْرَجِيّ صاحبِ ابنِ تُومَرْت والمقتول في حياة عبد المُؤْمِن كما تقدم.

أمُّ هذا الوزير هي بنت أبي يُوسُف المنصور؛ فهو وزيره إلى أن تُوفِّي كما ذُكِر.

حُجَّابُه

مُبشِّر الخَصيّ حاجب أبيه.

ثم حجبه بعده فارح الخَصيّ، يُكْنَى: أبا السُّرور؛ فلم يزل حاجباً له إلى أن تُوفِّي كما قيل.

---

(١) المُلَقَّبُ بـ «المستنصر بالله».

قَاضِيه

أبو عِمْرَان مُوسَى بن عِيسَى بن عِمْرَان قاضي أبيه؛ لم يزل أبو عِمْرَان هذا قاضياً له إلى أن تُوفِّي كما قيل.

كُتَّابُه

أبو عبد اللّٰه بن عيَّاش كاتب أبيه وجدِّه.

وأبو الحَسَن بن عيَّاش.

ثم اتصلت بي وفاة هذين الكاتبين وأنا بالديار المصرية في شهور سنة ٦١٩، وأنهم استعادوا أبا عبد اللّٰه مُحمَّد بن يَخْلُفْتَن الفازازي المتقدم الذكر في كتاب أمير المؤمنين أبي عبد اللّٰه؛ وكان قاضياً بمدينة مُرْسِيَة من شرقي الأندلس، وبها فارقته؛ فأعادوه إلى الكتابة كما كان.

واستكتبوا معه أبا جَعْفَر أحمد بن مُحمَّد بن عبد الرَّحْمٰن بن عيَّاش. أبوه هو كاتبهم المشهور بكتابتهم، وقد تقدم ذكره في كتَّاب ثلاثة أمراء منهم.

وكاتب الجيش أحمد بن مَنِيع؛ لم يَتغيَّر.

[بَيْعَتُه]

بُويع لأبي يَعْقُوب هذا يوم دَفْن أبيه، لا أدري أبعهد أبيه إليه أم لا؛ لأني أعلم أن أباه كان كثير الانحراف عنه في آخر أيامه؛ لما كان يسمع من سوء أخباره. والذين قاموا ببيعته من القرابة: أبو مُوسَى عِيسَى بن عبد المُؤْمِن ـ عمُّ جدِّه الذي دخل عليه المَيُورقيُّون بَجَايةَ، وهو آخِرُ من بقي من ولد عبد المُؤْمِن لصلبه، لم تبلغني وفاته إلى وقتنا هذا ـ وأبو زَكَرِيَّا يَحْيَى بن أبي حَفْص عُمَر بن عبد المُؤْمِن؛ كانا قائمين على رأسه يأذنان للناس؛ ومن المُوحِّدين: أبو مُحمَّد عبد العزيز بن عُمَر بن أبي زَيْد الهنتاتي ـ كان أبوه أولَ وزير وَزَرَ لأبي يُوسُف، وقد ذُكر ـ وأبو عليّ عُمَر بن مُوسَى بن عبد الواحد الشرقي؛ وأبو مَرْوَان عبد الملك بن يُوسُف بن سُلَيْمان، من أهل تينملّ.

وَبُويع البيعةَ الخاصة يوم الخميس، ويومَ الجمعة بايعه أشياخ المُوحِّدين والقرابة، وفي يوم السبت أذن للناس عامة؛ شهدتُ ذلك اليومَ وأبو عبد اللّٰه بن عيَّاش الكاتبُ قائمٌ يقول للناس:

«تُبايعون أمير المؤمنين ابن أمراء المؤمنين على ما بايع عليه أصحابُ

رسول الله ﷺ رسولَ الله، من السمع والطاعة في المَنْشَط[1] والمَكْرَه واليُسر والعُسر والنُّصح له ولولاته ولعامة المسلمين. هذا ما له عليكم، ولكم عليه: ألا يُجَمِّر بعوثَكم[2]، وألا يَدَّخر عنكم شيئاً مما تَعُمّكم مصلحتُه، وأن يُعجِّل لكم عَطاءَكم، وألا يحتجب دونكم؛ أعانكم الله على الوفاء وأعانه على ما قُلِّدَ من أموركم».

يعيد هذا القول لكل طائفة، إلى أن انقضت البيعة. ثم اتصلت وفادة[3] أعيان البلاد ورؤسائها ووجوه القبائل عليه للبيعة إلى أن تمَّ له الأمر.

[فاطميٌّ من سلالة ملوك القاهرة يثور بِمَرَّاكُش]

ولأربعة أشهرٍ من ولايته قُبض على رجلٍ كان قد ثار عليهم يَدَّعي أنه من بني عُبيد، ويقول: إنه ولد العاضد[4] لِصُلبه، اسمه عبد الرَّحْمٰن.

كان قد ورد البلاد في حياة أبي يُوسُف أيام كونه بإشْبِيليَّة، ورام الاجتماعَ به فلم يأذن له؛ وأقام بالبلاد مطَّرحاً إلى أن حبسه أمير المؤمنين أبو عبد الله في شهور سنة ٥٩٦؛ فلم يزل في الحبس إلى أن كانت سنة ٦٠١ وتحرّك أمير المؤمنين إلى إفريقية؛ شفع له فيه أبو زَكَرِيَّا يَحْيَى بن أبي إبراهيم الهَزْرَجيّ، فأطلقه له بعد أن ضمن عنه أنه لا يتحرّك في أمر يكرهونه. فلم يُقم هذا العُبيديّ بِمرَّاكُش إلا أياماً يسيرةً بعد خروج أمير المؤمنين أبي عبد الله، ثم خرج وقصد بلاد صَنْهَاجَة، فالتفّت عليه منهم جماعة وانتشر له فيهم تعظيم؛ لأن هذا الرجل كان كثير الإطراق والصمت، حسن الهيئة؛ لقيتُه مرّتين فلم أر في أكثر من شهدتُه من المشبَّهين بالصالحين مِثلَه في الآداب الظاهرة، من هدوء النفس وسكون الأطراف ووزن الكلام وترتيب الألفاظ ووضع الأشياء مواضعها، مع الرياضة المفرطة. ثم قصد مدينة سِجِلْمَاسَة في حياة أمير المؤمنين أبي عبد الله بجيشٍ عظيم، فخرج إليه مُتَوليها السيد أبو الربيع سُلَيْمان بن أبي حَفْص عُمَر بن عبد المُؤْمِن؛ فَهزمه العبيديُّ المذكور وأعاده إلى سِجِلْمَاسَة أسوأ عَوْد. ولم يزل ينتقل في قبائل البربر من موضع إلى موضع، وفي ذلك كلِّه لا يستقيم له أمر ولا تثبت عليه جماعة؛ أوجَبَ ذلك كونُه غريبَ البلد واللسان، لا عشيرةَ لهُ، ولا أصلَ بالبلاد يرجعُ إليه؛ إلى أن قُبِضَ عليه بظاهر مدينة فاس؛ لم يبلغني تفصيلُ

---

(١) المَنْشَطُ: ما يُخَفُّ إليه وَيُؤْثَرُ فعله.

(٢) جَمَّر الأمير البعثة أو الجيش: جمع أفراده في الثغور، وحبسهم عن العَوْدِ إلى أهليهم.

(٣) الوفادة: من وَفَدَ على القوم وإليهم وَفْداً، ووفوداً، وَوِفادةً: قَدِمَ، أو ورد عليهم رسولاً.

(٤) العاضد: هو آخر ملوك العبيديين في القاهرة، غلبه بنو أيوب على عرش مصر، وأمهلوه حتى مات حتف أنفه سنة ٥٦٧هـ.

قضية القبض عليه. وكتب إلى أميرِ المؤمنين مُتولِّي فاس أبو إبراهيم إسحاق ابن أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤْمِن، يُعلمه بالقبض عليه وبكونه عنده في سجنه؛ فكتب إليه يأمره بقتله وصَلْبِه، فَضُرِبَ عنقه وصُلِبَ جسده ووُجِّه برأسه إلى مَرَّاكُش؛ فهو مُعلَّقٌ هناك مع عدة رُؤوسٍ من الثوار والمتغلِّبين.

* * *

ولم يُغيّر أبو يَعْقُوب هذا على الناس شيئاً من سِيَرِ آبائه، ولا أحدث أمراً يتميز به عمن كان قبله؛ خلا أني رأيت كل من يعرفه من خواص الدولة قد مُلِيء قلبه منه رعباً؛ لما يعلمون من شهامته وشدة تَيقُّظه؛ لقيتُه وجلستُ بين يديه خالياً به، وذلك في غُرة سنة ٦١١؛ فرأيت ـ من حِدَّة نفسه وتيقُّظ قلبه وسؤاله عن جزئياتٍ لا يعرفها أكثرُ السوق فكيف الملوكُ ـ ما قَضيْتُ منه العجب؛ وإلى وقتنا هذا لم يظهر منه شيء مما يُتَوَقَّع.

[ثائران آخران على أبي يَعْقُوب الثاني]

وثار في أيام يُوسُف هذا ـ بعد قتل العبيدي ـ رجلان: أحدهما ببلاد جزُولة من سُوس، كان يُدْعَى بالفاطمي؛ قُتِلَ وجيء برأسه إلى مَرَّاكُش في شهور سنة ٦١٢ وأنا يومئذٍ بجزيرة الأندلس؛ لم يبلغني تفصيلُ أمره لِبُعْدي عن الحضرة، غير أني رأيتهم أعْظَموا الفرح بأخذه وقَتْلِه؛ والآخر من صَنْهَاجَة، قُتِل في سنة ٦١٨ بعد أن أثر آثاراً قبيحة فيما بلغني، وهَزَم بعوثاً عدة واستَفْسد خَلقاً كثيراً؛ بلغني هذا كلُّه وأنا بالبلاد المصرية في التاريخ المتقدم. وكان الذي تولَّى قَتْلَ هذا الرجل والإراحة منه وحَسْمَ الخلاف الواقع بسببه، السيد الأجلُّ أبا مُحمَّد عبد العزيز بن أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب بن عبد المُؤْمِن بن عليّ، وهو يومئذٍ والٍ على مدينة سِجِلْمَاسَة وأعمالها.

[وفاة أبي يَعْقُوب الثاني]

ثم اتصل بي في هذه السنة ـ وهي سنة ٦٢١ـ أن أبا يَعْقُوب أمير المؤمنين تُوفِّي في أحد الشهرين من شوّال أو ذي القعدة من سنة ٦٢٠ ولم يبلغني كيفيةُ وفاته[1] فاضطرب الأمر، واشرأَبَّ[2] الناس للخلاف.

---

(١) يقال: إن أبا يعقوب هذا كان يهوى رعاية الأبقار ورياضتها، فهجمت عليه بقرة شموس كان يروضها، فضربته بقرنها فقتلته.

(٢) اشرأبَّ: مَدَّ عنقه، أو ارتفع لينظر.

[ولاية أبي مُحمَّد عبد العَزيز بن أبي يَعْقُوب الأول]

ثم ذُكِرَ لي أن عامتَهم ومعظمهم اجتمعوا على تقديم السيد الأجلّ أبي مُحمَّد عبد العزيز ابن أمير المؤمنين أبي يَعْقُوب يُوسُف ابن أمير المؤمنين أبي مُحمَّد عبد المُؤمِن بن علي، رحمهما اللّه ونضَّر وَجْهَيْهما وجزاهما خيراً عن صَلاحِهما وإصلاحهما!

وأبو مُحمَّد عبد العَزيز هذا من أصاغر أولاد أبي يَعْقُوب؛ أمه حُرّة اسمها «مريم»، صَنْهَاجِيّة من أهل قلعة بني حمَّاد، تزوجها أمير المؤمنين أبو يَعْقُوب في حياة أبيه؛ وكانت سُبِيَتْ هي وأمُّها «ملكة» فيمن سُبُوا من أهل القلعة؛ فأعتقهما أبو مُحمَّد عبد المُؤمِن، وزوَّج «مريمَ» هذه لابنه أبي يَعْقُوب، فولدت له ثمانية من الولد: أربعة ذكور، وأربع بنات؛ فالذكور هم: إبراهيم، ومُوسَى، وإدريس، وعبد العزيز هذا المذكور، وهو أصغرهم؛ تُوفِّي موسى بظاهر مدينة تاهَرْت؛ قتله العرب أصحابُ المَيورقي في شهور سنة ٦٠٥؛ وتُوفِّي إبراهيم منهم بإشْبِيليَّة وأنا بِها في شهور سنة ٦١٢؛ وتُوفِّي أبو العلاء إدريس منهم بإفريقية كما سيأتي. والبنات هنّ: زَيْنَب، وَرُقَيَّة، وعَائِشة، وَعُلَيّة.

لم يتولَّ أبو مُحمَّد عبد العَزيز هذا شيئاً من أمرهم في حياة أبيه، ولا في حياة أخيه أبي يُوسُف؛ فلما ولي أبو عبد اللّه الأمر[1] ولّاه مدينة مَالَقَة وأعمالها من جزيرة الأندلس؛ وذلك في شهور سنة ٥٩٨؛ ثم عزله عنها في شهور سنة ٦٠٣، وولّاه أمر قبيلة هَسْكُورَة، وهي ولاية ضخمة؛ فلم يزل والياً عليها إلى أن عزله عنها وولّاه أمر سِجِلْمَاسَة، فلم يزل والياً عليها بقيةَ مُدّته ومدَّة ابنه أبي يَعْقُوب، إلى أن قَتَل هذا الثائرَ المتقدم الذكر في ولاية أبي يَعْقُوب بن أبي عبد اللّه؛ فعزله أبو يَعْقُوب عن سِجِلْمَاسَة وولّاه مدينة إشْبِيليَّة حين عَزَل عنها أخاه أبا العلاء وولاه أمر إفريقية، فلم يزل أبو العلاء إدريس والياً بإفريقية إلى أن مات بها في رمضان من سنة ٦٢٠ على ما بلغني، رحمة اللّه عليه.

فهذه جملة أخبار هذا الرجل، أبي مُحمَّد عبد العَزيز المذكور بالولاية لأمرهم كما قالوا؛ ولئن كان ما قالوا حقًّا وتمّ هذا الأمر له، ليملأنّها خيراً وعدلاً، ولتزكُوَنَّ[2] الأرض وتُخرجُ بركاتها، ولترسلنّ السماءُ مِدْرارَها؛ بيُمْن نقيبتِه[3] وحُسنِ

---

(١) أي: الناصر محمد بن أبي يوسف.

(٢) زكا الشيء زُكُوًا، وَزكاءً، وَزَكَاةً: نما وزاد.

(٣) اليمن: البركة. النقيبة: السجية والطبيعة.

سِيرتِه وحميدِ سَريرتِه. هذا إذا ساعده الدهر وقيَّض[١] اللَّه له أعواناً صالحين؛ فإنه ـ ما علمتُ ـ صوَّام قوّام، مجتهدٌ في دينه، شديد البصيرة في أمره، قويُّ العزيمة، شديد الشكيمة[٢]، لا تأخذه في الحق لَومةُ لائم؛ أرْطَبُ الناس لساناً بذكر اللَّه، وأتلاهم لكتاب اللَّه؛ شهدُته والولاية قد اكتنفته، وأمور الرعية قد استغرقت أوقاته، وهو في كل ذلك لا يُخلُّ بشيءٍ من أوراده، ولا يترك وظيفةً من الوظائف التي رتّبها على نفسه، مِن أَخْذِ العلم وقراءة القرآن، وأذكارٍ رتّبها على أوقات الليل والنهار. شهدتُ هذا كلَّه منه بنفسي، لا أنقله عن أحد ولا أستند فيه إلى رواية؛ هذا مع دماثة خُلق[٣]، ولينِ جانب وخَفْض جَناح لأصحابه ولمن عَلم فيه خيراً من المسلمين أو ظَنَّه مُضافاً إلى سَخاء نفسٍ وطلاقةِ وَجْه.

صِفَتُه

أبيض تعلوه صُفرة، جميلُ الوجه جدًّا، معتدلُ القامة، متناسبُ الأعضاء.

وله من الولد ـ على علمي ـ ثلاثة: مُحمَّد، وهو أكبرهم؛ وعبد الرَّحْمٰن؛ وأحمد؛ وبنات.

هذا تلخيص التعريف بأخبار دولة المصامدة من أول قيام أمرهم ـ وهو سنة ٥١٥ـ إلى وقتنا هذا ـ وهو سنة ٦٢١ـ فذلك مائة سنة وستّ سنين، على الإجمال لا على التفصيل.

وإنَّما أوردنا من ذلك ما تدعو الحاجة إليه، وتُجشّم الضرورةُ مَنْ عُنِيَ بالأخبار إلى معرفته، من غير تَعرُّض إلى ما لا حاجةَ بنا إليه، من ذكر أولاد عبد المُؤمِن، وأولادِ أولاده، وأولادِ أولادِ أولاده، وتفاصيل أخبارهم في ولايتهم وعَزْلهم وأُمَّهاتهم وكُتَّابهم وحُجَّابهم وَوُزَرائهم؛ إذ لو تتبعنا ذلك لخرج هذا المجموع عن حدّ التلخيص، ولَحِقَ بالكتب المبسوطة. هذا على أنَّا لو كُفِينا ضروراتِ المعاش، وأُعفينا من كَدّ الزمان، لأوردنا من ذلك ما أحاط به العلم وبلغته الرواية وحصَّلته المشاهدة.

* * *

ولم أثبت في هذه الأوراق المحتوية على دولة المصامدة وغيرها إلَّا ما حققتُه نقلاً من كتاب، أو سماعاً من ثقةٍ عَدْل، أو مشاهدةً بنفسي؛ هذا بعد أن تَحرَّيْتُ الصدق وتَوخَّيْتُ الإنصاف في ذلك. وَجَهَدْتُ ألّا أنقص أحداً ذرةً مِمَّا لَهُ، ولا أزيده

---

(١) قَيَّضَ اللَّه له الشيءَ: قَدَّرَهُ له وَهَيَّاه.

(٢) الشكيمة: قوة القلب، أو الانتصار من الظلم.

(٣) الدماثة: السهولة واللين.

خَرْدَلَةً[1] مما لا يستحقه؛ وباللَّه أستعين، وإياه أسأل، وإليه أضرع في إلهام الصواب والسداد في القول والعمل، فهو حَسْبي وَنِعْمَ الوكيل.

جامع سير المصامدة وأخبارهم وقبائلهم وأحوالهم في ظعنهم وإقامتهم

قد قدمنا أن أول من صحب المهدي مُحمَّد بن تُومَرْت، عشرةُ أنفس؛ وهم المُسمَّون بالجماعة؛ أولهم عبد الواحد الشرقي على الصحيح؛ ثم عبد المُؤمِن بن علي أمير المؤمنين، ثم عُمَر بن عبد اللَّه الصَنْهَاجي المعروف عندهم بِعُمَر أزناج، ثم فَصْكَة بن وَمزَال، سماه ابن تُومَرْت: عُمَر، وكناه أبا حَفْص؛ انتشر من ظهر عُمر هذا بَشَرٌ كثير، وكان له عِدّة من الولد، منهم: إبراهيم، وإسماعيل، ومُحمَّد ـ أمُّ مُحمَّدٍ هذا ابنةُ عبد المُؤمِن ـ ويَحْيَى، وعِيسَى، ومُوسَى، وَيُونُس، وعبد الحقّ، وعُثْمَان، وأحمد، وعبد الواحد؛ كان عبد الواحد هذا يتولى أمر إفريقية، ولَّاه أمرها أمير المؤمنين أبو عبد اللَّه سنة ٦٠٣، فلم يزل والياً عليها إلى أن مات بها يوم الخميس، وهو أول يوم من شهر محرم سنة ٦١٨.

وكان ابن تُومَرْت يُسمِّي فَصْكة هذا: المبارك، ويقول: لا يزالون بخير ما بقي فيهم هذا الرجل أو أحدٌ من ولدِه! فكان الأمر كما قال، وانتفعوا به وبأولاده وأولاد أولاده، وهو المشهور بعمر إينتي، وقد تقدم ذكره في مواضع من هذا الكتاب. ولم يبق في وقتنا هذا من ولدِه لِصُلبه سوى رجلٍ واحد اسمه عثمان، فارقتُه بمدينة مُرْسِيَة، وبها ودّعته حين ارتحلتُ إلى هذه البلاد؛ وقد ولَّوه مدينة جَيَّان وأعمالها؛ هذا آخر عهدي به. ثم اتصل بي بديار مصر أنهم ولَّوه بَلَنْسِيَة ثم عزلوه عنها، فلا أدري أهو بالأندلس اليوم أو بِمرَّاكُش؟ وهو معدود عندي من جملة إخواني، رضي اللَّه عنه وعنَّا وعن جميع المسلمين.

. . . ثم يُوسُف بن سُلَيْمان، وأخوه عبد اللَّه بن سُلَيْمان، وهما من أهل تينملّ، من قبيلة تُدْعَى مَسَكالة حسبما تقدم؛ ثم أبو عِمْرَان مُوسَى بن عليّ الضَّرير، صهر عبد المُؤمِن، كان ضرير البصر، كان عبد المُؤمِن يستخلفه على مَرَّاكُش إذا سافر عنها؛ ثم أبو إبراهيم إسماعيل الهَزْرَجي ـ وهو الذي أسلم نَفْسَه للقتل وَفَدَى عبد المُؤمِن بذلك على ما تقدَّم ـ ثم رجل من أهل تينملّ، يُعرف عندهم بابن بيجيت

(١) الخردلة: واحدة الخردل: نبات عُشْبِيٌّ حِرِّيف، ينبت في الحقول وعلى حواشي الطرق، وتُستعمل بزوره في الطب.

ـ أنا شاكٌ في اسمه ـ ثم أيوب الجِدمِيوِيّ، وهو الذي تولّى قسمة الأقطاع بين المُوحِّدين في أول الأمر.

فهؤلاء العشيرة المُسمَّون بالجماعة، وبعض الناس يَعُدُّ فيهم أبا مُحمَّد واسْنار، وهو رجل دبَّاغٌ أسودُ من أهل مدينة أغمات، صحب أبا عبد اللّه بن تُومَرْت حين مرّ بها؛ فاختصه أبو عبد اللّه بن تُومَرْت لخدمته، لما رأى من شدّته في دينه وكتمانه لما يرى ويسمع؛ فكان يتولى وُضُوءه وسِوَاكه والإذنَ عليه للناس وحجابتَه والخروج بين يديه؛ فلم يزل على ذلك إلى أن تُوفِّي ابنُ تُومَرْت، فكان يتولى خدمة ضريحه وضريح عبد المُؤمِن حين دُفِنَ هناك؛ تُوفِّي وَاسْنار هذا في صدر دولة أبي يَعْقُوب بعد أن عَلَتْ سِنُّه؛ وكان من العُبَّاد المجتهدين والزُّهاد المتبتلين؛ لم يكتسب شيئاً ولا خلّف ديناراً ولا درهماً، مع أنه لو شاء لكان أكثرَ الناس مالاً، لمكانِه من عبد المُؤمِن ومن المصامدة، لِما كانوا يعلمون من قُرْبِه من صاحبهم وثنائِه عليه في أكثر الأوقات.

وانضاف إلى هؤلاء القوم المُسمَّين بالجماعة؛ خَلْقٌ من قبائلهم، فَعُدُّوا فيهم ونُسِبوا إليهم.

وأول من يعترض في العرض العام، ولدُ عُمَر بن عبد اللّه الصَّنْهَاجي، ثم فَرَسُ عبد المُؤمِن أو من كان من ولده يتولّى الأمر، ثم سائرُ أهل الجماعة على طبقاتهم مِن سَبْقٍ وإبطاء، ثم أهل خمسين، وهم خلقٌ كثير.

ذكر قبائل المُوحدِّين

وقبائل المُوحُدين الذين يجمعهم هذا الاسم ويعمُّهم ـ وهم الجند والأعوان والأنصار، ومَنْ سِوَاهم من سائر البربر والمصامدة رَعِيّةٌ لهم وتحت أمرهم ـ سَبْعُ قبائل، أوّلهم قبيلة ابن تُومَرْت، وهي قبيلة تُسَمَّى هرغة، وهي قليلة العدد بالنسبة إلى قبائل المُوحُدين. ثم قبيلة عبد المؤمن، تُسَمَّى كُومية، وهي قبيلة كثيرة العدد جَمَّةُ الشعوب، لم يكن لها في قديم الدهر ولا في حديثه ذِكْرٌ في رياسةٍ ولا حَظٌّ من نباهةٍ، إنما كانوا أصحابَ فِلاحةٍ ورُعاة غَنم وأصحابَ أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع[1]. فتبارك المُعزُّ المُذِلّ المعطي المانع! فأصبح القومُ اليومَ وليس فوقهم أحد ببلاد المغرب، ولا تُطاوِل أيديَهم يَدٌ بكون عبد المُؤمِن منهم؛ هذا على أنه ـ كما قدمناه ـ ينتسب إلى غيرهم. ثم أهل تِينملّ، وهم قبائل شتّى يجمعها اسمُ هذا الموضع. ثم هَنْتَاتة، وهي أيضاً قبيلة ضخمة جدًّا، وفي بعضها رياسة وشرفٌ في الدهر القديم. ثم جِنفيسة، وهي قبيلة عزيزة منيعة، ولغتُها أجودُ اللغات وأفصحُها في ذلك اللسان. ثم جِدمِيوَه، وليست كلّها ـ بل بعضها ـ رعية. ثم من استجاب لِلمُوحِّدين من قبائل صَنْهَاجة. ثم بعض قبائل هَسْكُورة. . .

فهذه جملة قبائل المُوحُدين المستحقين لهذا الاسم عندهم، والذين يأخذون العطاء وتجمعهم الجيوش وينفرون في البعوث؛ وغيرُ هؤلاء القبائل من المصامدة رَعِيّة.

وإذ قد جرى ذكرهم ـ أعني المصامدة ـ على هذا النسق، فلنذكر لك الآن ـ حفظك اللّه وأصلحك وأصلح بك ـ القبائلَ التي يجمعها هذا الاسم، أعني المصامدة، وحَدَّ بلادهم؛ لتعرفهم ممن سواهم من البربر؛ فحدُّ بلادهم النهرُ الأعظم الذي يصبُّ من جبال صَنْهَاجَة وينتهي إلى البحر الأعظم، بحر أقيانس، يُدْعى هذا النهر أمّ ربيع، عليه قبيلتان، إحداهما تسمى هَسْكُورة، وأخرى صَنْهَاجَة؛ وهما من المصامدة؛ وآخر بلادهم الصحراء التي تسكنها قبائل لَمْتُونة ومسوفة وسَرْطَة؛ وهؤلاء ليسوا مصامدة؛ وقد كانت المملكة في هذه القبائل أيام المرابطين كما تقدّم. فهذا حدُّ

(١) سقط المتاع: رديئه وحقيره.

بلاد المصامدة عَرْضاً؛ وحدُّها طولاً من الجبل المعروف بـ«دَرَن»، إلى البحر الأعظم المُسمَّى أقيانس؛ وقبائلها الذين ينطلق عليهم هذا الاسم: هَسْكُورة، وصَنْهَاجَة، ودُكَّالة، وحَاحَة، ورَجْرَاجَة، وجَزُولَة، ولَمْطَة، وجِنْفِيسَة، وهَنْتَاتَة وهَرْغَة، وقبائلُ أهلِ تينملّ؛ وحول مَرَّاكُش قبائلُ منهم أيضاً، وهم: هِزْمِير، وهَيْلانة، وهَزْرَجة؛ يَدْعُونهم المُوحِّدون بالقبائل؛ فهؤلاء الذين يجمعهم اسمُ المصامدة، ثم يجمع الكلَّ جنسُ البربر، من طرابلس المغرب إلى أقصى سُوس وما وراء ذلك ممن ذَكَرْنا، من لَمْتُونة ومَسُوفة وسَرْطَة؛ وآخرُ بلادهم أولُ حدٍّ بلاد السودان.

وللمصامدة بعد هذا جُندٌ من سائر أصناف الناس، كالعرب، والغُزّ، والأندلس، والروم، وقبائل من المرابطين، وغيرِهم.

ثم من ذكرنا من المُوحِّدين صنفان: فالصنف الأول يُدْعَوْن الجموع، وهم المُرْتَزِقة الذين يكونون بِمَرَّاكُش لا يبرحونها. والصنف الآخر يُدْعَوْن العموم، وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مَرَّاكُش إلا في النفير الأعظم؛ وعدد المرتزقة الذين بِمَرَّاكُش من قبائل المُوحِّدين وسائرِ من ذكرنا من الأجناد ـ على ما صحَّ عندي تلخيصه ـ عشرةُ آلاف نفس؛ هؤلاء الذين بِمرَّاكُش خارجاً عمَّا في سائر البلاد من المُوحِّدين وأصنافِ الجند.

وإذا كان العَرْضُ العامّ فأول من يعترض ذريةُ أبي حَفْص عُمَر الصَّنْهَاجي على طبقاتهم في أسنانهم، ثم بعدهم فَرَسُ الخليفة من بني عبد المُؤْمِن، ثم أهلِ الجماعة على ترتيب طبقاتهم، ثم أهلِ خمسين، ثم القبائل؛ وأولهم عَرْضاً هَرْغَةُ قبيلةُ ابن تُومَرْت، ثم بعدهم أهل تينملّ، ثم كومية، ثم المُوحِّدون بعد هذا على طبقاتهم في سُرعة الهجرة وبُطئها.

وقد جرت عادتهم بالكَتْبِ إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كلِّ فن، وخاصة أهل علم النظر، وسمَّوهم طلبةَ الحَضر، فهم يكثرون في بعض الأوقات ويقلّون، وصنف آخر ممن عُنِيَ بالعلم من المصامدة يُسمَّون طلبةَ المُوحِّدين؛ ولا بدَّ في كل مجلسٍ عام أو خاص يجلسه الخليفة، من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم؛ فأول ما يفتتح به الخليفةُ مجلسَه مسألة من العلم يُلقيها بنفسه أو تُلْقَى بإذنه؛ كان عبد المُؤْمِن وَيُوسُف وَيَعْقُوب يُلْقون المسائلَ بأنفسهم ولا ينفصلون من مجلس من مجالسهم إلا على الدعاء: يدعو الخليفةُ ويؤمِّن الوزير جَهْراً يُسْمِع مَنْ بَعُدَ من الناس. ثم إذا سافروا لا يزال القرآنُ يُقرأ بين أيديهم بالغدوّ والعشيّ رُكباناً؛ وإذا نزلوا فأولُ شيءٍ يصنعونه في أول النهار بعد صلاتهم الفجر، أن يَخْرُجَ من ينادي: «الاستعانة باللّه والتوكلُ عليه!» هذه عندهم للركوب؛ فحينئذٍ يركب الناس،

ويخرج الخليفة من خيمته راكباً وأعيانُ القرابة وأشياخُ المُوحِّدين بينَ يديه مُشاةً خطواتٍ كبيرة؛ ثم يأمرهم بالركوب؛ فإذا ركبوا وقف وبسط يديه ودعا، فإذا فرغ الدعاء افتتح القراءةَ طلبةُ المُوحِّدين خَلْفَه؛ فيقرأون حِزْباً من القرآن في نهاية الترتيل، وهم سائرون سيراً رفيقاً، ثم شيئاً من الحديث. ثم يقرأون تواليفَ ابن تُومَرْت في العقائد بلسانهم وباللسانِ العربي؛ فإذا فرغوا وقف الخليفة أيضاً وبسط يديه ودعا. وإذا كان وقتُ النزول أيضاً نزلوا مشاةً بين يديه إلى خيمته؛ فإذا بلغها بسط يديه ودعا؛ فلا يزال هذا دأبَهم في جميع سَفرِهم كلِّه.

صفة أحوالهم في إقامة الجمعة

فأما صفة أحوالهم وخطبتهم في جُمَعِهم، فيخرج الخليفة منهم عند زوال الشمس من خوخةٍ[١] في القِبْلَة، ويخرج معه خواصُّ حَشَمِه[٢]، ويركع ركعتين ثم يجلس؛ فيقرأ قارىءٌ قَدْرَ عشرِ آيات، حَسَنَ القراءة حَسَنَ الصوت. ثم يقوم رئيسُ المؤذِّنين ومعه العَصَا التي يتوكأ عليها الخطيب فيقول: «قد فاء الفيءُ يا سيدَنا أميرَ المؤمنين، والحمد للّه رب العالمين!» يريد بهذا القول استئذانه في صعود الخطيب المنبر، فيقوم الخطيب ويصعد المنبر، ثم يناوله ذلك الرجل العصا. فإذا جلس الخطيبُ فوق المنبر أَذَّن ثلاثةٌ من المؤذِّنين مفترقين، أصواتُهم في نهاية الحسن، قد انْتُخِبُوا لذلك من البلاد؛ ثم يقوم الخطيب فيخطب، فأول شيء يقول:

«الحمد للّه، نحمده ونستعينه، ونعوذ باللّه من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يَهْدِ اللّهُ فلا مُضِلَّ له، ومن يُضْلِلْ فلا هاديَ له؛ ونشهد أن لا إلٰه إلا اللّه وحده لا شريك له، ونشهد أن مُحمَّدا عبده ورسوله؛ أرسله بالحق بشيراً ونذيراً بين يَدَي الساعة؛ من يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فقد رَشَد، ومن يَعْصِ اللّه وَرَسُولَهُ لا يَضُرّ إلّا نفسه ولا يضرّ اللّهَ شيئاً؛ أسأل اللّه ربّنا أن يجعلنا ممن يطيعه ويطيع رسوله، ويتبعُ رِضْوانه ويجتنبُ سَخطَه؛ فإنما نحن به وله...».

ثم يتعوّذ ويقرأ سورة قاف من أولها إلى آخرها، ثم يجلس؛ فإذا قام إلى الخطبة الثانية قال:

«الحمد للّه، نحمده ونستعينه ونتوكل عليه، ونبرأ من الحَوْل والقوة إليه، ونشهد أن لا إلٰه إلا اللّه وحده لا شريك له، ونشهد أن مُحمَّداً عبده ورسوله، صلَّى اللّه عليه وعلى آله وأصحابه الذين اتبعوه ففاتوا الأنام جِدًّا وعَزْماً، وأنفَدُوا وُسْعَهم في

---

(١) الخَوْخَةُ: كُوَّةٌ في البيت تؤدي إليه الضوء. أو باب صغير وسط بابٍ كبير.
(٢) حَشَمُ الرجل: خاصَّتُه من أهل أو خدم، أو جيرة.

نصره والصبرِ على ما أصابهم فيه وفاءً وصِدقاً وحَزماً، وعلى الإمام المعصوم المهديّ المعلوم أبي عبد اللّه مُحمَّد بن عبد اللّه العربي القرشي الهاشمي الحسني الفاطمي المحمدي، الذي أُيِّد بالعصمة فكان أمره حتماً، واكْتُنِفَ بالنور اللائح[١] والعدل الواضح الذي يملأ البسيطة[٢] حتى لا يَدَع فيها ظلاماً ولا ظُلماً؛ وعلى وارث شَرَفِه الصميم قَسيمِه ـ رضي اللّه عنه ـ في النسب الكريم، المُجْتَبى لوِرَاثة مَقامِه العليّ، الخليفة الإمام أبي مُحمَّدٍ عبدِ المُؤمِن بن عليّ؛ وعلى أبي يَعْقُوب وليِّ ذلك الاستخلاص وَمُسْتَوْجب شرفِ الاجتباء والاختصاص. اللهم وأَرْضَ عن المجاهِد في سبيلك، المُحْيي سُنَة رسولك؛ وعلى الخليفة الإمام أبي عبد اللّه ابنِ الخلفاء الراشدين؛ اللهم وانْصُرْ وليَّ عهدهم، الطالعَ في أفق سعدهم، القائمَ بالأمر من بَعدهم، الخليفةَ الإمامَ أمير المؤمنين أبا يَعْقُوب ابنَ أمير المؤمنين، ابن أمير المؤمنين، ابن أمير المؤمنين، ابن أمير المؤمنين؛ اللهم كما شَدَدْتَ به عُرَا الإسلام، وجمعتَ على طاعته قلوبَ الأنام، ونصرتَ به دينَ نبيك مُحمَّد عليه الصلاة والسلام؛ فاقضِ له بالنصر المقرون بالكمال والتمام؛ اللهم كما اجتبيتَه[٣] من الخلفاء الراشدين، والأئمةِ المهديِّين، فاجعله من المقتفين لآثارهم[٤]، المهتدين بمَنَارِهم، المُقتبِسين من أنوارهم. اللهم وأَيِّدِ الطائفةَ المنصورة والجماعة، إخوانَ نبيِّك، وطائفةَ مَهدِيِّك، الذين أخبرتَ عنهم في صريح وَحْيِك أنهم لا يزالون ظاهرين على أمرك إلى قيام الساعة؛ وأمِدَّهم وكافَّةَ من انتظم في سلكهم من أنصار الدِّين، وحِزْبِك الموحِّدين، بموادِّ النصر والتمكين، والفتح المبين؛ واجعل لهم من عَضدك وتأييدك أعزَّ ظهير، وأكرم نصير...».

ثم يدعو وينزل فيصلي؛ فإذا فرغ دعا الخليفةُ بنفسه وأمَّن الوزيرُ على ما تقدم؛ فهذه كليات سِيرتهم مجملةً على ما يقتضيه شرطُ التقريب. وفي أثناء ذلك تفاصيلُ يطول شرحُها وليس بالناظر في هذا الكتاب إليها كبيرُ حاجة؛ إذ قد بُيِّن له ما يُسْتَدلُّ على ما لم يُرْسَم في هذه الأوراق بما رُسِم.

---

(١) اكْتُنِفَ: أُحِيط. اللائح: البادي، الظاهر، المضيء، المُتلألىء.
(٢) البسيطة: الأرض.
(٣) اجتباه: اختاره واصطفاه
(٤) اقتفى الأثر: تبعه.

ذكر أقاليم المغرب والأندلس

وهذا ـ أصلحك اللّه ـ مُنتهى ما بلغ من أخبار المغرب وسِيَر ملوكه ووزرائهم وكتّابهم وما تعلق بذلك حسب الاستطاعة؛ وقد تقدم بسطُ العذر عما يقع من التقصير أو الخلل، مع أن أصغر خدم مولانا[١] لم تجر عادته بالتصنيف ولا حدَّث قَطُّ نَفْسَه به؛ وإنما بعَثَه عليه الهمة الفخرية ـ أعلى اللّه رُتبها ـ فما كان من إحسانٍ فإلى تلك الهمة العلية نِسْبَتُه وعنها مُنبَعَثُه، وما كان من غير ذلك فإغضاؤها يستُره ومُسامحتُها تَغْمُره.

وقد رَسَم مولانا ـ حرس اللّه مَجْدَه ـ أن يُضاف إلى هذا التصنيف ذكرُ أقاليم المغرب وتعيينُ مُدنه وتحديدُ ما بينها من المراحل عدداً؛ من لَدُنْ بَرْقة إلى سُوس الأقصى؛ وذِكْر جزيرة الأندلس وما يملكه المسلمون من مدنها على ما تقدم؛ فلم يَرَ المملوكُ بُدًّا من الجَرْي على العادة في سرعة الإجابة وامتثالِ مرسومِ الخدمة؛ لوجوب ذلك عليه شرعاً وعُرفاً[٢]؛ هذا مع أن هذا الباب خارجٌ عن مقصود هذا التصنيف، وداخلٌ في باب المسالك والممالك. وقد وضع الناسُ فيه كتباً كثيرةً؛ ككتاب أبي عُبيد البكري الأندلسي[٣]، وكتاب ابن فياض الأندلسي أيضاً، وكتاب ابن خُرْدَاذْبة الفارسي[٤]، وكتاب الفرغاني[٥]؛ وغيرها من الكتب المفردة لهذا الشأن المستوعِبَةِ له. ونحن إن شاء اللّه ذاكرون من ذلك ـ موافَقَةً لرأي مولانا العالي ـ ما يقف به على حدود البلاد ويصوِّر له صورتَها على التقريب من غير تطويل، جارِين في ذلك على ما

---

(١) يريد بأصغر الخدم هنا: نفسه. و «مولانا» المقصود بالخطاب: هو السيد الذي سأله تأليف هذا الكتاب.

(٢) شَرْعاً: أي وفقاً للشريعة. وَعُرْفاً: أي وفقاً لِلعُرْف: ما يتعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم.

(٣) هو أبو عبيد، عبد اللّه بن عبد العزيز بن محمد البكري الأندلسي: مؤرخٌ، جغرافيّ، ثقةٌ، أديب. توفي سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م. (الصلة، ابن بشكوال: ٢٤٠).

(٤) هو أبو القاسم، عبيد اللّه بن أحمد بن خرداذبة: مؤرخٌ، جغرافيّ، فارسي الأصل، من أهل بغداد. توفي نحو سنة ٢٠٥هـ/ نحو سنة ٨٩٣م. (الأعلام، الزركلي: ٤/ ١٩٠).

(٥) هو أبو منصور، أحمد بن عبد اللّه بن أحمد الفرغاني: مؤرخٌ، من سكان مصر، وبها توفي سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م. (الأعلام، الزركلي: ١/ ١٥٦).

سلف من عادتنا في سائر الكتاب؛ فنقول وباللَّه التوفيق ومنه الإعانة:

قد تقرر واشتهر أن أولَ حدِّ البلاد المصرية مما يلي الشام، العريش؛ وآخره مما يلي المغرب، مدينة أنطابُلس المعروفة بِـ«بَرْقَة»؛ هذا عَرض الديار المصرية. وحدُّها في الطول من ثغر أسوان إلى مدينة رَشِيد الكائنة على ساحل البحر الرومي؛ هكذا ذكر أصحاب المسالك والممالك والمعتنون بهذا الشأن.

[أولاً: المدن العامرة على الساحل]

وأول حدِّ بلاد إفريقية والمغرب مدينة أنطابلس المذكورة، المَدْعُوّة بِـ«بَرْقَة». بناها الروم فكانت حاضرةً لتلك البلاد ومجتمَعاً لأهلها. افتتحها المسلمون في أيام أمير المؤمنين عُمَر بن الخطاب رضي اللَّه عنه؛ ومنها كان ابتداء فتح المغرب؛ ومن هذه المدينة ـ أعني أنطابلس ـ إلى مدينة طَرابُلُس المغرب، قريبٌ من خمسٍ وعشرين مرحلة.

[اتصال العمران بين الإسكندرية والقَيْرَوان]

وما بين الإسكندرية وطرابُلس المغرب، خمس وأربعون مرحلة؛ وكانت العمارة متصلةً من مدينة الإسكندرية إلى مدينة القَيْرَوان، تمشي فيها القوافل ليلاً ونهاراً. وكان فيما بين الإسكندرية وطرابلس المغرب حصونٌ متقاربةٌ جدًّا، فإذا ظهر في البحر عدوٌّ نوَّر كلُّ حصنٍ للحصن الذي يليه، واتصل التنوير؛ فينتهي خبرُ العدوّ من طَرابُلس إلى الإسكندرية، أو من الإسكندرية إلى طَرابُلس، في ثلاث ساعاتٍ أو أربع ساعاتٍ من الليل؛ فيأخذ الناس أهبتهم ويحذرون عدوَّهم؛ لم يزل هذا معروفاً من أمر هذه البلاد إلى أن خرّبت الأعرابُ تلك الحصون ونَفَتْ عنها أهلَها أيامَ خَلَّى بنو عُبيد بينهم وبين الطريق إلى المغرب ـ وذلك في حدود [سنة] ٤٤٠ ـ حين تغيَّر ما بينهم وبين المُعزّ بن باديس الصِّنهَاجي، وقَطع الدعاءَ لهم على المنابر، ودَعَا لبني العباس؛ فاستولى الخراب عليها إلى وقتنا هذا. واستوطنتها الأعراب من سُليم بن مَنْصُور بن عِكْرِمة بن خَصَفة بن قَيْس عَيْلَان بن مُضَر بن نِزَار بن مَعدّ بن عَدْنَان وغيرهم، فهم اليوم بها، وآثار المدن والحصون باقية إلى اليوم.

* * *

ومدينة أنطابُلس هذه خراب، لم يبقَ منها إلا آثارها؛ وفيما بين بَرْقَة وطَرابُلس حِصنٌ يُسمَّى «طُلْمَيْثَة»، بالقرب منه مَعْدِنُ كبريت. فأما مدينة طرابلس فلم تزل معمورةً إلى هذا الوقت، وهي أول مملكة المصامدة، وقد استولى عليها في مدة

مُلكهم وفي ملك أبي يَعْقُوب منهم، المملوك قَراقُش المتقدمُ ذِكره في ترجمة أبي يُوسُف، ثم أخرجه منها المصامدة، واستولى عليها أيضاً يَحْيَى بن غَانِية، وعلى كثيرٍ من إفريقية حسبما تقدم تلخيصه، ثم أخرجه عنها أيضاً المصامدة، فهي في ملكهم إلى وقتنا هذا، وهو سنة ٦٢١.

[بلاد إفريقية الساحلية]

فحدّ بلاد إفريقية مما يلي المشرق، مدينة أنطابلس المذكورة، وحدُّها مما يلي المغرب، المدينة المعروفة بـ«قسطنطينة الهواء»، سُمِّيتْ بذلك لإفراط عُلُوِّها وشدة مَنَعتِها؛ ومسافة ما بين أنطابلس وقسطنطينة المغرب قريبةٌ من خمسٍ وخمسين مرحلة، فهذا حدّ إفريقية طولاً؛ وعَرْضُها يختلف بحسب مُزاحمة الصحراءِ العمارةَ ومباعَدَتِها؛ وسُمِّيت إفريقية بذلك لنزول إفريقش من ولد حام بن نوح بها. وإفريقش هذا هو أبو البربر، فالبربر كلُّهم من ولد حام بن نوح، خلا صَنْهَاجَة، فإنهم يرجعون إلى حِمْيَر؛ هذا كلُّه قول أبي جَعْفَر مُحمَّد بن جَرِير الطَّبَري[1] في تاريخه، من لَدُن ذِكر إفريقش إلى ذكر صَنْهَاجَة.

فأول مدن إفريقية المعمورة، طَرابُلُس المغرب المتقدّم ذكرها، ومنها إلى مدينة تُسَمَّى «قَابِس»، عَشْرُ مراحل. وقابسُ هذه على ساحل البحر الروميّ؛ وكذلك طَرابُلس. وتنصبُّ إلى قَابِس هذه أنهارٌ من بعض تلك الجبال التي تليها، فهي بذلك أخصب بلاد إفريقية وأوسعُها فواكِهَ وأعناباً. ومن قابس هذه إلى مدينة صغيرةٍ على الساحل أيضاً تُسَمَّى «سَفَاقُس»؛ أربع مراحل؛ ومن سَفَاقُس إلى مَهْدِيَّة بني عُبيد، ثلاث مراحل. وقد تقدّمت صفة المَهْدِيَّة في أخبار أبي مُحمَّد عبد المُؤمِن بن علي. وبظاهرِ المَهْدِيَّة المذكورة وقريبٌ منها جدًّا، مدينة تدعى «زُوَيْلَة»؛ بناها بنو عُبَيْد حين بنوا المَهْدِيَّة؛ فاختصوا المهديةَ لأنفسهم وَحَشمِهم وأعيانِ جُندهم ووجوهِ قُوّادهم؛ وأسكنوا زُوَيْلَةَ هذه سائرَ الناس من الرعية والسُّودان وأراذلِ كتامة وغيرهِم من أتباعهم. ولما ارتحل المعزُّ إلى مصر بعد أن افتتحها على يَدَيْ خادمِه جَوْهَر[2]؛ ارتحلت معه طائفة كبيرة من أهل زُوَيْلَة هذه؛ فإليهم يُنْسَبُ الباب والحارة التي

---

(١) هو أبو جعفر، محمد بن جرير بن يزيد الطبري: إمامٌ، مؤرخٌ، مُفسِّرٌ. أصله من طبرستان، واستوطن بغداد، وتوفي فيها سنة ٣١٠هـ/٩٢٣م. (تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي: ٢/ ١٦٢).

(٢) هو جوهر بن عبد اللّه الرومي: قائد اشتهر ببنائه لمدينة القاهرة، والجامع الأزهر. توفي في القاهرة سنة ٣٨١هـ/ ٩٩٢م. (الأعلام، الزركلي: ٢/ ١٤٨).

بالقاهرة اليوم(١). ومن مَهْدِيَّة بني عُبَيْد إلى مدينة تُسَمَّى «سُوسَة» ـ وإليها تُنْسَب الثيابُ السُّوسِيَّة ـ مرحلتان؛ ومن سُوسَة إلى مدينة تُونُس، ثلاث مراحل. ولم تكن تُونُس هذه في قِدَم الدهر على أيام الإفرنج مدينة، وإنما بُنيت في أول الإسلام، بناها عُقْبَة بن نَافِع الفِهْري لمصلحةٍ رآها؛ وإنما كانت المدينة الكبرى مدينة على الساحل هناك تُسَمَّى قَرْطاجَة، بينها وبين تُونُس نحوٌ من أربع فراسخ.

[شأن مدينة قَرْطَاجَة في القديم]

وهذه المدينة ـ أعني قَرْطاجَة ـ هي كانت حاضرةَ إفريقية أيام الروم، وهي مدينة عظيمة، ظهر فيها من قوّتهم وشدّةِ طاعة رعيّتهم لهم وَفَرْطِ جَبَرُوتهم ما يَعجَبُ منه مَن تأمَّله، ويَعتبر فيه مَنْ وَقَف عليه؛ وذلك أنهم جَلَبوا إليها المياهَ من بُعْدٍ شديد، وتحيَّلوا على ذلك بغرائبَ من الحِيل يَعْجز عن أيسرها جميعُ من في هذا العصر. وكانوا يُضاهون بها مدينة القسطنطينية العظمى، المنسوبةَ إلى قسطنطين بن هَيلان ملكِ الإفرنج. ثم لما افتتح المسلمون إفريقية في أيام عُثْمَان بن عفَّان رضي اللّه عنه، خرَّبوا هذه المدينة المذكورة(٢)، واتَّخذوا مدينة القَيْرَوانِ دارَ مُلكهم ومَقَرَّ وُلاتهم ومُجتمعَ جُندهم ومركزَ جُيوشهم. وأسَّسوا على ساحل البحر مدينة تُونُس المذكورة. وكان هناك قبل ذلك دَيْرٌ معظَّم عند الروم يزورونه من أقاصي بلادهم، فهدمه المسلمون وبنوه مسجداً، وسمَّوا المدينة تُونُس، باسم الراهب الذي كان في ذلك الدَّيْر؛ فما زالت تُونُسُ معمورةً إلى وقتنا هذا.

ولما خَرِبتْ مدينةُ القَيْرَوان إلى ما سيأتي الإيماء إليه، صارت مدينة تُونُس حاضرةَ إفريقية ومَقَرَّ وُلاتها وموضعَ مخاطبةِ أولي الأمر منها؛ وكلّ ما بِتُونُس من جيِّد الرخام وخالصِ المَرْمَر فمن مدينة قَرْطَاجَة المذكورة.

* * *

ومن مدينة تُونُس هذه إلى مدينةٍ صغيرةٍ على ساحل البحر تُدْعَى «بُونة»(٣) ـ ومعنى هذه اللفظة بلسان الإفرنج: جيدة ـ ستُّ مراحل. وفيما بين تُونُس وبُونة

---

(١) لم يزل الباب والحارة موجودين حتى اليوم، ويُعرف هذا الباب عند عامة أهل مصر باسم «بوابة المتولي».

(٢) يقال: إن الرومان هم الذين خربوا هذه المدينة قبل الفتح الإسلامي، لإنهاء النزاع الطويل بين روما وقرطاجة.

(٣) هي المدينة المعروفة اليوم باسم «عنابة».

بُليدةٌ صغيرة تُسمَّى «بَنِي زَرْت»[1]، بينها وبين تُونُس يومٌ تامّ في البَرّ للمُجِدّ. [ولبني زَرْتَ، هذه شأنٌ غريب، وذلك أنه يخرج في بحرها كلما طلع هلال، نوعٌ من السمك لم يكن في الشهر الذي قبل ذلك؛ هذا متواتر عند أهلها لا يختلف فيه منهم أحد. والمتفطِّنون من الصيادين يعرفون الشهور باختلاف السمك عليهم وإن لم يروا الأهلّة. وهذا منسوبٌ إلى الطِّلسمات، اعتنى به من عُنِي بخدمة القمر]. ومن مدينة بونة إلى مدينة قسطنطينة التي هي أحد حَدَّيْ إفريقية، خمس مراحل؛ وقسطنطينة بينها وبين البحر مرحلتان أو أكثر من ذلك قليلاً.

هذا ما على ساحل البحر أو قريبٌ منه من مدن إفريقية. وبها مما يلي الصحراء مُدنٌ أنا ذاكرها إن شاء الله تعالى إذا فرغتُ مما على ساحل البحر من بلاد المغرب.

[بلاد المغرب الساحلية]

ومن قسطنطينة المغرب إلى بَجَاية، خمسُ مراحل على الرُّفق؛ وبَجَايةُ هذه هي دارُ مُلك بني حمّاد الصَّنْهَاجيين الذين تنتسب قلعة بني حمَّاد إليهم. وكانوا يملكون من قسطنطينة المغرب إلى موضع يُعرف بـ«سِيوسِيرات»، وقد تقدم هذا الموضع، بينه وبين بَجَاية قريبٌ من تسع مراحل.

لم يزل بنو حمَّاد يملكون بَجَايةَ وجهاتها إلى أن أخرجهم عنها في ولاية يَحْيَى منهم، أبو مُحمَّد عبد المُؤمِن بن علي حسبما سبق.

ومن مدينة بَجَاية إلى مدينة صغيرة تُدْعَى الجزائر ـ وتُنسب إلى قوم يقال لهم بنو مَزْغَنَة ـ قريبٌ من أربع مراحل. وهذه المدينة ـ المعروفة بالجزائر ـ على ساحل البحر الرومي؛ وكذلك مدينة بَجَاية. من الجزائر هذه إلى مدينة صغيرة تُسَمَّى «تَنَس»؛ أربع مراحل؛ ومن مدينة تَنَس إلى مدينة وَهْرَان، سبع مراحل؛ ومن مدينة وَهْرَان إلى مدينة سَبْتَة على التقريب، ثماني عشرة مرحلة.

[ضيق البحر بين المغرب والأندلس]

وبساحل سَبْتَة هذه يلتقي البحران؛ بحر مانطس الذي هو بحر الروم، وبحر أقيانُس الذي هو البحر الأعظم؛ وهذا أولُ الخليج المعروف بالزقاق.

وسعة البحر فيما بين سَبْتَة والأندلس، ثمانية عشر ميلاً؛ ثم لا يزال يضيق إلى أن ينتهي ذلك من عُدْوَة البربر إلى موضع يُدْعَى «قصر مصمودة»، بينه وبين سَبْتَة

(١) أي: بنزرت.

نصفُ يوم. ومن جزيرة الأندلس إلى موضع يُدْعَى «جزيرة طريف»، مقابلاً لقصر مصمودة المذكور؛ فأضيَقُ ما يكون البحر هنالك، وسَعتُه فيما بين هذين الموضعين اثنا عشر ميلاً؛ ترى رمال كلِّ واحدٍ من الشطّين من الآخر في كل وقتٍ من أوقات النهار. وقد ذكر المؤرخون أن الروم بَنَتْ في قديم الدهر قنطرةً على هذا الخليج، ثم طغت المياهُ فغطّتها؛ فيذكر قومٌ من أهل جزيرة طريف أنهم يرونها أوانَ سكون البحر وهدوئه حين تصفو المياه.

* * *

ومن مدينة سَبْتَة إلى مدينة طَنْجَة يومٌ تامٌ في البَرّ. وطَنْجَة هذه آخر الخليج الذي به يلتقي البحران، وهي على ساحل البحر الأعظم الذي لا عمارة وراءه، وهو المعروف عندنا بالبحر المحيط، المتصل ببحر الهند والحبشة. ـ وطَنْجَة هذه آخرُ بلد بالمغرب المحقق؛ وما بعدها من البلاد فإنما هو في الجنوب، كمدينة سَلَا، ومدينة مَرَّاكُش ـ ثم لا يزال[1] دائراً في الجنوب إلى أن يأتي بلاد الحبشة والهند.

فأول بلاد المغرب مما على ساحل البحر الرومي، مدينة أنطابلس المعروفة بـ«بَرْقَة»؛ وآخرها مما على ساحل البحر الأعظم، مدينة طَنْجَة؛ ومسافة ما بين ذلك على التقريب، سِتٌّ وتسعون مرحلة؛ فهذا ذِكْر المدن التي على ساحل البحر من بلاد المغرب.

[ثانياً: البلاد التي ليست على ساحل]

ثم نعود إلى ذكر ما ليس على الساحل من مدن إفريقية والمغرب، فنقول:

[بلاد إفريقية]

من مدينة قَابِس المتقدم ذكرها إلى مدينة تُسَمَّى «قَفْصَة»، ثلاث مراحل؛ ومن مدينة قَفْصَة إلى مدينة تَوْزَر، أربع مراحل.

وتَوْزَرُ هذه هي حاضرةُ بلاد الجريدِ وأُم قُراها. وبلاد الجريد التي يقع عليها هذا الاسم تنقسم قسمين: قسمٌ يُسَمَّى «قَسْطِيلِيَّة»، وهذا الاسم يقع على تَوْزَر وأعمالها؛ وقسمٌ يُسَمَّى «الزاب»، وهذا الاسم أيضاً يقع على مدينة بِسْكَرة وأعمالها.

ومن مدينة تَوْزَر إلى مدينة بِسْكَرة، أربع مراحل؛ وبالقرب من مدينة بِسْكَرَة مدينة صغيرة تُسَمَّى «تَقَاوس»، بينها وبينها مرحلتان؛ فهذه المدن التي تلي الصحراءَ من بلاد إفريقية، ويتخللها قُرًى كثيرة لم نذكرها لِصِغَرها.

---

(١) يعني: المحيط.

[شأن القَيْرَوان في قديم الزمان]

وفيما بين مدينة تُونُس وتَوْزَر، مدينةُ القَيْرَوان المشهورة؛ منها إلى الساحل ثلاث مراحل؛ وهي كانت ـ أعني القَيْرَوَان ـ دار مُلك المسلمين بإفريقية منذ الفتح؛ لم يزل الخلفاء من بني أمية وبني العباس يُوَلُّون عليها الأمراء من قِبلهم، إلى أن اضطرب أمر بني العباس واستبدّ الأغالبة بِمُلك إفريقية بعض الاستبداد وهم بنو أَغْلَبَ بن مُحمَّد بن إبراهيم بن أغلب التميميون؛ فاتخذوا القَيْرَوَان دارَ مُلكهم؛ فلم يزالوا بها إلى أن أخرجهم عنها بنو عُبَيْد وملكوها أيام كونهم بإفريقية؛ ثم ولَّوا عليها حين ارتحلوا إلى مصر زِيري بن مَنَاد الصَّنْهَاجي[1]، فلم يزل زِيرِي وبنوه ملوكاً عليها، إلى أن كان آخرهم الذي أخرجه العرب عنها، تميم بن المعزّ بن باديس بن مَنْصُور بن بُلُجِّين بن زيري بن مَنَاد المذكور؛ فانتهبتها الأعراب وخرّبتها، فهي كذلك خرابٌ إلى اليوم، فيها عمارة قليلة يسكنها الفلاحون وأرباب البادية.

وكانت القَيْرَوَان هذه في قديم الزمان ـ منذ الفتح إلى أن خرّبتها الأعراب ـ دارَ العلم بالمغرب؛ إليها يُنسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم. وقد ألّف الناس في أخبار القَيْرَوان ومناقبه وذِكْر علمائه ومَنْ كان به من الزُّهَّاد والصالحين والفضلاء المُتبتلين، كتباً مشهورة؛ ككتاب أبي مُحمَّد بن عَفِيف، وكتاب ابن زِيَادة اللّه الطُّبْني[2]، وغيرهما من الكتب. فلما استولى عليها الخراب ـ كما ذكرنا ـ تفرّق أهلُها في كل وجه؛ فمنهم من قصد بلاد مصر، ومنهم من قصد صِقِلِّيَة والأندلس. وقصدت منهم طائفة عظيمة أقصى المغرب، فنزلوا مدينة فاس، فَعَقِبُهُمْ بها إلى اليوم.

فهذه نبذة من أخبار إفريقية، وفيها مدن كثيرة قد خَرِبتْ لا أعرف أسماءها؛ لقلة معرفتي بتفاصيل أحوال إفريقية؛ لأني لم أدخل منها إلّا مدينة تُونُس خاصة؛ أتيتها في البحر من الأندلس، وذلك سنة ٦١٤؛ وإنما نقلت ما نقلتُه من أخبارها حسب المُستفيض من السماع.

---

(١) هو أول ملوك الصنهاجيين بالمغرب الأوسط. عُرف بالشجاعة وحسن السيرة. توفي سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧١م. (الأعلام، الزركلي: ٣/ ٦٣).

(٢) هو أبو مروان، عبد الملك بن زيادة اللّه التميمي الحمّاني الطبني: أديب لغوي، فقيه، من بيت علم ونباهة وأدب وخير وصلاح. توفي سنة ٤٥٧هـ/ ١٠٦٥م. (الصلة، ابن بشكوال: ٢٩٤).

وفي خراب القَيْرَوَان على ما تقدّم يقول أبو عبد اللّه مُحمَّد بن أبي سَعِيد[١] بن شَرَف الجذامي[٢]: [من الطويل]

تُرَى سَيِّئاتُ القَيْرَوَانِ تَعاظَمَتْ فَجَلَّتْ عن الغُفْرانِ واللّهُ غافِرُ![٣]

تُراها أُصِيبتْ بالكبائرِ وَحْدَها ألم تَكُ قِدْماً في البلادِ الكبائرُ؟[٤]

[بلاد المغرب]

. . . فقسطنطينة آخرُ بلاد إفريقية، ما يلي البحرَ منها وما يلي الصحراء. وما بعد قسطنطينة فهو من المغرب غير إفريقية؛ فأوّل ذلك بُليدة صغيرة قبليَّ بَجَاية في البرّ، تُسَمّى «مِيلة»، بينها وبين بَجَاية ثلاث مراحل، ومن بَجَاية إلى قلعة بني حمّاد أربع مراحل؛ وهي أيضاً ـ أعني القلعة ـ قبليّ بَجَاية.

[طريق السُّفَّار من بَجَاية إلى مَرَّاكُش]

وها أنا أذكر طريق السُّفَّار من بَجَاية إلى مَرَّاكُش؛ فمن بَجَاية إلى مدينة تِلِمْسان عشرون مرحلة، وفيما بين ذلك بُلَيداتٌ صغار كمليانة، ومازونة، وَوَهْرَان ـ وقد ذكرناها في بلاد الساحل ـ وبين مدينة تِلِمْسَان وبين البحر أربعون ميلاً؛ وذلك يومٌ للمُجِدّ؛ ومن مدينة تِلِمْسَان إلى مدينة فاس عشر مراحل، سبعٌ منها إلى المدينة التي تُدْعَى رِباط تازا، وثلاث إلى فاس؛ وقبليُّ مدينة تِلِمْسان في الصحراء، مدينة سِجِلْمَاسَة، منها إلى تِلِمْسَان عشرُ مراحل؛ وهذه المدينة ـ أعني سِجِلْمَاسَة ـ متوسطة في الصحراء، مسافة ما بينها وبين تِلِمْسَان وفاس وَمَرَّاكُش، على حَدٍّ سواء؛ فمن حيث قَصَدْتَ إليها من أحد هذه البلاد، كان ذلك مسافة عشر مراحل.

[التعريف بمدينة فاس]

ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا، وموضعُ العلم منه؛ اجتمع فيها علمُ القَيْرَوَان وعلمُ قُرْطُبَة؛ إذ كانت قُرْطُبَة حاضرةَ الأندلس، كما كانت القَيْرَوَان حاضرة المغرب. فلما اضطرب أمر القَيْرَوَان ـ كما ذكرنا ـ بِعَيْثِ العرب فيها،

(١) في مصادر أخرى: «محمد بن سعيد».
(٢) هو كاتب، شاعر، مترسل. ولد في القيروان، وتوفي بإشبيلية سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م. (الأعلام، الزركلي: ٦/١٣٨).
(٣) جَلَّتْ: عَظُمَتْ.
(٤) الكبائر: الذنوب أو المعاصي الكبيرة، كالزنا، والقتل، وشرب الخمر، وغيرها.

واضطرب أمرُ قُرْطُبَة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عَامِر مُحمَّد بن أبي عَامِر وابنِه، رحل مِن هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة؛ فِراراً من الفتنة؛ فنزل أكثرهم مدينة فاس؛ فهي اليوم على غاية الحضارة، وأهلها في غاية الكَيْسِ ونهاية الظَّرْف، ولغتهم أفصح اللغات في ذلك الإقليم. وما زلت أسمع المشايخ يَدْعونها بغدادَ المغرب. وبحقٍّ ما قالوا ذلك؛ فإنه ليس بالمغرب شيء من أنواع الظَّرْف واللباقة في كلّ معنًى إلّا وهو منسوب إليها وموجود فيها ومأخوذ منها؛ لا يدفع هذا القول أحدٌ من أهل المغرب. ولم يتخذ المصامدةُ مدينة مَرَّاكُش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خيرٌ من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكنْ لقرب مَرَّاكُش من جبال المصامدة وصحراءِ لَمْتُونَة؛ فلهذا السبب كانت مَرَّاكُش كرسيَّ المملكة؛ وإلا فمدينة فاس أحقُّ بذلك منها. وما أظنّ في الدنيا مدينةً كمدينة فاس، أكثرَ مرافق، وأوسَع مَعايِش، وأخصبَ جِهاتٍ؛ وذلك أنها مدينةٌ يَحُفُّها الماء والشجر من جميع جهاتها، وتتخلل الأنهارُ أكثرَ دُورِها زائداً على نحو من أربعين عيناً ينغلق عليها أبوابُها ويحيطُ بها سورها. وفي داخلها وتحت سورها نحوٌ من ثلاثمائة طاحونة تطحن بالماء. ولا أعلم بالمغرب مدينةً لا تحتاج إلى شيء يُجْلَبُ إليها من غيرها - إلّا ما كان من العطر الهندي - سوى مدينة فاس هذه؛ فإنها لا تحتاج إلى مدينة في شيء مما تدعو إليه الضرورة، بل هي تُوسِع البلادَ مرافق وتملؤها خيراً.

* * *

ومن مدينة فاس إلى مدينة مِكْنَاسةِ الزيتون، يومٌ تامّ للمجدّ؛ ومن مِكْنَاسة الزيتون إلى مدينة سَلَا، أربع مراحل.

ومدينة سَلَا هذه على ساحل البحر الأعظم المُسمّى «أقيانس»، وهي في الجنوب كما ذكرنا، ينصب إليها نهر يُسمَّى «وادي الرمان»، يصب في البحر الأعظم المذكور.

وقد بنى المصامدة على ساحل هذا البحر مما يلي مَرَّاكُش مدينةً عظيمةً، سَمَّوها «رِبَاط الفَتْح»، كان الذي اختطّها أبو يَعْقُوب يُوسُف بن عبد المُؤْمِن، وأتمَّها ابنُه يَعْقُوب، وبنى فيها مسجداً عظيماً قد تقدّم ذكره. وقيل: إنهم إنما بَنوْها بأمر ابن تُومَرْت إياهم بذلك؛ وذلك أنه قال لهم: «تبنون مدينةً عظيمةً على ساحل هذا البحر - يعني البحر الأعظم - ثم يضطرب أمركم وتنتقض عليكم البلاد حتى ما يبقى بأيديكم إلا هذه المدينة؛ ثم يفتح الله عليكم ويجمع كلمتكم ويعود أمركم كما كان!» فلهذا سموها «رِبَاط الفَتْح». وبين هذه المدينة وبين سَلَا العتيقة، النهرُ المذكور؛ وقد بنوا عليه قَنْطَرة من ألواح وحجارة يعبر الناس عليها حين يَجْزر النهر[1]، فإذا مَدَّ عَبَروا في القوارب.

---

(١) جَزَرَ البحر أو النهر: انحسر ماؤه.

وبين مدينة سَلَا هذه ومدينة مَرَّاكُش كُرسيِّ المملكة، تسعُ مراحل؛ فَمرَّاكُش آخر المدن بالمغرب؛ وكان الذي اختطها ملك لَمْتُونة تَاشُفِينُ بن عليّ؛ ثم زاد فيها بعده ابنه يُوسُف بن تَاشُفِين؛ ثم زاد فيها بعدهما عليُّ بن يُوسُف بن تَاشُفِين؛ ثم ملكها المصامدة فزادوا فيها حتى جاءت في نهاية الكبر؛ فهي اليوم طولاً وعرضاً قَدْرُ أربع فراسخ ـ هذا إذا ضُمَّت إليها قصورُ بني عبد المُؤمِن ـ وأجْرَى المصامدةُ فيها مياهاً كثيرةً لم تكن فيها قبل ذلك، وبنوا فيها قصوراً لم يكن مثلُها لملكٍ ممن تقدمهم من الملوك؛ فصارت بذلك في نهاية الحسن وغاية الكمال، كما قال الأول: [من المديد]

لَيْسَ فيها ما يُقَالُ لَهُ   كَمُلَتْ لو أنه كَمُلَا

[ترجمة المؤلف بقلمه]

وبهذه المدينة ـ أعني مَرَّاكُش ـ مسقط رأسي، وهي أولُ أرضٍ مَسَّ جلدي ترابها؛ وكان مولدي بها لسبعٍ خلون من ربيع الآخر سنة ٥٨١، في أول أيام أبي يُوسُف يَعْقُوب بن يُوسُف بن عبد المُؤمِن بن علي.

ثم فَصَلْتُ عنها وأنا ابن تسعة أعوام إلى مدينة فاس؛ فلم أزل بها إلى أن قرأتُ القرآن وجوَّدتُه ورويتُه عن جماعةٍ كانوا هنالك مُبرِّزين[1] في علم القرآن والنحو.

ثم عدت إلى مَرَّاكُش؛ فلم أزل متردداً بين هاتين المدينتين.

ثم عبرت إلى جزيرة الأندلس في أول سنة ٦٠٣، فأدركتُ بها جماعةً من الفضلاء من أهل كلِّ شأن؛ فلم أُحصِّلْ بحمد الله من ذلك كلِّه إلا معرفةَ أسمائهم ومواليدهم ووَفَيَاتهم وعلومهم؛ انفردوا دُوني بكلِّ فضيلةٍ؛ ولا مانع لما أعطى الله، ولا مُعْطي لما منع؛ يختصُّ بِرَحْمتِه من يشاء وهو ذو الفضل العظيم!

[بلاد السوس الأقصى]

فَمرَّاكُش هذه آخر المدن الكبار بالمغرب المشهورةِ به؛ وليس وراءها مدينة لها ذكر وفيها حضارة، إلا بُلَيْدَاتٌ صغار بِسُوس الأقصى؛ فمنها مدينة صغيرة تسمى «تَارُودَانْت»، وهي حاضرةُ سُوس، وإليها يجتمع أهله. ومدينة أيضاً صغيرة تُدْعَى زُجُنْدَر، هي على معدن الفضة، يسكنها الذين يستخرجون ما في ذلك المعدن. وفي بلاد جَزُولة مدينةٌ هي حاضرتهم أيضاً تُسمَّى «الكُسْت». وفي بلاد لَمْطة مدينةٌ أخرى

(١) مُبَرِّزُون: من بَرَّزَ الرجل: فاق أصحابه فضلاً، أو علماً، أو غير ذلك.

هي حاضرتهم أيضاً تُسمّى «نُول لمطة». فهذه المدن التي وراء مَرَّاكُش. فأما تَارُودَانْت وزُجندر فدخلتُهما وعرفتُهما؛ ولم أزل أعرف السُّفَّار من التجار وغيرِهم، وخاصة إلى مدينة المعدن المعروفة بـ«زُجُنْدر». وأما مدينة جَزولة ومدينة لَمْطَة فلا يسافر إليهما إلا أهلُهما خاصة.

ذكر ما بالمغرب من معادن الفضة والحديد والكبريت والرصاص والزيبق وغير ذلك، وأسماء مواضعها

قد تقدّم ذكر معدن الكبريت الذي بين بَرْقَة وطَرابُلس، وأنه بالقرب من حصن يُدْعَى «طُلْمَيْثَة».

وفي ما بين سَبْتَة وَوَهْرَان موضع قريب من ساحل البحر يُسمَّى «تِمْسامان»، فيه معدنُ حديد.

وفي ما بين سَلَا ومَرَّاكُش قريباً من ساحل البحر الأعظم بمقدار يوم أو أكثر قليلاً، موضع يُدْعَى «إبسَنْتار»، فيه معدن حديد أيضاً؛ وليس هذا الموضع على طريق السُّفَّار[1]، إنما يقصده من أراد حَمْلَ الحديد منه.

وبالقرب من مِكْنَاسَة الزيتون على ثلاث مراحل منها حصنٌ يُدْعَى «وَرْكَنَاس»، فيه معدنُ فِضّةٍ؛ وقد ذكرنا معدن زُجندر الذي بسوس، غير أن فِضّته ليست هناك، أعني فضة معدن زُجندر.

وَبِسُوس أيضاً معدنان للنحاس، ومعدن تُوتيا، وهي التوتيا التي يُصْبَغ بها النحاس الأحمر فيصير أصفر.

فهذا جملة ما بالعُدْوَة من المعادن.

[المعادن بجزيرة الأندلس]

وبجزيرة الأندلس معادن أيضاً؛ فمنها معدنُ فِضّةٍ ببلاد الروم في الجهة المغربية، بموضع يُدْعَى «شَنْتَرة».

وعلى أربع مراحل من مدينة قُرْطُبَة موضع يُسَمَّى «شلون»، فيه معدن زيبق، منه يفترق الزيبقُ على جميع المغرب.

---

(١) السُّفَّار: المسافرون.

وفي أعمال المَرِيَّة وعلى يومٍ ونصف منها موضع يعرف بـ«دَلاية»، فيه معدنُ رصاص.

وفي أعمال المَرِيَّة أيضاً على يومٍ ونصف منها موضع يُسمَّى «بَكارِش»، فيه معدن حديد أيضاً.

وما بين دَانِيَة وشَاطِبَة موضع يُسمَّى «أَوْرِبَة»، على نصف يومٍ من دَانِية، فيه معدنُ حديد.

فهذا أيضاً جملة ما بالأندلس من المعادن؛ فأما الذهب فَمَسُوقٌ إليها من بلاد السُّودان.

ذكر أسماء الأنهار العظام التي بالمغرب

فأول ذلك نهر ببلاد إفريقية على نصف مرحلة من مدينة تُونُس، يُسمَّى «بَجَرْدة»، ينصبُّ من جبل هنالك ينتهي إلى البحر الرومي.

ونهر بَجَاية الذي يُسمَّى «الوادي الكبير»، هو مُتَنزَّهُها وعليه بساتينُها وقصورها.

ونهرٌ آخر في ما بين تِلِمْسَان وَرِبَاط تازا يُدْعَى «وادي مُلْوِية»، يصب في البحر الروميّ أيضاً.

ونهر يُدْعَى «سَبُو»، هو محيطٌ بمدينة فاس من شرقها وغربها.

ويجاور نهر سَبُو هذا نهرٌ آخر كبير يُسَمَّى «وَرْغَة».

وهذان النهران يَنصبَّان إلى البحر الأعظم، بحر أقيانس، بعد أن يلتقيا بموضع يُدْعَى «المعمورة».

وفي ما بين مِكْنَاسَة وَسَلا نَهْرٌ يُدْعَى «بَهْتا»، ينصبُّ إلى البحر الأعظم أيضاً.

ونهرُ سَلَا المتقدم الذكر.

وفي ما بين سَلَا ومَرَّاكُش، وعلى ثلاث مراحل من مَرَّاكُش، نهرٌ عظيم يُدْعَى «أمّ ربيع»، ينصب من جبال صَنْهَاجَة من موضع يُدْعَى «وانْسِيفَن»، يصب في البحر الأعظم أيضاً.

ونهر على أربعة أميال من مَرَّاكُش، عليه قنطرة عظيمة، يُسمَّى «تآنسِيفت» ونهر سوس الأقصى.

ونهرٌ ببلاد حاحة، يُسمَّى «شَفْشَاوَة».

هذه الأنهار كلها تصبُّ إلى البحر الأعظم؛ فهذه جملة الأنهار الكبار التي بالمغرب، التي لا يقل ماؤها ولا ينقطع شتاءً ولا صيفاً، ولم نتعرّض لذكر الأودية الصغار والأنهار التي تَيْبَسُ في الصيف.

ذكر جزيرة الأندلس وأسماء مدنها وأنهارها

فأما جزيرة الأندلس فهي المعروفة في قديم الزمان عند الروم بجزيرة أشبانية، وقد تقدم ذِكْر حدودها في صدر هذا الكتاب فأغنَى ذلك عن إعادته ههنا. وكان دين أهلها في الدهر القديم دينَ الصابئة من عبادة الكواكب واستنزال قُواها والتقرُّبِ إليها بأنواع القرابين؛ شهدتْ بذلك طِلَسْماتٌ وُجِدَتْ بها وضَعَتْها القدماء من أهلها؛ ثم انتقل أهلُها إلى دين النصرانية حين ظهر على أيدي أصحاب المسيح عليه السلام.

وكانت هذه الجزيرة ـ أعني الأندلس ـ منتظمةً في مملكة صاحب رُومة، يستعمل عليها من شاء من أصحابه؛ فلم تزل كذلك والروم يملكونها ـ وقاعدة ملكهم منها مدينة تُسمَّى «طَالِقَة»، على فرسخين من إشْبِيليَّة، وهي مدينة عظيمة باقٍ أثرها إلى هذا اليوم ـ إلى أن غلبهم عليها القُوطا، وهي قبيلة من قبائل الإفرنج، فأخرجوهم عن الجزيرة وألحقوهم برومية مدينتهم العظمى.

وانفرد القُوطا هؤلاء بمملكة الجزيرة، فملكوها أضخمَ مُلكٍ، قريباً من ثلاثمائة سنة، وكانت دارُ ملك القُوطا، مدينة طُلَيْطُلَة؛ وهي في قريب من وسط الجزيرة، فلم يزالوا بها وَطُلَيْطُلَةُ دارُ ملكهم ـ كما ذكرنا ـ إلى أن افتتحها المسلمون في شهر رمضان من سنة ٩٢ من الهجرة، على ما تقدّم في صدر الكتاب.

فلما افتتحها المسلمون تخيروا قُرْطُبَة دارَ مُلكهم ومقرَّ تدبيرهم وموضعَ حلِّهم وعَقدهم؛ فلم تزل قُرْطُبَة على ذلك إلى أن انتشرت الفتنة واضطرب أمر بني أمية بالأندلس بموت الحكم المستنصر وتغلُّب أبي عَامِر مُحمَّد بن أبي عامر وابنه، على هِشَام المُؤيّد بن الحَكَم المُسْتَنْصِر حسبما تقدّم في صدر هذا الكتاب.

فهذا تلخيص أخبار جزيرة الأندلس.

[مجاز الأندلس]

وأنا ذاكرٌ إن شاء اللّه أولَ ما يلقاه من يعبر إليها من حدودها ومدنها، فأول ذلك أني أقول:

قد تقدم أن البحرين: بحر الروم، وبحر أقيانس، يلتقيان بساحل سَبْتَة؛ ثم يضيق الخليج وتتقارب العُدْوَتان حتى ينتهي ذلك إلى قصر مصمودة من العُدْوَة وجزيرةِ طَرِيف من الأندلس، ثم يأخذ في السعة. وأول هذا الخليج مما يلي طَنْجَة، الجبلُ الخارج في البحر الأعظم المعروفُ بطرف أَشْبَرْتال، وآخره الجبل الذي شرقيّ سَبْتَة. فإذا عبرت إلى جزيرة الأندلس من سَبْتَة، كان الذي تنزل به المدينةَ المعروفةَ بالجزيرة الخضراء؛ وإذا عبرتَ من قصر مصمودة وقعت إلى جزيرة طَرِيف؛ فالمدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء هي ـ في التحقيق ـ على ساحل البحر الرومي، وجزيرةُ طَرِيف على ساحل البحر الأعظم؛ وبين الموضعين ـ أعني الخضراء وطَرِيف ـ ثمانية عشر ميلاً.

وفي شرقي الجزيرة الخضراء الجبلُ المعروف بجبلِ الفتح، ويُسمَّى أيضاً «جبل طارق»؛ وله طرفٌ خارج في البحر يُسَمَّى «طرف الفتح»؛ وعنده يلتقي البحران بجزيرة الأندلس.

فهذا تلخيص التعريف بخبر مجاز الأندلس.

[البلاد التي تغلب عليها النصارى إلى سنة ٦٢١]

فأما ذِكر مُدنها فقد كانت فيها مدنٌ كثيرة تغلَّبَ النصارى على أكثرها؛ فأنا ذاكر أسماء المدنِ التي بأيدي النصارى في وقتنا هذا، ومواضعها من الجزيرة من مشرقٍ ومغرب، من غير تعرُّضٍ إلى ما بينها من المسافات؛ إذ كان كَوْنُ النصارى بها مانعاً من معرفة ذلك.

فأول المدن في الحدِّ الجنوبي المشرقي على ساحل البحر الرومي: مدينة بَرْشَنونة، ثم مدينة طَرَّكُونة، ثم مدينة طَرْطُوشَة؛ هذه البلاد التي على ساحل البحر الرومي المذكور؛ أعادها الله للمسلمين!

والمدن التي على غير الساحل في هذا الحدِّ المذكور: مدينة سَرَقُسْطَة، وَلارِدَة، وأفراغة، وقلعة أيوب؛ هذه كلها يملكها صاحب بَرْشَنُونة ـ لعنه الله ـ وهي الجهة التي تُسَمَّى «أَرَغُن».

وفي الحدِّ المتوسط ما بين الجنوب والمغرب من المدن: مدينةُ طُلَيْطُلَة، وكُونْكَةَ، وأُقْلِيج، وطَلَبِيْرَة، ومَكَّادَة، ومَشْرِيط، وَوَبْذَة، وأبلة، وشُقُوبية؛ هذه كلُّها يملكها الأدفنش ـ لعنه الله ـ وتُسَمَّى هذه الجهةَ «قَشْتَال».

وتجاور هذه المملكةَ فيما يميل إلى الشمال قليلاً، مدنٌ كثيرة أيضاً، وهي:

سَمّورة، وشَلَمَنْكة، والسُّبْطاط، وقُلُمْرِيَة؛ هذه كلها يملكها رجل يعرف بـ«بالبَجُوج» ـ لعنه اللّه ـ وتُسَمَّى هذه الجهة «لِيُون».

وفي الحدِّ المغربي الذي هو ساحل البحر الأعظم أقيانس، مدن أيضاً، منها: مدينة الأشبونة، وشَنْتَرين، وبَاجَة، وشَنْتَرة، وشَنْت ياقُو؛ ومدينة يَابُرَة، ومدن كثيرةٌ ذهبت عني أسماؤها، يملكها رجل يُعرف بـ«ابن الريق»، لعنه اللّه.

فهذا ما بأيدي النصارى من مدن جزيرة الأندلس مما يلي بلاد المسلمين؛ ووراء هذه المدن مما يلي بلاد الروم، مدنٌ كثيرة لم تشتهر عندنا لبعدها عنّا وتوغُّلها في بلاد الروم؛ لم يملكها المسلمون قَطّ؛ لأنهم لم يملكوا الجزيرة بأسرها حين افتتحوها، وإنما ملكوا معظمها واستولوا على أكثرها.

[المدن التي بقيت بأيدي المسلمين إلى سنة ٦٢١]

وأنا ذاكر بعد هذا ما بقي بأيدي المسلمين من البلاد، وعدد المراحل التي بينها، وقُربَها من البحر وبُعدها؛ حتى يبين ذلك إن شاء اللّه تعالى.

فأول شيء يملكه المسلمون بجزيرة الأندلس اليوم، حصنٌ صغير على شاطىء البحر الرومي يسمى «بَنَشْكُلَة»، بينه وبين مدينة بَلَنْسِيَة ثلاثُ مراحل؛ وهذا الحصن مما يلي بلاد الروم، بينه وبين طَرْطُوشَة مرحلتان أو أكثر قليلاً.

ثم مدينة بَلَنْسِيَة، وهي مدينة في غاية الخصب واعتدال الهواء، كان أهل الأندلس يَدْعونها فيما سلف من الزمان: مُطيَّبَ الأندلس؛ والمطيَّبُ عندهم: حُزمة يعملونها من أنواع الرياحين ويجعلون فيها النرجس والآس وغير ذلك من أنواع المشمومات؛ سمَّوا بَلنْسِيَة بهذا الاسم لكثرة أشجارها وطيب ريحها؛ وبين بَلَنْسِيَة هذه وبين البحر الرومي قريبٌ من أربعة أميال.

ثم بعدها مدينة تُدْعَى «شَاطِبَة»، بينها وبينها مرحلتان.

وبينهما مدينة صغيرة تُدْعَى «جزيرة الشُّقْر»؛ وسميت جزيرة لأنها في وسط نهر عظيم قد حفَّ بها من جميع جهاتها فلا طريق إليها إلا على القنطرة.

ومن شَاطِبَة هذه إلى مدينة دَانِية التي على ساحل البحر الرومي، يومٌ تامّ.

ومن شَاطِبَة إلى مدينة مُرْسِيَة ثلاثة أيام.

ومن مُرْسِيَة إلى البحر الرومي عشرة فراسخ.

ومن مدينة مُرْسِيَة إلى مدينة أَغْرناطة سبع مراحل.

وبين ذلك بلاد صغار، أولها مما يلي مُرْسِيَة: حصن لرقة، ثم حصن آخر يُدْعَى

«بَلْس»، ثم حصن آخر يُدْعَى «قُلْيَة»، ثم بليدة صغيرة تُسمَّى «بَسْطة»، ثم بليدة أخرى على مسيرة يوم من أغرناطة تُسمَّى «وادي آش»، ويقال لها أيضاً «وادي الأشي»؛ هكذا سمعت الشعراء ينطقون بها في أشعارهم؛ فهذه البُليدات التي بين أغرناطة وَمُرْسِيَة.

وفي مقابلة وادي آش على ساحل البحر الرومي، مدينةُ المَرِيَّة (مخففة الراء) وهي مدينة مشهورة، تَضرِب أمواجُ البحر في سورها، بينها وبين وادي آش هذه مرحلتان للمجدّ.

وبعد المدينة المعروفة بالمَرِيَّة على ساحل البحر الرومي، حصنُ مُنكب، وهي بليدة صغيرة يضرب البحر أيضاً في سورها، بينها وبين المَرِيَّة أربع مراحل.

وبين حِصْن مُنكب هذا وبين مدينة مَالَقَة ثلاث مراحل.

وبين مَالَقَة وبين الجزيرة الخضراء ثلاث مراحل للمجدّ.

وبالجزيرة الخضراء، أو بجبل الفتح، يلتقي البحران كما ذكرنا، فالذي على ساحل البحر الرومي من بلاد المسلمين بالأندلس: الجزيرة الخضراء، ومَالقَة، ومُنكب، والمَرِيَّة، وَدَانِية؛ وبين المَرِيَّة ودَانِيَة نحو من ثماني مراحل؛ ووراء دَانِيَة الحصنُ الذي يُسمَّى «بَنْشُكُلة»؛ وقد تقدم ذكره.

فهذا ما على الساحل من بلاد المسلمين بالأندلس، أعني ما يضرب الموج في سوره؛ فأما مدينة بَلَنْسِيَة فبينها وبين البحر ـ كما ذكرنا ـ قريب من أربعة أميال.

* * *

ثم نعود إلى ذكر البلاد التي ليست على الساحل؛ فنقول:

من مدينة أغرناطة إلى البحر قريب من أربعين ميلاً؛ وذلك مسيرة يوم تام أو يومين على الرِّفق.

ومن مدينة أغرناطة إلى مدينة جيَّان، مرحلتان؛ بين جَيَّان وبين البحر الرومي ثلاث مراحل.

ومن مدينة جَيَّان إلى مدينة قُرْطُبَة مرحلتان.

[ذكر قُرْطُبَة]

وقد تقدم ذكر قُرْطُبَة هذه وأنها كانت دارَ مُلك المسلمين ومقرَّ تدبيرهم إلى أن نشأت الفتنة واختل أمر بني أمية بالأندلس؛ وبلغت قُرْطُبَةُ هذه من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه بلدة.

حَكى ابنُ فياض في تاريخه في أخبار قُرْطُبَة قال: كان بالرَّبَض الشرقي من

قُرْطُبَة مائة وسبعون امرأة كُلُّهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي؛ هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها؟.

وقيل: إنه كان فيها ثلاثةُ آلاف مُقَلَّس؛ وكان لا يتقلَّس[١] عندهم في ذلك الزمان إلّا من صلح للفُتْيا.

وسمعت ببلاد الأندلس من غير واحد من مشايخها، أن الماشي كان يستضيء بسُروج قُرْطُبَة ثلاثَ فراسخ لا ينقطع عنه الضوء.

وبها الجامع الأعظم الذي بناه أبو المُطرّف عَبْد الرَّحْمٰن بن مُحمَّد المتلقب بـ«الناصر لدين اللَّه»، وزاد فيه بعده ابنه الحَكَم المُستنصر باللَّه؛ فزيادة الحَكَم معروفةٌ إلى اليوم.

وحكى أبو مَرْوَان بن حَيَّان ـ رحمه اللَّه ـ في أخبار قُرْطُبَة، أن الحَكَم لمَّا زاد زيادتَه المشهورة في الجامع، اجتنب الناس الصلاة فيها أياماً؛ فبلغ ذلك الحَكَم، فسأل عن عِلَّته؛ فقيل له إنهم يَقولون: ما نَدْرِي هذه الدراهم التي أنفقها في هذا البنيان من أين اكتسبَها! فاستحضر الشهودَ والقاضيَ أبا الحكم المُنْذِرَ بن سَعِيد البَلُّوطي المتقدم الذكر في قضاته، واستقبل القِبلةَ وحلف باليمين الشرعية التي جرت العادة بها، أنه ما أنفق فيه درهماً إلا من خُمس المَغْنَم! وحينئذٍ صلَّى الناس فيه لما علموا بيمينه؛ ومن الخُمس أيضاً كان أبوه بناه؛ وزاد فيه أبو عَامِر مُحمَّد بن أبي عَامِر زيادة أخرى من هذه النسبة؛ فهو مسجدٌ لم ينفق فيه درهمٌ إلا من خُمس المغنم. وهو مُعظَّم القدر عند أهل الأندلس، مباركٌ، لا يصلِّي فيه أحدٌ ويدعو بشيءٍ من أمر الدنيا والآخرة إلا استُجِيب له؛ قد عُرف ذلك من أمره واشتهر.

وحكى غيرُ واحدٍ أن الأدفنش ـ لعنه اللَّه ـ لما دخلها في شهور سنة ٥٠٣، دخل النصارى في هذا المسجد بخيلهم، فأقاموا به يومين لم تَبُلْ دوابُّهم ولم تَرُثْ حتى خرجوا منه؛ وهذه الحكاية مما تواتر عندهم واستفاض بِقُرْطُبَة.

وقد جمع أهل الأندلس كتباً في فضائل قُرْطُبَة وأخبارها ومن كان بها أو نزلها من الصالحين والفضلاء والعلماء.

[ذكر إشْبِيليَّة]

ومن مدينة قُرْطُبَة إلى مدينة إشْبِيليَّة ثلاث مراحل؛ وإشْبِيليَّة هذه هي حاضرة الأندلس في وقتنا هذا، وهي التي تُسَمَّى عندهم في قديم الزمان حمص؛ سُمِّيت

(١) تَقلَّس الرجل: لبس القلنسوة: لباس للرأس مختلف الأنواع والأشكال.

بذلك لنزول أجناد حمص إياها حين افتتح المسلمون الأندلس.

وقد زاد أمرُ هذه المدينة على صفة كل واصف، وأتى فوق نَعْت كل ناعت؛ وهي على شاطىء نهر عظيم ينصبُّ من جبل شَقُورة؛ وتنصب فيه أنهارٌ كثيرة، فلا يصل إلى إشْبِيليَّة إلا وهو بحر خِضَمٌّ[1]؛ تَصعَد فيه السفنُ الكبار من البحر الأعظم، تُرْسى على باب المدينة، بينها وبين البحر الأعظم سبعون ميلاً، وذلك مرحلتان.

وهذه المدينة كانت قاعدة ملك بني عبَّاد حسبما تقدم، ثم صيَّرها المصامدة منزلاً لهم أيام كونهم بالأندلس؛ منها ينفذ أمرهم، وفيها يستقر ملكهم. وبنوا بها قصوراً عظيمة، وأجروا فيها المياه، وغرسوا البساتين؛ فزاد ذلك في حسن هذه المدينة، أعني إشْبِيليَّة.

* * *

ومن إشْبِيليَّة إلى مدينة شِلْب التي على ساحل البحر الأعظم، خمس مراحل؛ وبين ذلك بُليدات صغار؛ كمدينة لَبْلَة، وحصن مَرْتُلَة، ومدينة طبيرة، ومدينة العليا، والمدينة المعروفة بـ«شَنْتَمِريَّة»؛ هذه البلاد كلها فيما بين شِلب وإشْبِيليَّة من مغرب الأندلس.

وبين قُرْطُبَة وبين البحر الرومي خمس مراحل؛ وقُرْطُبَة أيضاً على ساحل هذا النهر الذي ينصب إلى إشْبِيليَّة؛ يعظم جدًا حتى تصعد فيه السفن كما تقدم، وينحدر من أراد في القوارب من قُرْطُبَة إلى إشْبِيليَّة، ويصعدون من إشْبِيليَّة إلى قُرْطُبَة؛ كهيئة النيل.

وبين مدينة إشْبِيليَّة ومدينة شَرِيش مرحلتان.

وبين شَرِيش وبين البحر ثلاث مراحل.

فهذه جملة أخبار بلاد المغرب وجزيرة الأندلس ومسافاتُ الأبعاد التي بين كل بلدٍ وبلدٍ على التقريب؛ منها ما سافرتُ فيه بنفسي، ومنها ما نقلته مستفيضاً عن السُّفّار المترددين.

---

(١) الخِضَمُّ: الواسع.

فصــل

[أنهار الأندلس الكبار المشهورة]

وقد رأيت أن أذكر ههنا جملة أنهار الأندلس الكبار المشهورة بها:

فأول ذلك مما يلي المشرق: نهر طَرْطُوشَة، وهو نهر عظيم ينصبُّ من جبال هناك إلى مدينة طَرْطُوشَة، ثم يصب في البحر الرومي؛ وبين طَرْطُوشَة وبين البحر الرومي اثنا عشر ميلاً.

ثم نهر مُرْسِيَة، وهو يصب أيضاً في البحر الرومي، منبعه من جبل شَقُورة؛ وهو قَسِيم نهر إشْبِيليَّة؛ منبعهما واحد ثم يفترقان؛ فينصب هذا إلى إشْبِيليَّة وهذا إلى مُرْسِيَة.

ثم نهر إشْبِيليَّة الأعظم ـ وقد تقدم ذكر منبعه ـ ثم تنصب فيه قبل وصوله إلى إشْبِيليَّة أنهار كثيرة، فيعظم حتى يصير بحراً كما ذكرنا، ثم يصب في البحر الأعظم المسمى «أقيانس».

ثم نهر عظيم ببلاد الروم يُسمَّى «تاجُو»، وهو الذي عليه مدينة طُلَيْطُلَة وشَنْتَرين؛ وبين هاتين المدينتين قريبٌ من عشر مراحل؛ وعلى هذا النهر أيضاً مدينة الأشبونة، وبينها وبين شَنْتَرين ثلاث مراحل؛ ثم ينصب هذا النهر إلى البحر الأعظم.

فهذه جملة أنهار الأندلس المشهورة بها.

* * *

وقد نجز بحمد اللّه جميع هذا الإملاء حسبما رسمه مولانا، وجريتُ في ذلك كلّه على عادتي في التلخيص، وتركت أسماء القرى والضِّياع والأنهار الصغار، وغير ذلك مما لا تدعو إليه الحاجة ولا يُخلُّ بالتصنيف تركه؛ فإن وافق غرض مولانا ولاق بنفسه وأتى وَفْقَ مراده، فهي البغية الكبرى والأمنية العظمى التي لم أزل أكدح لها وأسعى فيها وأسابق إليها؛ وإن يَكُ غير ذلك فما أنا بأول من اجتهد فَحُرِم الإصابة ولم يقع على المراد، ولا وفى المقصود!

وبالله اعتصم، وإياه أسترشد، وعليه أعتمد؛ وهو حسبي ونعم الوكيل.

* * *

وكان الفراغ من هذا الإملاء، يوم السبت لستٍّ بقين من جمادى الآخرة من سنة ٦٢١، والحمد للّه رب العالمين، وصلّى اللّه على سيدنا مُحمَّد وآله وصحبه أجمعين؛ وحسبنا اللّه ونعم الوكيل.

* * *

فهارس الكتاب



فهرس الأعلام

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الراء

حرف الزاي

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأشعار

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة

قافية الراء

الراء المفتوحة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
صَقْرَا	عبد الرحمن بن هشام المستظهر	الطويل	٤	٤٩
السُّرَى	ابن عمار	الكامل	٩	٨٨
شُكْرا	المعتمد بن عباد	الخفيف	٥	١١٩
بِرَّا	ابن اللبانة	الخفيف	٨	١١٩

الراء المضمومة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وَبُدورُ	ابن درّاج القسطلي	الطويل	٢	٣٨
السُّكْرُ	—	الطويل	٢	٢١٩
غافرُ	ابن شرف	الطويل	٢	٢٥٦
صِفْرُ	الرصافي	الطويل	٤	١٦٤
غديرُها	—	الطويل	١	١٠٢
أُوارُه	ابن عمار	الكامل	٢٢	٨٦

الراء المكسورة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الصُّورِ	عبد المجيد بن عبدون	البسيط	٧٥	٦٢
الغِيَرِ	المعتمد بن عباد	البسيط	٢	٧٩
السَّمرِ	محمد بن عبد ربّه	البسيط	٣	٢١٩
نورِ	الرصافي	البسيط	٦٢	١٥٩
بالنهارِ	المعتمد بن عباد	مخلع البسيط	٣	٧٨
شعري	الرمادي	الوافر	١١	٢٧
ثَغْرِ	العرجي	الوافر	١	٢٧
الشكورِ	المعتمد بن عباد	الوافر	١٢	١١٧
ضميري	ابن اللبانة	الوافر	١٥	١١٨
مُبشِّرِ	أبو بكر الداني	الكامل	٢٢	١١١
الأسايرِ	—	المنسرح	٢	٢١٨

قافية السين

السين المفتوحة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
شَمْسَا	ابن عبد رَبّه	الطويل	١	٢١٩

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
بالمتنزلِ	امرؤ القيس	الطويل	١	٣٥
الصواهلِ	عبد المؤمن بن علي	الطويل	١٢	١٦٦
بالِ	عبد الجليل بن وهبون	البسيط	٢	٧٧
جبلِ	ابن سيد اللص	البسيط	٢	١٥٩
النُّجلِ	عبد المؤمن بن علي	البسيط	١	١٩١
عويلي	الرمادي	الوافر	٨	٢٨
مُذَلَّلِ	صاعد الربعي	الكامل	١١	٣٦
المالِ	ابن عمار	السريع	٢	٩٣

قافية الميم

الميم المفتوحة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الحِمَى	ابن الطفيل	الطويل	١٢	١٧٧
العدما	ابن اللبانة	البسيط	١٩	١٢٠
مُساهِما	ابن عبد ربِّه	الكامل	٢	٢٢٠

الميم المضمومة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
مقيمُ	أبو محمد بن حزم	الوافر	٢	٤٥
التسليمُ	المراكشي	الكامل	٨	٢٢٧

الميم المكسورة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الحمائمِ	ابن عمار	الطويل	٥	٨٦
العاتمِ	ابن البني	الكامل	٣	١٣٠

قافية النون

النون المفتوحة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
تفنى	أبو محمد بن حزم	الطويل	٦	٤٤
تجافينا	ابن زيدون	البسيط	٥٠	٨٠

النون المضمومة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
سَكَنُ	المتنبي	البسيط	١	٨٤
الوَسَنُ	ابن زيدون	البسيط	١٠	٨٤

النون المكسورة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
وهذانِ	المعتمد بن عباد	البسيط	٤	٧٨

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
للبدنِ	ابن الطفيل	البسيط	٤	١٧٨
الوَسَنِ	ـــ	البسيط	٢	٢١١
الأجفانِ	سليمان بن الحكم الظافر	الكامل	١٢	٤٢
مكانِ	العباس بن الأحنف	الكامل	٢	٤٣

قافية الواو

الواو المكسورة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
الأجفانِ	سليمان بن الحكم الظافر	الكامل	١٢	٤٢
مكانِ	العباس بن الأحنف	الكامل	٢	٤٣

قافية الواو

الواو المكسورة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
اللَّهْوِ	علي بن حزمون	الطويل	٩	٢١٦

قافية الياء

الياء المفتوحة

كلمة القافية	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	الصفحة
السُّقْيا	الرصافي	الطويل	٥	١٦٤

فهرس المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الأعلام: خير الدين الزركلي. دار العلم للملايين، بيروت، ط٦، ١٩٨٤م.
- الأغاني: أبو الفرج الأصفهاني. تحقيق لجنة من الأدباء. دار الثقافة، بيروت، ١٩٨٣م.
- إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون: إسماعيل البغدادي. دار الفكر، ١٩٨٢م.
- البداية والنهاية: ابن كثير الدمشقي. تحقيق أحمد أبو ملحم وغيره. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥م.
- بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس. ابن عميرة الضبي. تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.
- تاريخ الأدب العربي: عمر فروخ. دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٨٤م.
- تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي (أحمد بن علي). دار الكتاب العربي، بيروت، لاتا.
- تاريخ علماء الأندلس: أبو الوليد بن الفرضي. الدار المصرية للتأليف والترجمة. القاهرة، لاتا.
- تاريخ الفكر الأندلسي: آنخل بلانثيا. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٥٥م.
- تاريخ قضاة الأندلس: أبو الحسن النباهي. مصر، ١٩٤٨م.
- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس: أبو عبد الله الحميدي. تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٤م.
- جمهرة أشعار العرب: أبو زيد القرشي. دار ومكتبة الهلال. بيروت، ط٢، ١٩٩١م.
- خزانة الأدب: عبد القادر البغدادي. دار صادر، بيروت، لاتا.
- ديوان امرئ القيس: دار صادر، بيروت، ١٩٧٢م.
- ديوان جرير بن الخطفي: دار صادر، بيروت، لاتا.
- ديوان ابن رشيق القيرواني: تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري بالاشتراك. دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٥م.
- ديوان أبي فراس الحمداني: رواية أبي عبد الله الحسين بن خالويه. دار صادر، بيروت، ١٩٩٠م.

ـ ديوان كثير عزّة: شرح عدنان زكي درويش. دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٤م.
ـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب: ابن العماد الحنبلي. تحقيق لجنة إحياء التراث العربي. دار الآفاق الجديدة، بيروت، لاتا.
ـ الشعر والشعراء: ابن قتيبة الدينوري. دار الثقافة، بيروت، لاتا.
ـ الصلة في تاريخ علماء الأندلس: ابن بشكوال الأندلسي. تقديم وشرح وفهرسة د. صلاح الدين الهواري. المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، ط١، ٢٠٠٣م.
ـ طبقات الشعراء: ابن المعتز العباسي. تقديم وشرح د. صلاح الدين الهواري. دار ومكتبة الهلال، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.
ـ طبقات فحول الشعراء: ابن سلّام الجمحي. شرح محمد شاكر. مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٧٤م.
ـ الكامل في التاريخ: ابن الأثير. دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لاتا.
ـ كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: حاجي خليفة. دار الفكر، ١٩٨٢م.
ـ لسان العرب: ابن منظور. جروس برس، طرابلس ـ لبنان، لاتا.
ـ المعجب في تلخيص أخبار المغرب: عبد الواحد المراكشي. مطبعة دار الاستقامة، القاهرة.
ـ معجم الأدباء: ياقوت الحموي. تحقيق د. عمر فاروق الطباع. مؤسسة المعارف، بيروت، ط١، ١٩٩٩م.
ـ معجم البلدان: ياقوت الحموي. دار صادر، بيروت، ١٩٦٤م.
ـ معجم المؤلفين: عمر رضا كحالة. دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م.
ـ المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وغيره. مجمع اللغة العربية، القاهرة، ط٢، ١٩٧٢م.
ـ مجمع الأمثال: أبو الفضل الميداني. دار القلم، بيروت، لاتا.
ـ النجوم الزاهرة: يوسف بن تغري بردي. المؤسسة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، لاتا.
ـ هدية العارفين: إسماعيل البغدادي، دار الفكر، لاتا.
ـ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان: ابن خلكان. تحقيق إحسان عباس. دار الثقافة، بيروت، ط١، ١٩٦٨م.
ـ يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر: أبو منصور الثعالبي. تحقيق د. مفيد قميحة. دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٣م.

فهرس المحتويات

فهارس الكتاب

